الفرعون المجنح

تأليف

جون جرانت

ترجمة

إبراهيم العفيفي

مراجعة

محرم كمال

الكتاب: الفرعون المجنح

الكاتب: جون جرانت

ترجمة : إبراهيم العفيفي

مراجعة : محرم كمال

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

جرانت، جون

الفرعون المجنح / جون جرانت، ترجمة : إبراهيم العفيفي، مراجعة : محرم كمال – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٧٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٨٢٩ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٨٤٦ / ٢٠١٨

الفرعون المجنح

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

هذه ترجمة كتاب

The Winged Pharaoh

Joan Grant

تصدير

هذه قصة لكاتبة أحبت مصر القديمة، قرأت عنها، وعن حضارتها وعن أفكار أهلها ومعتقداتهم، وأعجبت بما في تلك الحضارة من قوة ورقي، وبما في تلك الأفكار والمعتقدات من فلسفة وسمو، فجاءت قصتها بأسلوبها المشوق تشهد بجهود هذا الشعب العريق في حمل مشعل الحضارة دهراً طويلاً وفي إرساء مقومات هذه الحضارة على أسس ثابتة وطيدة. والذين يقرءون هذه القصة يستخلصون منها دون شك أن الحضارة التي ينعم العالم اليوم بها ليست سوى ثمار للنبت الذي غرسه المصريون القدامى، وانتقل من بعدهم إلى أوربا وأمريكا، وأخذ يتطور مع الزمن.

لقد كانت مصر القديمة، كما قالت مؤرخة إنجليزية[1] "المورد الكبير الذي تستمد منه المعلومات. وكان لها أثرها في أوربا في كل ناحية من نواحي الحياة، وكانت مصر في نظر الإغريق عنواناً ورمزاً لكل حكمة ومعرفة، وطالما سجل الإغريق في حماس مفرط عقيدتهم هذه، واستطاعوا أن ينقلوا عن طريق كتاباتهم تلك الحكمة التي استقوها من أفواه العلماء المصريين في وادي النيل إلى الأجيال التالية".

---

(1) هي مرجريت مري، في كتابها "مصر ومجدها الغابر" من مطبوعات الألف كتاب (التي تصدرها إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم) وترجمة كاتب هذه السطور، صفحات ٣ وما بعدها.

كما تقول نفس المؤرخة في مكان آخر من كتابها: "إنه ما من بلد آخر غير مصر يمكن أن تتبدى فيه مثل هذه الروعة في المادة، ومثل هذا الجمال في المهارة الفنية، ومثل هذه القوة في التعبير الفني طوال عصر بلغ كل هذا المدى... ولم يكن مجد مصر مجرد نمو أو ازدهار سريع فجائي لم يدم إلا بضع مئات من السنين، فبينما تحصى بلاد الإغريق وروما سلطانهما بمئات السنين نرى مصر تحصي سيادتها بآلاف السنين ولا تزال آثار هذا المجد حتى الآن تتضاءل بجانبها آثار أي بلد آخر من بلاد العالم. لقد كان المصريون متقدمين ومتفوقين على معاصريهم من حيث عناصر الفكر والروح، وهي العناصر التي تتكون منها الحضارة، وكانت مبادئهم الأخلاقية من حيث مستواها عالية. وبالرغم من أنهم – شأنهم في ذلك شأن باقي الشعوب على وجه الأرض – لم يبلغوا دائماً درجة الكمال، إلا أن أعمالهم كانت تدل على الأقل على أنهم كانوا يعيشون من أجل مثلهم العليا التي حافظوا عليها وتعلقوا بها أكثر من جيرانهم ومعاصريهم، بل أكثر من الشعوب التي خلفتهم التي كنا نتوقع أن تكون أكثر رقياً وحضارة. وفي بعض مظاهر المعرفة تفوق المصريون القدماء على معظم شعوب الأزمنة القديمة، ولقد اشتهروا بمعارفهم الطبية ومهارتهم في التنبؤ وتفسير الأحلام بما يمكنهم من إعلان مشيئة الله، وكانوا أول من قاموا بأعمال هندسية كبرى، وأول من شادوا المباني الضخمة من الأحجار؛ ففي كل مظهر من مظاهر الحياة البشرية نجد أن مصر قد حققت أقدم تقدم نحو الحضارة، وأنها قد بلغت مستو عال في هذا الشأن، حتى صارت حكمة المصريين مضرب المثل في الأزمنة القديمة والحديثة".

تلك هي الحضارة ومظاهرها التي بهرت كاتبة هذه القصة، وأوحت إليها بحوادثها، حاولت الكتابة أن تفسر فيها مظاهر هذه الحضارة فجاء تفسيرها رائعاً، وإن كان قد ذهب بها الخيال في بعض المواضع مذهباً بعيداً. وليست هذه القصة هي قصتها الوحيدة عن مصر القديمة، بل إن لها قصصاً أخرى، بعضها عن الفراعنة والبعض الآخر تناول موضوعات شتى، ولكنها تتفق جميعاً في أسلوبها المشوق وتسلسل حوادثها الذي يدل على براعة في التفكير والصياغة والتعبير بحيث تملك على القارئ مشاعره، فلا يتركها إلا وقد أتى على نهايتها.

ونحن نرجو أن يجد القارئ المصري في هذه القصة التاريخية التي كتبت عن مصر القديمة نفس اللذة التي وجدها واستمتع بها قراؤها من الإنكليز، مما دعا إلى إعادة طبعها مرات عديدة.

محرم كمال

كلمة المترجم

أيها القارئ الكريم...

لترجمة هذا الكتاب (الفرعون المجنح) قصة قد تميل إلى معرفتها والإلمام بها..

قرأت هذا الكتاب في سنة ١٩٤٤ عندما كنت مدرساً أول للغة الإنجليزية، وكان قد أهدانيه رجل إنجليزي أعجب به وبما حواه. بدأت قراءته؛ فوجدت فيه قصة ممتعة ألفتها "جين جرانت" عن سيدة تولت حكم مصر، ولا يمكنني أن أجزم بصحة كل ما كتبت عن قدماء المصريين، ولكن ما يمكنني أن أقرره هنا أن المؤلفة قد وهبها الله خيالاً رائعاً وقدرة على الكتابة وعمقاً في التفكير؛ ففي بعض فصول هذا الكتاب مناقشات ليس من السهل على الرجل العادي أن يدرك مفاهيمها. أما وصفها لما وراء هذا العالم فيثير الإعجاب، وإن بعد عن الحقيقة، لأن الحقيقة هي عند الله وحده، أثارت المؤلفة آراء كثيرة تدعو أيضاً إلى التفكير نقلتها في أمانة المترجم دون إبداء رأيي فيها من حيث صحتها أو موافقتي عليها.

قرأت هذا الكتاب سنة ١٩٤٤، ثم قرأت بعده كتباً كثيرة، ولكن حوادثه لازمتني؛ فإذا جلست وحيداً، وأخذ الفكر يسبح في عالمي الخيال والحقيقية برزت حوادثه من ثنايا هذا الخيال، وفرضت نفسها على هذا الفكر، وأخذت نصيباً وافراً من التفكير. فتساءلت بيني وبين نفسي عن

علة ذلك؛ فوجدت أن العلة هي أن المؤلفة انفردت بنوعٍ من الكتابة من حيث الموضوعِ والأسلوب ومعالجة مشكلات القصة اختلف عن كثير من المؤلفين.

ثم رأيت أني أوصم بالأنانية إذا لم أقدمه لمواطني فتقدمت به إلى هيئة الترجمة "الألف كتاب" فتفضلوا بالموافقة على ترجمته. وهأنذا أقدمه راجياً أن أكون قد وفقت في تقديم خدمة لمواطني الجمهورية العربية المتحدة، وإن جانبني التوفيق فحسبي حسن القصد وجمال النية في القيام بهذا الجهد.

كلمة المؤلفة

سمى قدماء المصريين بلدهم أسماء عدة، وفي هذه القصة التي ترجع حوادثها إلى عهد الأسرة الأولى أطلق عليها "كام" أو "الأرضين" وكان يطلق اسم "زوما" على "سومر" أرض أسلاف البابليين وأطلق على "كريت" مركز الحضارة الميونية اسم ميناوس ولو استثنينا مدينة "من – أتت – آس" وهي منفيس قرب القاهرة فإن جميع مواقع الأماكن بيناها بوضوح يكفي لأغراض هذه القصة، أما كلمة "أبيدوا" فهي أبيدوس الحديثة، و"مدرج الغلال" هو المكان الذي به تل العمارنة الآن. أما ما يطلق عليه "الأرض الضيقة" فهي سيناء وأما البحر الضيق فهو البحر الأحمر. ولم تكن هناك طريقة معينة لتهجئة الكلمات والأسماء في اللغة المصرية القديمة.

وكان رمز مصر العليا (الجنوب) زهرة اللوتس والغاب، وكان تاجها التاج الأبيض. أما تاج الشمال فهو "التاج الأحمر" ويرمز للشمال بنبات البردي والنحلة.

ولو أن الحصان قد ذكر في هذه القصة، فإني أعلم تمام العلم أنه ليس هناك ما يؤكد وجود الخيل في مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة.

الجزء الأول

١- إلى المنفى

٢- أنوبيس

٣- عالم الأحلام

٤- أحدث مخاطرة قام بها "نياح"

٥- الشبل

٦- زيب حارس الأسود

٧- أصحاب الاستشفاف في القضاء

٨- قصة الخليقة

٩- الجسد

١٠- الشافون بالأعشاب

١١- الاستشفاف أو الجلاء البصري

١٢- النفس

١٣- حوروس ذو رأس الصقر

١٤- جرار النبيذ

١٥- العجلات الحربية والرماح

١٦- الروح

١٧- عيد ميلاد والدتي

الفصل الأول

إلى المنفى

عندما حان الوقت لي لأعود إلى الأرض، أخبرني رسول من عند الآلهة العظام أني سأولد من جديد في أرض "كام" وسيرحب بي أولئك الذين عهد إليهم تشكيل جسدي الجديد، إذ كنا رفقاء أحباء قبل ذلك، وكانت تربطنا أواصر المحبة لا الكراهية وهاتان الصفتان هما رباط وثيق يربط الناس في الدنيا. ثم اختير لي أخ يصحبني في الدنيا من بين أولئك الذين كنت أسبح معهم مدة طويلة في تلك الرحلة العظمى التي فرضها الآلهة علينا.

وعندما أبلغت ذلك شعرت بالحزن الذي يعرفه أولئك الذين يجبرون على ترك وطنهم إلى مكان مجهول لا يعرفون عنه شيئاً. ولكن ذهب عني هذا الحزن عندما علمت أنه سيكون لي رفيق في هذا المنفى الذي سأهبط إليه.

وقبل أن تلدني أمي، وأنا جنين في بطنها، فكر والدي في هدية يقدمها لها لتعبر عن الحب الذي كان يغمر قلبه ويعجز عن الإفصاح عنه بالكلام إذ لم يكن الكلام سوى ظل عابر زائل للحقيقة، ولم يكن خير ما

أنتجه صانعو الذهب أو العاج أو الفيروز وأخرجوه من آيات فنهم وبراعة صناعتهم بالشيء الذي يرضيه أو يروق في نظره.

وأخيراً بينما كان يسير في إحدى الأمسيات في حدائق القصر مستمتعاً بالنسيم العليل اهتدى إلى أن يغرس حديقة لها فريدة في نوعها لم يسبق أن أنشأها إنسان ويقدمها لها رمزاً لحبه إذ ما من شيء يمكن أن يكون أجل شأناً من صانعه ومع أنه قطعة من النحت يمكن أن تكون قصيدة رائعة من الحجر إلا أنها وليدة صنع المثال، على حين أن نباتات الأرض آية من آيات الآلهة ووليدة صنعهم.

ومن ثم فقد تخير لها حديقة على شكل هلال تظلها الشمس وقت الظهيرة، فيها شجيرات ينبعث من أوراقها عبير في الهواء فينعشها، وكان أن أنشأ في نهايتها بحيرة فضية امتدت مياهها الفضية إلى مغرب الشمس "أمنتي" وغرس فيها الحشائش النضرة الجميلة الخضراء فأصبحت بساطاً سندسياً تتوسطه زهور مختلفة الأنواع، منها القرمزي والأصفر والبنفسجي والأزرق والأبيض. ومن بلاد تقع خارج حدود مصر (كام) أحضر الزنبق القرمزي وأعد لها إكليلاً منها يزين جبينها.. والكروم التي تنمو في أقصى الجنوب حيث يسير المرء في ظله، وأحضر أشجار الليمون من الشمال، وأزهاراً يملأ شذاها الفضاء وينتشر عبقها في الغسق.

وعندما بلغت اثنى عشر يوماً من عمري اصطحب والدي أمي لأول مرة إلى هذه الحديقة وكان حولها حائط وبابها من خشب الأرز، وحفر على

عتبته العليا اسميهما "زا – أتت، ميري – نست" حبيبة قلب فرعون. وهناك سارا جنباً إلى جنب في ظلال تلك الأشجار حتى وصلا إلى وسطها، ولما رأت جمال الحديقة الذي فاق كل ما كانت تحلم به قالت: "يخيل إليّ أن السحب قد تبدلت وقت الغروب فأصبحت زهوراً بفعل أشعة "رع" إله الشمس الذي لم يجد بقعة من الأرض أجمل منها ولذا سمياها "سختا – رع" أي مرعى الإله رع، ومن ثم فقد أطلقا عليّ هذا الاسم أيضاً.

وكان اسم أخي الذي عاد إلى الأرض قبل قدومي لها بثلاث سنوات "نياح" أي صاحب الحكمة.. وقد أطلق عليه كاهن "ماعت" الذي حضر ولادته هذا الاسم وقال مشيراً إليه: "هنا من يمكنه أن يحكم شعب "كام" لأن من رافق روحه قبل قدومه إلى الأرض كانت لهم خبرة السنين الطوال، وحكمة التجارب ولذا فسيدعى "نياح" أي صاحب الحكمة لأن سيده الذي حمل هذا الاسم في الأرض القديمة استمع إلى الوحي الذي أنذره بقدوم الطوفان العظيم، وكما أن نوحا هذا قاد قومه إلى بر السلام بعد أن طغى الطوفان على الكفار؛ فسيقوم هذا الطفل بما قام به سلفه فيرشد الناس إلى طريق السلامة عندما يهاجمهم قوم سوء سوف يبتلعهم اليم".

الفصل الثاني

أنوبيس

عندما كنت صغيرة، وفي بداية عهدي بالسير اصطحبني أخي "نياح" ومربيتنا "مآتا" إلى المعبد، وقد أخذ "نياح" بيدي حتى صعدت السلم، وكان كل شيء يبدو لي ضخماً، وكان الجو داخل المعبد بارداً بخلاف ما كان عليه خارجه حيث الشمس مشرقة والجو دافئ.

وفي إحدى الغرف أقيم تمثال خشبي لحيوان يشبه كلب الصيد غطي بطلاء أسود ولما أردت لمسه نهاني "نياح" لأنه كان تمثالاً لإله يدعى "أنوبيس" وعندئذ شعرت فجأة أني أكبر سناً وأرجح عقلاً من كل من أخي ومربيتي، إذ اعتقدت أني عرفت كل شيء عن "أنوبيس" ولكن لم تسعفني قدرتي على الكلام حتى أبين ذلك لأخي.

ولما عدت إلى منزلنا أخبرت أمي عنه، فوهبتني تمثالاً للآله "أنوبيس" ومعه بيت خشبي صغير أحفظه فيه، ووضعت هذا التمثال بجانب فراشي حتى يكون أول ما تقع عليه عيني كلما استيقظت في الصباح، وقالت أمي عن هذا الإله إنه باعث الأحلام للأطفال. وكنت أرى أحياناً في منامي أني كبرت وأمكنني أن أقوم بأشياء خطيرة، حتى إذا أقبل الصباح تلاشت كل هذه الأحلام ولم أعد أذكر منها شيئاً، ولا أرى إلا أخي وإياي.

وكان "نياح" يأوي إلى فراشه بعد أن آوي إليه بمدة طويلة لأنه يكبرني بخمس سنوات، ولذلك كان كثيراً ما يقص علي قصصاً قبل نومي. وكانت أحب قصة إلى قلبي: قصة السبع والقط البري والأرنب، إذ كان الأرنب يعيش مع أمه بين الغاب وكان يفوق أخوته في العدو ورغم تحذير أمه له بألا يبعد كثيراً عن جحره فإنه لم يصغ لها، ثقة منه في قدرته على العدو والهرب حين يفاجئه أي خطر. وكان من عادته أن يخرج في الليل وينظر إلى القمر حيث يرى إله الأرانب ويناجيه، ويخبره عما قام به من أعمال مجيدة.

وفي يوم من الأيام، وبينما هو في تأملاته انقض عليه قط بري حمله في فمه إلى منزله وقدمه طعاماً لصغاره، ولكن هؤلاء الصغار كانوا في غير حاجة إلى طعام لفرط ما أكلوا، فوضعه القط على باب كهفه وأمره بألا يأتي بحركة وإلا قتله وقد عقد الخوف لسانه فظل ساكناً تماماً ثم نظر إلى السماء وولى وجهه شطر إله الأرانب "وقال ربي.. أتوسل إليك... انظر إلي من القمر وساعدني، فقد أذنبت وأسأت وأعدك إن خلصتني من هذا القط أن أتبع نصح من هم أكبر مني وإرشادهم".

فلما سمع القط البري ذلك سخر منه ومن "إله الأرانب" وقال له: لن يجرؤ أي أرنب أن يهاجمني حتى ولو كان مثواه القمر. وفجأة طرق آذانهم زئير أسد كبير، ثم اقترب الأسد وهجم على القط وأكله في الحال.

ولما رأى الأرنب أن الإله قد استجاب لدعائه اقترب من الأسد وشكره، فانحنى له الأسد وحمله إلى بيته. ولما كبر هذا الأرنب أخذ يقص

هذه القصة على أولاده، وكان يختمها دائماً بنصحهم أن ينظروا إلى القمر فهناك من هو أكثر حكمة وأرجح عقلاً.

الفصل الثالث

عالم الأحلام

ذات يوم وأنا في الثالثة من عمري، جلست مع والدتي بجوار حمام السباحة، وكان أحد جوانب حوض السباحة ضحلاً قليل العمق، فخلعت ملابسي ونزلت حيث أمكنني الوقوف وحدي، ونزعت عقدي المصنوع من اللازورد من رقبتي وأخذت ألعب في الماء وألطمه بكفي، وكانت قطرات المياه تتناثر وتعلو في الهواء، وبعد ذلك خرجت من الماء أعدو عارية في الشمس، وأخذت أجمع بعضاً من الزهور ونسقتها باقة لأخي "نياح" الذي خرج مع والدي ثم لحقت بي "مآتا" وقال: قد حان وقت نومي وعليّ أن آوي إلى فراشي فرفضت ورغبت في البقاء مع أمي تحت أشعة الشمس. وكانت "مآتا" صلبة الرأي طويلة القامة كأحد أعمدة البهو العظيم لذلك قفزت في حوض السباحة ثانية، وأخذت ألطم الماء حتى علا رذاذه حتى لا يمكنها أن تقترب مني وإلا ابتلت ثيابها. فلما جاءت أمي وطلبت إليّ الخروج من الماء أطعتها، فغضبت لذلك "مآتا" ورقدت على ظهري وأخذت أصرخ "إني لا أود أن آوي إلى فراشي"، وأخذت أخبط الأرض بيدي وأركلها بقدمي حتى تعلم مربيتي أني أعني تماماً ما أقول حتى تقلع عن مضايقتي، وقد أثمرت محاولتي هذه إذ أمرتها أمي أن تتركني معها، فتركتنا "مآتا" فشعرت بسرور عظيم.

ثم سألتني أمي عن سبب إحجامي عن الذهاب إلى فراشي فأجبتها: بأني هنا أتمتع بوقت جميل. فقالت لي "يمكنك أن تتمتعي بهذا الوقت في نومك" ولم أدرك ما تعني بقولها هذا إلا بعد أن أشارت إلى قميصي قائلة: إنك تخلعين عنك هذا القميص إن أردت النزول إلى الماء وأنت تحبين اللهو فيه... أليس كذلك؟ كذلك تخلعين عنك جسدك هذا عند النوم وبذلك يمكنك أن تقضي وقتاً سعيداً، وتأتين بأعمال لا يمكنك أداءها عندما تكونين في جسدك هذا. ألم يسبق لك أن رأيت أحلاما؟ فقلت "بالطبع رأيت الكثير منها". وعندئذ أخبرتني أن هذه الأحلام ذكريات أشياء قمت بها عندما تركت جسدي. ثم قالت "يمكنك أن تتركي جسدك وأنت في فراشك وتذهبي للاستحمام كما تريدين. والماء في الأحلام هو نفس الماء الذي تستحمين فيه الآن، ويمكنك التمتع به أكثر من تمتعك وأنت في عالم اليقظة".

وبعد الاستماع إليها شعرت أني مخطئة حين رفضت أن آوي إلى فراشي ثم قبلتها وذهبت إلى غرفتي واعتذرت لمربيتي عما بدر مني، ولذلك عادت "مآتا" إلى حنانها وعطفها عليّ.

ولما حضرت أمي في المساء لتعبر لي عن تمنياتها الطيبة قبل نومي جلست بجانبي، وأخذت تربت جبيني بيدها الرطبة وهي تشدو بصوتها العذب:

"نامي ... يا ابنتي

لأن الشمس أرخت أستار الليل

وعهدت بحراستك إلى النجوم وأنت نائمة

وقد طوت السفن في النهر شراعها

وطوت الطيور أجنحتها

ونامت أشبال الأسود في أحضان أمها الدافئة

وتحلم الأسماك في مأواها بين الغاب

وتبعث الزهور عبيرها في الغسق

والكون ساكن إلا من تغريد البلبل

نامي يا بنيتي وأغمضي جفنيك اللذين أثقلهما الكرى

نامي مع الدنيا وأطلقي العنان لروحك"

وقد آويت إلى فراشي وحاولت النوم سريعاً حتى أزداد علماً ومعرفة بدنيا الأحلام.

الفصل الرابع

أول مخاطرة لنياح

كثيراً ما خرجنا أنا وأخي في صحبة "مآتا" للنزهة على ضفة النهر ولما كان النهر بعيداً عن القصر كنا نذهب في محفة، وهناك كنا نرى قوارب الصيد، وكم كانت رغبتنا عظيمة في النزول في أحدها ولكن لم تسمح لنا "مآتا".

وذات يوم أخبرني "نياح" بأنه لن يسمح "لمآتا" بعد اليوم أن تستبد بنا وتتدخل في أمورنا وأنه سوف يشركني معه إذا شئت في أول مخاطرة يقوم بها، فأظهرت له استعدادي وشوقي وقلت له لن تكون مخاطرة جديدة دون مصاحبتي له.

وفي صباح اليوم التالي استيقظنا مبكرين عند بزوغ الفجر ولبسنا ملابس قديمة حتى نبدو وكأننا أطفال من أطفال القرية وأخذنا معنا عنباً وتيناً وأربعة أرغفة من الخبز كنا قد أخفيناها في غرفتنا في الليلة السابقة.

ووصلنا النهر بعد سير طويل، ورأينا على الضفة الصيادين يعدون قوارب الصيد... وذهب "نياح" إلى أكبرهم سناً وعرض عليه أن يأخذ منه بعضاً من السمك مقابل عنقود من العنب، فقبل الرجل ذلك واعتذر بأنه لم يلق شباكه بعد إذ ما زال الوقت مبكراً، فتظاهر "نياح" بالدهشة وقال

في لهجة الآسف "إذن علينا أن ننتظر حتى تعود، إذ لا نجرؤ أن نعود إلى المنزل دون سمك وإلا أثرنا غضب عمنا علينا" ثم قال هل يمكن لشقيقتي أن تنزل إلى قاربك إذ أنه تتوق إلى النزول في أحد القوارب؟ وكان الصياد يميل إلى الأطفال وكان له خمسة أطفال ولذلك لم يمانع في إجابة طلبنا بشرط أن نجلس في قاع القارب حتى لا نضايقه في عمله فشكرناه على ذلك، وقفزنا في القارب بسرعة خشية أن يغير رأيه.

وكانت الشباك مكدسة في قاع القارب ورائحة السمك تنبعث منها. أما القارب فكان خالياً من أي جمال فلا دهان عليه وشراعه مرقع وملطخ بالوسخ. وبعد لحظة دفعتنا الريح إلى وسط النهر. وألقيت الشبك وأخذت تسير حول القارب وهو يسير وئيداً.

وكان الصياد رجلاً سمحاً ولم أسأله عن اسمه خشية أن يسألنا عن اسمينا ولما نعد العدة للإجابة عن سؤاله إن سأل. وطلب الصياد إلى أخي أن يدير دفة القارب ولكني أشرت عليه بالرفض لأننا ذكرنا له أنه لم يسبق لنا أن نزلنا في قارب! ورجوت الصياد أن يغني لنا إحدى أغنياته التي كنا نسمعها من بعد دون أن نتبين ألفاظها، وكان صوته عذباً عالياً عميقاً، أم الأغنية فكانت على وتيرة واحدة:

يا شباكي ترجحي ودوري من أجل صاحبك.

وادعي الأسماك حتى تحتمي فيك من وحوش النهر.

ويا أسماك اهجري مأواك بين الغاب.

ونامي في ظل قاربي.

ويا ريح هبي برفق حتى يتهادى قاربي على صفحة الماء.

هادئاً كعروس تسبح عارية في الماء وقت الأصيل.

ويا أسماك اسمعيني وتجمعي في شباكي،

حتى توزني بالفضة ويبتهج معي جميع أفراد أسرتي.

وبعد أن انتهى من الغناء نادى زميله الواقف عند مقدمة القارب تخفيه الشراع وأخذا يجذبان الشباك وقدمنا لهما المساعدة اللازمة. وتدفق السمك من الشباك إلى القارب في موج من الفضة، وأخذ يقفز ويخفق عند ساقي حتى وددت لو أصعد إلى جانب القارب، بيد أن "نياح" لم يأبه به بل ساعدهما في فرز أنواع السمك ووضع كل نوع في سلال خاصة من البوص ولما عدنا إلى البركان في انتظار هذا الصيد خلق كثير.

وخشيت أن يتعرف علينا أحد، ولكن اطمأن قلبي عندما نظرت إلى "نياح" وقد غطى ذراعه قشر السمك وعلا شيء من دم الأسماك جبهته.

وحاول "نياح" أن يمنح الصياد العنب نظير سماحه لنا بركوب القارب فضحك الصياد وقبل منا العنب وقدم لنا أربع سمكات نظيره، وسمكتين لمساعدتنا له وقال:

إنه يرحب بمقدمنا في أي وقت شئنا، فما علينا إلا أن نسأل أحد الصيادين عن "داس" فيدلنا على مكانه.

ثم علق ست سمكات من خياشيمها في بوصة وأعطاها لأخي فشكرناه وانصرفنا إلى منزلنا.

وبدا لنا الطريق في عودتنا طويلاً والسير شاقاً لأننا كنا متعبين ولأن رباط نعلي قطع مني ودخل حجر فيه وجرح قدمي. ولما ظهر عليّ التعب قال لي أخي ألا أفكر فيه وإلا زاد. فرددت عليه بأن لا أفكر في التعب ولكني أفكر في قدمي الجريح فقال "نياح" إذا كنت تهتمين هذا الاهتمام بقدم جريح فلن يمكنك الذهاب معي عندما أصبح محارباً فكثيراً ما تصيب الحراب والسهام والعصي الغليظة المحاربين، ولكن تأبى عليهم شجاعتهم أن يظهروا أي اهتمام بها. ولما سمعت ذلك فضلت السير حتى تبلى قدماي دون أن أبدي شكاية أو تذمراً، ورأيت أن من الأفضل أن يولد الإنسان ذكراً حتى لا يجد حاجة إلى ادعاء الشجاعة والإقدام حتى يشركوه في مخاطراتهم، فنشأة الصبي تتطلب منه أن يأخذ نصيبه في ذلك دون حاجة منه إلى ادعاء أو تظاهر وعندئذ قال "نياح" سأسرد لك قصة جديدة تنسيك تعبك إذا أصغيت إليها.

"يحكى أن بركة ماء كانت تتوسط إحدى الحدائق، وكانت جوانبها من الحجارة الزرقاء الجميلة. وينساب إليها الماء العذب في قناة من الحجر، وينصرف عنها من فتحة بين قضبان من حديد في الجانب الآخر. وكان يعيش بها أسماك سمينة عيشة راضية، وكان بين هذه الأسماك سمكة قرمزية اللون. رأت هذه السمكة الأسماك الأخرى تستأثر بالذباب والديدان فتأ كلها، وبالأماكن التي تظلها أوراق اللوتس ولم تجد السمكة القرمزية من الطعام إلا ما يكاد يحفظ رمقها، ولم تجد مكاناً تأوي إليه يقيها لفحات الحر، ولما لم تطق صبراً على ذلك أخذت تشغل نفسها بأمور تنسيها عيشتها هذه، فأخذت تكشف كل جزء من البركة حتى عرفت عدد الحجارة التي في جوانبها، وما سيفتح من براعم اللوتس، وعلى مر الأيام زادت الأسماك نهماً وسمنة وزادت السمكة القرمزية نحافة لدرجة سهل عليها فيها التسلل من بين القضبان وأصبحت طليقة، وأخذت تسبح حتى وصلت إلى النهر ومنه إلى البحر حيث وجدت أشياء استهوتها وأشياء أخافتها.

وذات مرة رأت سمكة كبيرة فاغرة فاها تلتقط طعام إفطارها وكان فمها أشبه بشبكة الصياد، وذهبت السمكة الحمراء مع غيرها في فمها واستقرت في ظلمة بطنها، فأخذت تدعو رب الأسماك أن يخلصها، فاستمع لدعائها رغم وجودها في مثل هذا المكان المظلم، فأصاب تلك السمكة الضخمة فواق خرجت معه السمكة الصغيرة الحمراء مرة أخرى إلى البحر.

وبعد ذلك وجدت قصراً جميلاً من المرجان في أعماق البحر الصافية حيث يميل لون مائه إلى الخضرة، وفي هذا القصر الجميل قدمت لها أسماك صغيرة جميلة المنظر يزين أجسامها قشور زرقاء وأخرى صفراء كلون الذهب. قدمت لها تلك الأسماك الطعام من ديدان سمان في صحائف من الصدف وشعرت وهي في القصر بمتعة عظيمة حتى تمنت لو عاشت في هذا المكان بقية عمرها، ولكن الحنين عاودها إلى التحدث إلى الأسماك السمينة عما رأت من غرائب افتقدتها تلك الأسماك لسمنتها التي حالت دون تسربها من بين القضبان.

ولذلك تركت البحر وسبحت في النهر، وفي طريقها رأت من الغرائب ما فاق قصر المرجان جمالاً، وواجهت أخطاراً لم تواجهها من قبل. ورغم ذلك أخذت تواصل السباحة حتى وصلت إلى منفذ القضبان الذي سبق أن خرجت منه، فلم تجد صعوبة في أن تمزق منه مرة أخرى إذ زادت نحافة بسبب أسفارها ومخاطراتها وخيل إليها أن قومها سيدهشون لرؤيتها بينهم ولكنها وجدت أن قومها لم يفتقدوها فذهبت إلى ملك الأسماك في البركة وقد أصبح أكثر بدانة وقالت له كفاك طعاماً وكفاك ما يخرج من فقاعات وأنصت إليّ أيها الغليظ الأحمق. قد جئت لأنبئكم بما رأيت على الجانب الآخر من حاجز البركة، وسأريك كيف تزيل عنك بدانة جسمك حتى يمكنك أن تقوم بنفس الرحلة التي قمت بها، وتكتسب من الحكمة ما اكتسبت.

فأخذ ملك السمك يسبح حتى وصل إلى حاجز البركة، ولكنه عندما رأى القضبان تضيق بزعانفه، أرسل من بطنه فقاعتين، وقال في استخفاف: "أيتها السمكة الحمراء البلهاء لا تفسدي عليّ تأملاتي بحديثك الذي لا طائل تحته، فإني أكثر منك حكمة لأني أنا ملك الأسماك هنا، ولكن يدهشني أنك خرجت خلال قضبان لم تتسع لزعنفة واحدة من زعانفي، ثم عاد ملك الأسماك إلى حيث ظلال أوراق اللوتس، فحزنت السمكة الحمراء لأنها لم تجد أحداً يصغي إليها ويستمع لها وعادت إلى البحر، ثم مضت مدة حدث بعدها جفاف انقطع بسببه الماء عن القناة فأخذ مستوى الماء في البركة يهبط شيئاً فشيئاً، ففزعت لذلك الأسماك السمينة واشتد فزعها حين وجدت نفسها تلهث في الطين في قاع البركة حتى فارقت الحياة على حين كانت السمكة الحمراء تنعم بطيب العيش في القصر المرجاني تحت الماء في البحر".

يا لها من قصة ممتعة أنستني آلام قدمي!!! وعندما انتهى أخي "نياح" من قصته كنا قد وصلنا إلى حافة حقول الكروم، فخلعت نعليّ وسرت على طول قناة الماء بجانب أشجار الكروم وشعرت بالراحة حين غطى الماء قدماي.

وعندئذ تذكرت "مآتا" ومقدار غضبها منا فقلت لأخي: ألا ترى أنه يحسن بنا أن ندفن السمك في الأرض أو نتخلص منه ونعطيه للبستاني حتى لا تتبين "مآتا" أين كنا؟ فلم يوافقني "نياح" على ذلك وقال: إنها خبرة جميلة كسبناها وسأخبر والدي عنها لأني أريد أن أرسل هدية لصياد السمك

مكافأة له على دماثة أخلاقه، وحسن معاملته لنا ولن نرى "مآتا" إلا بعد مقابلة والدنا.

رأينا والدنا خارجاً من الحجرة المؤدية إلى قاعة الاستقبال الرسمية وكان لا يزال محتفظاً باللحية التقليدية التي اعتاد أن يضعها عندما كان يجلس على كرسي القضاء، وكانت مثبتة إلى غطاء الرأس برباطين يخفيهما الجزءان الجانبيان منه. خلع والدي لباس رأسه وأعطاه لأحد أتباعه وقال: إنه ذاهب للاستحمام في حوض السباحة وأذن لنا بمصاحبته، ولم يدهش لرؤيتنا إذ أن "مآتا" لم تكن قد أخبرته عن عيبتنا.

ولما عرضنا السمك عليه وأخبرناه قمنا به لم يغضب وقال لنا: إنه من الواجب علينا ألا نخرج من دارنا دون إخطار أحد بذلك، فرد عليه "نياح" إنه كان بوده أن يخبر "مآتا" بذلك ولكنها لم تكن تسمح لنا بالخروج وأنه لا يود أن يكون فظاً معها أو عاصياً لأوامرها. فأردف والدي قائلاً سنأكل السمك هذه الليلة، فطلب منه "نياح" أن يرسل هدية لصاحب القارب فقبل والدي، وأشار بأن نذهب إلى "نو – ستيس" ونسأله أن يدبر لنا الأمر. أما "نو – ستيس" فقد أعد سمكة ذهبية جميلة حفر عليها اسمي واسم أخي ليزين بها الصياد عنقه.

وفي صبيحة اليوم التالي ارتدينا أحسن الثياب وذهبنا في عربة إلى النهر لنعطي "داس" هديته، ولما تبين شخصيتنا حاول أن يركع أمامنا على الأرض ولكن منعه أخي من ذلك، وأخبره أننا كنا جماعة من الصيادين عملنا معاً، ثم ربط السمكة الذهبية حول عنقه.

الفصل الخامس

الشبل

عندما بلغت السادسة من عمري شعرت برغبة في اقتناء شبل صغير، وكان لي كلب صيد صغير، وحمامتان، وسمانة مكسورة الساق. ولما أخبرت مربيتي "مآتا" بذلك قالت:

– إن المحاربين هم الذين يقتنون الأسود التي لا تناسب الأطفال.

وقد كان "باكيوي" البستاني صديقاً لي، وكانت له عين واحدة، وفقد ثلاثة من أصابع يده اليسرى في حربه في سبيل والدي في الجنوب، وكان يعمل في حديقة الخضروات القريبة من القصر، وكان شقيق "مآتا" يعمل مشرفاً على البستانيين وبينما كانت "مآتا" تتحدث مع أخيها في الحديقة كان "باكيوي" يقص علي وعلى أخي ما رآه في أسفاره، وقص علينا الكثير من أعمال والدي في الحروب. ولما سألنا والدي عن حقيقة ما قصه علينا "باكيوي" قال: إذا كانت الحقيقة تمثالاً صغيراً، فإن قصص "باكيوي" كظل كبير ألقاه مصباح صغير وضع خلف هذا التمثال فجعل له ظلاً على الحائط أشبه بظل المارد.

وكان هناك منزل صغير من اللبن يحفظ فيه "باكيوي" آلات الحديقة وقد سمح لنا بأن نضع فيه أيضاً بعض الحيوانات التي لا نستطيع أخذها

إلى منزلنا. وكان لنياح فيها ضفدع، وفأران أبيضان لهما عينان قرمزيتان، ويربوع صغير ذو عينين وديعتين واسعتين كلما تحدثت إليه جلس على ساقيه الخلفيتين، وكان لنياح كذلك قط بري صغير يحاول تأنيسه فوضعه في قفص ذي باب من عوارض خشبية، وكانت له حية صفراء اللون ذات قرنين، وكان في رأيي أن اللعب بها ضرب من ضروب الشجاعة، وراودتني رغبة في اقتناء شبل، فإذا تحققت رغبتي هذه وكبر الشبل وأصبح أسداً كبيراً، شاركني حجرة نومي. فعندئذ لن يرميني صبي من الصبية بالجبن لعدم اللهو بالأفاعي.

وكان لباكيوي ولد يدعى "سرتن" وهو أحد الغلمان الذين يعدون مع كلاب الصيد، وأبديت له شدة رغبتي في الحصول على شبل فوعدني أنه إذا أعدمت لبؤة خشية توحشها فسيأتيني بأحد أشبالها.

وذات يوم ذهبت لرؤية "سرتن" فوجدته جالساً على حافة حوض حجري يصقل قطعة من طقم فرس، فلما رآني تلفت ذات اليمين وذات اليسار، ثم أشار إليّ أن أتبعه بهدوء حتى وصلنا إلى إسطبل مهجور، وهناك وفي أحد أركانه رأيت كلبة نغلة ترضع شبلا مع صغارها، وكان الشبل صغيراً لم تتفتح عيناه بعد، فمررت بيدي على شعره الذهبي، وبعد لأى وعدني "سرتن" أن يحمله إلى مخدعي ليلاً على شريطة أن أكون به وحدي. وقد خيل إليّ أن "مآتا" وهي تهيؤني للنوم قد أطالت أكثر مما يجب تمشيط شعري، وأخيراً تركتني ثم طال بي الوقت وأنا في انتظار ذلك الغلام حتى ظننته قد نسي وعده، وبينما أنا في هذه الحال من القلق سمعت طرقة

خافتة على خشب النافذة فأسرعت إليها فرأيته يحمل بين ذراعيه شبلاً ولما حملته أعول بصوت خافت ولكنه سرعان ما التف بجانبي تحت غطائي الدفيء، وأخذ يغط في سبات عميق.

وعندما ساد الهدوء أرسلت صفيراً أدعو أخي، ويبدو أني أيقظته من نومه لأنه حضر والنوم يغلب عليه وقد أظهر شيئاً من التذمر، ولما أخبرته عن الشبل ومكانه في فراشي لم يصدقني بادئ الأمر وقال لي:

– كفي حماقة! هل أنت متمالكة شعورك وتعنين ما تقولين؟

ورغم تأكيدي، لم يصدقني، فكشفت الغطاء لأريه ما تحته، وأخبرته من أين أتيت به وقلت: إن من الشجاعة أن تنام السباع في فراشي. فقال: ما هذا إلا شبل صغير فقلت: سرعان ما يكبر وسيقضي على كل من يمسني بسوء فقال: "لن يسمحوا لك بإبقائه معك عندما تنمو أسنانه الحقيقية" ولما تفاخرت بأني أقتني شبلاً يختلف عن حيّاته التي لا سم فيها عيرني بأنه رغم ذلك مازلت أخشاها. فغضبت لرده وبكيت فغير أخي من لهجته وتلطف معي وقال: إنه واثق من أن هذا الأسد يفترس أي شخص الآن، وجلس بجواري على فراشي، وأخذ يقص علي قصة القرد والتمساح حتى أثقل الكرى جفوني، واستسلمت للنوم وغرقت في سبات عميق.

وإليك أيها القارئ هذه القصة:

في غابر الأزمان في وسط إحدى الغابات سكنت أسرة من القردة فوق شجرة عالية، وكانت هذه الأسرة تتألف من أب وأم وقردتين وقرد صغير، وكانت القردتان الصغيرتان دمثتي الخلق تطيعان أمهما حين تعلمهما كيف يتأرجحان بذيلهما فوق الشجر، وكيف تلتزمان الأغصان الرفيعة التي لا تقوى على حمل الحيوانات الكبيرة التي تؤذيهما، وعلمتهما كيف يميزان الطعام الصالح من الفاسد، ودربتهما على أن تمشطا شعرهما بأصابعهما حتى يبدو ناعماً منسقاً.

أما القرد الصغير فما كان يستمع لأمه ظناً منه أنه أمر القردة في الغابة كلها، وأنه أرفع من أن يلعب مع أختيه، وكان من عادته أن يخرج منفرداً، وأن يسير فوق أعالي الأشجار.

وفي يوم من الأيام عثر في وسط الغابة على أرض اجتثت أشجارها يعيش فيها قوم من بني الإنسان، فظنهم فصيلة من القردة خلقها الله في أحسن تقويم فقال بينه وبين نفسه: إنهم يصلحون لرفقتي، وسأبذل جهدي كي أتشبه بهم.

ولما رأى ألا ذيل لهم حمل ذيله على كتفه، وكان من نتيجة ذلك أن سقط على الأرض عدة مرات أصيب بسببها بإصابات بالغة إذ لم يستخدم ذيله في تسلق الأشجار، ولما رأى القوم لا فراء لهم أخذ ينزع شعره من ظهره حتى يبدو واحداً منهم، ولكنه اضطر أخيراً أن يكف عن ذلك بسبب تعرض الأجزاء العارية للبرد وما شعر به من ألم. وذات يوم رأى إنساناً

منهم يمشي وحيداً في الغابة، فاقترب منه وقال له: أريد أن أكون واحداً منكم.

وكان هذا الإنسان حكيماً، وعلى علم بلغة الحيوان. فقال له: لسنا بقردة بل نحن بشر. فقال له القرد: أريد أن أكون بشراً مثلكم. فرد عليه الرجل قائلاً: لا تتعجل فسيأتي يوم تصبح فيه جميع الحيوانات في هذه الغابة بشراً؛ فإذا حان الوقت فستترك صحبة القردة وتعرف وحدة الإنسان وعزلته. ولكن عليك أن تعرف كل ما يمكنك أن تعيه كقرد، فإذا فعلت ذلك أدركت الحكمة في وقت قصير، واقلع عن حمل ذيلك على كتفك فإنك إذا لم تستفد مما منحك الله فستبكي يوماً على ضياعه. فغضب القرد لهذا القول، لأنه ما زال يعتقد أن بني الإنسان ما هم إلا فصيلة راقية من القردة يعتبرون أنفسهم أسمى من أن يلعبوا معه، ورد على الرجل رداً جافاً خالياً من الأدب وعاد إلى الغابة.

وذات يوم كان هذا القرد سائراً بجانب النهر حاملاً ذيله على ذراعه. فرأى رجلاً يركب رمثا في النهر فناجى القرد نفسه قائلاً: سأعمل مثل هذا الرمث، وعندئذ يعلم بنو الإنسان أني واحد منهم، ورأى في الماء ما ظنه قطعة خشب طافية فقفز فوقها، وبدأت تسير فوق الماء، وهنا شعر بعظم قدرته.

وفجأة فتحت قطعة الخشب عينين ينبعث منهما الشر ونظرت إليه، فعرف أنها تمساح فقفز في الماء وأخذ يسبح بسرعة لينجو بنفسه وتبعه التمساح حتى إذا ما اقترب من ضفة النهر قضم ذيله.

ولما عاد إلى وطنه سخرت منه القردة وأشارت إليه ضاحكة، وكان موضع حديثهم ولم يشعر أحد بأسف على ما حدث له إلا أمه التي ما زالت تشعر نحوه بالحنان والود رغم جفائه وخشونته.

وبعد أيام قلائل هبت عاصفة هوجاء تأرجحت معها الأشجار ومن بينها تلك الشجرة التي كان يعيش فيها، وقد أمسكت القردة الأغصان بذيلها خشية وقوعها إلا هذا القرد فلم يتمكن من ذلك فسقط على رأسه ومات لساعته.

وبعد مضي عام ولدت الأم هذا القرد ثانية وقد تعلم كيف يتأرجح بذيله أسرع من صغار القردة الآخرين، وأطاع أمه في كل ما أشارت به، وأصبح أكثر القردة دماثة خلق وحباً لغيره، وعلم أخيراً أن الحكمة والسعادة لا يكتسبهما إلا إذا وعى ما قدرت له الآلهة أن يتعلمه.

الفصل السادس

زيب راعي الأسود

أطلقت اسم "ناتي" على ذلك الشبل الذي حصلت عليه وسمحت له أن ينام في غرفتي على حشية أسفل فراشي قبل أن يبلغ العام من عمره، وبعد هذا العام قرر والدي أن يودعه الفناء حيث تعيش الأسود الأليفة، ولكني كنت واثقة من أني سأحظى بموافقة والدي على بقائه معي.

وفي صباح يوم من الأيام أيقظني "نياح" لأذهب معه إلى البركة لنصيد أوزاً عراقياً فتسللنا عندما مررنا بشباك غرفة "مآتا" خشية أن تسمع خطانا، وعند نهاية الحديقة رأينا ثلاثة صبية أصدقاء أخي في انتظارنا. وكان يتدلى على أكتافنا قراب القسى وجعاب السهام، وكان الظلام مازال يخيم اللهم إلا بصيص من شعاع في الأفق. وعندما وصلنا إلى المستنقع زحفنا بين البوص إلى أن وصلنا إلى البحيرة، وهناك جلسنا على أرض رطبة على حافة الماء الضحل في انتظار الطيور عند عودتها بعد غذائها.

وكان النهار قد بزغ عندما سمعنا ذلك الصوت الغريب الذي يأتي به الأوز بأجنحته، وكانت سرباً يبلغ الثلاثين أوزة يطير في شكل رأس سهم، وأثناء طيرانه فوق رءوسنا أرسلنا سهامنا نحوه فأصاب أحدها خصلة ريش وطار السرب دون أن يمسه أذى.

وبعد ذلك سمعنا صيادي الطيور يقتربون ليبحثوا عن فخاخهم فتسللنا عائدين إلى القصر لأنه سبق أن وعدنا بألا نبرح قصرنا دون إخطار. وعندما عدت إلى حجرتي لم أجد الشبل بها، فذهبت إلى فناء الأسود عساي أجده هناك فلم أجده هناك، ففتحت مزلاج الباب المؤدي إلى فناء القصر فرأيت الشبل "ناتي" نائماً في الشمس مع لبؤة من سنه، فناديته فجاءني يتبختر في مشيته. فسمعني أحد الصبية المكلفين بخدمة هذه الأسود فجرى نحوي وقال: إن "ناتي" يجب أن يمكث في الفناء إذ صدرت إلي أوامر تقضي ألا أصحبه دون رفيق معي. فلم أعبأ بكلامه، وأمسكت "ناتي" من طوقه وأخذت أجره معي فاعترضني الغلام عند البوابة ومنعني من المرور.

فأمرته بألا يعترض طريقي ولكنه لم يتحرك، وكان هناك سوط من الجلد المجدول على أريكة بجانب الحائط فأمسكت به وأوسعته ضرباً، وانهلت على وجهه وكتفيه فلم يصرخ الغلام بل ظل في مكانه ينظر إليّ. فزاد من غضبي حتى أعماني عما حولي، ولم أر سوى هذا الغلام أمامي والسوط يهوي على وجهه وكتفيه حتى أدماها. وقفز "ناتي" عليه وأوقعه على الأرض، وعضه في ذراعه، وأسال الدم منه حتى غطى ذراعه، ففزع الغلام وبقى ملقى على الأرض بلا حراك، وبعد ذلك أمسكت طوق الشبل وأخذته إلى غرفتي.

وقد سر "ناتي" لعودته معي، وأقفلت الباب عليه وذهبت للاستحمام، ولما عدت وجدته قد أكل قطعة من حشية فراشي، وأخرج

الريش منها، وقرض رجل سريري وقد أسفت لذلك، إذ كانت أرجل سريري على شكل سيقان الوعل الوحشي غطت حوافره رقائق من ذهب ورغم غرامي بالشبل عنفته بشدة على ما حدث منه. ولكنه لم يبال بما حدث ولعق ذراعي في رقة بلسانه الخشن. وبعد برهة حضر رسول يدعوني لمقابلة والدي في غرفة الأختام في الحال. وعند دخولي كان ينظر في قرطاس من ورق البردي بعد أن عاد من الاستقبالات الرسمية، وما زال يرتدي ملابس الاحتفالات. والصولجان موضوع على مائدة قريبة منه، ولم يبتسم لرؤيتي بل بدا كالتمثال وكأنه جالس في كرسي القضاء ولما رآني قال لي "إن السوط في يد فرد من الأسرة المالكة رمز للعدالة، أما في يدك أنت فكان وسيلة للظلم ورمزاً للجبن لأنك ألهبت به غلاماً لا ذنب له سوى ولائه لفرعون، وإطاعة أوامر والدك، وزيادة على ذلك ألحقت الأذى بغلام لم يتمكن للفارق بين مركزك ومركزه من أن يقابل المثل بالمثل. فضرب غلام كهذا عمل لا يقدم عليه إلا شخص جبان متغطرس، وليس بجدير بتقاليدنا، ولو كنت رجلاً أو بالأحرى لولا أنك بنت صغيرة لأمرت بجلدك بالسياط، فإذا كنت قد أجرمت عمداً فقد نلت الجزاء الوفاق، وإن كنت أقدمت على فعلتك بجهالة لكان لك في ذلك عبرة تذكرك دائماً بأن من يرفع السوط ظلماً سيلقى آثاره على ظهره، وبما أنك لست إلا طفلة صغيرة فإني آمل أن يكون جام غضبي عليك كافياً ليعلمك هذا الدرس.

ولأول مرة بكيت لسوء ما جنيت، وفكرت في شجاعة هذا الغلام وكيف ثبت في مكانه وأنا أنهال عليه ضرباً؟ وتمنيت لو كنت صبياً حتى يقتص مني بدلاً من قسوة والدي علي بدلاً من تلك الجفوة التي أحسستها

بيني وبينه. ولكي أريه أني لست بهلوعة ولا جبانة، وضعت معصمي في فمي وعضضته حتى سال دمي بين أسناني ورفعته والدم يسيل منه، وقلت هذا يعادل ما سببه "ناتي" للغلام من أذى، وسأذهب إلى الغلام وأطلب إليه أن يضربني كما ضربته وألا يقيم وزناً لمركزي أو لأني فتاة، فلست بالهلوعة الجبانة واندفعت خارج الحجرة.

وعندما عدت إلى حجرتي لم أجد "ناتي" بها فأغلقت الباب ورقدت في فراشي منبطحة على وجهي وأطلقت لدمعي العنان وامتلأ فمي بريش فراشي. وبعد ذلك سمعت طرقاً على الباب، فظننته أخي مدعياً أنه والدي. وأخي هو الشخص الوحيد الذي لا أبالي بالبكاء أمامه، لأنه قال: إن البكاء كآلام المعدة لا عيب فيه ولا خجل منه. ومن ثم فقد فتحت الباب.

ولكن الطارق لم يكن أخي، بل كان أبي، وقد نزع عنه لباس رأسه ولحيته، وانطبعت على فمه ابتسامة وأخذني بين ذراعيه، وجلس على فراشي ووضعني على ركبتيه، ولم يعلق بشيء على فراشي المبعثر ورجل سريري التي أكلها الشبل. وقد ارتاحت نفسي حين أحسست أنه لم يكرهني، ولم أتمالك نفسي من البكاء فسقطت ثلاث قطرات من دمعي على كتفه العاري ولما لعقتها وجدتها ملحة المذاق.

وبعد ذلك أخبرني والدي أنه سيعمل على إصلاح ذات البين بيني وبين هذا الغلام وبذلك يحكم في الأمر بالقسطاس المستقيم حتى يستقيم

ميزان العدالة فقال: ولو أن الأمر يمكن أن يسوى بأن يضربني الغلام كما ضربته ولكن هناك طريقة أفضل من ذلك. وهي أن نزيل آثار ما أصابه من ضرب السوط وقال: إن عنده دهاناً خاصاً يشفي جراح هذا الغلام.

وبعد أن غسلت وجهي بالماء البارد نزلت ووالدي إلى فناء الخدم. ووجدت الغلام واسمه "زيب" مستلقياً على أريكة فاعتذرت له عما بدر مني، وطلبت منه أن يغفر لي زلتي، فأجاب الغلام "إن ما حدث أمر تافه" ولا تؤلمه آثار السوط مطلقاً" ولما سمع مني اعتذاري ركع الغلام على إحدى ركبتيه وأمسك بيدي ووضع ظهريهما على عينيه وقال: إنه سيكرس حياته لخدمتي بأمانة حتى الممات، فأخبره والدي أنه سيعينه منذ الآن تابعاً لي أنا وسيضمه إلى عداد خدمي.

ثم أراني والدي كيف أضع المرهم على جروحه. وأقمت على تمريضه خمسة أيام حتى شفيت جروحه تماماً، وزالت آثارها واعترفت لوالدي بأني ضربت هذا الغلام وأنا في سورة غضب طغت على تفكيري فأصبحت لا أفكر في شيء إلا أنه يعترض طريقي. وكانت "شامبا" اللبؤة المحببة إلى والدي تسير معنا، وكانت أمهر من كلاب الصيد التي عندنا، فرد عليّ والدي قائلاً "اصغي إلي يا "سكيتا" عليك أن تسيطري على غضبك بقوة إرادتك كما أسيطر على "شامبا" هذه بإرادتي أنا. فمثل الغضب كمثل الأسد المتمرد إذا كبح جماحه يصبح حارساً أميناً لك وسلاحاً قوياً في يدك فإذا سيطر الإنسان على غضبه فإنه يعاقب المذنب كما لو انهال عليه ضرباً بالسياط.

والخوف من هذا النوع من الغضب حماية للضعفاء ممن يعتدي عليهم، فإذا لم يقدروا حسابه فيكونون مثلهم في ذلك كمن يجرؤ على مهاجمة طفل رضيع تحميه تلك اللبؤة. أما أولئك الذين لا يكبحون جماح عواطفهم فمثلهم كمثل طفل ربط بسلسلة مع تيس جن جنونه، عليه أن يتبعه ويستسلم لقيادته وهو يسير به في القاذورات وفي المستنقعات وقد يؤدي به إلى قفص الفهود المتوحشة التي قد تمزقه إرباً إربا. وهكذا يا "سكيتا" يجب أن تذكر دائماً أن غضبك هذا – إذا تمكنت من السيطرة عليه – سوط في يدك، أما إذا أفلت زمامه فهو ضربات سياط على منكبيك.

الفصل السابع

أصحاب الاستشفاف في القضاء

كثيراً ما كان يجلس أخي "نياح" بجانب والدي في ساحة القضاء عندما يصدر أحكامه بين الناس. وذلك كي يعده لهذا اليوم حين يبلغ الرابعة عشرة من عمره فيصبح شريكاً له في الحكم. وأحياناً كنت أصحبهما حتى ألم بعدالة والدي في البت في القضاء.

وكان "بتاح كفر" أحد كبار موظفي البيت المالك يجلس في الجانب الأيسر من قاعة الاستقبال بين عرش فرعون ومائدة الكتبة، ولما كان كاهناً من أصحاب الجلاء البصري أو الاستشفاف وعلى جانب كبير من المهارة فإنه كان يلبس الريش القرمزي المزدوج ريش "معت" إلهة الحق – ومعنى هذا الازدواج بنوعيه. الحق في الدنيا والحق في الروح.

وقد يلجأ والدي أحياناً في قضائه إلى اللبؤة "شامبا" وكان يسمي هذا "القضاء عن طريق الأسد" فكان يأمر الرجل الذي يقضي في أمره – بعد أن يزن قلبه – أن يسير في الحجرة ويضع يده في فم اللبؤة ويخبره بأنه إن كان قلبه صافياً فلن تؤذيه اللبؤة، أما إذا كان مذنباً فإنها ستسحق ذراعه سحقاً حتى يصبح عجينة رخوة. فإذا كان الرجل بريئاً أقبل على "شامبا" فكانت أسنانها وديعة كالريش لا تترك أثراً في يده، فينصرف هذا

الرجل البريء وهو يتحدث بعدالة فرعون ويقول: إنها حكمة عظيمة استجابت لها اللبؤة، وخضعت لعظمته وإرادته، فتمكنت أن تزن قلوب الناس بحكمة لا تقل عن حكمة "تحوتي". أما إذا كان الرجل مجرماً فإن والدي يرفع السوط ويصدر الحكم عليه قبل أن يصل هذا الرجل إلى مكان اللبؤة. وفي أثناء جلوسنا مع والدي كنا نلتزم الهدوء حتى نبدوا كتمثالين وكنا ندرك تماماً خضوع "شامبا" لأوامره، فإن أمرها بالتزام الهدوء والسكينة كانت وديعة حتى لو كان أمامها "ست" إله الشر. أما إن أمرها بالهجوم على شخص ما فإنها تفتك به وتمزقه ولو كان "بتاح" الإله العظيم نفسه. وذات مرة قال لنا والدي: إن الحكام الراشدين يدركون أن كثيرين من رعاياهم أطفال ولو كانت لهم أجسام المسنين. وعليه أن يعاملهم معاملة الأطفال قدر عقولهم كي يكونوا طيعين قانعين. وقد سألته كيف يمكنه أن يوقن من أن الرجل في ساحة القضاء لا يخشى لبؤته "شامبا" فأجاب بأن على "بتاح كفر" أن يرقب الرجل وهو يمشي في الحجرة متجهاً نحوها فإذا رآه خائفاً حرك "بتاح كفر" الخاتم في أصبعه ثم أردف قائلاً "إن أردتما أن تعرفا سبب تحريك "بتاح كفر" خاتمه يحسن بكما أن تسألاه هو"، ولما سألنا "بتاح كفر" عن ذلك قال: إن الصبر والغضب والحق والهم لا نراها بأعيننا التي في رؤوسنا ولكنا نرى أثرها ورد فعلها ولكن إذا نظرت إلى إنسان ما بعيني روحي فإني أقرأ أفكاره وأرى عواطفه ومشاعره وتبدو أمامي كأنها لون، فكلما أسود هذا اللون زادت آثامه على الأرض، أما إذا بهت اللون كان أقرب إلى منبع النور الذي علينا أن نصل إليه جميعاً يوماً ما. أما الحقد والشر فأراهما في صورة لون أخضر معتم لا يسر الناظر. أما

الشفقة تلك العاطفة النبيلة فتبدو أمامي كالخضرة الزاهية قبل بزوغ الفجر، أما الحكمة فتبدو بلون أصفر زاه كضوء الشمس على حائط أبيض، أما المكر والخداع وشهوة جمع المال فتبدو بلون الطين الذي نصنع منه اللبن بعد حرقه. وهكذا فكل نوع من أنواع المشاعر والعواطف له لون خاص به. وأولئك المدربون على ذلك يدركون كل عاطفة من لون الشعاع الذي ينبثق من كل فرد منا. بيد أن الخوف يسدل على هذه الألوان ستاراً قذراً باهت اللون أشبه بدخان لزج. وإن صحب هذا الخوف ضجر عنيف كانت هناك نقاط حمراء كقطرات الدم على هذا الستار.

"وهناك علامات أخرى كهذه أتبين بها كنه الشخص وأحكم بمقتضاها على شخص ما. فإن سار المرء نحو "شامبا" غير وجل ولا هياب عرفت أنه صادق" وهنا قلت له: هب أن الرجل لا يحب الأسود كما أمقت أنا الأفاعي مهما صغر حجمها وانعدم أذاها.

فرد علي قائلاً: لا يخشى عدالة فرعون الأخيار البعيدون عن الشر إذ أنهم يعلمون أن السوط في يده هو لحمايتهم، وأن الأسد الرابض عند قدميه جزء من عدالته. أما أولئك الذين يخشون فرعون أو يخشون "شامبا" فعليهم أن يخشوا قلوبهم، وعندئذ قلت له: هب أن هناك رجلاً مذنباً يحب الأسود والسباع كما أحب أنا "ناتي" فإن هذا الرجل لا يخشى أسود الناس الآخرين الأليفة.

فقال: "بتاح كفر" هناك طرق أخرى أميز بها المذنب من البريء فمثلاً إذا تنازع رجلان على قطعة أرض، وكان لو أحدهما أدكن لشرهه ولون الثاني أزرق كالفيروز وهو ما يشع من الشعراء والمثالين، وعرفت من ذلك أفكاره وأنه لا يؤثر الثراء بل يفضل أن تتضور أولاده جوعاً وأن ترقع زوجته ثوبها الوحيد على أن يفكر في عرض من أعراض الدنيا، وعندئذ أتبين تماماً أنه إذا ادعى ملكية هذه الأرض فادعاؤه عن حق وليس بدافع النزعة إلى تملك مال الغير. ولكن قلما يحتاج والدك إلى استشفافي أنا فإن له من الحكمة والإدراك ما يساعده على قراءة ما تخفيه القلوب ولو أنه لا يرى ألوان أفكار المتهمين إلا أن سجاياهم تكون ظاهرة له كما لو كان يراها مكتوبة على قرطاس بين يديه.

ثم استرسل في حديثه قائلاً: في غابر الأزمان عندما كانت الدنيا حديثة العهد دعا حكيم ربه فقال "يا رب دع نورك يشرق أمامك حيثما كنت ولو في كهوف العالم السفلي حتى لا يخشى الظلمة من يتبعك، لأنك ستنير لهم طريقهم في رحلاتهم" وهذا النور الذي تحدث عنه هذا الرجل الحكيم هو نفس النور الذي يشع منا والذي حدثتكم عنه. فعندما نصل إلى نهاية الشوط في رحلتنا على الأرض تكون جميع الألوان قد تحولت إلى نور أبيض ناصع.

وفي هذا البياض الناصع نرى جميع الألوان الصافية ففيه نرى ألوان حراس الأرض الثلاثة فنرى لون "الحكمة" الأصفر يرمز إلى الخبرات والتجارب، ونرى لون العاطفة الأخضر الوديع الذي يرمز إلى الإدراك ولون محاربي "مآت" القرمزي الذي يرمز إلى الشجاعة التي تقضي على الخوف والوجل.

الفصل الثامن

أسطورة الخليقة

في يوم من الأيام سألت "بتاح كفر" عن النجوم فقال: إنها عوالم كعالمنا هذا لا يمكن حصر عددها وهي كقطرات ماء في نهر، ومن الحماقة أن يحاول الإنسان منا إدراك حجمها لأن من يحملق في الشمس ليعرف كنهها يصيبه العمى ويصبح عاجزاً عن أن يرى ما بين يديه. ثم استرسل وحدثني عن أسطورة الخليقة قائلاً:

في غابر الأزمان أرسلت الآلهة التي تسكن بعيداً عنا ولا ندرك جزءًا من ألف من عظمتها أرسلت هذه الآلهة العظام خادمها "بتاح" وزودته بقدح مملوء بالحياة وهذا القدح رغم أن "بتاح" كان يفرغ ما فيه فإنه كان لا ينضب معينه إذ كان دائماً ملآن بالحياة. وأمرته الآلهة العظام أن يعلم هذه الحياة كيف تكتسب الحكمة حتى تبلغ غايتها وتصبح شعلة الروح النقية وقد صقلتها التجارب، ونصبته سيداً على الدنيا التي كانت رمالاً وصخوراً لا إدراك فيها ولا حيل.

نشر "بتاح" الحياة فبدأت الجبال تشعر بالشمس وقد ألهبت جنباتها، وعرفت الوديان برودة ليالي الشتاء القارصة ثم عادت تلك الحياة إلى "بتاح" وقالت: الآن وقد عرفنا شيئاً عن الحرارة والبرودة، دعنا نتقدم نحو

المزيد من المعرفة والعلم. وعندئذ كسا "بتاح" التلال أشجاراً، وغطى الوديان بحشائش نضرة وأزهار، وبث فيها الحياة. وعرفت تلك النباتات كيف تدفع جذورها في باطن الأرض بحثاً وراء "القدرة" حتى يمكن للزهور أن تتفتح للشمس وللنباتات المتعرشة أن تمسك في الصخور وأن تنشر النباتات الأخرى ظلها فوق البحيرة. ورغم تباين أنواعها اقتسمت بينها كل ما اكتسبته من خبرة ومعرفة ولم تستأثر واحدة منه بما تعلمته. فعرفت أعواد الحشيش كيف تهز الريح أغصان الأشجار. وحتى النباتات الشوكية كالصبار كان لها نصيبها من وداعة الطحلب ورقته.

ثم عاد القدح الذي امتلأ بالحياة مرة أخرى وقال في صوت أقوى من ذي قبل: قد تعلمنا كثيراً من الدروس عن النبات، والآن نريد أجساماً تتحرك وتسعى في الأرض لنعرف مصيرنا بأسرع مما يمكننا الآن.

فخلق "بتاح" الحيوانات في الأرض وكانت بسيطة في مبدئها كالديدان والحلزون ثم خلق أجسام الأرانب والوعل ثم الأسود ثم الحمار الوحشي ثم الطيور المغردة ثم الأسماك. وعادت المخلوقات إلى "بتاح" مرة أخرى وقالت: الآن وقد اكتسبنا العقل والحكمة وأمكننا أن نعبر الصحراء بالليل ونجد الماء والمأوى، وقد بلغنا في تجوالاتنا في الأرض مسافات بعيدة، وعرفنا أشياء كثيرة متباينة فأخلق لنا أجساماً تتناسب معنا. فرد "بتاح" وقال: أيتها المخلوقات قد أرسلت الحياة في الصخور وفي النبات وفي الحيوان، وقد عدتم إلي وقد شاركتم بعضكم بعضاً ما كسبتم من خبرات وتجارب وتراحم ومودة نشأت بينكم في زرعكم، والآن حان وقت لأخلق

لكم أجساماً كجسمي وعندئذ سيقول كل منكم "أنا" وعندما يفوه سيشعر بوحدته ولن أهديكم إلى طريقكم فعليكم أن تبدءوا شوطاً كبيراً من رحلتكم في الحياة لن ينتهي بكم إلا إذا أمكنكم أن تحبوني كأخ لكم لا كخالقكم. فقالت المخلوقات إننا نطالب بهذه الفرصة حتى نتطور ونนال أخوتك. وعندئذ خلق "بتاح" الإنسان ومسار الإنسان في الأرض، وتمتع بما فيها فكانت الأودية بما عليك من حشائش نضرة ناعمة تحت قدميه، وتمتعت أنفه بأريج الأزهار وفمه بحلاوة الفاكهة واستلقى في ظلال الأشجار الوارفة وقت الظهيرة، وكانت الغزلان تأتي إليه وتمرغ أنفها في يديه، وكانت الأسود تسير بجانبه على حافة الأنهار والقنوات وكان يسابق الظباء في سرعتها.

ولكن كلمة "بتاح" كانت تتردد في فؤاده "أنا... أنا وحيد" فشعر بالوحدة ولما شعر بها دب الخوف في قلبه، فهجر الأماكن الوديعة في الدنيا، وجرى يبحث بحث اليائس عن شخص آخر يذهب به وحشته ويؤنس وحدته، ونادى الآلهة في آلامه فاستمع له الإله "مين" ونزل إلى الأرض، وجعل "مين" هذا الرجل ينام نوماً عميقاً وقال له وهو نائم: لن تكون الآن في الأرض وحيداً فستكون لك شريكة وستسعيان معاً في رحلتكما وسأهبكما القدرة على أن تلدا أبناء مثلكما وسأبث فيهم روح "بتاح" وعندما تريان أطفالكما فسترعيانهم كما رعاكما من خلقكما. ومن الحيوان كذلك خلق من كل زوجين اثنين فأصبح لكل من الإنسان والحيوان صغار يطعمها ويحميها حتى النباتات كان لها نصيبها من تلك الآية،

فدفعت بجذورها في باطن الأرض بحثاً وراء الماء لتسقي حبوبها الآخذة في النضج.

وفي تلك الأيام كانت كل المخلوقات تعيش جنباً إلى جنب في أمان وهي تشعر بقرابة بعضها ببعض وتعلم أن خالقها واحد. فكان يأوي الأرنب في الليالي الباردة إلى جانب الأسد طلباً للدفء وكان الإنسان شكوراً للنبات والأشجار التي أظلته وآوته وأطعمته فقد كانت الدنيا في تلك الأيام الخوالي في بداية خليقتها لم ينس مخلوق من نبات وحيوان وإنسان من خلقه وسواه.

الفصل التاسع

الجسد

بحثت يوماً عن أخي "نياح" حتى وجدته مع والدي في الغرفة التي يحفظ فيها سجلاته وأوراق البردي التي دون عليها الكتاب ثمار علمهم وتجاربهم وحكمتهم. فبعضها كتب من سنين مضت، وبعضها الآخر كتب عن الزمن الذي نعيش فيه وليس للعلم أو الحكمة أعمار، فلا تشيب ولا تهرم، وهي لا تتغير مع الزمن. وعند دخولي الغرفة كان أبي يرى أخي إحدى كتابات "زرتر" الذي كان يعيش في القصر وقد سجل كل ما عرفه عن جسد الإنسان حتى يعرف من يأتي بعدنا كيف يعنون بأجسامهم، وكيف يمكن أن تعيش روحهم في أجسادهم السليمة عيشة راضية مطمئنة، وكان على إحدى أوراق البردي صورة هيكل رجل لا جلد عليه ولا إهاب وقد لونت هذه الصورة بلون بني باهت، ومن قمة الجمجمة تشع خطوط حمراء في جميع أجزاء الجسد. وكان والدي يشرح ذلك بقوله إن في الجسد ممرات صغيرة تنقل الشعور إلى الجزء المسيطر على الجسم ومركزه الرأس وإنه من الضروري الإلمام بذلك لأنه لو أصيب أحد هذه الممرات فإن الإنسان قد يشعر بالألم في أصابعه على حين تكون الإصابة في ذراعيه. وقد ساعدت هذه المعلومات أولئك الذي يشفون المرضى بأعشابهم أو بمبضعهم حين لا يجدون أحداً من ذوي الجلاء البصري أو الاستشفاف ليرشدهم إلى موطن الداء.

وقال والدي: إن الجزء الخارجي من أجسادنا ولو أنه الطريق إلى كسب الخبرة فإنه بالنسبة لأنفسنا بمثابة الملابس التي نرتديها على أجسامنا. ويسمى هذا الجزء الخارجي "الخات" ويكتب كسمكة جانحة إلى الشاطئ لأنه إذا كانت الروح داخل الجسد كان هذا الجسم كسمكة سابحة في النهر، ولكن إذا غابت الروح عن هذا الجسد في أثناء النوم مثلاً فإن هذا الجسم يصبح لا حول له ولا قوة كتلك السمكة التي جنحت إلى الشاطئ بعيدة عن الماء.

وسألت والدي قائلة: لماذا نصور الأجزاء الداخلية للجسم وعندنا من لهم قدرة على الجلاء البصري أو الاستشفاف فأجاب قائلاً: إننا في العاصمة لا ينقصنا هؤلاء إلا أن هذه الميزة لا تتوفر إلا لقليل جداً من الرجال إذ تتطلب عناء ومشقة حتى يمكن توافرها لدى شخص ما، وحتى في الوقت الحاضر نجد أماكن ليس بها أحد له تلك القدرة في أرض "كام" وعندئذ يصاب الناس بأمراض كثيرة ولا يجدون من له القدرة على الاستشفاف ليكشف لهم عن علتهم. وهناك بلاد كثيرة لا يتوفر فيها هذا النوع من الرجال حتى يساعدوا المصابين والمرضى، إذا لم يكتسب كهانهم تلك القدرة ولم تخصص بمعابدهم أماكن للتدريب على ذلك. فلمثل هؤلاء الناس تكون المعرفة الدقيقة بوظائف الجسم أمراً له أهميته القصوى ولو أن وجود (مستشف) يكشف موطن الداء أفضل وأنجع.

وقد أمعنت النظر في هذه الصورة فرأيت أن في قمة الرأس حيث تنبعث تلك الخطوط الحمراء صورة إنسان صغير رسم بدقة فائقة فأشرت

إليه متسائلة عما إذا كانت تلك الصورة التي تشبهنا موجودة فعلاً داخل رءوسنا، أم أن هذا ضرب من ضروب الكتابة فأجاب والدي نعم إن الإنسان والحيوان لهم هذه الصورة فعن طريقها تنتقل أوامر الروح إلى الجسد ولا يمكن أن يراها إلا (مستشف). فإذا نظر (بتاح كفر) بعينى روحه إلى هذا الجزء من إنسان على وشك أن يرفع ذراعه فإنه يرى هذه الحركة وقد أداها ذراع ما نسميه (كا – أيبيس) قبل أن يؤديها ذراعه الدنيوي.

واسترسل في حديثه قائلاً ألا تذكرين ذلك الجندي من حامية (نا – كش) الذي حملوه إلى المعبد وقد أرسله رئيس الحامية في قارب غلال فارغ؟ لقد رأى هذا الجندي زوجته وقد أمسك بها تمساح فقتلها، وكانت الصدمة قوية عليه لدرجة أنه فقد النطق فأرسلوه إلى هنا لنرى ما يمكن أن نعمل لشفائه، وتعليل ذلك أن خوفه وفزعه كانا شديدين لدرجة أن قوة مشاعره التي تسيطر على جسده قد أضرت الـ (كا – أيبيس) الخاصة به فعجزت عن أن تنقل أوامر هذا الحارس إلى عضلات النطق في حلقة فأصابه البكم. ولكن لما رأى (بتاح – كفر) ما أصاب هذا الرجل قام بعلاج الـ (كا – أيبيس) وتقويتها حتى عادت إليها قدرتها على تنفيذ هذه الأوامر والقيام بها.

وتكتب الـ (كا – أيبيس) كرجل يمشي وهذا المشي رمز لرجل أطاع روحه عن طريق الـ (كا – أيبيس) كما يرمز لها أحياناً بقدمين يدلان على السير أو السفر كما أنبأكم الكاتب.

واسترسل في حديثه قائلاً: عندما نزح قوم "أتلانتا" لأول مرة إلى أرض "كام" وجدوا طائر "أبا منجل" (الأيبيس) وقالوا إن ريشه الأبيض والأسود يرمز إلى نور الحكمة والمعرفة حين يتخلل ظلمة الجهل وإن صراخ هذا الطائر وهو "آه" حين سمعوه قالوا هذا طائر لا ينطق إلا عن حكمة ومن ينطق عن الحكمة لا يقول إلا صواباً وحقاً. وفي أرضنا القديمة كان يرمز لـ "تحوتي" إله الحكمة ووازن القلوب بكفتي ميزان متعادلتين وهما نفس الكفتين اللتين ترينهما في ساحات القضاء في "كام" في يومنا هذا. وبعد زمن أطلق الناس على إله الحكمة اسم "ثوث" وصنعوا له تماثيل برأس "أبي منجل" وعرف بعد ذلك أنه هو القائم على السجل العظيم الذي تدون فيه جلائل الأمور لأنهم قالوا كما أن "أبا منجل" لا ينطق إلا حقاً وما الحق إلا الحكمة كذلك لا يسجل "ثوث" إلا تلك الأمور التي لها صفة الدوام وتدل على الحكمة والحق المطلق لأن كليهما لهما صفة الدوام. ولذا عرف "ثوث" بعد ذلك أنه إله الكتاب أما اليوم فقد نسي كثير من الناس أن "تحوتي" و"ثوث" هما إله واحد.

وكما أن الكاتب يترجم أفكاره إلى رموز وكتابة، كذلك يترجم الإنسان الذي في رأسنا الأفكار ويحولها إلى أعمال.

وحيث أن هذا الشخص الذي في رأسنا متصل ومرتبط بجزء خاص من جسدنا ويموت بموت الجسد لذلك لا يمكن رؤيته بالعين العلمانية كما تراه الروح "كا" ولذلك سميناه حارس الروح "كا – أيبيس" وسألت والدي عن مكان الروح من أنفسنا لأني لم أفهم ما قاله لي أخي عنها وطلبت منه

أن يوضحها لي فقال "إن في الجسم أجزاء كثيرة نستفيد منها في حياتنا فالرئتان تنقيان الهواء الذي نستنشقه وأمعاؤنا ومعداتنا وأعضاء أخرى تحول الطعام والشراب إلى دم نقي يدفعه القلب إلى أجزاء جسمنا، ولكنا في حاجة أكثر إلى شيء تعجز هذه الأعضاء أن تدبره لنا، وهذا الشيء هو الحياة.. تلك الحياة التي نراها في كل مكان وسمعتني أسميها حياة "بتاح" وهي دقيقة لدرجة لا يمكن معها أن تتصل "بالخات" ومن ثم فإن هناك صورة دقيقة لنا صنعت من نسيج من آلاف الأوعية الدموية التي لا يمكننا أن نراها. وهذه القنوات هي مجرى الحياة التي وهبها لنا "بتاح" وبدونها لا نحيا.

وهذا الجزء من أنفسنا يسمى الـ"كا" ومعناه مجمع الحياة وهو لا يمكن أن نراه رؤية العين إلا أنه من الأهمية بحيث لو أصيبت هذه القنوات وعجزت عن نقل الحياة في الجسم فإن الجسم لا بد وأن يموت. ويمكن للـ"كا" أن تدخر المزيد من الحياة أثناء النوم وهذا هو السبب في أنه يمكننا أن نعيش مدة طويلة دون طعام ولا يمكننا أن نعيش من غير نوم. وفي الكتابة يرمز للـ"كا" بذراعين مرفوعتين إلى أعلى يرتفعان من خط مستقيم، ويدل هذا الخط على الأفق، وبمرور الزمن أصبح معناه الأرض أو العالم. أما الذراعان الممتدتان والباسطتان يديهما فترمزان إلى إنسان وصل إلى الطبقات العليا ليجمع الحياة التي أتى بها "بتاح" إلى هذا العالم، ومنذ مئات السنين كانت هناك دائرة بين اليدين وفوقها ترمز إلى منبع الحياة ولكنا الآن نستعمل أبسط الأشكال.

الفصل العاشر

"الشافون بالأعشاب"

ارتقى والدي عرش فراعنة مصر، قبل وفاة "منيس" العظيم باثنتي عشر عاماً وكان إلمام الناس بالعلاج بالأعشاب ضئيلاً، ولكن والدي أحيا ما اندثر من العلم القديم وزاد عليه كثيراً مما كشف حديثاً، وكان أهل "أرض الذهب" ملمين بالمعلومات القديمة عن الأعشاب وقد أتى والدي من هذه البلاد بكثير من النباتات الغريبة عنا، كما أتى له المسافرون بنباتات نادرة من بلاد بعيدة، وكان يمنحهم مقابلها ثلاثة أمثال وزنها ذهباً. ومع أنه كان مولعاً بالزهور والأشجار. إلا أنه لم يزرع بحديقته الخاصة الملاصقة لجناحه الخاص إلا تلك النباتات التي تستعمل في شفاء الإنسان والحيوان من شتى الأمراض، وكانت تجفف بعض أوراقها ثم تغلي في الماء، ويتناول المصابون بالحميات بعضاً منها، وكانت جذور بعضها الآخر تصحن حتى تصبح مسحوقاً فإذا وضع بعضها على اللسان شفى أمراض الأمعاء، ومن بعضها كانت تصنع الدهانات والمراهم التي تشفي الآلام والتهابات الجلود حول الجروح، وكان يستخدم قشر بعض الشجيرات ذات الزهور الصفراء في إعداد غسيل للعيون. وقد زرع شجر الخشخاش الطويل بأوراقه المجعدة الناعمة لتعد من بذوره جرعات تخدر المريض فتخفف من آلامه. ومن بين هذه النباتات نبات نادر له ساق سميك إذا

وضع عصيره فوق رباط وعصبت به العين أزال عنها الصديد الأصفر التي يذهب بالبصر إذا غشي القرنية.

وبعد أن أقيم النصب التذكاري الذي كتب عليه تاريخ القصر وبناؤه قال لي والدي: إذا حفظت الناس ذكراي مستقبلاً فأملي أن يذكروني لا كمحارب في ميدان القتال، ولا بتلك المباني التي أقمتها. إني أود أن يذكروني كإنسان شفاهم من أمراضهم بما كشفت من أعشاب، فإن شفاء رجل وإعادة قوة إبصاره إليه حتى يرى النجوم مرة أخرى أعظم قدراً عندي وأجل شأناً من تشييد المباني الضخمة. وكثيراً ما كان يخبرنا أن الإنسان يتعلم كثيراً من النباتات فبنو الإنسان في رأيه حمقى إذ نرى بعضهم يقوم بالعمل الذي لم يخلقوا له فالمحاربون يلقون سلاحهم ويلجأون إلى الحقول يزرعونها ويسيرون وراء محاريثهم على حين نرى الفلاح وقد هجر الأرض ليكون نقاشاً، ونرى الخطاط قد عف عن قلمه وامتشق السيف. ولكن النباتات أكثر حكمة ورجاحة عقل من الإنسان لأن كلا منها يكسب بوسائله المختلفة خبرة خاصة به، فزهرة البنفسج لا تتدلى من تحت أوراقها لأن ساقها خالية من الشوك الذي يحميها، وزهرة (البربينا) لا تحاول أن تتفتح كزهرة السوسن بل تقنع بأن تبعث بأريجها عن طريق أوراقها الصغيرة الخضراء.

وفي يوم من الأيام رأينا والدي ذلك الرجل العظيم راكعاً بجانب نبات من نباتاته وقد ترهلت أوراقه وتدلت براعم أزهاره وكان يشير بأصابعه إليه كأنما يعالج مريضاً ولما انتهى سألناه عما كان يفعل فأجابنا قائلاً "إن هذا

النبات على وشك الموت لافتقاره إلى الحياة ويختلف النبات عن الإنسان والحيوان، فالإنسان والحيوان يستطيعان أن يستعيدا حياتهما بعد أن تفارقهما الروح في نومهما ولكن النبات لا ينام ولذا لا يمكنه أن يجدد حياته ونشاطه عن طريق النوم. ولذا خصص "بتاح" لكل نبات روحاً صغيراً تعنى به كما تعنى "الكا" بأجسامنا، وأرواح النباتات تتخذ أشكالاً مختلفة ولكنها جميعاً دون استثناء تدور بسرعة تفوق سرعة البلبل حين يديره الأطفال بخيوطه، وفي حديثه ذكرنا والدي بتلك الريح الغريبة التي رأيناها يوماً ما تحمل معها رمالاً وقطعاً صغيرة من الأخشاب والنباتات تتلاقح بها. ثم استرسل قائلاً إن الروح النباتية تجمع الحياة لتغذي بها النبات الخاضع لحمايتها، وروح هذا النبات الذي كنت بجانبه ضعيفة وعاجزة عن الدوران. ولما كنت كاهناً شافياً أرسلت روح "بتاح" فيها وبإرادتي سرت تلك الروح حيث أشرت بأصابعي في موضع من النبات، وعادت تلك الروح سيرتها الأولى وأصبحت من القوة بحيث يمكنها أداء وظيفتها.

الفصل الحادي عشر

الجلاء البصري أو الاستشفاف

كان لأخي "نياح" قط بري لم يتمكن من استئناسه رغم محاولات كثيرة وأخيراً أتى بأليفة حتى لا يعيش وحيداً وبنى له بيتاً خاصاً به والحق بالبيت مركضاً له، وزرع في هذا المركض الحشائش والأشجار حتى يشعر القط أنه في بيئته الطبيعية، ولم أدر سبب غرام "نياح" بهذا القط، فقد كان يقضي الساعات الطوال محولاً استئناسه حتى يأمن جانبه ويأنس له. فكان يطعمه بنفسه وكان يبدي بعض السرور عند رؤية أخي فكان يجري إلى باب بيته عندما يسمعه يناديه.

وفي يوم من الأيام ورغم كل ذلك وبلا مبرر غير غضبه عض هذا القط أخي في بطن رجله عضه آلمته ومن حسن الحظ كان "سيرتن" ينظف مركض هذا القط فحال بينه وبين أخي بمجرافه.

وكان "نياح" يكره أن يزعجه أحد إن أصابه أذى لكنه في تلك المرة لم يستطع أن يكبت آلامه، إذ كان يسير بصعوبة كبيرة والدم ينزف من ساقه فذهب إلى والدي وأخبره بما حدث لأنه كان يعلم أن مربيتنا "مآتا" تعج وتصخب وتقول له: قد حذرتك مراراً وقلت لك إن هذا الحيوان المخيف سينقلب عليك يوماً ما. ولم يخبر "نياح" والدتي بما حدث لأنها تقلق وتجزع لآلامنا وإن كانت تخفى ذلك عنا. أما والدي فكان يبدو هادئاً

إذا أصاب أحداً منا سوء. بل كان يخفف الآلام عنا بالإيحاء فكان يوحي إلينا أننا جنديان يتحملان آلام جراحهما ويتحدثان عنها بعد المعركة. فإذا أصبت من سقوطي من شجرة لم أحسن تسلقها، كنت أدعي أني أصبت في هجومي على الأعداء في عربتي الحربية. وكان والدي يؤلف قصصاً خيالية عما به في أثناء المعركة. وكانت هذه القصص تستهويني لدرجة أنها كانت تنسيني آلامي.

ولما فحص والدي ساق "نياح" أرسل في طلب "بتاح كفر" فلما حضر فحصها بعيني روحه وقال: إن بها تمزقاً في عضلاتها وإذا روعيت وعولجت مرتين في اليوم فستبرأ في مدى خمسة عشر يوماً. ولم يرسل والدي في طلب كاهن معالج بل قام بذلك بنفسه وبث في جرح "بتاح" ووضع عليه مرهماً وربطه برباط عليه شيء من دواء.

ولم يستطع أخي السير أياماً عدة وكان يعوده "بتاح – كفر" كل صباح ويفحص ساقيه ليرى حالهما وكثيراً ما كان يمكث معنا مدة يتحدث إلينا، وكان قادراً على تفهم عقليتنا كأطفال ولو أنه لم يرزق أطفالاً. وكان بارعاً في النقش وكثيراً ما سعى أخي على القيام بأعمال كثيرة فأصلح لي مرة قارباً صغيراً استعرته من أخي وكسر مني.

وعندما تماثل أخي للشفاء سأل "بتاح – كفي" كيف يمكنه أن يرى الجرح في ساقه وقد ضمد ويده على عينه، نعم إن أخي يعلم أنه قادر على الاستشفاف لكننا لا ندري كيف يستخدم هذه الموهبة فأجاب "بتاح –

كفر" بأنه لا ينظر إلى الجسد بل يحاول أن يرى ببصره ما يحمل الحياة إلى الجسد وهنا قاطعته وقلت له إنك تقصد الـ"كا" التي يرمز لها في الكتابة بذراعين ممدوتين إلى أعلى.. وهنا عبس أخي في وجهي لأني قاطعته وبعد ذلك استمر "بتاح – كفر" في حديثه وقال: قد تبدو الأرض هامدة ولكن في الواقع لا هدوء فيها فكل شيء ترونه له لون يعكس أشعة ضوئية خاصة وبعضها يرسل الأشعة أسرع من الأخرى. وهنا أمسك بكرتي التي ألهو بها وقال: فلنفرض أن هذه الكرة شعاع من ضوء وأن الحائط هو الجسم الذي يتلقى هذا الشعاع فإذا كانت الحائط من صخر ردت الكرة ثانية إلينا. ومثلها في ذلك مثل شعاع ضوء وقع على جسم فعكسه بسرعة، ونسمي اللون الذي يعكس الضوء بسرعة البنفسج لأن لون البنفسج أسرع الألوان انعكاساً أما إذا كانت الحائط التي أمامنا من طمي فإن الكرة تسقط في حوض الزهور الذي أسفلها. وهذا ما يحدث إذا كان شعاع الضوء أحمر لأن الأحمر أبطأ الألوان انعكاساً ولا يمكن لأعيننا أن ترى ما هو أسرع في انعكاسه من البنفسج. ولنفرض أن هذا الحائط من مادة الـ"كا" فإنها سترد الكرة فوق القصر ثم إلى حقول الكروم لأن سرعة الضوء الذي ينعكس من الـ"كا" بعيني روحي فإني أغطي عيني بيدي حتى ينقطع النور البطيء الذي نعرفه باللون عني، وببصري المدرب على ذلك أرى سرعة روحه فتبدوا لي ساكنة سكون شخص في سبات عميق وذلك لأن بصري أثناء الاستنشاق يسير بنفس السرعة التي تسير بها روحه، وهنا توقف قليلاً ثم قال: أخشى ألا يكون حديثي واضحاً. ولكن "نياح" قال له: إنه يدرك ما يقول فمثلاً إنه يرى بقرة وهو يطل من نافذته لأنها تسير

بسرعة عادية أما إذا مرق سهم بشدة بجانبه فإنه لا يراه وذلك لأنه يسير بسرعة لا يمكن أن يراه بسببها وكذلك يصعب علينا رؤية الذباب الفارسي لسرعة طيرانه.

وقاطعت أخي قائلاً: إن مثل ذلك مثل رجلين ركبا في عربتين تمران جنباً لجنب وكل منهما يسير بنفس السرعة التي يسير بها الآخر فعندئذ يشاهد كل منهما الآخر، ولكن إذا سارت عربة بسرعة ومرت بي فإنه يصعب على رؤيتها فصاحب الاستنشاق ينتقل بروحه بنفس السرعة التي بها الشيء الذي يريد رؤيته وكشفه.

وأظن أن بتاح كفر قد سره سرعة إدراكي للأمور وتفهمها، وتساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان هذا الرجل لا يشعر بالضجر والملل إذا أعرض الناس عن علمه فلا يستمعون لقوله. وسألته عن موقفه إذا لم يصدق الناس قوله، ألا يأتي أمامهم بما يعجزهم حتى يريهم مقدار جهلهم فضحك وقال: إذا رأيت إنساناً يموت جوعاً فالواجب أن نسعفه بالطعام ولكن إذا رفض هذا الطعام ظناً منه أن به سماً زعافاً، فالأجدى ألا نحشو فمه حشواً وإلا سد مسالك الهواء به وأماته، وكذلك علينا ألا نعطي الجوعان إناءً كبيراً به طعام خوفاً من أن يزدرده ازدراداً فتصيبه التخمة ثم يرغب عنه بعد ذلك، بل يحسن بك أن تطعميه تدريجياً فتعطيه لبناً حتى تتهيأ معدته لاستقبال وجبة من اللحم وعندئذ يستفيد الجسم منها ويتقبل المزيد.

وبعد ذلك انصرف "بتاح كفر" حيث دنت ساعة الاستقبال بالقصر وقلت لأخي: إنه من العبث أن نشرح للناس أموراً هم معرضون عنها فقد قصد "بتاح كفر" في حديثه بكلمة الطعام العلم والمعرفة، وبالرجل الجوعان الرجل الجاهل.. وقد سر أخي بما أدركته وفهمته، ولا أدري إذا كان (نياح) يقصد بإظهار ارتياحه أن يشعرني أنه أكبر مني أو يريد بذلك معاكستي، وأخيراً قلت هيا نخرج فاستجاب لقولي وخرجنا معاً.

الفصل الثاني عشر

"النفس"

في نهاية حديقة الأعشاب التي تحدثنا عنها أقيمت مظلة من الحجر يستند سقفها على عمودين مجوفين، سجل على جدرانها أسماء الأعشاب المزروعة في الحديقة وكانت هناك مسافات خالية لكتابة أسماء ما يستجد منها، وعلى الحائط القبلية فيها كتبت أسماء تلك النباتات التي تستعمل أوراقها في العلاج، وعلى الجدار الشرقي كتبت أسماء النباتات التي يستفاد من زهورها وبذورها، وعلى الحائط الغربي أسماء تلك النباتات التي تستعمل جذورها في شفاء الأمراض.

وفي الصباح أحد الأيام ذهبت إلى هذه الحديقة فوجدت "نياح" يتحدث مع النقاش الذي كان ينقش ما سجله أحد الكتاب تحت إشراف والدي، وكان خط الكاتب بلون أسود، ورأيت خط والدي لون أحمر في مكانين مصححاً ما كتبه.

أما أخي فقد استعار بعضاً من آلات النقاش وأخذ يتدرب بها على شظية من شظايا الحجر. ولما أخبرته بأنه لا يتقن هذا العمل: إنه يحاول أن يتدرب عليه حتى يتقنه. وظننت أنه يمكنني أن أنقش على الصخر بنفسي، ولما حاولت ذلك أصبت إصبعي وأدميتها فأعدت الحجر إلى أخي إذ وحدت ذلك أشق على مما كنت أظن. وقد استغرق أخي في التدريب على

النقش وانشغل به عني فلم يحدثني، فغافلته وأخذت أعبث بشعره وجدلته جدائل على ظهره ومع أنه قد يغضب لذلك لأن غضبه عندي أحسن من صمته وانصرافه عني.

ولما سمعت أصوات تقترب منا، طلبت منه أن يصلح من شعره إذ كنا لا نود أن يرانا الناس يداعب أحدنا الآخر، وكان القادم والدي يصحبه (زرتر) النقاش وهو يسأله عما إذا كان قد عبر بالنقش عن الآراء والأفكار التي كان والدي يود أن ينقشها على الصخر، ولما انتهى والدي من مراجعة تلك النقوش اصطحبناه إلى الكرمة حيث يجري حصاد العنب الأحمر. وكان يلبس أولئك الذين يجمعونه من الرجال قطعة قماش تنسدل من وسطهم حتى تصل إلى الركبتين وأما النساء فكن يلبسن قمصاناً من تيل خشن ثبتت على أكتافهن اليسرى وكان الجميع يجمعون العنب في سلال من القش فإذا امتلأت حملتها النساء على رءوسهن وألقت بها في حوض النبيذ، وهو حوض مستدير من الحجر. وبعد ذلك تمر عليه أسطوانات خشبية فتعصره وتتصل هذه الأسطوانات بعوارض من خشب يدفع كل منها ثوران أبيضان. وكان صانعو النبيذ يعدون الخمر للقصر الفرعوني ولذلك كانوا يستخدمون أسطوانات خفيفة حتى يحصلوا على أنقى عصير منه.

وبعد ذلك ذهبنا إلى البستان مخترقين طريقاً تحفه أشجار الرمان، ولما وصلنا هناك جلسنا في ظل شجرة تين، وسألت والدي أن يحدثنا في أي موضوع يحب، فقال "سأحدثكم عن أنفسكم لأن معرفتكم بها أمر مهم

جداً فالإنسان لا يمكنه أن يحدد ما يحتاج إليه في حياته إلا إذا عرف كنه نفسه وألم بما لديه وتبين ما يعوزه، وقد سبق أن أخبرتكم بأمر أجسامكم التي تعيشون فيها. وكيف أنها تتكون من ال"خات". وال(كا – أيبيس) وال(كا) فإذا متنا فإن جسدنا يتحول إلى تراب، وما يتقمص هذا الجسد نسميه عادة "الروح" وتنقسم هذه الروح إلى جزئين: النفس التي نحتاج إليها إذا قدر لنا أن نعود إلى الأرض. أما الروح فهي خالدة خلود الدهر. وللنفس والروح خمسة أقسام أو إن شئتما خمس خواص كما للجسم خمس حواس فالخاصية الأولى هي التي ندرك بها المشاعر التي نحسها، فإذا لمست أحداً منكما لمساً خفيفاً وهو نائم فإنه لا يشعر به لأن الجزء الذي يشعر به قد غاب عنه. ولكن إذا أصاب الجسم ضرر وهو نائم فإنه يتطلب حماية الروح وعندئذ نستيقظ. وإذا استمر الألم بعد ذلك فإننا نتبين الذي أيقظنا من منامنا، ولكن إذا كان الجسم قد مس مساً خفيفاً لمدة وجيزة لدرجة لا تسجلها أعصاب الجسم فعندما نستيقظ فإنا لا نتبين ما الذي أيقظنا، والبكاء هو سبيل الجسد إلى إظهار شعور الحزن الذي خيم على ذلك الجزء من النفس الذي يسمى ال(با) فإذا بقيتم داخل أجسامكم كنتم أقل استجابة للشعور على عكس الحال حين تتخلصون وتتحررون منها. فإذا لعق شبلك "ناتى" يدك وهي عارية فإنك تشعرين بخشونة لسانه ولكن إذا لبست قفازاً ثقيلاً فإن شعورك بتلك الخشونة يقل. وينطبق هذا على الجسد، فإذا استيقظ فمثل شعوره مثل القفاز حين يقلل من شعورك بخشونة لسان الشبل.

وهنا قلت لوالدي هذه هي العلة في أن الخوف في الأحلام أشد منه ونحن في عالم اليقظة. فأومأ والدي برأسه مؤمناً على قولي ثم استرسل في حديثه قائلاً "ألا تذكرين تلك القصة التي قصها عليك "باكيوي" عن نفسه وعن اثنين من النوبيين وكيف غضب مرة وهو في أرض الذهب من رجلين نوبيين غضباً شديداً لم يتمالك نفسه معه، فرغم ضآلة جسمه أمسك برأسيهما وأخذ يضرب الواحد بالآخر حتى سقطا على الأرض بين الموت والحياة؟". وبعد ذلك اعترف "باكيوي" في خجل أنه كان مخموراً فكثرة الخمر تنزع عن الإنسان ذلك القفاز فتصبح المشاعر لا حجاب لها وكأنما هي عارية، وعندئذ يكون الشعور بالغضب عظيماً لدرجة أنه يساعد الرجل النحيل أن يأتي بعمل المارد الجبار، وفي نفس الحملة التي جردتها على أرض الذهب حاصرني العدو وكان يبلغ خمسمائة رجلا ولكن كان معي سبعون رجلا فقط وكاهن من كهنة "حوروس" تمكن بقدرته أن ينتزع شجاعة جنودنا من أجسادهم فحاربوا وكأنهم آلهة الحرب وهاجموا العدو وقتلوا منهم عدداً كبيراً وألقى الباقون سلاحهم وولوا الأدبار.

هذا هو السبب الذي يدفع جنود حاميتنا في الجنوب إلى النشيد قبل أن يلتحموا بالعدو لأن هذه الأناشيد تخفف من تأثير أجسامهم عليهم فيحاربون والواحد منهم كعشرة رجال من العدو. وهنا سأله "نياح" إذا أنشدت جنود أعدائنا في أرض الذهب قبل الموقعة هل يظل كاهن حوروس قادراً على أن يجعل السبعين جندياً يتغلبون على جنود يبلغ عددهم خمسمائة، وهنا أجابه والدي بأنه في هذه الحالة يلجأ الكاهن إلى سحر يثقل جنود الأعداء ويقيدها بالأرض فيفقدون وحدة الهدف ويعرفون معنى

الخوف ويتساءلون عن سبب إرسالهم للحرب وعن الأهداف التي من أجلها يحاربون، مع أنه لا يصح أن يفكر الإنسان في تلك الأشياء لأن التفكير فيها في ساحة القتال يجلب الهزيمة.

وأحياناً يرمز للـ"با" في الكتابة برأس ذات جناحين وهذا هو الشكل القديم لها، وأحياناً يرمز لها بطائر له وجه إنسان أما "الـ كا – أيبيس" وهو أسمى أجزاء أجسادنا فإنه يوجد في الرأس على حين أن "الـ با" هو الجزء الأول من أنفسنا(*) أما الجزء الثاني فيتمثل في تلك الخاصية التي نستخدمها عندما نفكر في الأشياء ذات الأبعاد المحددة التي ندركها عن طريق الحواس الخمس، فبها تفكرين في غروب الشمس وفي أسد وفي سمانة مطهية وفي صوت قيثارة، وفي نعومة فراشك عندما تأوين إليه وأنت متعبة وفي رائحة حقول الفول القائمة على ضفة النهر وبهذه الخاصية أيضاً يمكنك تحديد الكلمات التي تتحدثين بها أو تكتبينها، وتحديد شكل البناء والنقش عليه، وتحديد الوقت المناسب لتطلقي سهامك وراء الطير إذا أردت صيده، فليس هناك ما يفعله الإنسان إلا بعد أن يحدده بفكره. ومثل ذلك مثل الكائنات الحية على الأرض التي لم تخلق إلا بعد أن كونها الخالقون العظام.

وعندما سألني النقاش عما إذا كان قد عبر بما نقش عما في فكري فإنه يعلم أن في عقلي صورة واضحة عما أريد أن أبرزه على الحجر، ويأمل أن يكون قد ترجمها ترجمة دقيقة وقبل أن ينقش "نياح" قارباً فإن لديه

(*) الذي يدرك أنه يترك هذا العالم ويتخذ له أجنحة أي أن "البا" هو الجزء الأول من النفس.

صورة في عقله يريد أن يكون عليها هذا القارب وهو يشعر أن هذا القارب موجود في الخشب ولا ينتظر سوى سكينة لتخلصه منه وتبرزه. وعندما تكون نباتاتي التي أرعاها في بطون الأرض فإني أراها ببصيرتي التي في عقلي وكأنها ازدهرت وأورقت أغصانها. وكما أن العواطف والمشاعر تقوى ونحن نيام فإن الأشياء ذات الأشكال والأبعاد تبدو أكثر وضوحاً حين نفكر فيها بعد أن نترك هذا العالم. وهذا هو السبب في أني قبل أن أبرم اليوم أمراً مهماً أو أوافق على مشروع بناء ما فإني أنام قبل أن اعتمدها. وخاصية الفكرة هذه هي ما نسميها (نام). وسأل "نياح" كيف يعبر عنها بالكتابة فأخذ والدي قطعة فحم من جراب يتدلى من منطقة حول وسطه وفي هذا الجراب كان يحمل أقلامه وعدة الكتابة ثم رسم فم إنسان وقال موضحاً "إن الكلمات التي تخرج من فمنا تنتمي إلى هذا العالم. أما إذا تحدثنا عن الروحانيات فإن هذه الكلمات لا تكون تعبيراً واضحاً عن أفكارنا على عكس الحال في وصف الأشكال المحددة الأبعاد وذلك لأن كلا من الأشكال والكلمات تنتمي إلى هذا العالم الذي نعيش فيه.

وهكذا تكتب كلمة "نام" بفم إنسان لأن الفم هو الجزء الذي به نفكر في أشياء يمكن التعبير عنها عن طريق الكلمات. والآن تكونون قد عرفتم شيئاً عن أنفسكم التي تتكون من الـ"با" والـ"نام" أما النفس فإنها تبقى بعد أن يبلى الجسد، ولن نحتاج إليها إذا لم تولد مرة أخرى في هذا العالم، فإذا لم تولد ثانية ماتت النفس، إذا أصبحنا في غير حاجة إليها، فتسمو فوق عالم الماديات حيث لا غضب ولا كراهية إذ نكون قد تعلمنا كيف نضبط تلك العواطف.

الفصل الثالث عشر

"حوروس ذو رأس الصقر"

في نهاية الاحتفال بالإله "حوروس" أخبرني "بتاح – كفر" عن السبب في أن تمثال الإله "حوروس" يمثله إنسان يحمل رأس صقر.

في غابر الأزمان قبل أن تخلق الأرض، كان "حوروس" يعيش في عالم من العوالم الأخرى، فالآلهة تتمتع بعظمة لا ندركها بالعين المجردة، ولكن كما أن أصل كل نبات بذرة كذلك كان كل إله في أول أمره إنسانا وكان "حوروس" رقيقاً رقة الندى على أوراق الأشجار رغم أن قوته كانت كموجة المد في اندفاعها تكتسح كل ما يعترض سبيلها. وإذا غضب كان لغضبته انقضاض البرق، وإذا أراد السكينة والسلام فإن أشد العواصف تخمد أمامه ويخفت صوت الرعد من خشيته، ومثله في صبره وطول أناته كمثل نبات متسلق يزحف ببطء فوق الجدران وتختزن ذاكرته كل الحكمة الموجودة في عالمه ولا تطفئ شعلته أشد الرياح برودة، ولا يفقده نسيم الفرح الرقيق سكينته وهدوءه أما قوة إرادته فقد صهرها وهذبها الزمن.

وقد سلط عليه جنود الشر سهامهم، فسقطت عليه سقوط الأمطار على الجبال، وتحدوا إرادته فهلكوا وأصبحوا كأوراق أشجار جفت وسقطت في نار حامية، وجردوا عليه جيشاً جراراً ولكن سرعان ما تحول

إلى حجارة بنظرة من نظراته. أما زبانية السوء فقد أبقاهم في ظلمتهم حتى يغيروا ما بأنفسهم وتصفو قلوبهم وأطلق سراح أولئك الذين قضوا في هذا السجن مدة طويلة فيما مضى، واتخذ من الصقر رمزاً له لقدرته على أن يحلق في الهواء ويسيطر على الحيوانات ويبقيها رهن إرادته لا تملك في نفسها حرية التصرف وكأنها مكبلة في الأغلال كما حدث لذلك الجيش الذي سار لمهاجمة "حوروس" فتحول إلى حجارة وهذا هو العلة في أن لحوروس جسم إنسان ورأس صقر.

الفصل الرابع عشر

جرار الخمور

كانت "نفرتيري" الشخصية المفضلة إليّ بعد أخي في لهوي ولعبي ويبدو أننا كنا أصدقاء مدة طويلة قبل أن نولد في أرض "كام" وكان أبوها وزيراً، أما والدتها فماتت ولهذا كانت تعيش معنا في القصر، وكنا في لهونا ولعبنا نقلد راقصات البلاط. وكان في حديقة التين حائط أبيض كنا نرقب خيالنا عليه لنرى أينا ينثني إلى الوراء أكثر من الآخر. ورأيت أن في إمكاني أن ألمس الأرض بأطراف أصابعي، أما "نفرتيري" فقد تمكنت من أن تضع يديها على الأرض، وكانت لي ابنة عم تدعى "أربيتا" تعيش معنا في نفس القصر. وما كنا نشعر نحوها بعطف أو محبة إذ كانت بدينة الجسم لا تحسن العدو ولا الغوص في الماء، وكانت تبدو وهي تهبط درجات السلم كعجوز في طريقها إلى النهر لتغسل ملابسها وكانت ترغب عن الرقص معنا رغم نصحنا لها بأن ترقص حتى تصلح من جسمها فبدلاً من أن تطيعنا كانت تذهب إلى الحائكات لتحيك قميصاً لعروستها التي تلهو بها، وأثناء رقصنا سمعت صفير "نياح" يناديني فتوقفنا عن الرقص وقال لنا "إن القوم انتهوا من اختزان الخمر الجديد في السراديب المخصصة له ولكنهم لم يوصدوا عليها الأبواب بعد. ولما نظرت إلى تلك السراديب وجدتها حالكة الظلمة وكأنها قصر "ست" إله الشر فيها بنا نجوب خلالها اللهم إلا إذا خشيت أن يكون بها أفاع".

ولم يكن لطيفاً منه أن يذكرني دائماً بضعفي هذا ولكني رحبت بفكرته وقلت له: "فلنتخيل أنها كهوف العالم السفلي ولكي نصل إليها علينا أن نسير في الطريق المستقيم فوق سور الحديقة، وكنت أظن أن هذا يعطي "نياح" درساً فلا يعيرني بخشيتي من الأفاعي لأن ارتفاع سور الحديقة يبلغ طول والدي مرتين وأنه يخشى السير فوق الأماكن العالية ولو أنه لم يفصح لي عن ذلك. فقال لي إن هذه فكرة صبيانية. فرددت عليه في الحال طبعاً يا "نياح" لأن ذلك صعب عليك فأنكر ذلك واضطر إلى الموافقة والسير في مقدمتنا.

وتسلق "نياح" شجرة التين ونحن في أثره ومنها إلى أعلى السور، وسرنا حول البستان إلى حديقة الخضروات حتى وصلنا إلى بوابتها وكان علينا أن نقفزها حتى نصل إلى ركن الكرمة. وكانت أشجار الكرم تنمو على الجدران قرب مخزن الخمور فكان من السهل علينا أن نهبط إلى الأرض، وكانت هناك درجات عشر تؤدي إلى باب السرداب الواقع تحت الأرض حيث تبقى الخمور باردة. وكان الباب مغلقاً بالمتراس، ولكنهم غفلوا عن ختمه بالخاتم الملكي، إذ كان على ساقي والدي أن يغلقه ويختمه بهذا الخاتم. وغاب "نياح" عنا مدة وجيزة عاد بعدها ومعه مصباح صغير استعارة من طاهي حارس الكرمة، وكان هذا المصباح عبارة عن ذبالة تطفو في إناء من الزيت فينبعث منها ضوء خافت، وبعد ذلك دخلنا السرداب وأغلقنا الباب خلفنا.

كانت جرار الخمر أطول مني، وكان عليها اسم والدي والسنة التي خزنت فيها والمكان الذي وردت منه، ولم يكتب اسم والدي بأكمله بل اكتفوا بكتابة "زا – أتت" ورمزوا له بحزمة من الغاب "البوص" وريشة ونصف دائرة صغيرة وبعدها رسموا شكلاً للغاب والنحلة شعار فرعون ليعرف الناس أنها خاصة به. وكان الجو في السراديب بارداً جداً، ورائحة الخمر تفوح في أرجائها وكان على الأرض قطع من جرار سقطت على الأرض أثناء حملها.

وكان خيالنا في نور المصباح على الحائط كبيراً جداً، وبدأ "نياح" يتحدث في صوت مزعج ومع أني أعرف أن الأمر لا يتعدى الدعابة إلا أني شعرت بقشعريرة عند سماعه وهو يقول "من أنتم أيها الفانون حتى تجرءوا وتأتوا إلى كهوف هذا العالم السفلي" فنهرته حتى لا يسترسل كما طلبت "نفرتيري" أن يقلع عن هذا المزاح. وكان يعجبني منها أنها لا تبالي أن تعبر عن شعورها إذا لم يرق لها أمر. وعندئذ قال "نياح" سأدعي أني "تحوتي" والجرار الكبرى هي الاثنان والأربعون قاضياً. وأشار إلى أحدها وقال هذا هو "الغضب من غير سبب" هل يمكنك يا "سكيتا" أن تواجهيه وتقولي لقد أخضعتك لإرادتي؟ "فقلت نعم يمكنني أن أقول ذلك" فقال: إنك تكذبين يا "سكيتا".... ارجعي إلى الأرض فقد غضبت اليوم مع خادمتك وقلت إنها قد جذبتك من شعرك.

فقلت: ولكنها جذبتني بالفعل من شعري.

فقال: ولكنك عقديته بنفسك لأنك تسلقت الأشجار قبل تمشيطه وتضفيره وبالأمس حاولت أن تضارعي أخاك في مهارته في النقش على الحجارة فجرحت إصبعك وفي سورة غضب ألقيت بالأزميل في الماء، فلنتابع السير.

وقالت الجرة الثانية "في صوت نياح" هل هناك من قاسى الحزن بسببك؟ فقلت: لا.. لم أشق أحداً.

فقال: أيتها المخلوقة التعسة... إنك تكذبين... ارجعي فوراً إلى الأرض في شكل ابنة امرأة نوبية حولاء العينين ألم تبك تلك الفتاة الصغيرة التي تعيش في منزلك بسبب عدم رشاقتها لأنك طلبت منها أن تقوم بألعاب أنت تعلمين أنها لا تجيدها وسخرت منها لبدانة جسمها؟

فقلت: ولكنها يا نياح... أو أيها الإله تحوتي... طفلة غبية.

فقال: إن إفصاحك بما يعرفه الناس يدل على حماقة ومثلك في ذلك كمثل من يشير إلى الشمس في وضح النهار ويقول إن الشمس مشرقة اليوم... وفي حديثك عن بلاهتها تشاركينها هذه البلاهة.

وعلى حين غرة قالت "نفرتيري" ألا تظنان أن القوم سيذكرون أنهم لم يوصدوا باب السرداب، وسيأتون لإغلاقه. وعندئذ سنحبس في هذا المكان المخيف كالقبر. فقال "نياح" نستطيع أن نصرخ فإذا لم يسمعنا أحد فيمكننا أن نعيش زمناً طويلاً على هذه الخمر" وهنا قلت في شيء من

الصرامة إنه يحسن بنا أن نرحل الآن. لأن هذه الخمر ستبقى هنا سبع سنين فقد وضعت اليوم فقط في هذا المكان. ثم خرجنا ومع أننا استمتعنا بهذا الحادث إلا أني سررت لعودتنا حيث تشرق الشمس ثم شعرت بالضيق الذي سببته أنا "لأربيتا" فبحثت عنها حتى وجدتها. وقلت لها أن تطعم "ناتي" إن شاءت كي أرضيها.

الفصل الخامس عشر

"العجلات الحربية ـ رمي الرماح"

كنت أتدرب وأخي "نياح" يوماً على رمي الرمح والسهام وكان "بنيتر" يثبت لنا هدفاً نصوب إليه، وكان هذا الهدف عبارة عن قطعة من تيل مقسمة إلى مربعات حمراء وبيضاء عددها عشرون مربعاً. ورسم في كل مربع شكل حيوان من الحيوانات. وقبل أن نرمي الرمح أو السهام كان يعين "بنيتر" الحيوان الذي نرميه بالرمح أو السهم دون أن يترك وقتاً للتصويب أو التسديد بل كان يباغتنا بالأمر في لحظة وجيزة قبل أن نطلق السهم أو الرمح نحو حيوان يختاره كما لو كنا فعلاً نصيد حيواناً يعدو أمامنا. وكان الرمح عبارة عن ساق خفيف من خشب النخيل له ثقل في أحد طرفيه كي يوازن النصل النحاسي من طرفه الثاني، ولكي نلقي بالرمح كنا نحمله فوق الكتف اليمنى مع ميل كثير إلى الوراء والارتكاز على القدم اليمنى، ثم يندفع الذراع والجسم معاً إلى الأمام فيمرق الرمح من يدنا مروق السهام من قسيها.

وفي مساء يوم ما أصبت في أثناء تدريبي على رمي الرمح "بفقفوقة" في يدي فاضطررنا معاً إلى التوقف، وذهبنا إلى اصطبلات الخيل وأخذنا أحب حصان إلى "نياح" واسمه "ميري ناجا"، وكان لامع السواد وعلقه أخي في عربة صيد خفيفة، وكانت هذه العربة مصنوعة من تيل ملون ثبت

فوق هيكل خشبي، وأرضها من سيور من الجلد تمنع اهتزازها عندما نسرع فوق أرض غير معبدة. وبعد ذلك توجهنا إلى حيث تدرب الخيول على جر هذه العجلات. وفي هذا المكان وضعت قوائم خشبية مثبتة على طول قطعة أرض بيضية الشكل، وكان على المدربين أن يندفعوا بسرعة بين هذه القوائم دون أن تلمسها الخيل أو العربات. وقد طفنا ثلاث مرات حول هذا القطاع بسرعة هائلة وكان (ميري – ناجا) يدور كأنه عصفور أما أنا فتعلقت بسور العربة حتى لا أسقط منها.

وبعد فترة التدريب توجهنا في عربتنا إلى ضفة النهر لنرى الفخ الذي أعده (نياح) لصيد الأسماك، ولما لم نجد به سمكا علل أخي ذلك بأن هذا الفخ لم يوضع في مياه عميقة ولكن العيب كان في الفخ نفسه فلم يحسن (نياح) تصميمه إذ كانت عنقه تسمح للأسماك أن تدخل وتخرج إن شاءت، ولم أفصح لأخي عن رأيي لأنه قضى في صنعه مدة طويلة. وخضنا الماء ووضعنا الفخ بعيداً عن ضفة النهر. وكان المساء هادئاً والجو ساكناً والنهر كمرآة فضية صافية وكنا نسمع صوت الحصان (ميري – ناجا) وهو يأكل الحشائش ويمزقها بأسنانه ورأينا قارباً شراعياً به صياد يتضرع إلى الآلهة أن ترسل له ريحاً تدفع سفينته ولكن الآلهة لم تلب دعاءه فلم يكن هناك نسيم يعكر هدوء مائه. ولنقضي هذا الوقت قطع (نياح) قصبة وبدأ يحفر عليها، أما أنا فافترشت ضفة النهر ورقدت عليها، ومددت ساقي وذراعي في استرخاء. وبدت الأرض لي في هذا السكون كقارب شراعي ساكن فوق سطح بحر عظيم لا حد له وهذا البحر هو السموات فإذا هبت عاصفة وجاء الليل البهيم قذفتنا تلك العاصفة في فضاء هذا الكون بسرعة تفوق

سرعة النجوم فنمر بها ونراها، وقد اتصلت ببعضها كأنها معارف خيل تسير مع الريح في السماء. وهنا سألت أخي عن أمنيته عندما يكبر فأجاب قائلاً "إن أحب أمنية لدي أن أكون قادراً على أن أسوس الناس وأحكمهم، وأن تصدر عني قوانين عادلة تدل على الحكمة، وأن أقود الجيوش بحكمة الأفعى وشجاعة الأسود".

أما أنا فقلت إني آمل أن أقوم بأشياء كثيرة غريبة أشياء لا أفهمها حتى الآن ففي كل يوم تبدو لي أشياء كأن لها شأناً عظيماً وأهمية قصوى فأرضنا (كام) تبدو كبيرة لدرجة لا يميل أحد إلى تجاوز حدودها، وكنت أنظر إلى النجوم من نافذتي وأرجع بفكري إلى الأرض وأرى مقدار صغرها ثم أفكر في بلدنا فأرى أنها على كبرها ذرة من ذرات الرمال في هذا الكون، وإذا فكرت في نفسي تبينت مقدار ضآلتها حتى لو أن نحلة سارت فوق جسمي فشعرت بوعورة مسلكها وعندما أرى ذلك تنتابني رغبة قوية في معرفة ما بعد هذا الكون وأشعر وكأني قطة برية حبست في قفص وتنظر خلال قضبانه فتسمع زئير بنات آوي في بهيم الليل، وتعلم أنها ترى أموراً لم ترها هي، ولا تملك لنفسها شيئاً سوى أن تتكهن وتفكر وعندئذ طلب إلى أخي ألا أتحرك إذ أتى ظبي ليشرب ويمكنني أن أرى خياله على صفحة الماء. فنظرت إلى الماء فرأيت الظبي وهو يرد الماء ويرسل تموجات خفيفة فيه، ثم رفع رأسه وأطرق السمع قليلاً ثم قفز بين البوص. ولما بدأ الليل يسدل ستره على هذا العالم قال "نياح" قد حان وقت عودتنا. وفي طريقنا إلى بيتنا سمعنا فلاحاً يحدو وهو يسوق ثيرانه إلى المرعى وكان الحداء أنشودة ينشدونها أثناء الحرث وقد أحببتها وفيما يأتي نصها:-

يا ثيران شدي نيرك ... شدي نيرك

ويا محراث سر مستقيماً وشق حقلي كما يفرق المشط شعر الكواعب

ويا أرض تفتحي واجعلي رحمك مأوى لبذوري.

... وأدفئيها حتى تنمو تحت الشمس

ويا بذور اسمعي أناشيد الطير... وزيدي نموك حتى تسمعيها جلية واضحة

ويا ماء... أسرع في قناتك... واسكب ماء الحياة في زرعي

ويا شمس... أدفئي نباتي... أدفئيه بأشعتك التي تبعث الحياة

ويا ريح... هزي برفق على قمحي... حتى لا تتكسر سيقانه الرقيقة.

ويا منجلي... اقطع خلال سيقان النبات... كما يبدد القمر ظلمات الليل... حتى تملأ أجراني بالذهب.

ويا مدق اطحن دقيقي في الهاون حتى لا يعوز عشيرتي.. تراب الحياة.

ويا نار.. اشتعلي... وسخني الأفران... واخبزي الخبز... حتى آكل منه لأزداد قوة.

إلى النير يا ثيراني.

وأخذ صوته ينخفض رويداً ونحن نسوق عربتنا الهوينى إلى البيت، وقبل أن نصل إلى القصر كانت أشعة القمر الفضية تغمر جوانب الطريق.

الفصل السادس عشر

الروح

وفي صبيحة يوم من الأيام اصطحبنا والدي إلى المظلة التي تطل على المستنقع لنرى طيران الطيور في الصباح الباكر وأحضر "نياح" معه بعضاً من ألواح الخزف ورسم عليها بقلم من بوص ومداد أسود أوزة عراقية طائرة، وحاولت تقليده، فخاب أملي إذ كان الكير الذي أرسمه يبدو ميتاً عن شكل الطير... وأخذت أفكر وأنا أرقمه في حيرة من أمر نفسي ونفسه... ما علة هذا التباين؟... فنحن من أب واحد وأم واحدة... متشابهان في أمور كثيرة... ونشأنا معاً... وتلقينا الرسم على مدرس واحد.. ما علة نزعتي في سورة الغضب إلى أن أرمي بكل شيء في وجه من يثيرني من الناس وأقول لهم رأيي فيهم. أما إذا غضب "نياح" فيبدو وكأنه قد انطوى على نفسه، وتفصح عيناه عما لم تنبس به شفتاه، وأحياناً تبدو كأنها نوافذ تغطيها أستار.

وعندما كنت في تأملاتي سألني والدي فيما أفكر فأخبرته بكل شيء فقال لي ونحن نتناول طعام إفطارنا من فاكهة "قبل أن أجيب عن تلك المشاكل التي تفكرين فيها يجب أن أحدثك عن "روحك"... فقد سبق أن حدثتك وقلت لك إننا نتكون من جسد ونفس وروح فالجسم يتكون من "الخات Khat" والكا أيبيس والكا" وهو الغشاء الخارجي لنفسنا وروحنا،

وعن طريق هذا الجسد نكتسب الخبرات في الدنيا، فإذا مات مات معه كل من الكاو الكا أيبيس. أما نفسنا فتتكون من البا والنام ونحتاج إليهما ما دام مقدرا على روحنا أن تعود ثانية إلى الأرض وتولد من جديد، ويتكرر موتنا وميلادنا إلى أن نتعلم كيف نضبط مشاعرنا ونتحكم في أفكارنا وإرادتنا، فإذا ما تم ذلك تخلت عنا "الروح"، والروح خالدة وكثيراً ما نفكر أثناء حياتنا على الأرض في أمور كثيرة خالدة لا يمكن أن تدركها الـ"نام". وهنا سألت والدي كيف يمكن أن أتأكد من أن ما أفكر فيه يختص بما يسمى "بالنام" فقال والدي: إن ما يسمى "بالنام" يدرك الأشياء عن طريق الحواس الخمس، ولكن لا يمكن للحواس أن تدرك المعنويات فليس هناك رائحة للشجاعة ولا صوت للصبر لأنها أمور تتعدى حدود المحسوسات فإذا فكرت فيها فإنك تفكرين فيها بجزء من روحك يسمى الـ(زا) يرمز له بدائرة في داخلها خطوط متقاطعة أشبه بخيوط الغربال فكما أن الغربال يمكنه أن يفصل الحجارة عن التراب كذلك "الـ زار" يفصل غبار الدنيا الذي تذروه الرياح من صخور الحق التي تبقى خالدة مع الزمن.

وسألت والدي لماذا لا يكتب اسمه على شكل غربال فقال: من الجائز أن يكتب كذلك ولو أن في خاتمي الذي أمهر به أحكامي أضع رسم حزمة من نبات البوص أو الثعبان والذراع وهي علامات صوتية لاسمى وقد أطلق مينيس العظم اسم زا على والدي وقال إنه يناسبه فهو في حكمه يفرق بين الحق والباطل ويحكم بين الناس بالعدل.

و"الـ زار" هو الجزء الأول من الروح، أما الجزء الثاني منها فتختزن فيه ذكريات كل خبرة وتجربة مررنا بها في تطورنا من البهيمية إلى أن أصبحنا بشراً سوياً وشعرنا بذاتيتنا ومنه ينبعث ذلك الصوت الناتج من خبراتك الشخصية فيرشدك إلى ما ينفعك، ويحذرك مما يضرك. فقلت له: إنك تقول حقاً ي والدي فمثلاً أني أخشى الأفاعي مع أنها لم تسبق أن عضتني ولم يسقط أخي"نياح" من مكان مرتفع ولكنه يخشى تلك الأماكن. وهنا احتج أخي على قولي فقلت له: لا فائدة من الإنكار فإني أعرف ذلك عنك. وهنا لوى أخي أصابع رجليه كعادة عندما يعترف كرهاً بالحقيقة المرة.

وقال: إن الأماكن العالية تسبب له دواراً ولكن ليس هناك مدعاة لذكر ذلك.

وهنا ابتسم والدي ثم استرسل في حديثه وقال: قد مرت بكما خبرات كثيرة نتيجة لتلك التطورات التي مررتم فيها ولهذه الخبرات نتاج إما سارة وإما غير سارة فإن كانت الأولى تمنيت استعادتها وإن كانت الثانية ابتعدت عنها فإذا وصلنا إلى نهاية الشوط في التطور يكون كل منكما قد تعلم أموراً لا يلم بها الآخر وهذا هو علة التباين بينكما في كسب المهارات.

ويمكنك إدراك أعمال غيرك ومخاوفه بسهولة إذا كانت تماثل أعمالك ومخاوفك أو على العكس من ذلك إذا رأى إنساناً آخر يقترف أمراً ينبعث

الصوت في الذاكرة بأنه عمل جانب الصواب فإن من يجهل هذا النداء الذي يقول إنه قد أتى أمراً إدا ولن يقترف مثله أبداً وإنه أقل منه شأناً. فهو لذلك لن يستحق مني عطفاً. ولو أنصف أولئك الحمقى وأنصتوا إلى ذلك الصوت لعرفوا أنهم نسوا أنهم ارتكبوا نفس الأخطاء وأن أقدامهم قد خاضت في نفس الوحل. فإذا ذكروا ذلك عرفوا الطريق القويم، فيرشدون ذلك الشخص الذي سموه بجهالة عاصياً، إذ قد سبق لهم أن شاركوه نفس المعصية في تطورات حياتهم، ولكنه ضل الطريق زمناً ما في هذه الرحلة الطويلة في تطوره. وإدراكنا حالته على صحتها يدفعنا إلى الرحمة به، والشعور بالرحمة هو ثمار تلك التجارب.

فقاطعه "نياح" قائلاً ولكني يا والدي إذا رأيت رجلاً يقترف ذنباً فما لا ريب فيه أني سأوقفه دون رحمة به. فرد عليه والدي قائلاً إني قلت رحمة به لا مواساة له، فالمقصود بالمواساة أن تذهب لشخص حزين وتجلس بجانبه وتشاركه حزنه بالبكاء، أو كرجل رأى جريحاً ولا يحتمل رؤية الدم أو الألم فيقول لا يمكنني أن أرى مثل هذه الآلام المبرحة، ثم يجلس بجانب الجريح ويندب جراحه لدرجة تضؤل أنات الجريح أمام بكائه الصادر عن مواساته لهذا الجريح، وما هي إلا مواساة لنفسه إذ شاءت المقادير أن يرى هذا الرجل المتألم. والمواساة هي الخطوة الأولى نحو كسب الرحمة؛ فالرجل الرحيم حقاً يعلم العوامل والدوافع التي تسبب الأحزان وتدمع العيون ويعلم أيضاً كيف يزيلها لأنه يذكر أنه يوماً ما ذرف مثل هذه الدموع ومرت به هذه الآلام وقضى في هذه الآلام أياماً سوداء طالت به حتى ظن أن هذا الليل لا آخر له ولذلك تراه يطمئن المصاب ويريه أن بعد الضيق

الفرح وبعد العسر يسراً. وبعد أن يكفكف دمعه لن يهدأ حتى يرى الدمع قد جف تماماً من مآقيه. والحكيم لا يزيد من هموم الناس بعجيجه لبلواهم، بل يشفي جراحهم وآلامهم، وإذا لم تلتئم هذه الجراح رغم كل ما قدم فحسبه أن أرضى روح ذلك المسكين وهي تفارق جسده المضيء.

ولذلك عليك وعلى أخيك أن تصغيا إلى صوت تلك الخبرات والذكريات التي مضت إذا أردتما أن تمضيا في طريق حياتكما دون أن تكون الحياة ثقيلة عليكما. ولتكن أعمالكما وفق الطريق المستقيم. وتجنبا الطريق المعوج، فمن الغريب أن الإنسان يجد طريقاً شائكاً فلا يرجع عنه إذ يأبى عليه كبرياؤه أن يعترف بأنه قد ضل سواء السبيل، ولكنه لو أراد أن يتعظ لوجد من يرجعه عن غيه ويوجه خطاه إلى الطريق الذي سلكه..

فيا طفلي قد يأتي ذلك اليوم الذي تتوليان فيه الحكم فاذكرا دائماً أن الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم سواء أكانوا أصدقاء لكم أم أعداء وسواء أكانوا في مرتبتكم أم عبيداً فإنهم زملاء لكم في رحلتكم الطويلة في الدنيا والآخرة، وسيأتي يوم من الأيام يرتبطون فيه معكم بشعور الإخاء والمودة الذي يجب أن يصل إليه الناس جميعاً عندما يبلغون آخر الشوط من التطور.

وكان والدي وهو يحدثنا هادئاً في جلسته ويداه معقودتان حول ركبتيه وكانت نظرته سابحة في الأفق وكأنما يتحدث إلينا لا كأطفال وإنما يخاطب روح كل منا.. وبعد ذلك قال لنا إن حديثي لكما كان فيه قدر

كبير من الجدية، وأنه يرغب أن يحدثنا عن أشياء أخرى حتى يسري عنا ولكن "نياح" أبى عليه ذلك وسأله كيف يرمز للجزء الخاص بالذاكرة في الروح عند الكتابة فأمسك والدي القلم البوص من يد "نياح" ورسم بها جرة وقال لأن الجرة تحفظ السوائل فإذا ولد الإنسان لأول مرة كانت هذه الجرة خاوية وبالتدريج وطبقاً لعدد المرات التي يحياها تملأ هذه الجرة.

ولما كان ينتهي الكثير مما تحويه في بادئ الأمر إلى الدنيا فإننا نجد ماءها في بادئ أمره به كدراً ولكن بعد الخبرات والتجارب يصفو هذا الماء وينقي وتصبح الجرة وكأنها مملوءة بسوائل من نور ويسمى الحق (معت) لأن (الحق) هو الخاص المصقولة اللامعة التي تبقى بعد أن تتحرر (الروح) من أصفاد هذا العالم وتسير في قارب الزمن.

الفصل السابع عشر

عيد ميلادي أمي

في الصباح الباكر من يوم عيد ميلاد أمي ذهبت إلى حجرة أخي وأيقظته حتى نلقي نظرة أخرى على الهدية التي اشتريناها لها قبل أن نأخذها إلى غرفتها، وكانت تلك الهدية سواراً جميلاً من ذهب مكون من زهور الأقحوان وصلت بحبات من حجر الجمشت والفيروز الأزرق الجميل وقد قال "نو – سيرز" الصائغ إن هذا السوار أجمل سوار صنعه في حياته وقد أعد أخي لهذا السوار صندوقاً جميلاً طلاه بنفسه وكانت حافته خضراء اللون بها خطوط. حمراء وصورة لبركة بها أسماك وعليها زهرة اللوتس وكانت الأسماك تبدو فيها وكأن الحياة قد دبت فيها.

وكان الضباب يصعد من البركة خارج نافذتها وأعددت لها بعض أبيات من الشعر وأخذت أرددها مرات حتى لا أنساها وهاك نصها:–

(الحديقة في الليل البارد تتوق إلى دفء الشمس وحرارتها، والسمك على ضفة النهر يتوق إلى العودة إلى الماء، والحماية ذات الجناح المكسور تتوق إلى الطير من غصنها العالي، والمسافر في الليل البهيم يتوق إلى رؤية نور القمر، ولكن العالم أكثر من هؤلاء شوقاً إلى وجودك فيه).

وكنت أود أن أجد ألفاظاً أحسن من هذه أعبر بها عما أكنه لها من حب عظيم.

ولما سمعتنا دعتنا إلى حجرتها وبعد أن قبلناها قدمنا لها السوار فقالت إنه أجمل سوار رأته في حياتها وستلبسه دائماً وعندئذ ألقيت ما أعددت من شعر فقالت إنه أجمل شعر سمعته أذناها وهو أجمل مما يعده "ثن أبت" ملحن الأغاني. وكانت أمي جميلة جداً وشعرها أسود ناعماً ولم تكن تضفره عند نومها كما يفعل الناس بل كانت ترسله وكانت تسمح لي أحياناً أن أمشطه لها بمشطها العاجي.

حضر والدي وجلس على حافة فراشها وطلبت إلى أمي أن أعيد إلقاء ما أعددته من شعر أمامه فلبيت وقال أود أن أضيف بيتين آخرين يعبران عن سروري بمولدها إذ أن فرحته بها فاقت العالم حين ولدت به وقد أحبها لأول مرة رآها، ولو انه كان أكبر منها بستة أعوام وهي ابنة عمته وكانت تخصها بحبها وكانت تحملها مربيتها إلى أيكة الجميز في القصر القديم.

وبعد ذلك اقترحت والدتي أن نقضي اليوم كله معاً إلى أن يحين وقت المقابلات الرسمية في المساء ولنفكر الآن فيما نفعله فأخذ كل منا يفكر وكنا نتشاور في أمر النزهة على سطح البحيرة في قارب والدي الشراعي. وهنا سمعت صوت "ناتي" خارج الباب فأدخلته معنا وقالت لي والتي يمكننا أن نصطحبه رغم معارضة نياح، وطلبت إلينا والدتي أن نذهب إلى المطابخ

وننتقي ألوان الطعام التي نريدها في رحلتنا، فأخذنا أوزة باردة وفجلاً وتينا وجرة من عصير العنب وبعضاً من فطائر العسل ورماناً وأضاف "نياح" إلى كل ذلك بيض بط مسلوق وخبزاً عليه زبد ومع أن كمية هذا الطعام كانت تبدو كبيرة إلا أني قلت لهم إنه من الصواب أن يكون معنا طعام كثير خشية أن تهب زوبعة فتدفعنا إلى أرض بعيدة، وهنا قال "نياح" إنه مهما كانت الزوبعة فإن الأرض التي ستدفعنا إليها لن تكون بعيدة لأنه يمكننا أن نعبر البحيرة في ساعتين إذا كانت الرياح مواتية، وهنا نهرته قائلة أرجوك أن تكف عن تعاظمك وتقلل من قيمة الأمور الخطيرة. وكانت البحيرة جميلة والريح مواتية وقد رأينا عن بعد أفراس البحر التي أمقتها مقتاً شديداً لأنها قتلت عم والدي أثناء صيده لها وكان إذاك في سن السابعة والثمانين، وإن كان مثل هذا السن لا يسمح له بهذا الصيد إلا أنه أعظم ملك تولى العرش وأرجح الرجال عقلاً وأشجع محارب في ساحة الوغى.

ورأينا كذلك أفواجاً من الطير متجهة نحو الشمال وقال والدي إنها ترحل في الصيف إلى بلاد لا يمكننا أن نبلغها إلا في عالم الأحلام ففي بلاد هذه الطيور يتحول كل شيء في الشتاء إلى لون أبيض بسبب البرد وتمر أيام وأيام ولا يمكن للإله (رع) أن يزيل ما بها من سحب أو ما بها من برد فطلبت من الإله ألا أولد في بلاد مثل هذه.

وقد تسابقت أنا ونياح في العوم ومع أنه كان أسرع مني في السباحة إلا أني كنت أقل منه إثارة للرذاذ، وكان الشبل "ناتي" هادئاً وديعاً فقد قبع

في قاع القارب ولم يسبب لنا أي تعب اللهم إلا عندما هاج مرة عندما مالت السفينة..

وعندما كانت الشمس في كبد السماء رسونا على شاطئ جزيرة صغيرة وتناولنا طعامنا في ظلال بعض الأشجار، وقد أفادنا "ناتي" إذ التهم كل ما تبقى معنا من طعام، فكفانا مشقة حمله ثانية، وفي عودتنا سكنت الرياح فأخذ كل من أبي ونياح يجدفان وأخذت أمي تنشد أنشودة النوتي.. كان يوماً جميلاً حقاً.

الجزء الثاني

١- الفصل الأول: بي – سي – رع.

٢- الفصل الثاني: صيد الأسود.

٣- الفصل الثالث: الجراح.

٤- الفصل الرابع: حلم عن بلاد (زوما).

٥- الفصل الخامس: المركب الملكي.

٦- الفصل السادس: موت "زا – أتت".

٧- الفصل السابع" العودة إلى الحرية.

٨- الفصل الثامن: جنازة فرعون.

الفصل الأول

ني – سي ـ رع

هرب الأسد "ناتي" لما بلغ الثالثة من عمره، وطال البحث عنه أياماً كثيرة حتى ظننت أني لن أراه ثانية. ولكنه عاد في اليوم الثاني عشر من هروبه ومعه لبؤة صغيرة متوحشة وأخذها إلى فناء الأسود، ومع أنها أجفلت من الناس إلا أنها تبعته إلى حظيرته وكان يزأر ويزمجر إذا حاول أسد آخر الاقتراب منها. وفي بادئ الأمر كان "زيب" هو الشخص الوحيد الذي سمحت له أن يقترب منها وبعد أن ألفت الناس لم يُسمح لها أن تتجول بمفردها وكانت الأسود الملكية عادة من نسل أجيال ألفت بني الإنسان وكان يندر أن يستأنس أسد إلا إذا أتى به وهو شبل صغير.

وقد أطلقت اسم "سيما" على تلك اللبؤة رفيقة "ناتي" وقبل أن تلد أشبالاً اختفت فشعر "ناتي" بالشقاء والتعاسة دونها فأضرب عن الطعام وكان يئن ويعوي طول الليل. وقد أخبرني "زيب" بأنه يعتقد أن "ناتي" قد يعثر عليها لأنه سيتبعها مهتدياً برائحتها ويقتفي أثرها، ولذا لم يرسل وراءها كلاب الصيد خشية أن يخيفها.

ولذلك خرج "زيب" في سواد الليل وهو الوقت الذي فيه تتمكن الأسود من اقتفاء الرائحة أسهل مما يمكنها والشمس ساطعة وفضل ألا

يصطحب أحداً معه لأن (سيما) تعرف صوته وتتبعه، أما إذا سمعت شخصاً آخر فإنها ستعدو بعيداً.

وفي صبيحة اليوم الثاني استيقظت مبكرة ونزلت إلى فناء الأسود لأرى إذا كان "زيب" قد عاد ولكنه لم يكن قد عاد بعد، فسرت متجهة شمالاً حتى جاوزت الأراضي الزراعية إلى الكثبان الرملية على حافة المستنقع. ولما سرت حوالي نصف ساعة في نفس الطريق الذي كنت أصطحب فيه "ناتي" فإذا "بناتي" يعدو نحوي على حين غرة وأخذ بطرف إزاري بين أسنانه وأخذ يشده كما لو كان يريد أن أتبعه – ورأيت حول عنقه شريطاً من تيل عليه علامات حمراء، فلما فككته عن رقبته ونشرته على الأرض أمامي، ظننت لأول وهلة أنه خط متموج رسم بإصبع غمس في دماء بشرية. ولما دققت النظر تبينت أن هذا الخط رسم حية وعند رأسها خطان يرمزان إلى أنه أفعى ذو قرنين فعرفت أن "زيب" قد عضته حية وأنه أرسل "ناتي" في طلب النجدة.

وكنت أقرب إلى المعبد مني إلى القصر فعدوت مسرعة والأسد يتبعني فوجدت "زرتر" على أهبة الرحيل من الفناء، فأرسل فوراً في طلب ثلاث محفات يحمل كل منها عداءان، وقال هذه أسرع وسيلة لنأتي "بزيب" وحيث إن الدم لم يجف بعد فلا بد أن يكون قريباً منا وأخذ "زرتر" معه علبة من المرهم وسماوو وهو عبارة عن حيوان صغير أسرع من الحية ويلهو بها كما يلهو القط بالفأر ولهذا سموه بقط الأفاعي.

وبعد أن أعد "زرتر" عدته أطلقت سراح "ناتي" فأخذ يعدو وهو ينظر خلفه الفينة بعد الفينة ليتأكد من أننا تابعوه. وفي أقل ساعة تركنا الأراضي الزراعية وسرنا بين الكثبان الرملية على الحافة البحرية من المستنقع حيث ينمو الغاب لمسافات بعيدة. وهناك رأينا "زيب" ملقى على الأرض فظننا لأول وهلة ميتاً ولكنه بدأ يتحرك عندما لعق "ناتي" يده. وفعلاً كانت أفعى قد عضته في الكعبة الأيسر وقد شق "زيب" بمديته جرحاً فيها فنز منه دم كثير ولكن لم يذهب هذا بسم الأفعى لأن ساقه تورمت واستحال لونه أسود وطلب إلى (زرتر) أن أحاول أن أسقيه بعضاً من خمر قصب السكر، وبينما أنا أحاول سقياه أخذ ال(سماوو) وقطع جرحاً صغيراً في ساقها، وأخذ قطرات الدم منها في قدح صغير وكان يبدو أن هذا الجرح لم يؤلمها لأنها كانت تلعق يده وهو يجرحها. وأخبر زرتر أحد عدائي المحفة أن يربط ساقها ثم شق شقين صغيرين في جسد "زيب" أحدهما فوق الجرح الذي سببته الحية، والثاني على صدره الأيسر فوق القلب وفوق كل من الشقين ربط قطعة من التيل بعد أن غمسها في دم ال(سماوو) ثم صب الباقي من الدم في فم (زيب) وكان قد استعاد شيئاً من قوته أمكنه بها أن يزدرد الدم، وبعد ذلك أخرج زرتر من جرة معه دهاناً ذا رائحة كريهة ودهن به مكان عضة الحية. وبعد أن دثروا (زيب) في عباءة صوفية حملوه في إحدى المحفات وساروا به صوب القصر.

ثم ناديت (ناتي) ولكنه لم يلب النداء إذ قفز راجعاً إلى البوص وكأنه يود أن أتبعه ولما رأى أني لن أصحبه اقترب مني وأخذ يدي برفق بين أسنانه وحاول أن يقودني معه فذهبت معه حتى وصلنا إلى مكان اقتلع منه

البوص وهناك رأيت اللبؤة (سيما) راقدة على فراش من الرمال الجافة ومعها شبلان صغيران، ولما رأتني لوت فمها استعداداً للزئير ولكن (ناتي) دمدم لها فهدأت وسمحت لي أن أمر بيدي فوق شعرها، أما الشبلان فكانا أصغر من (ناتي) عندما نام لأول مرة في فراشي ونزعت الطوق من رقبة (ناتي) حتى يعلم أنه لا يتبعني وأن له الحرية في العودة إلى القصر أو البقاء مع اللبؤة ولما تركته تبعني حتى نهاية البوص ووقف يرقبني وأنا أتركه ثم عاد بعد ذلك إلى أسرته.

وأدركت العداءين اللذين يحملان محفة (زيب) قبل أن يصل إلى القصر حيث وضعوه في حجرة تقرب من المكان الذي يعمل فيه (زرتر) إذ أنه يقوم بعلاج جميع من في القصر إما بمبضعه وإما بالأعشاب ولما حضر (بتاح كفر) وفحص (زيب) قال إنه لا يمكنه أن يجزم أنه سيعيش. وأخذ لون شفتيه يتحسن ولو أنه كان هادئاً وبارداً ولم يرد علي حين حدثته.

وتركته حزينة عليه وسرت حول الحديقة والهم يملأ قلبي حسرة عليه لأني أحببت هذا الخادم الأمين وجزعت عندما فكرت أنه سيقضي نحبه وأن (ناتي) لا بد أن يتركني ليعيش مع من يفضلني عنده، وعزمت على أذهب إلى المعبد لأصلي من أجله، وقطفت بعضاً من أزهارها الزنبق لآخذها وأرسلت في طلب محفتي.

لم يكن هناك أحد في صحن المعبد لأن الشمس كانت في كبد السماء وكانت الناس في هذا الوقت تأوي إلى الظل لتتقي حرارة الشمس.

وذهبت إلى هيكل (بتاح) ووضعت الأزهار على الدرج الأبيض لتمثاله ووقفت أمام هذا التمثال رافعة يدي ومع أني لم أدع بصوت مرتفع إلا أني تضرعت للإله (بتاح) ليستجيب لدعائي وهو على عرشه فوق النجوم. وفي صلاتي حدثته عن تلك الحية وتوسلت إليه أن يمنح الحياة (لزيب) وأن يدعه يعيش معي ثم سجدت ولمست قدميه بجبهتي حباً وخشوعاً له، وتركت الهيكل وكان ضوء الشمس يبدو في صحن المعبد كحائط من الذهب.

وكان هناك شاب يسير في الفناء وعرفت من ثوبه أنه أحد الكهنة العظام للإله "أنوبيس" وقد سبق أن رأيته في المعبد وسمعت أنه قد جاوز تدريبه الأول لأعمال الكهنة وهو في سن الثالثة والعشرين. وكان اسمه "ني – سي – رع" وقد جاء إليّ وكأنه يعرفني قبل ذلك بمدة طويلة. وشعرت من جانبي بأني أتحدث إلى صديق أرجح مني عقلاً، وقد بدا أنه يعرف أنني لم أتناول طعاماً هذا اليوم إذ أخذني دون أن ينطق بكلمة واحدة إلى إحدى الحدائق الخاصة وأحضر لي بعضاً من فطائر العسل والتين وكأساً من النبيذ، قال عنه إنه يذهب التعب والنصب وخلال تناول للطعام أخذت للطعام أخذت أبادله الحديث ومع أني كنت أحادثه لأول مرة إلا أني كنت أشعر بأننا نتم حديثاً بدأناه في اليوم السابق.

وقد أخبرته بكل ما حدث "لزيب" و"ناتي" وأشبال اللبؤة (سيما) فقال أحسنت صنعاً في إطلاق سراح "ناتي" لأن الأسير غير الراضي لا يمكن أن يكون صديقاً وإن "ناتي" سيعود إليها يوماً ما عند تكبر أشباله

لأنه قد سبق له أن غير من عاداته حسب مشيئتي إذ أمكنني أن أتفهم ما في قلبه وسالت "بي – سي – رع" عن قطة الأفاعي وعن السبب الذي دفع "زرتر" أن يضع دماءها في داخل جسد "زيب" فقال إن بعض الناس يعتقدون أن ذلك الحيوان يقلل من أذى سم الأفاعي حتى ولو كان ذلك سم ثعبان الكوبرا نفسها، ولدمه خاصية معينة إذ يزيل الأذى من السم وأن "زرتر" يحاول أن يكشف عما إذا كان مزج هذا الدم مع دم من تصبه الأفعى ينقل بعضاً من خاصيتها إلى من أصابه سم الأفعى حتى يتغلب على السم الذي يجري في عروقه، ثم أخبرته عن المرهم الذي غطى به "زرتر" جرح "زيب" فقال إن هذا المرهم مصنوع من شحم تلك الحية التي عضته ورغم ذلك فإنه يعتقد أن كل ذلك قليل الفائدة وعندئذٍ قلت له إني أرى لزاماً علي أن أعود إلى القصر لأطمئن عليه فابتسم "بي – سي – رع" وقال يمكنني أن أكفيك مئونة التعب وأطمئنك عليه دون أن تتحركي من مكانك. فأخذ القدح الفضي الذي غسلت فيه أصابعي بين يديه وينظر إلى مكان فيه سقط عليه شعاع من الشمس انبعثت من بين أوراق الكرم التي جلسنا تحتها ثم أخذ ينظر إلى مكان هذا الشعاع كأنه ينظر خلال نافذة وأخذ يصف لي ما رأى فقال إنه نائم، فقد أمده "بتاح" حياة جديدة، وسيفيق بعد انقضاء ساعة على الغروب وحينئذٍ يجب أن يعطى له شيء من اللبن والنبيذ وسينام بعدها وعندما يستيقظ في النوم الثاني سيعرف الجميع أنه لن يموت وأنه سيعيش وفي مدى عشرين يوماً سيشفى تماماً ولكن ستترك العضة أثراً بسيطاً في ساقه.

ولم يسبق لي أن رأيت هذه القدرة على الرؤية تستخدم قبل ذلك ولكنها لم تكن غريبة علي. وبدون أن يتكلم وقف "ني – سي – رع" وقطف زهرة من أزهار اللوتس من البركة وقال "أتذكرين؟" وهنا تذكرت أني قد رأيت ذلك في منامي الليلة السابقة وأن في هذا الحلم أراني زهرة من زهور اللوتس متفتحة كتلك الزهرة التي حملها في يده وقال لي إنه كما تتفتح تلك الزهور فيعكس قلبها الذهبي لمعان الشمس، كذلك يجب أن تفتحي باب ذاكرتك حتى يمكنك أن تعكسي النور على الأرض. وتذكرت أنه في حلمي أشار إلى برعوم نصف متفتح يبدو منه أوراق توجيه الزرقاء ملتفة حول بعضها البعض وأخبرني أن هذا يرمز إليّ الآن. وعاد إلى ذاكرتي ذلك الحلم بسرعة عظيمة وذهبت إلى البركة وقطفت زهرة من أزهار اللوتس التي بدت زرقتها، وأشرت إلى الزهرة التي في يده وقلت له هذا ما أصبو إليه. ثم أشرت إلى الزهرة التي في يدي وقلت له هذا هو حالي الآن، وهنا ابتسم وقال "إني كاهن من الكهنة العظام وستكونين أنت ملكة يوماً ما ويسرني كثيراً أن أعلمك ما تودين أن تعرفيه، فقد علمت روحك وأنت نائمة وسأعلمك وأنت على الأرض". وقبل أن أتركه طلب إلي أن أقول هذا الدعاء قبل النوم "يا إلهي زدني من حكمتك وزدني علماً حتى أكون شعلة تضيء لمن ضرب عليهم الحجاب فأملأ قلوبهم بالإيمان وأنير طريقهم حتى يمكنهم بفضل ما أوتوا من علم أن يشعلوا نارهم ليهتدوا بها ويتجنبوا طريق الظلمة والجهالة ويحيوا على مدى الأيام في نور شمسك الساطعة."

وقد تحققت نبوءته فتماثل "زيب" للشفاء بعد عشرين يوماً وعاد إليّ "ناتي" ومعه (سيما) وأشبالها الصغار ودخلت جميعاً إلى حظيرته التي بقيت معدة لاستقبالها، وأذن والدي أن يصحبني حيث أريد كما كان يفعل حين كان شبلاً صغيراً.

الفصل الثاني

صيد الأسود

كنت في العاشرة من عمري حين خرجت لأول مرة لصيد الأسود مع والدي وقد دربني "بنيتر" على رمي الرماح وقرر "هاركا" المشرف على العجلات الملكية أني اكتسبت من المهارة ما يؤهلني لأن أسوق عربة بمفردي وودت أن أذهب لهذا الصيد كي أرى أخي أن أشترك في أي عمل يقوم به، حتى إذا كبرنا واضطر إلى تجريد حملة ضد دولة معادية اصطحبني إلى ساحة القتال.

وتمنيت أن نصيد فهوداً أو تماسيح بدلاً من صيد الأسود، ولو أننا كنا نصيد الهرم منها التي تهاجم الناس وهم يعملون في حقولهم لعجزنا بحكم سنها عن صيد الظباء، وتمنيت كذلك ألا تشبه الأسود التي نقتلها "ناتي" ولكن ما دام والدي الذي يحب "شامبا" لا يكترث لقتل الأسود الضارة كان من الحمق أن أفكر في أن ما قتله من أسود قد ينتمي إلى "ناتي" بصلة القرابة.

وكان يعيش في القصر رجل أجنبي من برابرة البلاد التي تقع في الشمال الشرقي من بلادنا ولكني لم أكن قد رأيته حتى ذلك الوقت.

ولكي أستعد للصيد ارتديت ملابس الصيد التي يلبسها الصبية أمثال أخي وكان هذا اللباس عبارة عن غطاء للرأس من التيل المخطط ودثار سميك موشى[٢] بخطوط من الذهب وأساور من الذهب وتحت وسطنا لبسنا إزاراً استدار حوله حزام من جلد مرصع بالذهب توضع فيه سكينة الصيد.

ولما انتهيت من ارتداء هذا كله خرجت إلى الفناء الخارجي حيث كانت العجلات في انتظارنا وكانت تبلغ الأربعين عربة صفت أمام القصر وكان يمتاز حصان أبي وأخي وحصاني عن بقية الخيل بأن على رأسها ريش نعام لون باللونين الأحمر والأخضر وهما شعار والدي. وكان وراء كل وراء كل حصان سائق عجلة يحمل الرمح على حين يقود النبيل العجلة فإذا ما حان وقت الصيد أمسك السائق بعنان الخيل وناول النبيل الحربة كي يقتل الأسد. وكانت كلاب الصيد في الجانب الآخر من الفناء وكانت سوداء اللون ذات آذان مدببة بنات آوي، ويمسك بها صبية خاصة كل اثنين منها في حبل واحد.

وقد رافقتني والدتي إلى رأس السلم وكانت تلبس رداءً أزرق اللون موشى بأسماك قرمزية اللون وخطوط متموجة من الفضة، وعليها عباءة بنفسجية اللون وكان يزين جبينها إكليل من الزهور قرمزية اللون لها أريج يزيده قوة ما ينبعث من طيبها ودهونها المختارة.

---

(٢) في الأصل من الصوف ولكن الصوف لم يرد ما يدل على استعماله في هذا الوقت.

وبدا في عينها شيء من القلق وتمنيت ألا يكون ذلك القلق بسبب خروجي للصيد وكان من طبيعتها ألا تفصح عن قلقها إذ سمعتها مرة تقول إذا بلغت الأم من الحماقة أن تدع مخاوفها على أطفالها تطغى عليها بحيث تفسد عليها يومها فلزاماً عليها ألا تسمح لحماقتها هذه أن تفسد على الآخرين هناءهم. ولم تكن "مآتا" مثلها فقد ثار غضبها مرة حين تأخرنا مرة في العودة إلى المنزل لجنوح سفينتنا على ضفة النهر؛ ولم تتبين أنها كانت مخطئة في ذلك إذ أن ما حدث كان لسبب خارج عن إرادتنا ولم نتناول طعاماً طول يومنا هذا اللهم إلا قليلاً من العنب على حين لم تغضب والدتي بل على النقيض من ذلك فقد أثنت على مهارتنا في نزولنا من القارب إلى ضفة النهر وسمحت لنا بطعام لذيذ ولو أن الوقت كان متأخراً جاوز وقت النوم.

وسألت أمي عن ذلك البربري الذي يسكن القصر فابتسمت وقالت "لا يصح أن تدعيه بهذا الاسم فإنه ملك في بلاده ولو أنه غريب هنا واسمه "ساردك SARDOK"وهنا توقفت عن الكلام إذ سمعنا وقع أقدام وكان القادم والدي ومن دعاهم إلى الصيد، ولما رآني في لباس أمير من الأمراء وضع ذراعه حول كتفي وقال لمن معه "انظروا فقد رزقت ولداً آخر". وكم تمنيت أن يسمع أخي هذا الكلام. وكان "نياح" في هذا الوقت يسير بين صفوف الخيل يختبر طقمها كما لو كان الأمير يحتاج إلى ذلك؛ فيا له من غلام يميل إلى القيام بأعمال تلفت إليه الأنظار.

وظننت أول الأمر أن "هاركا" سيصحبني لكن أمره والدي بأن يصحب البربري فنظرت إلى "ساردك" وقلت بيني وبين نفسي "قد تكون ملكاً في بلادك ولكنك هنا رجل غليظ الجسم اكتنز شحماً كثيراً". وكان لهذا البربري لحية سوداء مجعدة مسحها بدهن فبدأ كالجدي في لحيته وكان شعره حلقات معطراً لدرجة أن رائحته انتشرت إلى مسافات بعيدة.

وبعد ذلك ركبنا عجلاتنا وصاحبني "سرتن" الذي أحببته منذ أحضر لي الشبل "ناتي" وكان لون حصاني أبيض وأسود ولذا سميته "ظل القمر" وقد سار والدي بعربته أولاً وتبعه "ساردك" ضيف الشرف ثم تبعته أنا ونياح ولوحت بيدي لوالدتي قبل أن أبرح بوابة القصر، وسقت عربتي بسرعة فائقة حتى أريها مهارتي فتطمئن علي.

وسرنا مدة نصف ساعة نحو النهر ثم إلى السهل الذي كان مستنقعاً ثم جف في موسم التحاريق وكان بهذا المكان أسدان يهاجمان الماشية عندما تهبط لتشرب من النهر، ولما وصلنا هذا المكان لنطارد هذين الأسدين اصطفت العربات في نصف دائرة، ووقف والدي في وسطها وبجانب "ساردك" ووقف أنا في الجانب الآخر فإذا هجم الأسد فإن العجلتين اللتين يمر بينهما تحاول كل منهما أن تسبق الأخرى في صيده وتتنازعان الفوز بهذا الصيد الذي تناله أسرعهما.

وكان أمامنا منطقة من نبات البردي العالي، وقال مقتفو الأثر إن الأسدين نائمان بسبب قيظ الطقس، وسمعنا الكلاب وهي تجري بين نبات

البردي وصراخ الصبية التي كانت تحمل مشاعل من خشب النخل المغطى بطبقة من الراتنج انبعث منه دخان كثيف لتخيف بها الأسود. وقد اضطربت بعض الخيل عندما اقترب الدخان منها وأخذت تضرب الأرض بحوافرها، ولكن حصاني "ظل القمر" بقى هادئاً وقال عنه "سرتن" إنه ثابت كالطود حين يرى أسداً كما لو كان كلباً من كلاب الصيد، ولكن في رأيي أنه اعتاد أن يرى "ناتي" معنا كثيراً. وكم وددت أن أبعد "ناتي" عن فكري.

وعلى حين غرة سمعنا زئيراً ثم اندفع أسد من بين نبات البردي يتبعه أربعة من كلاب الصيد تعوي وراءه، فاضطربت لدرجة أنني أخذت أتنفس بصعوبة، وخيِّل إلي أن هذا الأسد يتجه نحوي أنا فتأهبت لكي أعطى عنان مهري لسرتن، وفي اللحظة الأخيرة انحرف عني وذهب نحو والدي وساردك، وسمح والدي لساردك أن يبدأ ولكنه كانت تنقصه المهارة وانحرف بجواده بسرعة كبا معها ولما ألقى برمحه أخطأ المرمى. وهنا عاد إليه الأسد وقفز عليه ولكنه انبطح من خوفه فأصاب الأسد "هاركا" وطرحه على الأرض. وكان والدي وراءه فقفز من عجلته وهي تعدو وهاجم الأسد، ولم يلق بالرمح خشية أن يصيب "كاركا" فدفع بذراعه تحت رأس الأسد ودفع بسكينه في عنقه. واتجهنا أنا وأخي نحو والدي وهو يجر الأسد الميت بعيداً عن "هاركا" وكان والدي شاحباً حتى ظننت أنه سيقضي نحبه، وشعرت بالفخر به ولكني لم أفه بكلمة خشية أن تسبقي عبراتي.

وكان "هاركا" ما زال حياً إلا أن ذراعه قد تمزقت فجلست بجانبه وأخذت برأسه على حجري وهنا فتح عينيه وابتسم لي ثم أغمضها ثانية.

ونزل "ساردك" من عجلته وتمنيت أن يرى في عيني وفي عين أخي ما نشعر به من احتقار نحوه حتى يعلم أنه وإن كان ملكاً في الدنيا إلا أنه ضئيل في روحه. وقال لوالدي إنه تعرض لخطر كبير من أجل خادم لا يستحق ذلك، وكان صوت والدي حين أجابه جافاً كصخر الجرانيت إذ قال لن يفعل إنسان أقل مما فعلت في سبيل نجاة صديق له.

كيف يجرؤ "ساردك" هذا أن يقول عن "هاركا" مثل هذا الكلام إن "هاركا" يساوي ألفاً كهذا البربري المكتنز اللحم.. "هاركا" الذي أحبنا منذ طفولتنا.. "هاركا" الذي علم والدي كيف يقود عجلته.. ولو أن "ساردك" قد شعر باحتقارنا له لأنه انتحى بعيداً عنا وأخذ يتحدث مع أحد مواطنيه.

أصيب "هاركا" بإصابات بالغة وقرر والدي أن يحمله إلى البيت لا في عجلة من العجلات بل في إحدى المحفات التي تنقل الأسود المقتولة حتى ينقل وهو ممدد الجسم، وقد حمل المحفة أربعة عدائين ساروا بسرعة وبرفق.

وقد سبقتهم إلى المنزل لأخبر والدتي بما حدث حتى تستدعي الجراحين من المعبد. وكان عليهم أن يسارعوا في شفائه لأن أثر عضة الأسد كطعنة سيف من نحاس أحمر تميت اللحم حول الجرح وإن بقي المصاب على قيد الحياة، وكم وددت ألا يستمر أبي وأخي في هذا الصيد إذ شعرت بمقدار القلق الذي يساور أمي عندما نبرح المنزل أنا وأخي لنقوم بإحدى المخاطرات وكم يكون قلق الإنسان عن أي شخص إذا لم يقدر له أن يشترك في نفس المخاطرة. وقد أعدت حجرة خاصة في الجناح الخاص

بوالدي وفي وسطها وضع فراش ضيق مثل ذلك الفراش الذي يستلقي عليه الإنسان عند التدليك، وغطي بأغطية سميكة من التيل، وبالقرب منه وضعت مائدة عليها جرتان بهما دهون ومراهم استخرجت من الأعشاب التي زرعها والدي وكأسان بهما ماء وجرة ملآنة بالكحول من القصب يستخدم في تطهير الجروح.

وكان "بتاح – كفر" ورئيس الخدم بالقصر الفرعوني موجودين بالحجرة وقت أن حمل إليها "هاركا" وطلبت من أمي أن تسمح لي بالبقاء بجانب "هاركا" ولكنها رفضت بادئ الأمر بسبب صغر سني ولكنها قبلت بعد أن قلت لها "ما دمت قد تحملت رؤيته وهو يصاب فأظن أنه يمكنني أن أراه وهو يعالج من إصابته"

وكانت رؤية الدماء تؤذيني من صغري لدرجة أني كنت أشعر بأمعائي تتقلص معها والعرق يغطي يدي وجبهتي. ولكي أتغلب على هذا الضعف كنت أرقب ثيران الجزية وهي تذبح حتى أصبحت رؤية الدماء لا تثيرني فأراها وكأني أرى نبيذاً مسكوباً، ولكن عند رؤية (هاركا) والدماء تسيل منه اعتراني ذلك الضعف ثانية، ورأيت أن تأثري لرؤية الدماء تسيل من صديقي يختلف عن ذلك عند رؤية دماء الثيران.

وكانت تعلو وجه (هاركا) حمرة غريبة وقد انكمش جانب منه، على حين كان الجانب الآخر ناعماً، أما (بتاح كفر) فقد غطى عينيه بيده وانحنى فوق (هاركا) ثم أشار إلى الطبيب وتداولا في صوت خافت عند باب

الحجرة وسمعت "بتاح كفر" يقرر أن عظم الجمجمة قد تهشم وأن جزءًا منها على المخ، فإن لم ينتزع هذا الجزء فإنه يصاب بشلل نصفي ولا بد من استدعاء (زرتر) لمهارته.

ولما حضر (زرتر) كانت معه أدوات أشبه بأدوات الصائغ، وعملية جراحية كهذه كانت تجرى عادة في المعبد، ولكن تقرر إجراؤها في هذه الغرفة تفادياً لمشقة نقله ثانية.

مسكين هاركا.. توجهت حيث يرقد، وأخذت يده في يدي فلما أحس بها أمسك بها فعلمت أن روحه لم تفارق جسده بعد. وقد غطيت الجراح التي في جانبه وكتفه بقماش مبلل من تيل. ولكن سرعان ما لطخها الدم الذي نزف منه، وقد حضر كاهن آخر من كهنة أنوبيس العظام، وجلس على مقعد في نهاية الغرفة وبدأ كأنه نائم على حين وجه الطبيب أصابعه بين عيني (هاركا) وأرغم روحه أن تترك جسده، فعرفت أنه ولو أن كاهن أنوبيس بدا عليه النوم إلا أن روحه كانت في انتظار (هاركا) لتأخذه بعيداً عن الألم عندما يتجرد من جسده حتى تتاح الفرصة للأطباء أن يجروا عملياتهم في جسده ويشفوا إصابته دون أن يشعر بأي ألم لو كانوا يخيطون تمزقاً في ثوب فارغاً لا يلبسه أحد.

وقد ترهلت يد (هاركا) فعلمت أنه لا يشعر بأي ألم ورأيت ألا داعي لبقائي بجانبه، ومع ذلك فقد رأيت أنه من الصواب أن أعلم كل ما يمكن أن أعلمه من مهارة (زرتر).

وبدأ (زرتر) بأن حلق الشعر من الجانب المصاب من رأس (هاركا) وحدد الجزء من الجمجمة الذي كان يضغط على المخ، وأخذ مبضعاً على شكل ورقة الشجر وأحدث ثلاثة جروح مربعة الشكل وبملقاط كالملقاط الحاجب سحبت قطعة من فروة الرأس، وأمسك بها مساعدة وضغط على الشرايين حتى لا ينزف الدم منها ثم أحضروا مرآتين من الفضة وضعتا على حامل عال كي تعكس ضوء الشمس على رأس (هاركا)، وقد تمكنت أن أرى العظم الأبيض من الجمجمة وكان بها تجويف يحيط به تشقق دقيق أشبه بشروخ البيضة إذا أصابتها ملعقة. ثم أخذ (زرتر) أسطوانة معدنية في طرفها أسنان دقيقة كأسنان المنشار ووضعها في الجمجمة وأدارها بسرعة بين يديه كما يفعل الصائغ حين يثقب خرزة من الحجر الصلب ثم تحرك قليلاً من مكانه ولم أتمكن أن أرى رأس (هاركا) ولو أنهم ما زالوا يجرون العملية الجراحية فيها. وهنا تدخل "بتاح كفر" الذي كان يرقب العملية بعيني روحه وطلب من الجراح أن يبعث الحياة في القلب "هاركا" إذ أن القلب قد أخذ يضعف ولما بدأ الجراح يعمل بإشارة (بتاح كفر) رأيت لوحة صغيرة من العاج قد وضعت على الثقب الذي عمله (زرتر) وقد ثبتت هذه اللوحة في الجزء المهشم من الجمجمة بدبابيس من ذهب ثم أعيدت فروة الرأس مكانها بطبقة من الشمع لتثبيتها مكانها حتى تلتئم جراحه، ولما جف الشمع وضعت وسادة صغيرة من القماش بها أدوية على الجرح حتى يتأكد من عدم تلوث الجراح ثم ربط رأسه برباط وثيق.

أما جراح كتفه وجنبه فقد غسلت بالكحول المستخرج من عصير القصب وأزالوا ما لوث الجراح من القاذورات ربما كانت في مخالب الأسد

ثم غمرت بمياه مشبعة بحياة الإله (بتاح) وبعد ذلك نشروا عليها مرهماً أخضر من أعشاب كشف والدي عن خاصيتها في القضاء على الآلام التي تتسبب إذا التصقت الأربطة بالجروح. وقد ربط (زرتر) ذراع (هاركا) وكتفه حتى لا يحركها فيمزق عضلة من عضلاته الجريحة.

ثم وضعوا على جبهته قماشاً مبللاً بمحلول مهدئ ثم وضعوا حجراً ساخناً تحت قدميه بعد لفه في فوطة. وبعد أن انتهوا من كل ذلك سمح كاهن أنوبيس لروح (هاركا) أن تعود إلى جسده فشعرت فجأة أن يده التي مازلت أمسكها قد قبضت على يدي، وفتح عينيه وعاد وجهه هادئاً لا اختلاف فيه ولكنه بدأ يهذي ويقول "زا.. زا.. أتت... سيدي هل أصابه مكروه"؟ ولم يهدأ حتى أخبرته أن والدي لم يصب بأذى، ومكثت بجانبه حتى نام.

الفصل الثالث

حلم عن بلاد (زوما)

في تلك الليلة أعدت وليمة تكريماً لـ (ساردك) ملك (زوما) وجلس ساردك عن يمين والدي وقد ارتدى تاجاً من الذهب والمينا عاليا ومخططاً كأنه حزمة من البوص ويضيق عند قمته المغطاة بطبقة رقيقة من الذهب حولها ثلاثة سيور مرصعة بالجواهر. وكان رداؤها طويلاً مروحي الشكل قد تثنى ثلاث ثنيات حتى أصبح شبيهاً بالريش، وارتدى فوقه عباءة من الصوف لونها أحمر داكن ثبتت على كتفيه بدبوس طويل من الذهب عليه خاتم أسطواني الشكل حفر بدقة متناهية من حجر الجمشت وطليت أظافر أصابع يديه وقدميه كما تفعل النساء، وتدلى شعره المجعد وقد علاه شيء من الدهن على كتفيه، ولمعت لحيته بالدهن كذلك، وكان أنفه معقوفاً غليظاً ولون بشرته أصفر كدار ولم تكن تلك البشرة ناعمة كبشرتنا بل تشيع فيها ثقوب كتلك الثقوب التي تحدثها ديدان الطمي في ضفة النهر. وكان يلبس أساور على ذراعيه من حبات العقيق وحول كل إصبع كبير من أصابع رجليه خاتم كبير. وعند رؤيته تذكرت هاركا وتمنيت لو أن الأسد قد مزق جسده بدلاً من أن يصيب (هاركا).. وقد تناول الطعام معنا أربعة من نبلائه أما باقي حاشيته فكانوا خدماً وجنوداً ولم تكن قسمات وجوههم واضحة كوجوهنا التي كانت تبدو وكأنها قدت من حجر وإنما بدت

وجوههم وكأنها صور من شمع بدأت تنصهر في الشمس، ولم يسمح لي سني أن أبقى إلى نهاية الوليمة.

ولما تركت المكان اصطحبني أخي ليسألني عن (هاركا) فقصصت عليه وأنا في الفراش كل ما رأيت ثم عادت أفكاري تشرد وتعود إلى (ساردك) وقلت إنه من أهل السوء والشر، فأمن أخي على كلامي وقال إنه فظ غليظ القلب إذ رآه يلهب حصانه بسوطه بعد أن سقط على الأرض، ولم يكن سقوطه ذنب الجواد المسكين، ولا بد أن (زوما) بلد فظيع لا يمكن العيش فيه مادام ملكها بهذه الغلظة. ووجدت تفسيراً لأشياء كثيرة في أحلامي حتى وضح لي الغامض منها. وكثيراً ما تحدثت وأخي عنها. وذات مرة فقد "نياح" خاتماً يخص والدي كان قد استعاره ونسي أن يعيده إلى مكانه وبحثنا عنه كثيراً ولكن بلا جدوى وفي تلك الليلة رأيت في منامي أن هذا الخاتم قد سقط تحت القش في قفص القط البري، فأيقظت "نياح" من نومه وأخبرته عما رأيت في حلمي، وفي فجر اليوم ذهبنا نبحث عنه في القش فوجدناه هناك. ولم يلحظنا أحد وأعاد "نياح" الخاتم مكانه ولم يدر أحد أنه سبق أن استعاره ليتقمص شخصية فرعون في لعبه وأتقمص أنا شخصية ملك أسير.

وكما أن السمكة تظهر كل جزء من زعانفها إذا نامت في البركة فإذا خافت حركت ذيلها واختفت في الماء كذلك الحلم الذي يبدو واضحاً عندما يصحو الإنسان سرعان ما يتلاشى إذا لم يسجل في الحال وعلى ذلك فإنه كلما كان هناك أمر أود تبيانه فإن "نياح" كان يحضر حشيته في

حجرتي وينام على الأرض حتى يمكنني أن أقص عليه ما رأيت في منامي عند استيقاظي حتى نتذكر تفاصيله معاً.. وقد حاولنا النوم في فراشي معاً ولكنه لم يتسع لنا وسقط كل منا على الأرض. ونام "نياح" تلك الليلة في حجرتي وقبل أن أغمض جفوني دعوت أن أذهب في حلمي إلى "زوما" بلد "ساردك" وعندما طرحت روحي عن جسدي رأيت الكثير ولما عادت روحي إلى جسدي واستيقظت أخبرت أخي عما رأيت. ففي بادئ الأمر خيل إليّ أني رحلت كما يرحل الطير ورأيت تحتي بلداً يغطي نبات القمح حقوله وتتمايل سيقانه مع الريح كما تتمايل المياه في البحيرة ويجري وسط حقولها أنهار وكأنها حفرت بسكين وقد رأيت منها الكثير وقد حفرت بشكل نظامي فظننت أنها قنوات كالتي حفرناها في أرضنا ولكنها كانت تختلف عنها إذ كانت أوسع منها بعشرين مرة وأكثر طولاً، وعلى ضفاف هذه القنوات قامت قرى كثيرة وفيها مبان بنيت من لبن يختلف عن لبننا ولكنها قذرة للغاية، وكان الذباب منتشراً في كل مكان وكان يبدو الخوف على الناس فلم أر أحداً منهم ينشد أغنية ما.

وذهبت إلى هيكل مدينة كبيرة ومع أن هناك أبنية كبيرة إلا أني لم أر أحجاراً. وكان يحيط بالمعبد جدار عال بيضي الشكل، وعلى البوابة الرئيسية مائدة عليها تماثيل من الصلصال خشنة الصنع وكانت تباع للناس الذين يحضرون إلى الهيكل ومعهم شكوى خاصة لإلههم، وكانت باعة هذه التماثيل تسأل الناس إحساناً فكان البعض يتصدق عليهم بشيء من القمح أو بجديين أو بطيور غريبة الشكل لا تقوى على الطيران بل تمد

أعناقها وتصرخ وكان لها سيقان صفراء اللون وريش أشعث وعيون أشبه بالخرز.

ولم أر في هذا المعبد من يعلم الناس ولم تكن كهنتهم إلا خداماً لتمثال إله يسمونه "مردوخ" له شكل إنسان وأسنان بارزة فوق شفتيه ومخالب بدل الأيدي والأقدام، وكان على من يريد التعبد والصلاة أن يكسر التمثال الذي اشتراه عند الباب أمام التمثال ثم السجود أمام هذا الصنم وكنت في حيرة من أمرهم، لماذا يحضرون إلى هذا المعبد؟ إنهم لا يكسبون شيئاً من علم وحكمة وقوة بل على النقيض من ذلك فإنهم يتركون المعبد وهم أكثر شعوراً بالذلة والاحتقار. ولم أر نساء في هذا المعبد ولعل ذلك يرجع إلى أحد أمرين، إما أن نساءهم أرجح منهم عقلاً فلا يجشمن أنفسهن مشقة الذهاب إلى المعبد وإما أن رجالهم يعتقدون أن نساءهم لا يستأهلن هذه العبادة.

وبعد ذلك شاهدت طقوساً دينية أقيمت بمناسبة الحصاد في فناء القصر الملكي فأحضروا عجلاً يريد أن يغشى بقرة، وهنا غلب على "سكيتا" الحياء وسكتت عن الكلام، ولكن ألح أخوها عليها في الاسترسال؛ فأطاعته قائلة: حمل ثمانية رجال العجل من سيقانه وحضر رجل في قميص أحمر واستل سكيناً من غمد ذهبي وجبّ العجل وأعطى أعضاءه المبتورة للملك الذي حملها فوق رأسه والدم يسيل منها على ذراعيه ودار حول الفناء حيث صفت جرار كثيرة ملآنة بالبذور وسكب فيها شيئاً مما تحويه أعضاء العجل المبتورة وكان عدد الجرار لا يقل عن

مائتين، وبعد أن انتهى من ذلك أفرغ بقية هذه المادة في وعاء حجري أخضر حملوه إلى المعبد الرئيسي ووضعوه أمام الإله. وبعد ذلك سمح للناس أن يدخلوا هذا الفناء وتزاحم أولئك الذين يودون أن يرزقوا أطفالاً وغمسوا أصابعهم في دماء العجل وذاقوه بألسنتهم.

ثم عدت في منامي إلى ماضيهم وشاهدت دفن ملكهم السابق، لأن هذه المناسبة تظهر فيها سجاياهم على طبيعتها فتبدو طبيعتهم إن كانت فيهم طيبة أو غير طيبة. وكانت قبورهم من اللبن ولم يحنطوا موتاهم... يا له من بلد فظيع!! فكل ما رأيت يبعث على الخوف والفزع... ثم ولجت روحي القبر الملكي.. وكان يختلف عن قبور ملوكنا... فبينما نراها في بلادنا تبدو في جلال وعظمة نرى قبورهم يعمها الخوف والهلع ولا تنطلق منها أنفس موتاهم بل تحبس فيها وكأنها حشرات في نسيج العناكيب. وفي هذه القبور صفت أجسام الفتيات الصغار مع أجسام الشبان في صفوف متراصة وثبتوا إلى الأرض عن طريق دبابيس طويلة وضعت بين عيونهم ثم اخترقت المخ ومنها إلى الأرض وبذلك لا يبدو عليهم أثر لجراح ويظهر كل واحد منهم كأنه على قيد الحياة. وقد قام كهنتهم بذلك حتى يمكنهم أن يرغموا هؤلاء العبيد على أن يخدموا ملكهم الشرير عندما تبقى روحه في الأرض ولا ترتفع إلى السماء. إن حكام هذا البلد يستحقون الهلاك وكم وددت يا نياح ألا يكون "ساردك" ضيفاً علينا وإلا لطعنته في منامه طعنة تقضي عليه.

فرد أخي عليّ قائلاً إن طاوعتك في رأيك أصبحت أدنأ من أهل زوما فلن يقدم محارب من أرض "كام" على اغتيال شخص لا حول له ولا قوة، بل على العكس من ذلك أود أن أتحداه في مبارزة بالعجلات الحربية أو الحراب أو في تصويب السهام على هدف يبعد عشرين خطوة منا.

فلم أوافق أخي على رأيه وقلت إنه من الحكمة أن تطعنه وهو نائم لأنه أكبر منك لدرجة لا يمكنك أن تحاربه وما الحكمة في أن تعطي شخصاً شريراً فرصة الدفاع عن نفسه؟ إنك إذا رأيت حية سامة تسعى، ألا تقتلها بدلاً من أن تضع يدك بين أنيابها وتسمح لها بفرصة مواتية لتؤذيك؟

فقال "نياح" اسمعي يا سكيتا لقد نشئت نشأة أمير، وتعتقدين في نفسك أن في إمكانك أن تشتركي مع المحاربين في ساحة القتال، هل تعلمت أنه بدلاً من أن تواجهي عدوك في ساحة القتال لقصور في شجاعتك أن ترشي خادمه كي يضع السم في خمره حتى تتخلصي منه؟ فقلت له حسناً... قل ما شئت عني... قل إني امرأة أو صبية أو طفلة لا تقدر الأمور كما يقدرها الرجال، ولكن إذا كان هناك سوء أو شر فاقض عليه بأية وسيلة تراها وأسرع هذه الوسائل أحسنها؛ فرد أخي وقال إذا حكمت أرض كام فسيخبو سمها إذ يرى الناس أنك تطعنين ضيوفك وهم نيام، وأخيراً قلت له اسمع يا نياح عندما أكبر سأتعلم كيف أكون قوية وسأتعلم كذلك أن أحرر الأرواح الحبيسة التي قضت نحبها خوفاً وهلعاً، وسأتعلم كذلك أن أكافح ضد أهل السوء بالسحر وأقضي على إرادتهم حتى تتحرر شعوبهم التي عاشت في الأغلال.

وفي صباح اليوم التالي رأيت أنا ونياح أن نحذر والدي من ضيفه ومن بلده "زوما" ووجدناه مع أمي بجانب حوض السباحة وقد انتهيا من العوم وكانا يلبسان ثياباً ثقيلة لأن الجو في الصباح كان بارداً وكانت ثياب والدي قرمزية وثياب أمي خضراء فاتحة اللون، وكانا يأكلان فاكهة في صحاف من المرمر وأعطت أمي كل واحد منا عنقوداً من العنب وجلسنا بجانبهما متربعي الأرجل. وقال نياح إن "سكيتا" قد رأت في منامها حلماً عن شعب "زوما"، إنهم قوم مخيفون "وساردك" من أهل السوء، وعليك ألا تمد له يدك بالتحية بل على العكس من ذلك عليك أن تهشم رأسه بعصاتك الغليظة. فضحك والدي وقال إن نياح مضيف قاسي القلب ثم سألني عما رأيت في حلمي فأخبرته عن كل ما رأيت إلا مشهد العجل فلم أتحدث عنه لأني ظننت أن والدتي ما كانت تحب أن أرى هذا المشهد. وبعد ذلك قال والدي إنه يعلم حقيقة "ساردك" وإنه يضمر لنا السوء في قلبه ويتآمر علينا ولكنه عندما طلب أن يزورنا رحبت به أملاً في أنه عندما يرى تقدم بلاد "كام" في عصر فرعون ويرى ما عندنا من كهنوت صحيح ينقل تعاليمنا من بلدنا "كام" إلى بلده "زوما" وعلى مر الأيام قد يعم بلدهم نور العلم والمعرفة.

وهنا سأله نياح إذا ما كان من الحكمة أن يدع جنود "ساردك" يختلطون مع خدامنا إذ قد يلقنونهم السوء، فطمأننا والدي وقال إن أتباعه وجنوده أقوى من أن ينال منهم السوء، وأشار إلى نسر في السماء وقال إن الأقوياء في إيمانهم لا خوف عليهم من الأشرار فمثلهم كمثل النسر لا

يموت إذا أكل شيئاً قذراً بل يقاومه بقوته ويتغلب عليه ويطير أكثر ارتفاعاً بعد تناول طعام هكذا.

وسألتني أمي عن أحلامي وعندما أخبرتها أن كثيراً ما تحققت أحلامي كما تحقق هذا الحلم سرت كثيراً أكثر من سرورها إذا ما قمت بأداء درس صعب على الوجه الأكمل. وقد دفع هذا السرور أخي "نياح" أن يخبرهم بقصة خاتم والدي حين فقد منه واكتشفت مكانه في منامي ونسى أن والدي لم يعلم بأنه قد استعار هذا الخاتم، وقد أنصت والدي إلى تلك القصة وقال: إن أحلاماً كهذه أثمن وأنفع لك من الصوت العذب للمغني ومن الأيدي الماهرة للمثال، وسمعت والدي يقول لأمي وهما في طريقهما إلى حجراتهما ليعدا العدة لاستقبال اليوم سمعت والدي يقول سيحكم الاثنان بلدنا بعدي، وأعتقد أنه في هذا اليوم قرر أن نشترك معه في حكم البلد معاً لأنه لم يمض شهر على هذا اليوم حتى أعلن ذلك والدي على الملأ يوم عيد "بتاح".

وفي تلك الليلة حضرت أمي إلى حجرتي وتحدثت إلي عن أحلامي وقبل النوم قالت لي "عليك أن تعتزي وتحتفظي بذكرياتك فإن ذكرى ماضيك وتجاربه هي المفتاح الفضي الذي يقي قدميك من أن تحيد إلى طريق لا يؤدي بك إلى الحرية، وإن هذه الذكريات الماضية ستعلمك معنى التواضع الذي دونه لا يمكن أن يوجد الفخر الحقيقي، وبهذه الذكريات سنتذكر الخوف الذي بدونه لا تكون هناك شجاعة وليدة الإدراك والفهم، وعن طريق هذه الذكريات الماضية سنعرف الرحمة التي هي أصل القوة،

وستملكين يوماً ما "المفتاح الذهبي" الذي به تتفتح أمامك ذكريات ماضي غيرك من الناس ويبين لك أنه ما من حفرة قد تسقطين فيها لم يسبق لغيرك أن ارتفع منها، وإنه ما من جبل قد بدا لك شديد الانحدار إلا وقد قهره آخرون كما يجب عليك أن تقهريه، وإن الآلام مهما طال بها العهد وإن الأحزان مهما خيمت على الناس فإنها تزول وتنقشع تاركة ضوء الشمس يكفكف عبرات أولئك الذين انهمرت الدموع من عيونهم. وإن كل من على الأرض وهم في رحلتهم نحو الحرية سيصلون يوماً إلى البوابة العظمى التي عندها ستتكسر آخر حلقة من أصفادهم وعندئذ سيصبح الكل سواء في ضوء آخر غروب الشمس وأول شروق لها وسيكون أعظم كاهن وأيأس سجين مرتبطين معاً في إخاء ومحبة الآلهة، هذا ما أقوله لك يا ابنتي فتذكري دائماً روحك".

الفصل الرابع

الرحلة الملكية

في الجزء الأخير من نفس العام اصطحبنا أبي في رحلة ملكية إلى أعالي النهر حتى الحامية الجنوبية المرابطة في "ناكش" وبقيت والدتي في العاصمة الملكية لتقوم بشئون الدولة في غياب والدي وكان يأتمنها على أختامه ويخولها سلطة التصرف في الأمور. وشعرت بنشوة عظيمة حين علمت أن والدي سيصحبني معه كما يصحب أخي إذ أني لم أتعد في رحلاتي جنوباً مدينة أبيدوا "أبيدوس – العرابة – المدفونة" وكان ذلك في صغري. وقبل بداية الرحيل وضعت ملابسي في خمس حقائب لها أغطية مقوسة وثلاث منها مصنوعة من الخشب المنقوش والاثنتان الأخريان من الجلد المزين بالمسامير.

وكان للقارب الملكي خمسون مجدافاً، وكان يجلس المجدفون على السطح الضيق على جانبي حجراتنا التي كانت من حصير مجدول من البوص يغطيها ستائر مسدولة من الداخل وفي مؤخرة السفينة أمام الدفة وضع حصير ووسائد لنجلس عليها وكانت تغطى في وقت الظهيرة بمظلة مزينة بخطوط خضراء وحمراء. وكنت ألهو أحياناً بأوتاد صغيرة ملونة تثبت في لوحة مقسمة إلى مربعات كلوحة الشطرنج، أو الداما، وأحياناً أخرى كنت أتدرب على العزف على قيثارة لها أربعة أوتار، على حين كان "نياح"

يلهو بعمل نموذج للقارب من خشب الأرز وعمل له مجاديف من العاج. وكثيراً ما رسونا عند القرى على ضفتي النهر وعند ذلك يقدم رئيس البلدة إلى فرعون قائمة بعدد الناس والحيوان الذين يحكمهم وعن كمية الغلال التي في الأجران. وفي بعض الأماكن كان يقضي والدي بين الناس وكان دائماً يصطحبنا معه حين يقضي بينهم ومن بين القضايا التي حكم فيها قضية كانت بين رجلين في إحدى القرى يتنازعان ملكية حمار وحشي ادعى كل منهما أنه صاحبه لأنه رآه قبل الآخر. وكان أحد الرجلين ثرياً والثاني فقيراً: ولكن الثري كان يشكو الفقر دائماً ويشكو كثرة العيال وضآلة محصول أرضه وادعى أنه في حالة عوز أكثر من خصمه وكان والدي على بينة من كذب ادعائه فقال له "إنك تقرر أمامي أنك أكثر عوزاً وتشكو الفاقة وأن هذا الرجل شرير وكذاب وسأقضي بينكم وأصلح ما فسد ولذلك حكمت بأنك أيها الرجل الفقير ستأخذ الحمار البري ولكي أزيد حدبي عليك ستتبادل أنت وهذا الرجل ممتلكاتكما". وهنا صرخ الرجل شفقة على نفسه وقال: بذلك أكون قد سلبت مالي.. فتظاهر والدي بالدهشة وقال: أسلبتك مالك حين أعطيتك كل ما يملكه جارك الذي كنت تحسده عليها؟ انظر لهذا الرجل إنه قانع بحكمي ولو أنه كان من نصيبه حقولك وماشيتك التي ادعيت أنها أقل إنتاجاً من غيرها.

وبعد ذلك قال لنا والدي إنه يجب أن يحرم الإنسان أحياناً مما يملك قبل أن يتبين قيمة ما فقد، ومثله كمثل رجل يصرخ من خدش أصابه فهذا الرجل يجب أن يصاب بجرح من سيف حتى يقدر معنى الجسم السليم.

وفي قرية أخرى تفقد والدي حال المواشي بها، ورأى ثوري رجل من سكانها في حالة يرثى لها، إذ وجد في أكتافهما جراحاً بليغة من سوء وضع النير عليها. فلما وجه نظر صاحبهما إلى ذلك ظناً منه أنه جاهل أو غبي ولم ينتبه لإصابة ثيرانه، اعترض الرجل بحجة أن ثيرانه كسالى لدرجة أنها لا تقدم على الطعام لكسلها هذا، وأن ما يقومان به من عمل يمكن لطفل صغير أن يؤديه، لذا فهو يحسدهما على ما هما فيه من رضى. وهنا قال له والدي "لا داعي لأن تحسدهما على ما هما فيه، فستشاركهما إياه.. فسيوضع النير على كتفيك وستجر محراثك ذهاباً وجيئة تحت أشعة الشمس المحرقة حتى يتم حرث حقلك".. ثم وهب الثورين رجلاً يعنى بماشيته.

وبعد أيام أخرى وصلنا بلداً يسود التبرم والشكوى سكانها، وكان ذلك ناتجاً من غطرسة حاكمهم فخلعه والدي من منصبه وعين آخر مكانه.

ولما سألناه عن الأساس الذي عليه اختار الحاكم الجديد قال تقدم ثلاثة رجال لهذا المنصب، وكان لكل منهم حديقة فلم أنته من اختيار أحدهم إلا بعد أن زرت حدائقهم فرأيت النبات في أحدها نامياً قوياً. بينما النبت في الحديقتين الأخريين هزيل لحاجته إلى الماء رغم أن النهر يجري على بعد خمسين ذراعاً منهما ومن يسمح لزرعه أن يذبل مع قرب الماء منها إما كسول وإما غبي، وزيادة على ذلك جاحد لنعمة آلهة الطقس الجوي التي تحمي كل النبات الذي ينمو في الأرض؛ فالإنسان أفضل وأرقى

من البقرة التي يشرب لبنها والبقرة أجل شأناً من المرعى، والمرعى رغم ضآلة شأنه كما يبدو لنا – إن جف نباته وهلك زرعه تهلك معه كل حلقة من حلقات الحياة التي ترتبط به. فلنذكر ذلك دائماً ولنكلأ البيت والزرع بالرعاية شكراً وعرفاناً بالجميل وكثيراً ما قضينا الليل أنا ونياح في صيد السمك من مؤخرة قاربنا عندما تلقي مرساها وكنا نصيد بخطافات من البرنز[٣] نضع فيها طعماً من ديدان الطمي أو قطعة من فضلات اللحم وقد اصطاد "نياح" مرة ثعبان سمك وقال عنه أحد البحارة إنه روح إنسان انتحر بأن ألقى نفسه في النهر. ولم نصدق ما قال ولكن انقطع خيط السنار فوقع الخطاف في الماء – واندفع ثعبان السمك في الماء كأنه حية فضية اللون وكان صيد الطير البري أحب شيء إلينا فكنا نخرج لصيدها مع والدي في غروب الشمس بين نبات البوص وكانت سهام[٤] وعصي الرماية التي يطلقها والدي أبعد من عصينا، وقد رأيته مرة يطلق عصا الرماية فتصيب رقبة أوزة عراقية وهي تطير بسرعة عظيمة.

ومكثنا خمسة أيام في مدينة "أبيدوا" عاصمة البلاد في زمن مينيس وبعد يومين من البقاء فيها ضقت ذرعاً بها إذ كان لزاماً علي أن أقضي طول وقتي بين نسوة وبنات كن يجلسن في استقامة مرتدين أحسن الملابس وكان حديثهن عن الأبنية وعن شكل الوشى الجديد الذي تزين به الملابس وكان بينهن بنت اتضح أنها ابنة عين أعيانها وكانت تشبه الدمية الغالية الثمن التي يتحرج المرء من اللعب بها. وقد سألت "نياح" عما إذا كانت

---

(٣) في الأصل من البرنز وهذا خطأ لأن البرنز لم يعرف في الدولة القديمة.
(٤) في الأصل "السهام" ولكن هذا النوع من الصيد كان يزاول بعصى الرماية.

بشراً حقيقياً فقال إنها تسلك هذا المسلك لأنها تتذكر دائماً أنك ابنة فرعون فقلت له أتظن إني إذا وضعت سحلية في فراشها تنسى أني ابنة فرعون وتبدأ في اللعب معي؟ وهنا غضب "نياح" وقال إذا كنت ستضعين السحالي في فراش الناس فلن تصلحي لأن تكوني شريكتي في الحكم، فأجبته قائلة "إذا استمر بك الحال وكثر غضبك مني فلن أقبل أن تكون شريكي في الحكم، وكنا على وشك المشاجرة لولا أن "نياح" أنقذ الموقف وتذكر أمراً يبعث على الضحك يود أن يسرده علي، وقال إن من عادة القوم في هذا المنزل الذي نزلنا فيه إذا أراد شخص ما أن يستحم فبدلاً من أن يستحم في مكان خاص في أرض الحمام ويدلكون جسمه بالزيت فبدلاً من هذا كله عليه أن يدخل حجرة أشبه بصندوق بلا غطاء، وعلى حين غرة يصب أحدهم الماء صباً فوقه من الجانب الآخر للحائط. وهذه فكرة غير مستحبة لأن الماء إما أن يكون ساخناً جداً وإما شديد البرودة.

وفي اليوم الذي تركنا فيه "أبيدوا" أعد موكب تقدمه والدي في عجلة حربية وقف فيها بمفرده وبعده سرت أنا و"نياح" كل في عجلة يقودها جوادان وبعد ذلك استأنفنا رحلتنا في النيل. وهبت رياح شمالية قوية فارتاح معها المجدفون في ظل شراع المراكب المقدسة. وبعد أربعة أيام وصلنا "نخت – آن" عاصمة الجنوب، وقد أسسها "نارمر" الذي أخضع ملك الشمال قبل اتحاد الوجهين مدة عشر سنوات وقد أطلق هذا الاسم عليها ومعناه "البلد الذي خلد ذكره لقوته وجبروته" وكان ينافس هذه البلدة عاصمة الجزء الشمالي واسمها "إس – آن" ومعناه البلد الذي خلد ذكره لحكمة أهله.

وطبيعة البلد هنا تختلف عنها في الدلتا، فبعد أيام عدة وصلنا إلى مكان يجري فيه النهر بين تلين صخريين وهنا رأيت محجراً كبيراً تقطع فيه حجارة الجرانيت الحمراء وقد أعيد الكشف عن هذا المحجر من ثلاث سنوات بسبب حلم رآه والدي فقد تذكر في حلمه أنه منذ مئات السنين كان وزيراً للملك "نارمر" وأن الحجر الذي استعمل في تابوت الملك قد اقتطع من هذا المكان، ولما كان حلم والدي متقطعاً وغير واضح فقد أمر والدي أحد كهنة أنوبيس ليبحث في سجلاته حتى يكشف عن هذا المكان، وهكذا عاد والدي قبل رحلتنا بثلاثة أعوام إلى نفس هذا المحجر الذي سبق أن رآه في حلمه وأطلق عليه اسم "زا – إن" ومعناه مكان ذكرى "زا" لم أكن قد رأيت من قبل حجراً بهذا اللون لذلك دهشت عندما رأيتهم يقطعون كتلة منه ليصنعوا منها تمثالاً لوالدي ووالدتي ليوضع في معبد "أنت" في العاصمة الملكية.

وبعد ذلك وصلنا إلى الشلال الأول، وكان يسميه الملاحون "جبل الماء الغاضب" ومكثنا هنا ثلاثة أيام لنحتفل احتفالاً رسمياً بفتح قناة تجري فيها السفن نزلا وصعداً في النهر دون التعرض لأخطار الشلال وأطلقوا على هذه القناة اسم المجرى الهادئ، وعند وصولنا كانت القناة جافة وشق جزء منها في الصخر وفي أجزاء أخرى كانت جوانب القناة مدعمة بصخور أعدت لهذا الغرض لتكون طريقاً لقطيع من الثيران تجر السفن صعداً في القناة.

وكان في أعلى الجزء الصخري عمودان من الصخر الصلب وفيهما حفر ملئت بالشحم كانت تنزلق فيها حجارة ثقيلة ربطت في حبال أكثر سمكاً من ذراع الإنسان وكانت هذه الحبال تمر حول العمودين وتربط في مركب يبحر نزلا في القناة فبينما تسحب هذه الحجارة الثقيلة كان يسمح للسفين أن تمر في هدوء وسلام وكانت تستخدم هذه الوسيلة وقت فيضان النهر أو حين تحمل السفن حمولة ثقيلة يخشى عليها بسببها أن تنغمس في الماء إذا لم تبحر في هدوء.

وكانت فتحة القناة مغلقة بحاجز من الخشب الثقيل وأمامها مئات من أكياس الرمل ربطت فيها بحبال. وقبل يوم الاحتفال كان معظم الأخشاب قد نقلت وكان هناك خمسة آلاف عامل بجانب هذه الحبال في انتظار إشارة من فرعون ليزيلوا هذه الأكياس فتجرى المياه في القناة. ولما أعطيت الإشارة من فرعون وأزيلت هذه الأكياس اندفعت كمية من ماء النهر على الصخور ولكن بقية المياه انسابت في هدوء حتى التقت بمياه النهر الهادئ بعد الشلال ثم سارت السفينة الملكية ونحن فيها في هذا الطريق المائي العظيم الذي افتتحه فرعون وكنا نسمع أناشيد العمال الذين حفروها.

وفي المساء أعدت وليمة احتفالاً بهذه المناسبة دعي إليها كل من اشترك في هذا العمل وجلسوا جماعات وجلست وأخي مع والدي وافترشنا جلداً من جلود الأسود بجانب إحدى النيران الموقدة وقدمت لحوم ثيران وظباء وجرار نبيذ وجعة وصحاف فيها كعك وعسل وسمك وكانت العمال

تنشد أغانيها التي كانت تنشدها في أثناء العمل وهي أناشيد موجهة إلى فئوسهم أن تفلق الحجر وإلى التراب أن يقفز في سلالهم كما يغني الفلاحون لثيرانهم أن تدرس غلالهم. ولما خبت النيران كان نور الفجر يبدو في السماء وفي صباح اليوم التالي عدنا إلى سفينتنا وأبحرنا خمسة أيام صعدا في النهر حتى وصلنا "ناكش".

وهناك كان الحصن الذي يحمي الحدود الجنوبية لأرضنا "كام" وكان يقع على الضفة الغربية للنهر. ولم يكن هذا الحصن منتظماً في شكله فكان أشبه بأسد رابض إذ كان يتبع خط بروز الصخور التي بني عليها، وكانت الأسوار المقامة بين الأبراج الستة المربعة الشكل مبنية من الآجر ومزججة كالخزف وكانت هذه الأسوار ترتفع من الصخر الطبيعي ويزيد ارتفاعها على ارتفاع خمسة رجال وقف كل منهم على كتف الآخر، أما سمكها فيقدر بطول رجل طويل القامة حين يستلقي على الأرض. وكانت هذه الأسوار تحيط بفناء يتسع لخمسمائة مائة من رءوس الماشية وألف عنزة يمكن أن تبقى فيه بعيدة عن الخطر، وكان يفضي إلى المدخل منحدر ضيق صاعد وعلى جانبيه مهاو، ولذلك يمكن لثلاثة جنود فقط أن تحمي هذا المدخل ضد جيش بأجمعه. ولكي تصل إلى بوابة الحصن عليك أن تسير في نفق قد في المحجر، ويقفل هذا النفق في زمن الخطر ثلاث بوابات من الحجر تسقط أمامه وترفع هذه البوابات الثلاث حبال من جلود الحيوانات تجري فوق نافذة من قضبان معدنية إلى عجلة لها ستون قضيباً بجانبها رجلان يديرانها وقت الحاجة. وفي وسط الفناء بئر من الماء العذب حوله مخازن الخمر والغلال والطعام والسهام ورءوس العصي والرماح.

ويحمي مدينة "ناكش" ألفان من جنود الشمال وثمانية آلاف جندي من أهالي هذا البلد. وكان هؤلاء الجنود يبلغون في طول قامتهم نصف طول الرجال العاديين وأجسامهم سوداء لامعة كتماثيل الأبنوس المصقول. وكانوا يحلقون رءوسهم ويتركون خصلة من الشعر في أم رأسهم وتبدو أسنانهم في ابتساماتهم أبيض من العاج والصدف. وكانوا عرايا الأجساد إلا من دثار حول وسطهم يربط بسيور من جلود. وكان هؤلاء الجنود من شعبنا يقومون بحراسة أرضنا من قوم في نفس لون بشرتهم ولكنهم ليسوا من جنسهم وطبائعهم بل كانوا قوماً غلاظ القلب خونة مهرة في سحرهم، طعامهم القاذورات. وكذلك كانوا يحموننا من غزوات أهل بونت في الجنوب الشرقي في بلدنا.

وكان على هذه الحامية أن تظل قوية وهذا الحصن أن يبقى حصيناً لأن في هذا المكان كانت تكدس الجزية التي تأتي لنا من الشعوب التي تقع في جنوب "كام" من ذهب وعاج وأخشاب نفيسة وأصباغ وأحجار كريمة وفضة ونحاس ونباتات نادرة.. كل ذلك كان يخزن هناك إلى أن ينقل في النهر وقت الفيضان إلى الشمال. وإذا انخفض النهر عادت السفن محملة بالغلال للتجارة مع هؤلاء الشعوب التي تقع وراء حدودنا.

ولا بأس من أن تحمي الأسوار الحجرية القوية هذا الذهب فالحجر والذهب صنوان ولا أدري لماذا يعرض الرجال أرواحهم لحماية أتفه الأشياء على الأرض ولكن إذا سمع هؤلاء المحاربون أن هناك طفلاً عذب فإنهم

يعاقبون المتسبب بحرابهم وإذا احتاج الأمر إلى خوض غمار الحرب فإنهم على استعداد لأن يفنوا عن آخرهم لحماية شريعة أرض "كام".

وقد أخبرني "نياح" أنه يود حين يبلغ أشده أن يرأس هؤلاء الجنود، وحينئذ سيعرف ميولهم وأفكارهم ويكسب قلوبهم حتى يتبعوه إلى النصر إذا تحدته دولة مجاورة معادية لنا وشنت حرباً علينا. وقد أحببت أنا أيضاً هؤلاء القوم وأحببت أغانيهم التي ينشدونها في بيوتهم حول نيرانهم فقد كان في هذه الأغاني فن عجيب هز وجداني أكثر من أي أغان سمعتها، فبعضها كانت فيه همهمة كهمهمة النحل ترتفع حتى تصير زئيراً كزئير الأسود أو كأنك تسمع زوبعة هبت فوق نبات البوص وسمعت لها رعداً يهدر مع الماء والبحر.

وبعد أن مكثنا هناك تسعة أيام قفلنا راجعين إلى بلدنا "من – أتت – اس".

الفصل الخامس

وفاة زا ـ أتت

ولما كنت في الحادية عشرة من عمري غزا ساردك ملك "زوما" أرضنا "كام" وكان قد حضر كضيف علينا والغدر في قلبه كي يعرف الطرق التي يسلكها في غزو بلدنا ويتبين قوة جيشنا.

وكانت رجاله صفر البشرة لهم لحية وكانت على جلودهم طبقة دهنية لأن طعامهم غير نظيف، أما أجسادهم فكانت خشنة ويعلوها الشعر وكانت بدينة أشبه بجسد خنزيرة حبلى وكانت سريرتهم تنطوي على الشر.

وكانوا يملكون عدداً من العبيد أذاقوهم العذاب حتى فارقت أرواحهم أجسادهم وأصبحت هذه الأرواح ولو أنها بعيدة عن هذا العالم أصبحت خاضعة لهم. فهاجمت هذه الأرواح أرواح أولئك الذين يحرسون بلدنا في أحلامهم ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً إذ تسربت أنباء من المعبد أن جيوش "زوما" يهاجمون حدودنا الشمالية الشرقية في الأرض الضيقة التي تقع بين البحرين. وقد صمدت أمامهم حامية الشمال غير أن ذلك لم يطل كثيراً لأن عجلاتنا الحربية قليلة ولأننا نستورد الخيول من بلادهم ولم يبيعوا لنا إلا الخيل التي لا تصلح للقاح، ولذلك حصدت عجلات "ساردك" حاميتنا كما يحصد المنجل نبات القمح، واندفعت جنودهم في بلدنا كما

يندفع السيل العرم ليهلك الحرث والنسل فولت الناس الأدبار وتركوا بيوتهم، ومن لم يهرب أذاقوه سوء العذاب وقد هاجم جيشنا بقيادة فرعون تلك الجيوش خمس مرات وهدم أسوارهم فتراجع "ساردك" ولكن سرعان ما كانت تصلهم الإمدادات وأصبحت جيوش "زوما" كأنها فهود تتراجع لتلعق جراحها، ولكنها سرعان ما تعاود الكرة وهي أشد مراساً من حالتها الأولى. فأعلنت التعبئة العامة في أرض "كام" وجند كل رجل يمكنه أن يحمل الحراب أو العصي الغليظة وقامت النسوة بعمل الرجال في الحقول وصادت الطير والأسماك حتى لا يعرف المحاربون آلام الجوع وإذا عادوا لا يقاسون من قحط أو مجاعة.

وخيم الدمار خمسة أشهر على أرض "كام" وأخيراً عزمنا على أن نلقي بجميع قواتنا ضد "ساردك" في موقعة فاصلة فإذا انتصر علينا أصبحت بلدنا في ظلام وخبا كل نور في معابدنا كما تخبو الشمعة في مهب الرياح. وحان ذلك اليوم الذي فيه صفت الجند استعداداً لمقابلة "زوما" وكان البحر من ورائه، وقد صدرت الأخبار من المعبد بأن المعركة قد بدأت وأن في تلك الليلة ستعرف أرض (كام) حلاوة النصر أو مرارة الهزيمة، وكم وددت أن أكون ولداً أو صبياً حتى أتبع والدي إلى ساحة القتال كما فعل "نياح" أو أن أكون كاهناً حتى تكون روحي في الموقعة، فانتظار البلاء أشد من وقوعه. ومر الوقت وكأنه دهر وأصبحت كل دقيقة كأنها قطرة من ماء بارد تنساب على جبهتي. وعندئذ تذكرت أني أحياناً إذا نظرت في الماء الصافي أمكنني أن أرى رؤية واضحة تبدو كأنها حلم حقيقي فذهبت إلى الحديقة وركعت بجانب البركة ودعوت "بتاح" أن يجلو بصري. وكانت أشعة

الشمس تسقط على سطح الماء وكأنها تسقط على درع معتم، فنظرت إلى الضوء وهنا بدت أمامي صورة المعركة فرأيت جيوشاً في صراع ورأيت خيولاً تندفع وتدوس وتسحق تحت سنابكها جنوداً كثيرة، ورأيت رجلاً خرجت أمعاؤه حتى تعثر فيها حين حاول القتال، ورأيت آخر وقد اخترقت الحربة فمه وخيل إلي أني سمعت في الهواء صوت اندفاع سهام أخي وسهام من يقودهم وتبع ذلك جلبة عظيمة فسمعت صهيل الخيول وصراخ الرجال وأنين الجرحى. ثم عم الهدوء وتبدلت الصورة؛ فرأيت عربة فرعون تقود هجوم جيشنا وكان الهجوم له هدير الرعد فشق صفوف الأعداء كما تشق السفينة أمواج البحار، واكتسحت جيوشنا جيوش الأعداء فولت الأدبار أمام جيشنا وتقهقر العدو ولم يجد مفراً فجيوشنا أمامه والبحر وراءه وأخيراً ابتلعهم اليم كما ابتلع الطوفان الكفار في الأرض القديمة ولم تكن الحرب بين شعبين بل كانت نضالاً بين الظلام والنور، ولم نعط أهل الظلام هوادة. ثم رأيت عجلة والدي الحربية ورأيت علمه بريشته القرمزية مثبتة في جانبها ولكنها كانت خالية من صاحبها، ثم تبدلت الصورة، ورأيت والدي يبتسم لي، وكان أمراً غريباً إذ أمكنني أن أسمع... أن أسمع صوته وهو يقول لي:

"اسمعي يا ابنتي... أخبري أمك أني قد عرفت لذة النصر.. أما جسدي فقد قضى نحبه بسبب طعنة حربة... وتركت روحي جسدي وتخلصت منه كما يتخلص الطير من فخ نصبه له صياد... وأخبريها أن تنام مبكرة هذه الليلة حتى نتلاقى ونسير معاً في منامها لأن لدي الكثير مما أود أن أقوله لها... وألا تحزن لخلاصي من هذا العالم ولحريتي التي أنعم بها

لأنها ستشاركني إياها... وأن تتجرد من جسمها في نومها لتكون بين ذراعي.

"أما "نياح" فأخبريه أني علمته الكثير عن طرق الحكم حين كنت على الأرض وسأعلمه الكثير وأنا بعيد عنها... وقولي له أن ينصت للحكمة سواء أكانت من شيخ هرم أم من الصبي حارس كلاب الصيد، لأن الحكمة لا ترتبط بنوع العمل أو السن. أخبريه أن يحكم بين الناس كما حاولت أن أحكم؛ فعليه أن ينصر الضعيف حتى يقوى شأنه والخائف حتى يصبح شجاعاً، ويهدي اللص حتى يصبح أميناً... أخبريه أن يعمل ما في وسعه أن يكون بين الناس هادياً لهم كما هداه الله.

أما أنت يا ابنتي فأنصحك بأن تذهبي إلى معبد (أتت) حين تبلغين الثانية عشرة من عمرك!.. وهناك تعلمي كيف توصي الناس بالحق.. وعندما يفقهون قولك عودي وساعدي أخاك حتى يسوس الناس كما تمكنت أمك وأبوك معاً متضامنين ومتعاونين من أن يحكما الشعب ويهدياه إلى الصراط المستقيم"

الفصل السادس

حرية مستعادة

كان لزاماً عليَّ أن أقلد أمي فلا أفسد عظمة والدي بالبكاء لوفاته، ولكن إذا اشتد بي الأسى وعجزت عن احتماله توجهت إلى المعبد وحدي وهناك يحدثني "بي – سي – رع" عن الموت حتى أراه على حقيقته أمراً يسيراً: وقال لي قبل جنازة أبي:

"هبي يا – سكيتا – أنك في سجن من السجون وكان معك شخص تحبينه حباً جما وأطلق سراحه يوماً بينما بقيت أنت وراء جدران السجون فلا شك أنك ستفرحين لفرحه إذ استعاد حريته التي كنتما تشتاقان إليها، وستكفكفين الدمع في وحدتك حين تفكرين في فرحه وسروره، وإذا جن الليل واستطاب المنام فستطير روحك من نافذة السجن الذي أنت فيه، وتشاركينه حريته حيث تجتمعان ولن تعرقل ظلمة السجن من رؤيته وسيضمك بين ذراعيه اللذين تخلصا من الأغلال؛ لذلك يجب عليك ألا تفسدي ذلك الوقت الذي تقضيانه معاً بالبكاء والعويل لاضطرارك أن تعودي كل يوم بين جدران السجن الذي ضمكما يوماً ما.

وحين كان أبوك في هذا العالم كنت تسردين عليه كل ما قمت به خلال النهار وإذا رأيته في المساء لم تحزني لأنه كان يجلس طوال النهار في قاعة العرش يصرف شئون بلده. والآن حانت ساعة لقائه كما شئت ولكن

هذا اللقاء تأخر قليلاً إلى ما بعد غروب الشمس، فلا تحزني لأنك لا تسمعين وطء أقدامه فإذا أردت لقاءه فما عليك إلا أن ترخي عليك ستائر النوم وتسيري معه؛ فنحن جميعاً رحل مسافرون علينا أن نقطع رحلة طويلة نمر فيها ببلاد كثيرة قد نجد فيها الحدائق الغنَّاء والأنهار الهادئة وقد نشعر لوقت ما بسعادة العيش فيها. ولكننا نشعر في قرارة أنفسنا أننا في منفى نتوق إلى العودة إلى وطننا الحقيقي. وعندما أرسلتنا الآلهة العظام إلى الأرض حددت لكل منا أجلاً لهذا المنفى عن هذا العالم وإذا انتهى هذا الأجل سواء انتهى بعد ساعة من ميلادنا أو بعد تسعين عاماً رأينا أمامنا الباب الموصل إلى وطننا. وهناك أوقات تمر على الناس في هذا العالم يموتون فيها من الخوف ولكننا في بلدنا "كام" لسنا بالجهلة ولا بالأشرار، فقد عرف والدك تفاهة الموت فما هو إلا خطوة نحو الدرج الذي يصعد به إلى النجوم. وستكونين أنت جديرة بتراثك وتعلمين الناس ما لقنك والدك إياه وبعد قليل ستسكنين هذا المعبد الذي قام بتشييده وسأعلمك كيف تهيئين الطريق الذي تسيرين فيه ويؤدي بك إلى الآلهة، وعندما تصبحين كاهنة ستعودين وتشاركين أخاك "نياح" في الحكم وتجلسين معه على عرش أبيك وستكونين هادية لقومك ترشدينهم إلى الصراط المستقي".

الفصل السابع

جنازة فرعون

كان "زا – أتت" ابناً للابنة الكبرى للأخت الأولى للملك "مينيس" وقد شيد قبر والدته في المكان الذي أراد مينيس في وقت ما أن يبني عاصمة ملكه الجديدة شمال المدينة الملكية بيد أنها ماتت غرقاً عندما كانت في قارب بالقرب من الشلال الأول ولم يعثر على جثتها ومن ثم فقد ترك قبرها خالياً.

ولما تولى والدي الحكم مع "مينيس" وبنيا العاصمة الجديدة "من – أتت – أس" قررا أن يقيما قبريهما في مدينة "أبيدوا" حيث أوقد النور مرة ثانية. ولما توفي والدي كان قبره غير تام البناء ولو أنه ترك إرشاداته تفصيلاً حتى تكاد تبين موضع كل حجر فيه. وقد حنط جسده في معبد بالدلتا ووضع إلى أن ينتهي بناء قبره في قبر أمه الذي لم يغلق عليه، وكان تابوته من خشب الأرز حفر ولون حتى اتخذ صورته وعلى رأسه غطاء الرأس الذي يعلو رأس أبي الهول وكان يحمل عصاته وسوطه. وقام جنده على حراسة جثته وعلى باب تلك المقبرة وضعوا عجلة حربية كأنها في انتظار أمره. وكل يوم كان سيفه وحربته يصقلان كما لو كان نائماً في خيمته قبل أن يتسلح لخوض غمار المعركة.

وفي اليوم الأول من الشهر الثاني للفيضان بدأت الجثة تسير في رحلتها الأخيرة إلى "أبيدوا" وكان القارب الجنائزي الذي حمل الجثة أشبه بموكب الآلهة. وكانت تشدها مركب أخرى بحبال اختفت تحت سطح الماء حتى تبدو وكأنها تسير من تلقاء نفسها. وفوق هذا القارب وضع التابوت تظله مظلة خضراء وحمراء ولم يكن على ظهره سوى الجثة وأخي "نياح" الذي وقف عند الدفة. وقد استغرقت تلك الرحلة تسعة أيام وكان على "نياح" أن يدير دفة هذا القارب من بعد شروق الشمس بساعة حتى غروبها دون راحة أو طعام. ووراء هذا القارب بمسافة طويلة انتشرت قوارب أخرى تحمل أهل بيته وجنده وكهنته وكتابه، وتجمع الشعب على ضفتي النهر وقد حضر من جميع أجزاء البلاد ليرى انتقال فرعون إلى الدار الآخرة. وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهور تقديراً لملكهم الذي مات في سبيل تحرير بلاده من استعباد القوم الجهلة الأشرار.

ولم تدمع عينا أمي ولكني كنت أرى الحزن يخيم على فمها حين كانت تبتسم وكنت على يقين من أنها لم تذق النوم، وقالت إن شعبه يجب أن يشارك فرحة مليكه حين تخلص من قيود هذه الدنيا وعليه أن يتذرع بالشجاعة وألا يبكي مليكه الذي سبقه إلى العالم الآخر الذي لا يرى ومن ثم فلم تكن رحلته الأخيرة محزنة بل كانت كرحلة الظافر المنتصر. وعندما وصلنا إلى (أبيدوا) جر تابوته اثنا عشر ثوراً بيض اللون، كل ثورين سارا معاً وكان فوق رأس كل منها إكليل من زهور الخشخاش القرمزية وهي زهرة المحاربين مع سنابل قمح ذهبية اللون رمزاً للحكمة التي اتصف بها. وخلف النعش سارت أفواج من الشعب في الطريق الذي تحفه أشجار التين

من الجانبين وعلى جانبي هذا الطريق وقفت صفوف من جند أقاليمه الجنوبية، وكانوا ينشدون أناشيدهم الحربية كما كانوا ينشدونها قبل أن يقودهم إلى خط القتال.

ولم يكن قبر فرعون العظيم من الحجر المنحوت بل كان على شكل حجرته التي يحفظ فيها أختامه وكانت جدران هذه المقبرة على شكل تلك الأرفف التي كان يضع عليها سجلاته من ورق البردي وخلف هذه المقبرة أنشئت قبور أعوانه وأصدقائه، ولم تبد هذه المدينة كمدينة الموتى بل غطتها المروج النضرة كأنها مياه هادئة خضراء اللون على سطحها زهور يانعة، وذلك لأنه سبق أن قال والدي إنه إن ذبلت هذه الحديثة التي حول قبره وامتنع الناس عن رعايتها عندئذ ستتلاشى ذكراه من قلوب الناس.

وعندما انتهت هذه الاحتفالات انصرف الناس صفوفاً وراء بعضهم البعض وكل يودعه الوداع الأخير وقد ألقى كل منهم الزهور التي حملوها معهم حتى غطت أرض المقبرة. ولم يوضع في مقبرته أي طعام أو خمر أو أثاث أو سيوف كذلك لم يترك به أي ذهب أو عاج أو تماثيل ولا نقوش وكل ما ترك هي النباتات التي أحبها. وعندئذ قفل باب المقبرة عليه وكان من خشب الأرز.

وفي النهاية تركنا فرعون العظيم في مقبرته هادئاً مطمئناً راضياً مرضياً.

الجزء الثالث

١- الفرعون الصغير

٢- آخر أيام الطفولة

٣- الأيام الأولى في المعبد

٤- قصة "مينيس"

٥- ليلة في محراب أنوبيس

٦- التدريب الأول للذاكرة

٧- الخالقون العظام

٨- ساكن القمح

٩-كاتب المعبد

١٠- التدريب الثاني للذاكرة

١١- زهور الخشخاش القرمزية

١٢- زواج "أربتا"

١٣- نفرتيري

١٤- مستشارو المعبد

١٥- عجلة الزمن

١٦- الأرملة

١٧- "هكسو ديو مينس"

١٨- حلم عن مينواس

١٩- الإلهة العمياء

٢٠- "ديو"

الفصل الأول

الفرعون الصغير

بعد الانتهاء من جنازة والدي ذهبت وأخي إلى مشتل النبات في مساء اليوم الذي وصلنا فيه إلى القصر وتحدثنا معاً وبعد أن كنا أطفالاً في العام الماضي كبر أخي حتى أصبح رجلاً في مظهره وقد بدا أكبر من سنه، حتى صوته بدا عليه الجهد حين قال "لم تقتصر خسارتنا في موت والدي علينا بل شملت الشعب جميعه، إذ كان ملجأهم يلتمسون عنده العدالة والنصح والحكمة والرحمة والآن ها هو ذا قد اختفى من هذا العالم.

كنت أعرف تماماً أني سأرتقي هذا العرش في يوم ما ولكني كنت أعتقد أني سأشاركه الحكم مدة من الزمن وسأتعلم منه المزيد كل يوم، وحين تتقدم به السن قد يحتاج إلى معونتي وقد يترك الحكم لي ولكني كنت في حاجة إليه دائماً من ورائي يشد أزري. أما الآن فليس أمام شعبه سواي لأسوسه حتى أنت فلن تكوني بجانبي لمدة طويلة حتى تنتهي من الإجراءات والمراسيم التي يجب أن تتم قبل أن يسمح لك بمشاركتي في الحكم. إني أستحلفك يا سكيتا أن تسرعي بدخول المعبد فلن تطول غيبتك إذا عملت بجد ونشاط.

فقلت له "كم وددت ألا اضطر إلى الذهاب إلى المعبد، وكم وددت كذلك أن تنتهي الكهنة من كل ما يودون عمله حتى أبقى بجانبك، ولكني

حين أصبح كاهنة فسأتذكر أبي دائماً مع والدي بدلاً من أن أذكره حيناً ولا أذكره حيناً آخر.

إن أبي كانت أحكامه عادلة دائماً فكان رمزاً للعدل وميزان "تحوتي" وكان عليه أن يرعى كل هذه الآلاف المؤلفة من الناس، ورغم كثرتهم فإنه إذا تحدث إلى نفر منهم شعر أنه هو وحده الذي يملأ قلبه، وكانت جنده تشعر بأنه زميل لهم في الحرب فكان يعرف أسماءهم ويتذكرها دائماً ولو غابوا عنه مئات السنين، وكذلك كان يتذكر عدد أطفالهم وأسماءهم، ويعرف وطن كل منهم ولم تكن العلاقة بينه وبين جيشه علاقة جند بقائدهم، بل تعدتها إلى أنهم كانوا يحاربون من أجله لأنه كان صديقاً للجميع، حتى الطفل يمكنه أن يتحدث إليه وهو واثق من أنه يدرك عقليته ولغته كما لو كان طفلاً مثله... ألا تذكرين يا سكيتا... أنه عندما كنا نذهب إليه في شأن فما من مرة أجابنا فيها إجابة ناقصة... بل كان يجيب إجابة كاملة رغم الإجهاد الذي كان يلاقيه في قاعة الاستقبال أو كان يتحدث في أمر هام مع "زرتر".. كيف السبيل لأكون جديراً بحمل عصاه وسوطه أو أن أجلس في قاعة الاستقبال أو أضع على رأسي تاج الوجهين".

فقلت له "اسمع يا نياح.. إني على ثقة من أنك ستصبح كوالدك "أتتا آخر" وأتذكر أنه قال لي بعد مقتله أخبري أخاك أني علمته أموراً كثيرة وأنا في هذا العالم وسأعلمه أكثر منها وأنا بعيد عنه، فسيساعدك دائماً فما عليك إلا أن تفكر فيه وستجده بجانبك يمدك بنصحه وإرشاده، هل

نسيت ما قيل عنك عند ولادتك إنك ستحكم الناس بعد أن يبتلع اليم أولئك الأشرار الذين يهاجمون بلادك كما حدث للكفرة في الأرض القديمة، وقد تحقق ذلك وسيتحقق ما قيل عنك إن هذا الطفل سيسمى "نياح" لأن أصدقاءه في عالم الأرواح كانوا ذوى خبرة طويلة عن عيشة طويلة، ولذا كان جديراً بأن يحكم أرض "كام"..."

فقال (نياح) "ولكن لم يكن والدي متسرعاً متبرماً مثلي، فكان يمكنه أن يعيش في حاضره ويراه واضحاً دون أن يفسد الماضي أو المستقبل صورته وعندما كان يجلس في ساحة القضاء كان كل همه أن يقضي فيما عرض عليه على أحسن وجه، ولم يكن يسمح لعقله أن يفكر في أن أمامه قضايا أخرى لم يحكم فيها مهما كانت صعبة معقدة، وما كان يسمح لنفسه أن يشرد بفكره إلى شيء آخر كحرارة الجو أو أنه في حاجة إلى الإبحار في سفينته ظهراً أو في أمر من الأمور الأخرى التي تشغله عما أمامه.

ولكنه عندما كان يجلس معنا يتجرد من كل شخصياته فما كان فرعون، ولا قائد القواد ولا الكاهن الأعظم للإله بتاح، بل كان والداً يتحدث إلى بنيه أو رجلاً يتعهد زرعه ونبته أو طبيباً يداوي الناس بأعشابه أو يبحث في سر الخالقين العظام.

وقلت لأخي "ألا تذكره يوماً حين قال إني لا أريد قومي حين يتذكروني أن يذكروا أني كنت محارباً مقداماً، أو محباً للمباني الشامخة بل يذكروني أني طبيب شفيت الناس بما كشفت من نبت وأعشاب". ومع

ذلك شيد الكثير من المعابد واستشهد في ساحة النصر والفوز وفي حكمه لم يطلق الناس على أنفسهم أهل الأرضين أو الوجهين بل نسبوا أنفسهم إلى أرض واحدة وهي أرض "كام" وأصبحت النحلة رمز الوجه البحري والبوص رمز الوجه القبلي: عينين تريان شيئاً واحداً.

وإذا خشينا الفشل ندعوه في قلوبنا ونردد اسمه "أتت يا رمز النور" لأننا أبناؤه وعلينا أن نترسم خطاه دون خوف أو وجل.

الفصل الثاني

آخر عهدي بالطفولة

قبل أن أرحل إلى المعبد، ذهبت ووالدتي إلى مرعى الإله "رع" ومكثت معها مدة طويلة لأني كنت على علم بأن هذا اليوم آخر عهدي بالطفولة. وجلست عند قدميها وأسندت رأسي على ركبتيها وأخذت تمر بيدها برفق على جبيني وكانت لمساتها كلمسات النسيم وقت الأصيل. وكان قلبي حزيناً لأني وأخي لن نعرف سعادة الطفولة التي نعمنا فيها معاً، فقد كان عليه أن يتقلد مناصب الحكم وسيجد لنفسه أصدقاء آخرين، وقد يكون أحدهم أعز مني لديه. ولن تشد أمي أزري بحبها لي بل علي أن أتسلح بسلاح الحق والحكمة حتى أحمل عبء الحياة في مسالكها الوعرة. ولما أخذت الشمس تميل للمغيب، وطالت ظلال الأشجار، حدثتني أمي حديثاً أثلج قلبي وأزاح عنه عبء العبرات المكبوتة إذ قالت:

"اسمعي يا بنتي... لنفرض أنك فقدت بصرك فمما لا شك فيه أنك ستفعلين كل ما يمكنك عمله كي تستعيدي إبصارك حتى تري النجوم في السماء مرة أخرى، فكم طال بك الجهد منذ نعومة أظفارك لتنفذي ببصرك خلال هذا الضباب الذي يغشى هذا العالم وتصلي إلى عالم الحقيقة. تذكري حين كنت تفزعين في طفولتك لرؤية حلم مخيف، وتذكري

الطمأنينة التي كان يبعثها مصباح في نفسك ويذهب عنك الظلمة التي تخشينها.

وسيأتي يوم ستكونين فيه هذا المصباح تنيرين للناس طريقهم بما أوتيت من علم، وسيلجأ الناس إليك لهدايتهم؛ فلقد لقنتك وأنت صغيرة هذا الدعاء. "إلهي هيئ لي من أمري رشداً... وزدني حكمة وعقلاً حتى أكون كشجرة وارفة يستظل بي المضني حتى ينتعش فيستأنف رحلته في الحياة وقد استعاد نشاطه... ويأوي إلى ظلالي أولئك الذين اجتاحتهم عواصف الحياة فيستعيدون قوتهم" وستكبرين كما تنمو الشجرة وهي تعلو نحو النور. أصلها ثابت يتمثل فيها ما أوتيت من علم يثبتك في معترك الحياة فتواجهين عواصف الدهر التي قد تعترضك وتعترض سبيلك.

وسيأتي زمن يعم فيه الجهل وتقل فيه المعرفة... زمن فيه ينسى الناس أن الموت والنوم صنوان... زمن فيه يخفي الناس وجه الحق... ويعمهون في خوفهم ويتخبطون في طريقهم... ولكن إذا وفقت في الوصول إلى الآلهة وسلكت السبيل المؤدي إليهم فلن تشعري بالوحشة التي يشعر بها أولئك الذين ضلوا الطريق وغشيت أبصارهم العبرات فحجبت عنهم نجوم الليل، ولفرط حبي لك كم أتمنى أن أضع بين يديك كل ما يجلب السرور في هذا العالم وأن أبعد عنك كل ما ينغص عليك الحياة حتى لا يحمل قلبك سوى البسمات والأفراح... ولكن رغم تمنياتي هذه أود أن أهبك هدية أثمن من ذلك، ولكنها هدية عليك أنت أن تجديها فما الدنيا ومباهجها إلا متاع زائل... فستتكسر العجلات الحربية وتموت الأسود، وتتوقف السفن

الشراعية عن المسير، وستصبح أجمل الأجسام تراباً.. أما ما تتعلمينه في المعبد فسيبقى مدى الدهور حتى ولو أصبحت الدنيا حلقة في سلسلة لا يعرف تمام كنهها أحد؛ فالحكمة والحب أقوى من الدهر؛ فقد تنقلب هذه الحدائق الغناء إلى صحراء جرداء، والمعابد إلى أطلال وتصبح نسيا منسيا. ولكن سيبقى الحب خالداً في قلوبنا وملازماً لنا وحينئذ تصبحين وقد تعلمت كيف تذكرينه.

الفصل الثالث

أيامي الأولى في المعبد

في مساء اليوم السابق لذهابي إلى المعبد ودعت أمي وأخي ولم أفصح لهما عن مقدار همي للبعد عنهما خشية أن يشعرا أنهما مرسلان إياي إلى المنفى، ونام "ناتي" في حجرتي تلك الليلة. وفي الصباح وجدت صندوقاً صغيراً بسيطاً بجانب فراشي وضعت به الأشياء اللازمة لي في المعبد. وبذلك انتهى ذلك العهد الذي كنت ألبس فيه الملابس الكتانية الرقيقة المزركشة بالذهب والخيوط الملونة. أو أندثر في عباءة مشبوكة بحلية ذهبية، وبذا يكون قميصي فيه من تيل خشن أبيض اللون وتربط عباءتي بحبل بنفسجي اللون.

لأول مرة ارتديت القميص الذي يلبسه تلاميذ هذا المعبد، وكان خشناً على بشرتي وكان الخف الذي ارتديه في قدمي أشبه بخف الخدم في قصرنا. وفتحت الصندوق الذي حوى الحلي من أساور وعقود والذي صنع من خشب الأرز. وفكرت كم من الزمن يمضي قبل أن أراها مرة أخرى. ومع أن هذه الأشياء غير حيوية إلا أنها تصبح ذات مغزى إذا نظرنا إليها نظرة الوداع. ومثلها مثل حديقة لا يكترث الإنسان بما فيها من نباتات طفيلية أو زهور ذابلة، ولكنها رغم عدم جمال منظرها تبدو جميلة لا عيب فيها إذا ألقى عليها الإنسان نظرته الأخيرة.

ولما ودعت "ناتي" وضع مخلبيه الكبيرين على كتفي ولعق وجهي وقلت "لا يمكنني أن أصطحبه وأن (زيب) وقد وعدني بإحضاره إلى غابة قريبة من المعبد حتى يمكن أن آخذه للنزهة. ولكن الأسد عرف حزني فلم يهدأ وأخذ يهدر كعادته حين يشعر بحزن فأغلقت عليه الباب حتى لا يتبعني، وكم وددت أن يعود شبلاً كما كان فيلهو بتمزيق وسادتي أو تقطيع خفي فلا يشعر ببعدي عنه.

وتوجهت إلى المعبد دون أن يرافقني أحد حتى لا يتبين تلاميذه أني من البيت المالك فالكل سواسية هناك: لا فضل لأحد على الآخر إلا بالدرجة التي يصل إليها في الكهنوت ولما اجتزت (الصرح) الذي نقش على عتبة ميزان تحوتي رأيت كثيراً من الناس في الفناء الأمامي في انتظار عودة أصدقائهم الذي ذهبوا إلى المحراب وكانوا يجلسون في ظلال أشجار الجميز، وعبرت هذا الفناء وصعدت درجاته الثلاث الكبيرة وذهبت عبر الشرفة ذات الأعمدة ومنها إلى البهو.

وكان (ني – سي – رع) خارجاً من ردهة الهيكل يتحدث إلى كاهن آخر فآنست لرؤيته ونسيت الخوف الذي اعتراني بسبب هجرتي القصر الذي عشت فيه؛ فجلست على الحشائش بجوار البركة في انتظاره حتى يتهيأ لمقابلتي. وقد أعادت زهور اللوتس المتفتحة كشموس تسطع في سماء زرقاء صافية.. أعادت إلي تلك الزهور ذكرى لقياه لأول مرة.

وحضر إلي بعد فترة وجيزة وقال لي ونحن نتأمل البركة "لكل معبد بركته التي تنمو فيها زهور اللوتس، لأن اللوتس رمز لما يجب أن يكون عليه الكاهن، ومع أن جذورها تنمو في الطمي تحت الماء إلا أنها تتفتح في ضوء الشمس، وتعرف جذورها ما رأته زهورها عن طريق سيقانها، ومثل ذلك مثل الإنسان يعرف جسده العلماني في الفترة ما بين ميلاده وموته وهذا ما يقابل جذور اللوتس، وكل البشر سواء في أنها تترك أجسادها في أثناء النوم، ولكن قليلاً منهم من تعي ذاكرته كل ما قاموا به وهم بعيدون عن العالم لأن سيل النسيان يكن قد جرفها أمامه. إن بعضهم يصل إلى مصدر النور، ولكن لا ينقل ما رأى في هذا المكان إلا من أوتي مجرى في ذاكرته ينقل عن طريقه ما رأى. وهذا المجرى يماثل جذع اللوتس ويمكن لبرعوم اللوتس أن يشعر بالضوء ويدرك وجوده. ولكنه لم يتفتح لهذا الضوء بعد لأنه لم يقطع مرحلة طويلة من رحلته وهذا البرعوم يزمز لمن يبدأ حياته الكهنوتية في المعبد. ويرمز البرعوم المتفتح الذي أبرز أوراقه لأولئك الذين جازوا الاختبار الدقيق في الكهنوتية وترمز الزهرة نصف المتفتحة إلى الكاهن الذي أتم تدريبه.

وترمز الزهرة تامة التفتح إلى من حاز القدرة الكاملة التي يمكن لشخص في هذا العالم أن يحوزها. ثم أخبرني أنه سيسلمني إلى "هاك – كاب" التي تعنى ببنات المعبد، وكان للتلاميذ مدخل خاص بهم يقع في الجانب الغربي من الفناء الأمامي أمام المدخل المؤدي إلى الجزء الخاص بالكهنة، وقد سبق لي أن زرت منزل "بي – سي – رع" ولكن هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها بيتي الذي سأعيش فيه عدة سنين.

وكانت "هاك – كاب" عجوز رقيقة الجسم، وكانت تشبه "مآتا" إلا أن القسوة كانت تبدو في نظراتها. ولما رأتني نادت فتاة كانت تعمل في تزيين غطاء صندوق وتركتني معها، فسألتني الفتاة عن اسمي وبعد أن أخبرتها أن اسمي "سكيتا" أرتني حجرات التلاميذ. وكانت هذه الحجرات مبنية في صفوف تحيط بجوانب حوض الاستحمام الثلاث وكان هذا الحوض طويلاً يحفه الحشيش النضر وتظله من الجانب الرابع أشجار الرمان، ويلي هذه الأشجار بيوت الكاهنات الصغيرات وكان يتكون كل واحد منها من غرفتين وحديقة أشبه بغرفة مكشوفة للسماء. وكان يفصلنا عن جناح صبية المعبد بناء طويل حيث نجتمع أوقات الطعام ونلعب ونتحدث معاً. وكانت تبدو هذه الأبنية عادية إذا قورنت بالقصر الذي عشت فيه؛ فشعرت بالبؤس والشقاء وكان المستقبل يمتد أمامي كطريق طويل وكان هدفه بعيداً أكاد لا أراه ثم أخبرتني هذه الفتاة أن وقت الاستحمام قد حان، فخلعت قميصي وتبعت الفتيات الأخريات إلى حوض السباحة وكانت هذه هي المرة الأولى التي استحم فيها مع أناس غير أخي وأصدقائي.

ولم يرق لي أن يكون معي في الماء عدد كبير من الناس لم أرهم قبل ذلك، وقد لعب بعضهم لعبة أغرموا بها، فوقفت ثلاث فتيات في صف واحد في طرف من أطراف حوض السباحة، وألقت فتاة أخرى صحناً في الماء فغطست الفتيات الثلاث وتسابقن في إيجاد هذا الصحن واجتهدت كل واحدة منهن أن تكون السباقة.

وأخبرتني (هاك – كاب) بعد ظهر هذا اليوم أني سأكون إحدى الفتيات الأربع اللاتي سيزين بالزهور أعمدة (مينيس) التي تقع في قاعة الهيكل وأوضحت لي أن هذه الأعمدة نسخة من الحجر لتلك الأعمدة المصنوعة من البوص في المعبد الصغير حيث كان يدرس (مينيس) في منفاه الذي استغرق وقتاً طويلاً. وكنت على علم بما قالته إذ أن (مينيس) هذا كان عم والدي، وصرحت لي بالخروج من المعبد كلما شئت ذلك على شرط أن أكون بحجرتي عند غروب الشمس. وقضيت بقية اليوم في تجوالي هنا وهناك دون أن يحدثني أحد، وأخذت أسأل نفسي إذا ما كنت سأتعود العيش مع الفتيات وشعرت بالحنين والشوق إلى أخي "نياح" وكم وددت أن يأتي في عجلته الحربية ويأخذني بعيداً عن هذا المكان، وفي المساء توجهت إلى الفناء الأمامي للمعبد واستمعت إلى أحد قصاصي المعبد وكان يقص على من استمع له أساطير وقصصاً عن الحكمة وجلس حوله على الحشائش رجال ونساء وأطفال، وجلسن أنا بين أحد رعاة الماعز وابنه الذي كان يحمل جدياً حديث الولادة، وكان القصاص قد بدأ قصة أخرى وإليك أيها القارئ هذه القصة: "سار رجل على الصخر حافي القدمين حتى أدماهما، ومنحه أحد الناس خفاً ولكنه لم يلبسه وبعد مدة وجد نفسه وسط نهر اشتد تياره وأشرف على الغرق، ولما امتدت السواعد القوية لتنقذه وتحمله في قارب رفض ذلك وأخذ يسبح بعيداً عنهم، ولما كان جالساً على صخر ساخن وقت القيلولة رأى أشجاراً ظليلة تقوم إلى جانب بركة فدعته الأشجار إلى ظلالها ولكنه رفض ذلك وجرى متجهاً إلى الصحراء، وقد حاول مرة أن يأتي بأنغام موسيقية من ناي من البوص

فمنحه بعض الناس مزماراً مصنوعاً من العاج والخشب النادر فأبى أن يأخذه وكسره على ركبته وألقى به بعيداً عنه، ولما أخذ منه الجوع مأخذه ظهر أمامه صحن به طعام تشتهيه النفس فعف عنه ودفنه في الأرض وأخذ يخفف من حدة جوعه بأن يلعق أحد الحجارة، ولما اشتدت برودة الجو وكان لا يملك غير أسمال بالية منحته الناس رداء جديداً من التيل والصوف الناعم ولكنه لم يلبسه وظل يرتعد في مهب العاصفة

قد تبدو هذه القصة من نسج الخيال ويصعب أن يصدقها إنسان ولكن إذا تأملت أن حماقة هذا الرجل جاوزت حد الإدراك فإن ذلك الذي يخشى المنية أكثر حماقة من هذا الرجل الذي حدثتكم عنه".... وهكذا انتهى هذا اليوم الكئيب.

وكلما امتد بي الزمان أخذت آلف معيشة المعبد وكانت جدران حجرتي من الطين وطليت بلون أبيض وكانت هذه الجدران سميكة حتى لا يخترقها صوت يذكرني بالدنيا إلا إذا تهيأ لي أمر العودة إليها.

وكان سريري يحمل رأس "أنوبيس" حفرت عند رأسه وقدميه ولم يكن هناك أثاث آخر سوى صندوق أحفظ به ملابسي، وكانت هناك نافذة في أعلى الجدار واحتفظت بشيء من الزهور في زهرية اعتدت أن أنظر إليها قبل النوم بدلاً من رؤية ذلك الجدار، وبجوار فراشي مائدة من شمع أسجل عليها ما أراه في أحلامي، وكان لدي أسطوانة من الصخر أمهد بها سطح المائدة قبل أن آوي إلى فراشي حتى تكون معدة للصباح كما كان علي أن

أمحو من ذاكرتي كل ما أراه في هذه الدنيا حتى يمكنني أن أعي كل ما أراه وأنا بعيدة عن هذا العالم حين أكون في عالم الأحلام.

وكل مساء قبل أن أطلق لروحي العنان أردد هذا الدعاء: يا "أنوبيس" أرني السبيل لهداية الناس حتى أكون مثل ابن آوي الذي يعبر الصحاري في ليل بهيم اختفت نجومه وترك وراءه طريقاً يسلكه آخرون في النور... وهب لي حكمتك حتى أعبر تلك الهوة التي تفصل هذا العالم عنك، وأن أهدي قومي فيصلوا حيث أنت حيث السلام والطمأنينة".

وفي الصباح بعد أن أسجل ما رأيته في رحلتي القصيرة في طريق "أنوبيس" أصلي للإله "بتاح" وأدعوه:-

"أي بتاح ... دع جسدي يكون وعاء لحياتك حتى أعيش قوية في هذه الدنيا فأقوم بما قمت به".

وفي الظهيرة أقول دعواتي "لحوروس" فأقول: أي "حوروس" هب لي حكمتك حتى تكون حياتي حجر المسن أشحذ به إرادتي فأكون سيفاً قاطعاً في جيوشك".

وكنت أذهب كل صباح إلى "ني – سي – رع" وأخبره بما سجلت في لوحتي وكثيراً ما رأيته في أحلامي وكان يطلب مني أن آخذ له زهرة أو ريشة حمام أو خرزة ملونة حتى أريه أني أذكر لقياه، ولقد كنت أحياناً أذكر تماماً ما قاله لي وأحياناً أخرى كنت أخطئ إذ كنت آخذ له زهرة غير التي قال

عنها في حلمي أن آخذها... وهكذا ساعدني على تدريب ذاكرتي فكان يقص علي أموراً عن هذا العالم وأخرى بعيدة عنه، وأحياناً كان يقص علي قصصاً عن الآلهة المجاهدين في سبيل نشر النور وعن الفراعنة، وكان الكثير مما سمعت منه جديداً بالنسبة لي وعندما يحدثني عن أشياء عرفتها من قبل كان يضفي عليها حياة أخرى في حديثه كشأنه عندما كان يقص علي قصة "مينيس" العظيم.

الفصل الرابع

قصة مينيس

حكم مينيس أرض "كام" مائتين وثمانين عاماً، وكان حاكماً عادلاً، وقد تبدو هذه المدة طويلة ولكن الحقيقة أنه توالى على أرض "كام" حكام يحملون اسمه ويجددون خلقه، فبدت حياته في هذا العالم غير متقطعة وأتم كل واحد منهم ما بدأه سابقه، ولهذا سيخلد "مينيس" على مدى الدهر وكأنه حاكم واحد.

وأول فرعون سمي بهذا الاسم كان قد قارب نهاية رحلته الطويلة فخطط بحكمته كثيراً من المشاريع التي عادت على بلاده بالخير. ولكنه كان يعرف أن جسده لن يؤوي روحه مدة طويلة تسمح لهذه المشاريع أن تؤتي ثمارها في حياته فاختار أحد أبنائه الذي أوتي الرؤية الصحيحة فعلمه الكثير عندما كان معه في هذا العالم الأرضي وبعد الممات كانا يتقابلان كثيراً عندما كان "مينيس" الثاني يطرح جسده وينام وتهيم روحه في عالم الأحلام، ومن ثم فقد كان "مينيس" الأكبر يقدم النصح لابنه حتى أصبح هذا الفرعون الصغير لا يتصرف عن حكمته فحسب بل وعن حكمة والده أيضاً.

وحان الوقت الذي فيه أخبر "مينيس" ابنه أن هناك كهنة في أرض "كام" لا يستحقون مراكزهم وطلب منه أن يأمر جنده بطردهم من المعبد، ولكن هؤلاء الكهنة الذين لم يشع منهم نور بل حجبوا النور عن الناس كانوا أقوياء في الدنيا لأن معابدهم كانت غنية وكانت الناس تصدقهم لبساطتهم فأخبروا الناس أن فرعون قد تملكته روح شريرة ويجب القضاء عليه حتى ينقذوا بلادهم من شروره وآثامه، وقرروا اغتياله هو وجنده المخلصين في اليوم الأول من أعياد الإله "حوروس". وعرف "مينيس" الصغير مؤامراتهم إذ أخبره عنها والده في أحلامه ولكنه كان يأمل أن تزول الغشاوة عن أبصار شعبه.

وفي اليوم الأول من هذه الاحتفالات جلس بمفرده على العرش الكبير وامتدت أمامه أرضية الحجرة المصنوعة من الحجارة المصقولة التي تمتد إلى الأبواب المفتوحة لقاعة الاستقبال بين صفين من أعمدة خالية من أي نقش. وكان يرى المدخل الرئيسي المؤدي إلى الفناء. ولم يكن بالفناء أي جندي إذ كان يعتقد أنه إذا احتاج فرعون إلى من يحميه من شعبه فمثله كمثل والد خاف أبناءه، وظل على هذا المنوال وحيداً ليرى إذا ما كانت الثقة التي أولاها الناس ستثبت إخلاصه لأولئك الذين يشكون منه وليعلم إذا ما كانت هذه الثقة ستعلمهم أنه إذا تلاشى الخوف فمعنى هذا عدم احتمال وجود خيانة وأنه عندما توجد الشجاعة ينعدم الغدر. ولكنه عندما رأى أن القادمين لم يأتوا له بالخراج أو الجزية أو الهبات بل أتوا له بخناجر في أيديهم لزم مكانه ولم يحرك ساكناً منتظراً الموت، وكان هادئاً راسخاً كالطود حتى تردد قاتلوه أول الأمر إذ ظنوه تمثالا. وقبل وفاته

أرسل "مينيس" ابنه الرضيع إلى جزيرة صغيرة خصبة على بعد سير خمسة عشرة يوماً غربي أبيدوا.

وفي هذا المكان – كما أخبره والده من قبل – معبد صغير للإله "تحوتي" حيث يشع نور الآلهة دون حجاب. ورافقت الصبي مربيته التي كانت بمثابة أمه التي ماتت أثناء ولادته كما ذهبت معه عرافة البيت المالك وزوجها الذي كان كاهناً وطبيباً، وساروا في حراسة خمسين جندياً ومعهم قائدهم وسافر الجميع على ظهور حمير بيضاء لأنها أسرع من المحفات والعربات التي تجرها الثيران. وفي هذا المكان استقر القوم وكبر الغلام وتزوج من ابنة الكاهنة والكاهن ورزق غلاماً سموه "مينيس" ولما بلغ هذا الغلام السادسة عشرة من عمره تزوج وأنجب غلاماً أطلق عليه نفس الاسم حتى لا تنقطع هذه السلالة التي تحمل هذا الاسم حتى يأتي أحدهم ويتولى عرش الفراعنة حاملاً اسم "مينيس"، ولقد ظل هؤلاء القوم عشرة أجيال في هذا المكان كشعلة تنير في بحر كبير من الظلام.

ولكل واحد من هؤلاء من الكاهن الأعظم إلى الأطفال عمل في الحقول ولم تكن لديهم أسماك وكانوا يعيشون على لحوم ضئيلة من صغار العجول يذبحونها إذ لم يكن هناك من المرعى إلا ما يكفي للبقر كي تدر لبنها ولا تكفي لتربية العجول الصغيرة، وزرعوا الفول والقمح والعدس والخيار والفجل والثوم والبطيخ والبلح. وكانوا يرعون الماعز ومن ألبانها صنعوا الجبن الأبيض وصادوا الطير البري أثناء هجرتها وتوقفها للراحة والشرب من البحيرة الصغيرة. وكان ماء هذه البحيرة نقياً بارداً يستعمله

أهل هذا المكان، أما منازلهم فكانت من اللبن تغطي سقوفها سعف النخل إذ لم يكن لديهم حجارة. وما كان لديهم من قماش التيل إلا ما تبقى قبل وفاة مينيس الثاني ولم يكن عندهم نبات البردي، ولذا كتبوا على قشور أشجار النخيل ولكنهم لما رأوا أنها لا تبقى طويلاً كتبوا على لوحات من الطين. وعلى مر السنين تكاثروا وعاشوا في عالم خاص بهم وبنى كاهنهم الأعظم حائطاً يحميهم من هجمات غيرهم ولكن هذا الحائط لم يكن ظاهراً للعيان حتى إذا صادف وجاء أحد إليهم وجد نفسه قد انحرف عن الطريق المؤدي إليهم وسار بعيداً عنهم دون أن يشعر بأن طريقه قد تبدل.

وكان كل من حمل اسم "مينيس" يتدرب ليكون كاهناً للإله "أنوبيس" حتى إذا صدرت كلمة الإله كانوا على استعداد للعودة وتحرير بلادهم. وكان يفحص أولادهم وهم في الخامسة من عمرهم كهنة وهبوا قدرة الاستشفاف وكانوا يدربون على أحسن السبل لمساعدة بلادهم، فالتحق بعضهم بالمعبد وتعلموا كيف يعيدون المعرفة الحقة إلى هذا العالم وكيف يبثون الحياة في الأجسام المريضة فإذا حان الوقت المناسب طردوا الكهنة المزيفين فيستمع الناس مرة أخرى في معابدهم إلى ما يقوي روحهم ويسمو بها ويسمعونها من شخص يمكنه أن يقول لهم "إن ما أوتيت من علم يخبّركم أن قولي هو الحق".

وكان مقرراً كذلك أن يتدرب البعض الآخر على الحرب بالسهام واستعمال السيف والرمح حتى تلين عضلاتهم وتكون رهن إرادتهم، تحمي قوتهم الضعفاء ويدافع بطشهم في ساحة القتال عن عشيرتهم ضد قوى

الشر، وسيكونون محاربين نبلاء: العدو الجريح صديق لهم، ويبعثون الطمأنينة في قلوب نساء أعدائهم ويحمونهن، وإذا دخلوا بلداً جديداً كان هدفهم البناء لا التدمير ولا يستعبدون الناس بل يخلصونهم من الأغلال ولن يبعثوا الخوف في قلوب الناس بل ينشرون السلام بينهم، ومنهم يشع الضوء والنور ويقضون على الظلمات والوحشة. وسيكون منهم من يدير دفة أمور هذه البلاد فيفحصون الموازين في الأسواق حتى يسود الرضا بين النساء والأطفال والرجال. وسيعنون كذلك بأن تجري المياه إلى كل حديقة فتروي نبتها دون أن يعترضها إنسان وسيعلمون الناس كيف يعنون بحقولهم حتى تمتلئ سنابل القمح بالحب حتى تكاد تنوء تحت حملها وسيتأكدون كذلك من أن كل سيد لا يرهق خادمه ولا يحمل حيواناته بالعمل أكثر من طاقتها، وأن كل ما يؤذي هذه الحيوانات سينال جزاءه من الأذى، ولن يخشى الأطفال الأذى ولن يصرخوا جوعاً وسيسجل الكتاب الحق الذي يسمعونه. وأن ما يخزن من غلال في المخازن يكفي الناس ويقيهم شر المجاعة وإذا عجز إنسان عن إصلاح خطأ فباب فرعون مفتوح أمامه. وهكذا سينشأ هؤلاء والحكمة سمتهم والعدالة صفتهم حتى يتحدث عنهم الناس ويقولون: "انظروا إلى الميزان في الأسواق وإليه في ساحة القضاء إنه في الحالتين صادق كميزان الإله تحوتي".

ولما بلغ "مينيس" الثانية عشرة من عمره رأى جده في المنام يخبره أنه قد حان الوقت "لمينيس" أن يحكم ثانية وأوحى إليه أن يختفي في زي أحد الرعاة ويذهب إلى "أبيدوا" ويختلط بالناس حتى يرى ما حل بهم في عهد الظلمة والظلم. فرحل "مينيس" إلى أبيدوا فرأى في المعبد الكبير تماثيل

أنوبيس وحوروس وبتاح قد هدمت وأقيم بدلا منها تماثيل للآلهة "سخمت" وبنيت جدران بين الأعمدة حتى أصبح المكان مظلماً إلا من شعاع من ضوء انبعث من سقف المعبد وأنار عيني الآلهة "سخمت" حتى تبدو وكأنما ينبعث منها قوى الشر، وفي المكان الذي تعود أن يجلس فيه كاهن رقد غلام مكتنز الجسم ممسوخ الرأس يخرج من بين شفتيه هذيان يصدر عن روح شريرة قد تملكته وكانت الأريكة التي جلس عليها ملطخة بدماء الضحايا، وفي حوض سباحة المعبد حفظت تماسيح يلقى إليها كل من تجاسر وقام ضد الكهنة.

واختلط "مينيس" بالناس في السوق فرأى أن الناس تستخدم الحجارة في موازينها وأن سلال الفاكهة كانت ملآى بالفاكهة العفنة اللهم إلا من بعض فاكهة ناضجة في سطحها لتخدع الناس، ورأى أن حقول الفقراء قاحلة لا زرع فيها لأن الأقوياء كانوا يتحكمون في الترع والقنوات، ورأى ظهور الحيوانات بها جراح بليغة وعم الذباب الشوارع والطرقات بسبب ما ألقي فيها من الأطعمة النتنة، وتجمع الذباب كذلك على عيون الأطفال وعلى طعامهم وعلى شفاههم وحتى على أثداء أمهاتهم. وكانت الناس تهمس بالشكوى والقلق ولكنهم كانوا يتحدثون بأصوات خافتة خشية أن يسمعهم أحد جواسيس المعبد.

وفي ساحات الجند رأى "مينيس" القواد يزينون صدورهم بالذهب إذ أثروا عن طريق الرشوة على حين كانت الجند قوماً بسطاء لا يعرفون الخديعة وتتلاشى من عقولهم تعاليم الشر بسرعة كما يموت النبات السام

إذا زرع في الرمل الجاف، فتحدث إليهم "مينيس" وقال لهم إنه أحد القواد من الإقليم الشمالي الثائر على هذا الحكم فقالوا له لو قيض لهم قائد شرعي لتبعوه حتى يخلصوا البلاد من حكم الكهنة الأشرار فأخبرهم "مينيس" أنه في مكان سري ينتظرهم فرعون بلادهم الشرعي وسيخلصهم من الاستعباد وسيعرفونه بالتاج الأبيض الذي كان يلبسه من قديم الزمن ويحمل العصا وسوط "مينيس" في يديه. فوعده الجند إنهم بمجرد رؤيته سيتبعونه ويكتسحون الشر من بلادهم ويطهرونها من آثامهم كما تطهر النار الحقول من الجراثيم الفتاكة بالنبات. وعلم "مينيس" أنه حين يصبح القمر بدراً سيضع الكهنة ملكا صورياً على العرش فأوحى إلى رئيس كهنته في منامه أن يأمر قومه بالزحف السريع إلى "أبيدوا" وينتظرونه خارج المدينة حيث سيلحق بهم.

وحضر القوم ولأول مرة ظهر "مينيس" وأمسك بالسوط وفي وسطه المنطقة الذهبية التي كان يتمنطق بها والده العظيم عند قتله وقد أحضرها أحد أتباعه مخاطراً بحياته إلى مقر قومه، وكان يرتدي ثياب فرعون ودخل على رأس مائتي محارب وتوجه إلى ساحة الجند فرحبوا به واتخذوه قائداً لهم ثم دخل المدينة وهم من خلفه يتبعونه، فهتفت له الجماهير وزغردت النساء ورأوا فيه مخلصهم، ولما وصل إلى المعبد أمر أتباعه بالوقوف وارتقى السلم بمفرده. وهناك واجه الكاهن الأعظم الإله "سخمت" ووقف من حوله كهنته، وراقب الناس الجانبين بصمت رهيب وتحدت إرادة كل جانب إدارة الآخر، ووقف كل ساكناً ومن عينه بدت إرادته تحترق حتى احمرت مآقيهم ولم يبد أحد حراكا ولكن تصبب العرق من أجسادهم من شدة

الجهد، وأخيراً ترنح الكاهن الأكبر وخر ساجداً عند قدمي فرعون... كأنما ضغطت أيد قوية على كتفيه فأنزلته، ولما رأى بقية الكهنة ما حل بكبيرهم حاولوا الفرار، ولكنهم رأوا طريقهم قد سدته الحراب التي أخذت تتقدم نحوهم في هدوء ودفعتهم إلى حوض السباحة فسقطوا فيه فتلقفهم التماسيح وفتكت بهم كما فتكت بضحاياهم من قبل.

وحكم "مينيس" البلاد بحكمته ورأفته سبعة وخمسين عاماً وفي عهده ازدهرت مشاريع مينيس الأول، وازدهرت حياة الناس في نور حكمه كما يزدهر النبت في نور الشمس وأصبحت المعابد أمكنة صالحة للعبادة ومنهلاً ينهل منه أولئك المتعطشون إلى الحكمة والمعرفة وساد العدل البلاد، وملئت المخازن بالغلال وسادت الطمأنينة بين الناس فلم يخش أحد مجاعة أو ظلماً ورغم تقدم "مينيس" في سن فقد احتفظ لنفسه بقدرته على استخدام العجلات الحربية والرمح، ولما مات شعر شعبه بأسره ابتداء من الطفل الصغير إلى الكهل أنه فقد والده.

لقد سبق لي أن سمعت هذه القصة حين كنت طفلة صغيرة، ولكن حين سردها "ني – سي – رع" بدت أمامي مناظرها كأني أراها رؤية العين، ولما سألته عن العلة في ذلك قال إن هذا التاريخ مسجل في ذاكرتي وفي منامي أمس شاركت ذاكرتك ذاكرتي فبدت كأنها حقيقة واقعة بالنسبة لك. ولما سألت عن الطريقة التي بها تشارك ذاكرة شخص ذاكرة آخر فقال "تخيلي إناءين بهما ماء في كل واحدة منهما سمكة تسبح، وترمز السمكة إلى الروح الطيبة الصافية ويرمز الماء إلى الذاكرة التي تحوي كل التجارب

والخبرات التي مرت بها الروح. وكل روح محددة بنطاق تجاربها كما حددت دنيا السمكة بالماء الذي تسبح فيه، وتصوري الآن أن ماء الإناءين قد صب في إناء واحد أكبر منهما فإن كل سمكة من السمكتين تسبح بحرية في ماء الإناء الآخر كما كانت تسبح في ماء إناءها ومثل ذلك مثل ذاكرتينا فيمكن أن تندمجا تحت تأثير الإدارة.

فتشاطر روحك قاربي وخبرتي، ولكن الوقت لم يحن بعد حتى يمكنك أن تؤدي ذلك دون مساعدة.

الفصل الخامس

ليلة في هيكل "أنوبيس"

بعد مرور ثلاث سنوات على بقائي في المعبد أخبرني "ني – سي – رع" أن في كل ليلة يكون القمر فيها بدراً سيرقب تقدم ذاكرتي وأنا نائمة في إحدى غرف السلام بجوار محارب "أنوبيس"، وقد طهرت هذه الحجرات بالقدرة الروحية حتى لا تتسرب إليها روح دون أن يكون جسدها هناك وذلك وقاية لهذه الحجرات من الأرواح الشريرة التي ترغب في تسويد مرايا الآلهة فتتحين الفرص لمهاجمة الروح عند عودتها إلى جسدها في اللحظة التي تكون الروح فيها أكثر عرضة لهذه الهجمات ويصعب على الذاكرة الاحتفاظ بما رأت.

وفي منامي أخذني "ني – سي – رع" إلى أجزاء كثيرة بعيدة عن هذا العالم ليرى كيف أتصرف تحت إرشاده في النور، وفي الصباح بمجرد أن أصحو من نومي أخبره بما تذكرت فينبئني بالصحيح منها وبما لم يمكني تذكره وبما اختلط بأفكاري العلمانية.

وفي ليلتي الأولى في هيكل طال بي الوقت قبل أن يغلبني النوم وكنت وحيدة في المعبد لأن مسكن التلميذات والكهنة يقع خارج الأسوار الداخلية، وحجبت ستارة كثيفة حجرتي عن الهيكل ولم تكن هناك نافذة، ولما أطفأت المصباح أصبحت الظلمة لا تحتمل ففكرت في هذه الظلمة

وتلك التماثيل التي تحدق بين الأعمدة وسمعت حفيفاً فزعت له وطمأنت نفسي بأن يكون صادراً من طير تسرب إلى الهيكل، ولم يسبق لي أن مارست البقاء في ظلمة كهذه تساوي فيها البصير والضرير. ولم يسبق لي كذلك أني نمت في غرفة تحجب نوافذها ستائر، والآن بدت لي وكأن الجدران قد ضاقت على حتى أصبحت الغرفة كأنها تابوت وكدت أعدو إلى الفناء حتى آنس بضوء القمر ولكن خشيت أن ألقى "ني – سي – رع" فيشعر بخيبة أمل في، وأخذت أفكر هل سأجد في نفسي القوة الكافية كي أتحمل مراسيم تثبتني كاهنة حين أرقد وحيدة في الظلمة والسكون أربعة أيام وأربع ليال وعلى أن أتحمل الاختبار قبل أن أعود إلى جسدي وقد يقضي عليّ إن أخفقت. وسمعت الحفيف مرة أخرى فظننته صادراً من حية ثم تردد الصوت في أرجاء الحجرة حتى لم أتبين مصدره، وهنا خاطبت نفسي حتى أثير شجاعتها (أنت جبانة يا سكيتا) وندمت على حديثي بصوت عال إذ بعد ذلك بدأ السكون يزحف علي وكأنه له أصابع تصم آذاني وكم وددت أن يكون (ني – سي – رع) نائماً حتى يكون في انتظاري في منامي وفكرت فيه كثيراً ودعوت (حوروس) أن يلهمني الشجاعة.

ولما استيقظت وجدت (ني – سي – رع) جالساً بجوار فراشي كي يسمع مني ما وعته ذاكرتي، وقد سررت لرؤيته وارتحت لأن الليل قد انصرم، ومن فرط سروري طار كل ما وعته ذاكرتي وكل ما رأيت في أحلامي وظننت أنه سيشعر بخيبة أمل لذلك، ولكني أخطأت فهمه إذ قال لي إن كثيراً من التلميذات يعدن إلى عائلاتهن لأنهن أخذن صورة ضئيلة عن التدريب على الكهنوت وتركن واجب الكهنة لغيرهن من الناس.

الفصل السادس

التدريب الأول للذاكرة

وفي المرة الثانية التي قضيتها في الهيكل أمكنني أن أسرد أموراً كثيراً على "بي – سي – رع".

"رأيت في منامي أني في منزل امرأة فقيرة لها طفل مريض ولم تدر ما علته وظنت أنه لا محالة هالك. ولما أنهكها السهر عليه نامت بجوار فراشه فأخبرتها وهي نائمة أن طفلها قد أكل نباتاً ساماً وهو يسوق الماعز إلى المرعى وعليها أن تعطيه فنجاناً من الزيت الحلو يشربه وتضع على بطنه كمادات ساخنة حتى تخفف آلامه وبعد ثلاث ساعات تعطيه خبزاً مفتتاً في لبن دافئ، وبعد ذلك يتلاشى أثر السم ويسترد الطفل صحته".. وسأل "بي – سي – رع" إذا ما كان الطفل ذكراً أم أنثى، وفي أي بلد يعيشان، وقلت له "لست بواثقة من حقيقة الطفل ولكن يغلب على ظني أنه كان صبية أما بلدها فلا أعرفه ولكن به تلال يكسوها حشيش قصير" فرد علي قائلاً إنه غلام ويعيشان في "ميناوس" وهي على بعد خمسة أيام سفراً في البحر من جزيرة ملكهم.

ثم رأيت في منامي رجلاً أجاع ثيرانه ووضعها في مكان تعلو فيه القاذورات إلى بطونها ويتجمع الذباب على جروحها. فجعله يرى عجلاً أبيض له قرنان من ذهب، وقال له هذا العجل "أنا إله الثيران ولقسوتك

على أقراني سترقد في هذه القاذورات وسيوضع على كتفيك نير المحراث وستبقى كذلك إلى أن تبرأ الثيران من جراحها".. ولا يمكنني أن أتذكر من هو هذا الرجل وأين هو؛ فرد "بي – سي – رع" قائلاً إن اسم هذا الرجل "شزال" وهو من أهل زوما وقد ذهبت إليه خمس ليال وطلبت إليه أن يكون رحيماً ولكنه لم يصغ لإرشادك ولذلك كان يجب أن تلجئي إلى طريقة أقوى من النصح في إرشاده لأنه لا يدرك آلام ثيرانه إلا إذا كابدها.

ثم ذهبت إلى مكان ما وحاولت أن أمر في طريق ضيق، ولكن اعترضني مخلوق مخيف كأنه تمساح مفترس ولما هاجمني وليت الأدبار وصحوت من نومي فزعة خائفة. فقال هذا شخص شرير أراد أن يعيدك إلى جسدك ثانية ويوقف عملك وتدريبك وإني أعرف تماماً مقدار الخوف والهلع الذي تسببه رؤية أمثال هذه المخلوقات في الأحلام ولكن إذا رأيت مثل ذلك مرة أخرى فلا تبال به وسيرى في طريقك فيخر ساجداً عند قدميك، وإذا كان أكثر منك قوة فادعيني لأساعدك. واتخذي من شجاعتك سلاحاً ودرعاً، وسيفر أمامك من يتحداك لأن أهل الظلمة يخشون النور.

ثم استرسلت في حديثي له وبعد ذلك نمت ثانية ووجدت نفسي في مكان به أطفال ورأيت ولدين صغيرين كسيحين ولم أتركهما إلا بعد أن تمكنا من العدو معاً، ورأيت أشياء كثيرة لا يمكنني أن أتذكرها ويغلب على ظني أني قصصت عليهم قصصاً وبنيت بيتاً صغيراً من الرمال لإحدى البنات فقال (بي – سي – رع) إنك تذكرين أنه قد سبق لك زيارة هذا المكان ولعبت مع هؤلاء الأطفال اللذين يبتسمون للسعادة التي يحملون بها.

فقلت له وأخيراً أذكر أني ذهبت إلى رجل لم يمض على وفاته إلا فترة وجيزة وأخبرته أنه فارق هذا العالم فلما أخبرته بذلك سخر مني وقال إني معتوهة والتقط حجراً وألقى به على شجرة وقال: "هل ما زلت تعتقدين أني شبح وما الأشباح إلا نسخ خيال الإنسان أو أشكال غامضة مبهمة تئن فوق الرياح... إني حي أرزق وإنك بلهاء حين تقولين إني ميت.. حتى جراحي قد التأمت دون أن تترك أثراً".. ورغم أني تحدثت إليه في هوادة ورفق سخر مني فقلت له: "إنك تقول إننا مازلنا على الأرض فانظر إلي فسأطير أمامك وها أنا أخف من الطير". وبإرادتي حلقت فوقه، ولكنه سخر مني ثانية وقال إن ذلك حيلة من حيلي، أو أنه نائم ويرى حلماً غريباً من كثرة ما تناول من خمور.. وكان هذا الرجل قد قتل في عراك قام في حان في الجزيرة التي تبنى بها المراكب لتبخر من (ميناوس). وكان اسم هذا الرجل براكساريس (Praxares).

وهنا قال (بي – سي – رع) إنك قد تذكرت هذا جيداً بكل تفاصيله دون لبس أو إضافة، وعندما تنامين مرة أخرى اذهبي إليه حتى يعرف حقيقة أمره ويعرف أين هو.

فسألت لماذا لا يعتقد أنه مات؟ فقال إن القوم في بلده لا يعرفون معنى الموت ويعتقدون أنه إذا توقفت أنوفهم عن التنفس فإنهم قد وصلوا نهاية الإدراك والشعور فإذا وجدوا أنفسهم أحياء اعتقدوا أنهم ما زالوا يعيشون في هذا العالم وهذا الاعتقاد يقيدهم بحدود هذا العالم الذي يجب أن يتحرروا منه، ولكنه سيصغى إليك يوماً ولو بعد حين.

الفصل السابع

الخالقون العظام

ولما سألت (بي – سي – رع) كيف يخلق الخالقون العظام الأوعية التي تحمل الحياة في الأجسام قال: قبل أن يخلق شيء في هذا العالم لا بد وأن يكون له صورة محددة في عقل خالقه أو صانعه. لا بد وأن يحددها في عقله بكل تفاصيلها مرة واحدة ثم يكسوها بمادة من هذا العالم قبل أن تصبح ظاهرة مرئية أمام عين الإنسان، فإذا رسم كاتب صورة فإنه يخط في بادئ الأمر خطاً ويتبعه بآخر حتى تتكون الصورة التي في ذهنه وإذا عمل كالصانع فإنه يستحضر الصورة في ذهنه بكل تفاصيله ويبرزها على الحائط في لمح البصر. وأما النقاش فإنه يقدر أبعادها يريد رسمه ولنفكر الآن فيما يصنعه المثال، فإنه يكون صورة لتمثال في ذهنه وبأزميله يحرر هذا التمثال من الصخر وإذا كان عليه أن يبرزه في ومضة عين فإنه يفكر في كل مظهر من مظاهر التمثال مرة واحدة وفي وقت واحد، وما التماثيل إلا مظهر خارجي للجسم لا أنسجة فيها ولا لحم ولا قلب ولا شرايين ولا أوردة فالخالق إن أراد أن يعمل جسم أسد فليس عليه فقط أن يبرز ما تراه العين بل عليه أن يعمل الأوردة الدموية والمعدة والقلب والرئتين والأمعاء والعضلات والدم وآلاف من أشياء أخر يجب أن توجد قبل أن تدب الحياة فيه.

فعليه أن يفكر في آلاف من الشعر التي تتكون منه معرفة الأسد وتغطي جلده وإلى العينين اللتين تطل منهما روحه على هذا العالم وعلى أذنيه اللذين تعرف الروح من طريقهما الصوت وخياشيمه التي يعرف بها الرياح، والآن أغمضي عينيك وتصوري هذا الأسد؛ فستكون نظرتك أكثر شمولاً من الشمس فإن الشمس تغطي جانباً واحداً من الأشياء التي تسطع عليها والجانب الآخر منها يبقى في ظل ولكن على الخالق أن يعرف كل شعرة وكل قطرة دم ويراها ككل في وقت واحد ثم يشكلها بعد ذلك في شكل علماني حتى تدرب فيها الحياة التي من أجلها خلق... ألا يعد ذلك صعباً؟

فأجبت: نعم إنه صعب جداً فقال "وهذا جدير بالآلهة الذين يخلقونه" فسألت: "وهل خلق النملة أسهل من ذلك؟".. فقال قد يكون ذلك ولكن ولو أن النملة تبدو ضئيلة في حجمها فإن هذه الضآلة مسألة تقديرية تختلف فيها وجهات النظر بالنسبة لهذه العالم فقد يقول إنسان ما إن الأسد أكبر حجماً من النملة وإنه بنى تقديره هذا على قياس في هذه الدنيا، ومع أن النملة تبدو أقل من ظفر الإصبع ولكن تكوينها يفي بالغرض الذي من أجله خلقت وإذا قيضت لك أن تريها وقد كبرت وأصبحت في حجمك فإنك سترين أن جسمها مركب من أجزاء كثيرة.

الفصل الثامن

ساكن القمح

وذات يوم مشيت وسط حقول الغلال أجمع زهرة الخشخاش القرمزية زهرة المحاربين كي أزين بها أعمدة المعبد إذ كان هذا اليوم الاحتفال بذكرى انتصار والدي على ملك "زوما"، وكانت الشمس حارة ومشيت حتى تعبت فرقدت في ظلال نبات القمح وداعب النوم جفوني فاستغرقت في نوم عميق فرأيت نفسي في غابة كبيرة طالت جذوع أشجارها حتى حلقت فوقي في عنان السماء فسرت بينها فرأيت حيواناً يبلغ الأسد في حجمه ولكن شكله كشكل فأرة الحقول. وقد أمكننا التفاهم معا لأني قرأت أفكاره فسألته عن اسمه فقال إني ساكن الغلال فعرفت عندئذ أني طرحت جسدي وأن الغابة التي سرت فيها هي حقل القمح الذي نمت فيه.

ووضعت يدي على الفأرة ولمستها وجعلتني أمر بيدي عليها كما أفعل مع فرسي المحبوبة. أما عيناها فكانت أكبر من عيني الغزال، وشاربها كأنها قضبان من فضة. فسألت هذه الفأرة عن مكانها فقادتني فوق إحدى سيقان القمح وأرتني عشها فوقفت بجانبها في عشها المستدير الدفيء الذي تأرجح مع الريح، وحذرتني الفأرة من الأشباح الخطيرة في الحقول وأخبرتني كيف لقي أخوها مصرعه من حيث لا يدري، إذ هبط عليه الموت من

السماء وحذرتني قائلة إنه يجب أن تكوني دائماً في مأوى وألا تعبري فضاء إلا أرخى الليل سدوله، وبعد ذلك تركت منزل الفأرة وسرت في سبيلي وفوقي نشرت الرياح شراعاً ناعماً من أوراق تويج زهور حمراء ورأيت أمامي جداراً غطته الحشائش، فلما نظرت من فوقه رأيت عشا به ثلاث بيضات كبار. وفجأة شعرت بحركة في الهواء فإذا بسمانة تأوي إلى عشها وبدا أنها لم تربي ولم تشعر بيدي وأنا أمر بها فوق رأسها فتبينت أنها تصغي لضربات فراخها داخل البيضة لتكسرها وتنفذ منها لأنها رقدت فوقها مدة طويلة واشتاقت إلى رؤية أفراخها وهي تفتح أفواهها الجائعة مرحبة بها. ولتلتقط منها ما أتت به من طعام.

ولما صحوت من نومي بدأت أفكر في حالي وسألت نفسي لماذا نقدر قيمة الأشياء في هذا العالم بقدر حجومها فنرى "زيب" مثلاً الذي يفضل أن تقطع يده اليمنى على أن يصاب "ناتي" بأذى لا يعبأ إذا رأى صقراً انقض على فأرة. إن الفراشة في خلقها قد أخذت من الإله "بتاح" نفس العناء الذي تحمله خلق الحصان. وإلا اعتقدنا أن كبر الإنسان يزيد من قيمته لدى الإله فيكون مثلنا كمثل من يصغى إلى إنسان بسبب ضخامته لا بقيمة كلماته. إن الأبنية العالية ليست أكثر جمالاً من الزهرة وإذا اجتمعت عشرون قيثارة فلن تشجينا كما يشجينا البلبل المغرد، ولذا وجب علينا أن ننظر إلى الأشياء بنفس النظرة التي ننظر بها لأنفسنا لأنه سبق أن عشنا حياتنا في رحلتنا الأولى يوم أن خرجنا من أيدي "بتاح".

الفصل التاسع

كاتب المعبد

بعد أن قضيت خمسة أعوام في المعبد بلغ عدد التلميذات اللاتي يدرسن طريقة "أنوبيس" اثنتي عشرة فتاة، وكانت هناك أربعون فتاة يتدربون ليكن صاحبات الاستشفاف فتدرب صاحبة الاستشفاف على أن تطرح جسدها بأن تركز بصرها في بقعة من نور وأحياناً في لهب أو في شعاع من شمس انعكس في فنجان من الفضة المصقولة ومع أنها طرحت جسمها إلا أنه كان يبدو لها أن الأشياء التي تراها بعيدة عن الأرض تبدوا كأنها صورة رسمت في قدحها، وأصحاب الاستشفاف يرون القسم الروحي المقابل للأرض ويرقبون حدود بلادهم حتى لا تؤخذ على غرة نتيجة هجوم خاطف دون استعداد من جانبنا.

ويستخدمون كذلك في إرسال الرسالات بين المعابد، فعن طريقهن تنتشر الأخبار من معبد إلى آخر في الفترة من الزمن التي يستغرقها كاهن ليطرح جسمه أو يجعل إحدى البنات ذات الاستشفاف وهي بعيدة ترى المنظر في قدحها، ولكل رسالة رموز وحروف معناها معروف في المعابد، وكل مدينة كبيرة لها رمزها الخاص بها فإذا نظرت فتاة في أبيدوا ورأت صولجاناً تتبعه جرادة عرفت أن هناك وباء في العاصمة الملكية، وإذا هددت البلاد أخطار كانت توجد في المعابد الرئيسية ثلاث فتيات يحدقن

ببصرهن في ثلاث جوانب هرم فضي، فإذا رأت كل واحدة منهن نفس المنظر عرفن أن استشفافهن صاف لا يعترضه شيء.

ومن بين الفتيات الأربعين اختيرت ثلاث فتيات ليدربن متطلعات للآلهة "ماعت" وكنت أنا إحداهن، ودربني "ني – سي – رع" كيف أطرح جسدي بادئ الأمر بأن أنظر إلى نور براق ثم تمكنت بإرادتي دون مساعدة منه من الرحيل وتركت جسدي كما لو كان نائماً، وفي الوقت نفسه لساني يسجل ما رأيت وما فعلت وأنا بعيدة عن هذا الجسد، ولم أرحل فقط إلى ما يشبه عالمنا الذي نحن فيه بل إلى كل مكان تصل إليه روحي في رحلتي أثناء نومي، وقد علمني "ني – سي – رع" كذلك كيف أقرأ سجلات حياتي حتى أمكنني أن أرجع إلى السنين التي مرت بي ورأيت نفسي أعيش في بلاد غير بلادي واتخذت لغة غير لغتي وأتذكر الطفولات التي مرت بي ومئات من الميتات التي متها وتبدو لي صورة الماضي وكأنها حاضرة أمامي.

ومع أني تمكنت من أن أجعل جسدي يتكلم وأنا بعيدة عنه إلا أني كنت إذا عدت إليه لا أستطيع أن أعي بالتفصيل كل ما قلت، ولذلك كان يسجل أحد الكتبة كلامي فإذا أعاد قراءته علي تبينت إذا كان ما رأيته قد سجلته تسجيلاً صحيحاً.

وكان من بين الكتبة كاتب يدعى "تحوت – ترا – داس" نشأت بيني وبينه صداقة وكثيراً ما تحدثنا سوياً بعد الانتهاء من عملنا، وكان رجلاً مسناً قضى في المعبد أربعين عاماً يعمل فيه كاتباً ولو أنه لم يتدرب على الكهنوت

إلا أنه سجل الكثير من الحكمة لأنه عمل كاتباً للكهنة، وكانت الكلمات بالنسبة له كألوان الرسام يلون بها ما يرى حتى يفهمها الناس كما فهمها هو وكأنهم ينظرون إليها بعينيه، وكان ينصحني أن أتخير الكلمات كما يتخير الصائغ حبات الخرز لينظمها عقداً، وأوازن بين ألوانها ووقعها وسلامتها ثم أنظمها على منوال الفكر فيطرب لها العقل وتستوي الأذن. وفي مرة قال لي إن إلهة الحق تسير في محيطها السماوي عارية يزينها جمالها، فإذا هبطت إلى الأرض سترت نفسها وراء الكلمات وقد رأى وجهها العقلاء ولكنهم كسوها في قميص بسيط من صوف خشن فأخافوها جمال يديها البضّتين في أكمام من نسيج يبدو عليه الوقار لا الجمال، وكان عليهم أن ينسجوا لها أثواباً من الكتان الشفاف حتى يشع من تحته جمالاً وينير للناس كما ينير لهم ضوء منبعث من مصباح من مرمر.

ورغم ما بلغت من سن ورغم المدة التي اشتغلت فيها ككاتب سمعت الكهنة يتحدثون عنها ولكن كانت ثقيلة على ألسنتهم ولم يتمكنوا من تبيان صورتها للبي، فلدي الكهنة المعرفة ولدي أنا نسيجها من الكلمات فإذا أمكن أن تشترك مهارتنا وتتعاون فسيرى الناس جمالها ويسلكون الطريق الذي تهديهم إليه وهكذا أنظم الكلمات عقداً وحمداً وشكراً لجمال الطبيعة وأصف بها خرير مياه البحر وأثر الخمر المعتقة وأشعة الشمس الذهبية وهي تخترق الضباب في صمت، وأصف الجبل في شوقه الهادئ للقاء السماء، أنظم كل هذا في عقد من أفكاري وستتفتح في سنين قليلة أذهانك أنت يا سكيتا لعالم إلهة الحق، وتذكري دائماً أن الكلمات هي الصلة بين كثيرين في هذا العالم وبين الكلمات التي لا يرووها، فادعى

"بتاح" أن يجعل السداد والحكمة فيما تقولين حتى يسير الحق في هذا العالم متوجاً مزهواً في هدوء.

ثم أوحى إلي بحب الكلمات لأنه لا يكفي أن أقول "الموت رحمة" بل يجب أن نرددها حتى يشعر بها الناس وكأنه الحب المفقود الذي يرمون الوصول إليه. وهنا شعرت برغبة في أن أعرض بعض المديح والدعاء الذي نظمته لأعبر به عما رآه قلبي جميلاً وحقاً وفيما يلي نصه:-

ولهت بحبها

ولا أدري طول الطريق لبعدها

فإن فتحته لي...

أشنف السمع بأنغام أعذب من أنغام القيثارة والمزمار.

وإن جعت أعطتني فاكهة ألذ طعماً من التين والرمان وطعاماً أشهى من العسل.

وإن عطشت.. زودتني بخمر باردة لها نشوة أكثر من نشوة خمور الملك المعتقة.

وإن تعبت.. دلكتني بزيوت زكية الرائحة ووضعت على قدمي خفافاً أرق من خفاف فرعون.

وإن حزنت.. بدلت دموعي فرحاً.

وإن أسرعت إليها توقعت لقياها عند كل منحن في الطريق وذراعاها ممتدتان للترحيب بي.

فكم أنا مشوق لأعيش في بيتها في هدوء وسلام.

حبيبتي جميلة.... وعينها رقيقة ويداها قويتان.

كم اشتقت إليها أيام وحدتي في حياتي وقد رحبت بي بعد طول السير وتعدد الرحلات.

اسم حبيبتي التي أحببتها "المنية".

وسر "تحوت – ترا – داس" لهذه القصيدة ولكنه انتقدها لطولها وقال يا حبذا لو كانت نهايتها كالآتي.

"آمل أن يبدو في كل منعطف في الطريق.

ذراعاها ممتدتان للقائي ومرحبتان بمقدمي.

ألا عرفت اسم من ملكت على قلبي. إنها "المنية"

فقلت له لا يمكنني أن أوافقك، ولكن إن شئت قصيدة أقصر فهاك إياها..

"رأى الجائع في منامه انه في وليمة.

ورأى الموسيقار الضرير أنه أبصر النجوم.

ورأى المحارب المهزوم لذة النصر.

ولما صحوا من نومهم وجدوا أحلامهم فد تحققت لأن المنية وافتهم في منامهم"

فقال إن هذه أحسن من الأولى، وتذكري دائماً أن أساور في معصم المرأة أحسن من قلادة طويلة تتعثر فيها.

الفصل العاشر

الاختبار الثاني للذاكرة

وعلى مر الأيام أصبحت ذاكرتي أكثر صفاء ووعياً لتفاصيل ما أراه في منامي، وفي مساء أحد الأيام قبل أنام بجوار الهيكل طلب إلي "ني – سي – رع" أن أعود إلى هذا العالم بعد مرور ساعتين على شروق الشمس، وفي الصباح رأيته جالساً بجواري في انتظار ما أسرده عليه...

"ذهبت بادئ الأمر إلى امرأة أحد الفلاحين وكانت طيبة القلب رغم زلاقة لسانها، وكانت تحب زوجها، ولكن رغم حبها له كانت تعنفه إذا تكاسل يوماً أو زاد من احتساء الجعة أو لم يخلع نعليه عند باب داره بعد عودته من ري حقله ولوث الحصيرة بالطمي الذي أتى به، ولم يتبين زوجها حبها لأن كلماتها المقذعة أخفت عنه هذا الحب، لذلك تعلق بالفتاة التي ترعى البقرة الحلوب واستهواه حسن منظرها وحلاوة لسانها وعذوبة حديثها الذي ينم عن إعجابها به. وقبل أن تنام الزوجة دعت الآلهة أن يعود لها حب زوجها.

فأخذتها إلى مكان يحيط به جدار من طوب وكان ارتفاع الجدار يسمح لها أن تطل منه وترى ما وراءه، ولما أطلت منه رأت زوجها نائماً في ظل شجرة تين وارفة ووراءه محراثه وبجانبه جرة جعة فارغة فنادته قائلة:

أيها الكسول الخامل! لو سار محراثك مسير الجعة في حلقك لأصبحت ثرياً ولاستأهلت نومك بدلاً من تكاسلك وبعد أن انتهت من حديثها ظهر صف من قوالب الطوب فوق الجدار.

فقلت لها... ألا ترين يا "سبك" أن الجدار الذي يحول بينك وبين زوجك يزيد ارتفاعاً حتى تكادي لا ترينه أو تصلين إليه!!.. فكل كلمة مؤلمة تصدر منك عن غير روية هي قالب من طوب في هذا الجدار الذي يفصلك عنه وكما أنك لا ترينه بسبب هذا الحاجز فكذلك لا يراك هو.. وفي وحدته أحب تلك الفتاة التي ترعى البقر.. وعليك من الآن أن تتروي في حديثك ولا تنطقي إلا بالألفاظ التي تحبين أن توجه إليك من حبيب لك، حتى لا تزيدي من ارتفاع هذا الجدار، وستجدينه قد انهار أمام حبك له كما ينهار جدار من اللبن أمام مياه الفيضان.

وأظن أنها ستعي ما قلت لها لأن الصورة التي أريتها لها كانت أوقع من أي نصح، وتعيش هذه المرأة في الدلتا على بعد مسير يوم من البحر.. ويتكون بيتها من خمس حجرات وأمام بابه ثلاث شجرات من شجر الجميز. فهل سجلت ذلك على صحته؟؟

فقال "نعم.. وقد استجبت لدعائها بحكمة".

وعدت إلى حديثي:

"ثم ذهبت إلى البلاد التي تقع غرب المحيط العظيم حيث كانت "أتلانتا" ورأيت هناك رجلاً يسير في غابة كثيفة بحثاً وراء الذهب وكان في المرة الأخيرة التي خلق فيها على الأرض نبيلاً ولكن بدلاً من أن يرعى قومه كما يرعى أولاده قاسوا بسبب إهماله لشئونهم، فلم ينظف المصارف وانقلبت الحقول بركاً تنبعث منها الحمى في المساء. ولما وافته المنية تبين أنه أضاع الفرصة التي يساعد فيها من يجب عليه مساعدتهم ودعا أن يعود إلى الأرض ويساعد المعذبين فيها كما تعذب قومه بسببه. ولما خلق ثانية كان الابن الأكبر لمقاول طرقات وفي الثامنة عشرة من عمره ترك منزل والده لأنه أحس أن هناك شيئاً عليه أن يجده، ولو أنه لم يعرف كنهه وظن أنه الذهب الذي به يساعد الناس وسار أسابيع وأسابيع في غابات كثيفة حيث تحجب الأشجار الشمس واعترته الحمى وشعر بالحاجة إلى غطاء يدفئه وهو في قشعريرة المرض، وعندما أخذت الحمى تلهب جسده اشتاق إلى نسيم البحر العليل وإلى عصير فاكهة من إبريق بارد وظن أنه لا محالة هالك.

وبسبب هذه الحمى أمكنه أن يرى ما وراء هذا العالم كما وهب القدرة على الاستشفاف فتقمصت شكله وظن أنه يرى حلماً يدله على ما يجب عمله لشفائه فذهبت إلى شجرة "القاهان" القريبة منه وانتزعت جزءًا من قشرها ووضعته في قدر من الخزف وغليته على النار وشربته وقلت انظر قد ذهبت عني الحمى وأصبح جسدي سليماً.

وبعد ذلك لم يرني، ولكني راقبته فرأيته يزحف نحو الشجرة فعرفت أنه وعى ما رأى في منامه، ووجد الشفاء من الحمى التي قاسى بسببها آخرون وبذلك نال جزاءه الأوفى".

وسر "ني – سي – رع"، وسررت أنا كذلك لأني كنت الوسيلة التي بها عرف هذا الإنسان ضالته المنشودة ولبت الآلهة دعاءه إذ عثر على إحدى العجائب التي تخفف آلام البشر.

"وبعد ذلك زرت امرأة وهي على فراش الموت، وكانت تعيش في بلاد تبعد مسيرة أيام كثيرة عن ميناوس بعد الخطوط الأمامية جهة الشمال، وكان أهل بلادها جهلة يعتقدون أنهم عندما يموتون تحوم ذكرى حياتهم حول أجسادهم مدة قصيرة لكنها سرعان ما تعود إلى الأرض مرة أخرى ومثلها في ذلك كمثل الماء يتخذ شكل الإناء الذي فيه فإذا ألقي في النهر فقد هذا الشكل.

وكان لهذه المرأة ولد أحب أن يرى بلاداً غير بلاده فرحل عن وطنه وسافر إلى بلاد بعيدة وعاش مدة من الزمن مع صيادي الأسماك ذات الأصداف التي يستخرجون منها الأصباغ البنفسجية اللون، وبينما هو في عمله قابل رئيس مركب من مراكبنا التي تنقل الأصباغ وخشب الأرز إلى بلدنا "كام".

وتحدث هذا البحار مع الصبي عن النور وأعاد إليه ذاكرته حتى عرف أن قوله كان حقاً ولما عاد إلى بلاده بعد أشهر ظن أن بلده ستفرح بما أوتي من علم ومعرفة فتتوقف الأرامل عن البكاء، وتنزل الطمأنينة في

قلب الأمهات اللاتي ثكلن أطفالهن إذ سيعلمن أنهن لم يفقدن أزواجهن أو أطفالهن. ولكن الناس لم تصغ إليه وقالوا عنه إنه حالم أحمق جبان لا يواجه الأمر الواقع.

ولكن أمه أعارته أذناً واعية لأنها كانت تحب أن تسمع صوته ولكنها قالت له "ليس هناك برهان على صدق ما تقول ولا تفكر في الموت فالتفكير فيه تفكير في العدم والتفكير في العدم هو تفكير الحمقى من الناس".

فحزن الصبي لهذا الحديث وكثيراً ما دعا الآلهة ألا تموت والدته غير مرتاحة البال خشية أن تهيم على الأرض بلا جسد. وهجر الغلام قريته وهاجر إلى جهة أخرى وسار بين الناس وتحدث عن معتقداته ولكن لم يؤمن به إلا نفر قليل منهم.

ولما ذهبت إلى تلك المرأة رأيت أن ساعة منيتها قد حانت، وشعرت بالحنين إلى ولدها وتمنت أن تراه قبل أن تموت واستقرت عيناها على الباب عسى أن ينفتح ويدخل منه ولدها عائداً من رحلته. وكان ولدها مستيقظاً إذ كان في قارب يبحر في بحر هائج مضطرب ولم يعرف أحد طعم النوم بسبب الزوبعة فتقمصت أنا شكله ودخلت حجرة أمه فاتجهت عيناها إلي ولم تر من حولها من الأقارب الذين يبكون ولم تر أحداً سواه ورآها من بجانبها تجلس وتمد ذراعيها وتقول "يا بني ها قد عدت إلي ثانية"، ثم رأوها ترقد ثانية وقد فارقت الحياة على فراشها، وسارت روحاً معي وخرجنا من الباب إلى ضوء الشمس المشرقة، وتركتها راقدة في سلام وهدوء حتى يلقاها ابنها في منامه وأحلامه.

الفصل الحادي عشر

زهرة الخشخاش القرمزية

لما بلغت السابعة عشرة من عمري أمكنني أن أقرأ ما سجل عني، وفي مدى خمسة أيام عشت خمس عيشات مختلفة مارست حياة الرجال في ثلاث منها وحياة النساء في اثنتين وجميعها كانت صاخبة شاقة.. مت فيها في ساحة الوغى أو بسبب وباء أو مجاعة ولم يكن الطريق في أحدها سهلاً بل سافرت في الفيافي والقفار تظللني سحب ينبعث منها قصف الرعد.

وحرت في أمري لماذا أكاد لا أذكر من الراحة والسلام إلا النزر اليسير، ولما سألت "ني – سي – رع" عن علة ذلك قال "فكري يا سكيتا. أي الأيام تبدر إلى عقلك؟ أيام الجهاد أو الحزن أو تلك الأيام التي تعلمت أموراً زادت من حكمتك" وبدا لي وهو يتحدث إلي اليوم الذي فيه انهلت على "زيب" ضرباً بالسوط، واليوم الذي قابلت فيه "ني – سي – رع" واليوم الذي أصيب فيه "هاركا" ويوم المعركة الفاصلة بيننا وبين الملك ساردك، ويوم جنازة والدي. وعرف "ني – سي – رع" أفكاري فقال "إن الحياة معلم، فأحياناً يهمس في آذاننا وأحياناً أخرى يدوي صوته كالرعد، وفي الحالتين يطلب منا أن نتذرع بالشجاعة وأن نذكر أن ما نسكبه من

دمع يزيد غلالنا وقمحنا نمواً... وقد تمتعت بالهدوء والسلام أياماً في مراحل حياتك التي حييتها، ولكن الذي يبرز منها في ذاكرتك هي تلك اللحظات التي يصادفك فيها فرح عظيم أو حزن أليم كما تبرز زهرة الخشخاش القرمزية بين حزمة من القمح الذهبي اللون، ولذا فأنت تسجلين أولاً تلك اللحظات التي تعلمت فيها الشجاعة والحكمة والرحمة لأن لها بريقاً في لونها يميزها عن غيرها على حين نجد الأمور الأخرى التي مارستِها ليست على قدر من القوة يسمح لها أن تفرض نفسها على ذاكرتك كما تفعل الحكمة أو الشجاعة. فقد تتعلمين الصبر أثناء معيشتك كفلاح أو كامرأة تعمل في الحقل ولكن هذه المعيشات لا تدفع نفسها إلى الذاكرة لأن ما نتعلمه عنها من حكمة تتسرب قطرة قطرة بهدوء في حياتنا كما يتسرب أريج زهرة البنفسج وهي مختفية تحت أوراقها، ومن السهل تذكر تلك الأيام الذي سرت فيها تتقدمك الأبواق وقرعت باب الموت رافعة حسامك الملطخ بدم الأعداء أو حين زحفت عليهم في بلد عمَّها القحط ولم يسلم من الجوع أحد فيها إلا الطيور الكاسرة، بينما لا تتذكرين تلك اللحظات التي تفتحت فيها أبواب الموت على مصاريعها في هوادة ورفق وأنت تلجينها وألفتها كما ألفت باب بيتك... والعلة في عدم تذكرها هو عدم جلبتها، فإننا نذكر صورة اندفاع الماء فوق الشلالات ولا نذكر النهر في انسيابه بين ضفتيه، ونذكر اليوم العاصف حين تتسلط سهام البرق على بني الإنسان ولا نذكر الليالي الجميلة بنسيمها حين نتربض وحيدين والليل أرخى سدوله.

وفي المستقبل حين تذكرين كيف تديرين "المفتاح الفضي" فإنك ستسمعين صوتي لأن الحكمة أعلى صوتاً من سواها وستذكرين دائماً كيف تذكرين".

الفصل الثاني عشر

زفاف أربيتا

ولما استكملت السابعة عشرة من عمري ذهبت ووالدتي و"نياح" إلى أبيدوا حيث مكثنا في منزل خالتي وذلك بمناسبة زفاف ابنتها "أربيتا" إلى الابن الأكبر للوزير، ولم أرها منذ ثلاث سنوات، مع أننا كنا نلهو سوياً عندما كانت تعيش معنا في القصر ونحن أطفال، وكنت وأخي نعتقد أنها بنت غبية. ولما لقيتها وجدتها تبدلت إذ رأيتها جميلة بسبب ما تشعر من سعادة وأرتني منزلها الذي ستسكن فيه والحجرة المخصصة لأطفالها حين يولدون. وكانت تتحدث عن حديقتها ومنزلها وتقول هكذا خططناها كأنما هي وزوجها شخص واحد. لقد جعلتني أشعر بحياتي الموحشة، حياة الوحدة إذ لن أشارك أحداً هذه الطمأنينة في العيش ولن أصبح جميلة مثلها بسبب حب رجل من الرجال لي لأن تلك الأمور التي تملأ قلوب النساء لم تخلق لمثلي.

وبعد الاحتفال بزواجها عدنا إلى المدينة ثم عدت ثانية إلى المعبد وكثيراً ما اتجهت أفكاري إلى ما رأيت في أبيدوا وشعرت في قرارة نفسي بالغيرة من تلك السعادة والاستقرار التي تشعر بهما "أربيتا" رغم أني كنت على علم بأن ذلك لا يليق بي وحاولت أن أبعدها عن فكري ولذلك ذهبت إلى "ني – سي – رع" وأخبرته بتلك الأفكار التي تقلقني. فقال لي

"كل الذين يشعرون بالغيرة ينظرون إلى شخص يبدو أنه يملك أكثر مما يملكون بدلاً من أن ينظروا إلى من يود أن يكون مثلهم، فمثلاً يحسد الكسيح العداء وينسى الأعمى الذي يود لو شاركه إبصاره ويحسد الموسيقي البلبل وينسى الزراف التي لا تخرج صوتاً ويحسد التاجر النبيل في محفته المزركشة ولا يفكر في هؤلاء الذين يتضورون جوعاً حول حانوته... وقد تجدين آلافاً يحسدون فرعون ولكنهم لا يدركون الوحدة التي تخيم على حياة الملوك وأن نفس الأمور التي تجدينها صعبة هي ذلك التراث المجيد الذي كسبتِه، فإذا رغبت عنها ووددت لو أنك لم تخلقي لها فمثلك كمثل ذلك الموسيقار الذي يلقي بقيثارته، فرددت عليه قائلة "ولكني عملت السنين الطوال لأستعيد ذاكرتي بينما أرى ملكات وفراعنة حكموا البلاد دون أن يتدربوا في المعبد كما أفعل أنا...

وإذا عدت ولو لحظة وجيزة إلى العالم الخارجي أصابتني حمى الدنيا وسرت في دمي وجعلتني أعتبر أمور الكهنة صعبة المراس وخاصة إذا كان الإنسان صغير السن". فقال "ني – سي – رع": "إن مباهج الشباب حلوة عذبة ولكنها متاع زائل وتمر مر الطيور في سماء الصيف ولكن ما تجنيه هنا هي الحكمة والحكمة دائمة على مر السنين وتحتفظين بها حين تبلغين من العمر عتياً". فقلت "يمكن لكل إنسان أن يحضر إلى المعبد ليستمع إلى الحق ويستطيع الناس أن يحضروا إلى المعبد ويسروا متاعبهم لكاهن من الكهنة فتكشف لهم حكمته عما في قلوبهم على حين أنه علي أن أجاهد لأحصل عليها بنفسي لنفسي". فقال "هناك قوة وطمأنينة لا يمكن أن تبعثها في النفس إلا النفس وهنا نجد قيمة الجهاد فليس هناك

شيء على الأرض لا يزول مع الحياة إلا الحكمة فهنا في أرض "كام" كثير من الكهنة ولذا يعم النور للجميع ولكن في الماضي اكتسح الشر الأرض ولم يكن هناك كهنة يضيئون الوديان المظلمة التي سار فيها إخوانهم في سني شقائهم وقد يعود ذلك مرة أخرى، وقد تولدين في بلد يعم أهلها الجهل وقد نزلت على أبصارهم غشاوة وفيها دمى في أثواب كهنة يتشدقون بألفاظ لا تبعث الإيمان ولا السلام في نفوس الناس أو نفوسهم، وإذا عم النور فلن يعيش أحد في دياجير الظلمة إلا أن الحكمة التي علمتها إياك ستلازمك ولن تشعري بتلك الوحدة التي يشعر بها أولئك الذين لم يحاولوا أن يبحثوا عنها لأنفسهم، وعندئذ سيخاطب صوتك الجماهير وسيسمعك قوم قد سمعوها من قبل في أرض "كام" وسيبحثون عنها ليطفئوا ظمأ روحهم إلى سماع الحق، وهكذا لن يضيع الحق بسبب كلام لا طائل تحته كما فعلوا في معابد ذلك الزمن.

"وعليك دائماً يا تلميذتي أن تتحدثي عن الحق وادعي الآلهة طالبة "أتت والنور" وسأسمعك حتى ولو كنت بعيدة عن هذا العالم. ولا تخشي الموت في سبيل ما تعتقدين أنه حق ولو حرقك الأشرار بالنار بسبب ما تقولين، وإذا ألقوك في النار بسبب ما تقولين فانظري إلى النجوم وعندئذ تشعرين بي أقبض على يديك وأخلصك" فقلت له ولكن لم تحدث مثل هذه الأمور، ولم لا يشرق نور الحق دائماً؟ فقال إني أذكر ما حدث قبل أن تسقط "أتلانتا" فقد زرع الناس الشر فحصدوه وأصبحت مراعيهم أرضاً قاحلة، والمستقبل في يد البشر فإذا سمحوا للنور أن يسطع بينهم عاشوا في سلام وإذا ساروا في الظلمة ضلوا الطريق وهلكوا وإذا حان وقت نسي فيه

الناس النور فسيعيشون في أرض يعم فيها اليأس وكأنهم يعيشون في بلد انتشر فيه الوباء فأمات الناس، وسيتولى الحكم قوم لا سمو في روحهم يخشون الكهنة الذين ينطقون بالحق وإذا نطق أحد منهم بالحق أسكتوه بالنار والتعذيب وإذا محوا تعاليم الآلهة جروا الدمار على الأرض.

وعندئذ سيمشي الموت في الأرض لا في صورة ضيف محبوب يرحب به الناس بل في شكل مفزع يبعث القشعريرة في قلوبهم وسيندلع لهيب الحروب، ولن تكون هذه الحرب حرب النور والهداية ضد الظلمة والشرور بل ستكون حرباً بين الناس بعضهم وبعض تنعدم فيها المبادئ السامية ويتلاشى فيها نبل الفهود التي لا تقتل إلا إذا جاعت، وسيذبحون غيرهم لا لشهوة التدمير فحسب بل لأن تفكيرهم قد انعدم وذاكرتهم قد ختم عليها وأوصدت أبوابها ومن ثم فإنهم يموتون عطشى دون أن ترويهم ذكرياتهم، ومع أن أجرانهم ستملأ بالغلال إلا أنهم سيموتون جوعاً ومع أن المعابد كثيرة إلا أنهم لن يذوقوا فيها طعم الحكمة ولا نشوة الحق. وسيصرخ الناس في عذابهم للآلهة التي تنكروا لها وستذهب صرخاتهم أدراج الرياح دون أن يكون لها أي صدى.. وأخيراً عندما تخيم عليهم ظلمات القبور سيروا في الأفق ناراً فيهرعون إليها فتملأ قلوبهم.. وعندما يعود النور ويمحو أمامه دياجير الظلام سيبتهج الناس به وتتلألأ الدنيا حتى تصير كالقمر.

وشعرت وهو يتحدث إلى أنه مسح على قلبي وأذهب عني الشوق إلى حياة كحياة أربيتا، ووددت أن أوهب القوة حتى أحمي بلدي من

الظلمة.. أي إلهي، أنوبيس!! يا من سأكون إحدى كاهناتك يوماً ما.. هبني من لدنك الشجاعة حتى أحسن استخدام حكمتك وحتى أكون جديرة بأن أصبح خادمتك.

الفصل الثالث عشر

نفرتيري

كانت "نفرتيري" صديقتي الحميمة في المعبد، وكانت تعيش معي في القصر إبان طفولتي، وكانت تكبرني بعامين.. ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها خطبها نبيل شاب ولكنه قضى نحبه في نفس الموقعة التي مات فيها والدي وفي نفس اليوم الذي مات فيه، وقبل أن تعلم بوفاته دهمتها إحدى العجلات الحربية فقد تصادف أن لدغت حصاناً حشرة جمح بسببها واندفع في طريق ضيق بين جدران عالية من اللبن حيث كانت "نفرتيري" فدهمتها العجلة الحربية ومرت العجلات فوقها وسببت لها إصابات في ظهرها لازمت الفراش بسببها خمسة أيام قضتها في حالة غيبوبة تامة، ولما عادت إلى جسدها لم تطاوعها قدماها على المسير ولما أفاقت عرفت بموت خطيبها ولكنها لم تحزن لأنها تذكرت ما عملاه سوياً بعيداً عن هذا العالم، ولكن لما أفاقت مرة ثانية لم تجد سوى ذكرى مهوشة غير متصلة فرغبت في الالتحاق بالمعبد كي تدرب ذاكرتها ولكن الكهنة لم يوافقوا في أول الأمر إذ أن ذلك يتطلب جهداً كبيراً ولا يختار لذلك إلا الأقوياء أصحاء الجسم، ولكن والدتي اعتقدت خلاف ذلك إذ رأت أن في التحاقها بالمعبد تخفيفاً عنها لا إثقالاً عليها؛ فلما استعادت قوتها وأمكنها السير مرة أخرى رغم التواء قدمها اليمنى وبرودتها برودة مخلب الطير أصبحت إحدى تلاميذ "ني – سي – رع" ومكثت بالمعبد حتى بلغت التاسعة عشرة من عمري، وكثيراً

ما كنت أصرخ لها بصوت عال وأنا بالخارج في القصر إن التدريب بالمعبد طويل وشاق، وكانت تتمثل أمامي قبل أن تجيبني حياة القصر وعظمته وتبدو لي جدران حجرتي في المعبد ضيقة متقاربة كأنها القبر. وعندئذ تتحدث إلي "نفرتيري" حديثاً يباعد بيني وبين أنغام موسيقى الاحتفالات وتبدو جدران حجرتي متفتحة كباب يؤدي إلى عظمة لم يحلم بها إنسان وينسيني حديثها ضجري وأعود إلى نفسي وأتبين أن الوقت يمر سراعاً كما تنساب حبات الرمال بين أصابعنا القابضة عليه.

ولما بلغت التاسعة عشرة من عمري ماتت "نفرتيري" وكانت تعلم منذ ثلاث أيام أن أيامها على الأرض قد قاربت الانتهاء وكان نور روحها عظيماً لدرجة لم يتحمله جسدها فكان كإناء به زيت لم يتحمل وهجه فانكسر، وجلست بجانبها في حجرتها ولم تشعر بألم ما، وأمسكت يدها فكانت هادئة باردة وكانت تبتسم أحياناً وتتحدث إلى شخص واقف على بعد من فراشها ولكني لم أر سوى الجدار أمامي، ولما بزغ نور الفجر خلال النافذة أطفأت الذبالة بأصابعي وهي تهتز في نقاط الزيت المتبقية، ولما أردت أن أتركها بعض الوقت شعرت بقبضتها الواهنة تشتد على يدي وتقول "إن هذا المصباح في ضآلته بالنسبة إلى الشمس يوازي ما أديت من عمل إلى ما وددت أن أقوم به، إن كلانا سيرحل عن هذا العالم وسيترك وراءه ظلمة لمدة بسيطة في هذه الدنيا".

ولما أنطفأ المصباح فاض نور الفجر القرمزي على أرجاء الحجرة التي كنت أجلس فيها وحدي بعد أن فاضت معه روحها.

الفصل الرابع عشر

مستشارو المعبد

في صباح كل يوم في معابد "كام" وبعد مضي ساعتين من شروق الشمس وفي كل مساء كان يجتمع أولئك الذين دربوا تدريباً كافياً ولم يمسحوا كهنة بعد في حجرات السلام بجوار الهيكل، وكان يزورهم من كل فج من ينشد النصيحة لتهدأ بها أفئدتهم. وإذا وجد أحدهم أن المشكلة التي أمامه مستعصية عليه أحالها إلى من هو أكثر منه حكمة. أما في القرى حيث المعابد غير موجودة فقد كان يوجد كاهن بصفة دائمة يستشيره الناس في أمورهم ومشاكلهم حتى لا يوجد أحد في أرض "كام" دون صديق عاقل أو مرشد مخلص.

ولما بلغت التاسعة عشرة من عمري قرر "ني – سي – رع" أني على كفاية لأن أكون أحدى مستشاري معبد "أتت". وقد تعلمت الكثير في عملي هذا مما له قيمة عظمى لأنه بحكم مركزي هذا فتح الناس لي قلوبهم وأخبروني عن متاعبهم دون زيادة أو إخفاء شيء عني.

وفي صباح اليوم الأول جاءني رجل وهو يبكي وأخبرني أن الآلهة قد غضبت عليه، وبعد سؤاله أسئلة كثيرة اعترف أنه فاكهي في السوق، وعامل الناس بالغش فباعهم سلالاً ملأى بفاكهة على وشك العطب، وأن امرأة عجوز أنزلت عليه اللعنة لخداعه، ففي كل ليلة يرى تيناً عطباً

يتساقط عليه كالمطر، وكان التين ثقيلاً لما حواه من طمي، ثم يصحو وهو يصرخ لأنه كان يشعر أنه يكاد يختنق، وقد ندم على ما بدا منه من ذنب وطلب مني أن أمحو عنه هذه اللعنة وأعفو عنه.

فقلت له "إن اللعنة حلت بك لعدم أمانتك، ولا يمكن للكاهن أن يعيد التعادل بين كفتي ميزان "تحوتي" ولكن يمكنك أنت أن تصلح ما أفسدت، فاذهب ليلاً دون أن يراك أحد، وضع سلالا من الفاكهة الطازجة أمام أبواب أولئك الذين سبق أن خدعتهم، وبعد ذلك ستنعم بأحلام هادئة مرة أخرى.

ثم جاء رجل وأخبرني أن امرأته الشابة تنظر إليه أحياناً نظرات غريبة، ثم تتحدث بلغة غريبة لا يفهمها، وأحياناً تنام على الأرض وهي تتلوى وبعد ذلك تفيق ولا تذكر ما حدث ولا يخبرها هو بما حدث خشية إزعاجها، وظننت أن هناك روحاً شريرة تمتلك جسدها. فأخذته إلى "ني – سي – رع" فأخبره أن يحضر امرأته وسيشفيها من هذه الأزمات التي تنتابها.

ولما عدت إلى الهيكل وجدت صبياً في انتظاري، ثم بدأ يحدثني في استحياء أول الأمر، ولكن سرعان ما تحدث إلي كما لو كنا طفلين نتحدث معاً فقال "ذهبت إلى هيكل "بتاح" ودعوته ولكني رأيت أن أحدثك عن أمري إذا لم يستمع لي فلست بمتأكد إذا كان هذا الأمر من الأمور التي يهتم بها" فقلت له إن "بتاح" يود دائماً أن تشغله الناس بأمورهم؛ فسر

الغلام لقولي وقال "مات أبي وتعمل أمي في النسج ونعيش مع خالي. وعندي فأرة جميلة ألهو بها واسمها "تيتي" وأحبها حباً جما، ولكني مضطر لإخفائها في صندوق أضعه خلف خشب الوقود كلما خرجت حملتها معي، والآن إن هذه الفأرة مريضة ولا أجرؤ على إبلاغ خالي بمرضها، وذلك لأن خالي يكره الفئران ويقتلها ويعلقها بأذيالها في مسمار في شجرة كي يخيف غيرها من الفئران، ولقد دعوت "بتاح" ليشفيها، فهل تظنين أنه سيهتم بدعائي". فأخبرت الغلام أن يأتي بها إلى المعبد وسيشفيها أحد خدام الإله "بتاح" وعاد الغلام في المساء ومعه باقة من الزهور قطفها من الحقول وجاء ليقدمها للإله بتاح، وقال لي إنه لم ير داعياً لإحضار "تيتي" معه لأن "بتاح" استجاب لدعائه فلما عاد إلى منزله وجد "تيتي" في صحة جيدة عند عودته ومعها في الصندوق ستة فيران صغيرة".

الفصل الخامس عشر

سبتيز

كان على أولئك الذين يبدءون تدريبهم على الكهنوت أن يحضروا مرتين كل عام إلى المعبد لاختبارهم في مبلغ تقدمهم في عملهم الذي كانوا يمارسونه في بلادهم، ولا يعيش هؤلاء إلا إذا أمروا ليكونوا على استعداد لاجتياز مرحلة من مراحل الكهنوت الثلاث.

ولما كنت في التاسعة عشرة من عمري كانت هناك فتاة تدعى "سبتيز" وكانت تأمل أن تمر في الاختبار الأول لتكون من أصحاب الاستشفاف، ولكنها طردت من المعبد ومع أننا كنا على علم بالعار الذي لحقها لم يخبر أحد منا بما اقترفته حتى استحقت التحقير من جميع من عرفوها، لأن من يطرد من المعبد بحجة أنه غير جدير بالبقاء فيه يعتبر أحقر إنسان على وجه الأرض. وسألت "ني – سي – رع" عما جنته "سبتيز" فقال "قد ضبطت في وضع مشين فقلت له" في المعبد كهنة وكاهنات قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً وهؤلاء تزوجوا بينما لم تتزوج هذه الفتاة، فخبرني لم تعتبرونها غير جديرة بالبقاء في المعبد فرد علي قائلاً "إنك على حق "يا سكيتا" إن الزواج هو رمز للطهر والتقوى في قلب الإنسان. أما سبتيز فقد حلت عليها اللعنة إذ لم ترع حرمة المعبد ولا شريعة الآلهة.

فالشخص الذي لا يملك الإرادة الكافية ليسيطر بها على شهوات جسده غير كفء ليكون رائداً للناس ومرشداً لهم.

ولكن علينا أن نذكر دائماً أنه من الحماقة أن نحكم على الناس قبل أن نكون في مركز يسمح لنا بالكشف عن قلوبهم ونواياهم ولو عرفنا الظروف التي دفعت شخصاً إلى الإثم يجب أن نلم بعمره الروحي. فمثلاً لا تثريب على أسد تنكر لأشباله عندما تبلغ الثانية من عمرها، ولكننا نثور في وجه إنسان فعل ذلك، لأن الإنسان أكثر نضوجاً من الأسد وعليه مسئوليات جسام. وإذا كان يغتفر للصغير أن تعميه شهوات جسده، فلن يكون الأمر هيناً بالنسبة لذلك الذي يدرب إرادته، فإنه من العار أن تخضع هذه الإرادة أو تجبرها أمور الدنيا.

وهنا سألته "أتكون السرقة حلالا ما دامت لشخص آخر" فأجاب إنني لا أبرر السرقة إذ يجب أن يكون الإنسان على استعداد أو لا للعمل والكد وعلى استعداد لأن يحمل الماء للمنازل أو أن ينظف حظائر البهائم القذرة أو أن يقوم بأي عمل يمكن أن يؤديه بيده ويتضرع إلى الآلهة بأن ترزقه رزقاً حلالا.

وسألته عن الحياة الأخرى لامرأة مثل زوجة وزير أرض السلحفاة فقال لا يمكنني أن أحكم عليها دون إلمام بظروفها ولكن جاءت امرأة مرة إلى المعبد لأساعدها ولكي أمنحها تلك المساعدة كان علي أن أبحث سجلاتها فوجدت أنها في حياة سابقة لها كانت راقصة جميلة وتزوجت من ابن أحد النبلاء طمعاً فيما يدره عليها، ولو أنها لم تكن له الحب في قلبها

والآن هي في حياتها الحالية ابنة أحد قواد الحامية الشمالية وتزوجت من أحد موظفي بلاط الملك "ساردك" عندما زار والدك قبل أن يغزو بلادنا بعام ورغم إرادة والدها عادت معه إلى بلاد "زوما" كزوجة له ولما أصبحت بعيدة عن قومها وجدت أنه غليظ القلب قاسياً وكان يجد لذة في إذلالها أمام ضيوفه لأنه يكره أهل "كام" ورغم ذلك ورغم الخوف منه واحتقارها له لم تتمكن من التخلص من حبها له ومن أجل هذا تحملت كل أذاه ولم تعد إلى أرض "كام" إلا بعد وفاته فوجدت أن أباها قد قتل في الموقعة الأخيرة ضد أهل "زوما" ولم يكن لها أقارب تذهب إليهم، والآن هي تعنى بأطفال ملاحظي الكرمة الذين فقدوا أمهاتهم.. وهكذا ترين هذه المرأة التي كانت في سابق عهدها تأخذ من الناس ولا تعطي حتى كلمة الشكر أو الاعتراف بالجميل نجدها في حياتها هذه كرست نفسها وقلبها لعمل لا تجني منه شيئاً".

فسألته "لماذا شعرت هذه المرأة بهذه العاطفة نحو هذا الرجل القادم من أرض "زوما" فقال قد يكون هذا ديناً عليها يجب أن تؤديه له أو قدرت عليها الآلهة تكفيراً لها عن ذنوب اقترفتها أو لتكسبها خبرة. وقد يحدث هذا حتى يمر بعض الناس في تجارب يرفضون القيام بها في الظروف العادية، وقد يحدث هذا أحياناً حتى يتحرر اثنان تربطهما أغلال الحقد من إسارها، وقد تشتهي الأجساد بإرادة الآلهة ولكن نداء الروح للروح لا يتأتى بأن تشارك كل منها تجارب الأخرى، والزواج الحق يتمثل في اثنين يشدان الرحال وهما يقطعان طريقاً واحداً يساعد كل منهما الآخر ويسري عنه في منفاهما المشترك.

الفصل السادس عشر

عجلة الزمن

كنت أحلم عن "أتلانتا"، ولما صحوت دهشت إذ وجدت نفسي في أرض "كام" قبل أن أطرح جسدي بخمسة آلاف سنة ولما أخبرت "ني – سي – رع" عن حلمي سألته عن العلة في عدم وجود حد للزمن وأنا بعيدة عن الأرض فقال إنه سيشرح لي ذلك ولكنه يرغب أولاً في أن أصيغ ما علمت في صيغة تعبر عما أفكر لذلك أرسلت في طلب "تحوت – ترا – داس" ليسجل كلامي بعد أن طرحت جسدي، ورحلت إلى حيث أمكنني أن أرى الزمن بوضوح وبعد أن عدت إلى نفسي، قرأ علي "تحوت" كلامي:

"رأيت الزمن على الأرض كخط مستقيم، وعليه يتمثل الحاضر كنقط وفي الجهتين المضادتين منها يمتد الماضي والمستقبل، وقد قسم هذا الخط إلى أقسام كل قسم يدل على عام كما قسم خط الرسام إلى مفاصل كمفصل الإبهام، ورأيت الأفق على الأرض خطاً مستقياً، ولما أطرح جسدي عني أرى الأرض ككرة والزمن دائرة.

وعلى هذه الدائرة أقسام دالة على السنين فإذا سار إنسان على هذا الخط قصرت أو طالت المسافة بين قسم وآخر بناء على المسافة التي قطعها الإنسان. هذا هو الحال على الأرض، أما بالنسبة لي فقد كان يمكنني أن أصل إلى أي مكان كما لو كانت دائرة الزمن إطاراً لعجلة وأنا

عند سرتها وتشع مني قضبان متساوية الطول سواء أكانت تتجه إلى نقطة في ماضيّ أو حاضري أو مستقبلي، وفي اللحظة التي أنا فيها رأيت أني ولدت في أول الأمر ذكراً وذلك قبل أن تخلق هذه الأرض، واللحظة التي طرحت فيها جسدي الذي أسكنه الآن والمستقبل الذي سأولد فيه مرة أخرى على أبعاد متساوية مني لأني في النقطة التي أنا فيها أرى نفسي داخل الزمن وبعده في نفس الوقت لأن مكاني يقع في منتصف الدائرة حيث يتلاقى الماضي والحاضر والمستقبل ويتخذ صفة الخلود فإذا تلاقى مستقبلي وماضيّ فستتم دائرتي وأكون حرة من قيود هذا العالم وحدوده وعندما تتم دائرة الأرض تكون الأرض قد أتمت مهمتها وتصبح قمراً في عالم آخر".

وقد أخبرني "ني – سي – رع" أنني قد عبرت تعبيراً صحيحاً عن الحقيقة وبذلك أمكنني الإلمام بقيود الزمن وتعلمت كيف أخلص نفسي منها بسرعة أكثر مما ينتظر وهذا سيساعدني في عملي.

وهذه المعرفة جعلت أشياء كثيرة واضحة أمامي، ففي الأرض تعمل الذاكرة جاهدة خلال الضباب الكثيف الذي يخيم على السنين وكثيراً ما ننسى التجارب التي تهدينا إلى الطريق المستقيم، أما من مركز عجلة الزمن فإن كل شيء يبدو واضحاً جلياً، ولا حاجة بنا أن نتذكر ما سبق أن تعلمناه لأن كل ما أوتيناه من حكمة موجود معنا في نفس المكان والوقت واضحاً خالياً من كل شائبة، ثابتاً في الحاضر الذي لا نهاية له وسألت "ني – سي – رع" قائلة حين أكون بعيدة عن عالم هذا الأرض أرى الماضي

كحاضري ظاهراً جلياً فلماذا لا يمكنني إذن أن أرى مستقبلي؟ فأجاب قائلاً: "الماضي ثابت فما عمل لا يمكن أن يتغير ولكن كل عمل تقومين به يبدل المستقبل وهو عبارة عن سائل يمكن تبديله إلى ماض خالد أبد الدهر فمستقبلك أو حياتك حين تولدين مرة أخرى كبركة من الماء تنعكسين أنت فيها ويمكن في أية لحظة أن نعرف حال هذه البركة التي تكمل مستقبلك ويمكنك بمحض إرادتك أن تزيلي الزوابع منها فتصبح هادئة أو تبدلين سطحها الهادئ إلى أمواج وهذا هو السبب في أن نبوءات قليلة جداً تتحقق فانظري مثلاً إلى هذا البستاني وهو يحمل جرة ماء، يمكنني أن أتنبأ أنه سيعبر الفناء دون أن يسيل منها ماء. وهذا المستقبل الذي تنبأت به أوحى إلي به عمله في الحاضر ولكن إذا تعثر في مشيته أو ألقى بالجرة على الأرض بمحض إرادته فسيستبدل بلا شك مستقبله لأن بعمله هذا قد سبب نتيجة أخرى أوجدها وهذا هو السبب في أن نبوءتي قد لا تتحقق، ومن الحق أن يقال إنه إذا ألممنا بكل الظروف التي تحيط بالإنسان يمكننا أن نبني صورة لمستقبله تبعاً لها، ولكن هذه صورة لا يتاح إلا لقليل أن يراها لأنها قد تؤثر في عمل الإنسان فمثلاً إذا كان هناك إنسان لديه الكثير من الطيبات سيحصدها ويرى مستقبله صافياً ويحسب نفسه آمنا في مستقبله، وقد يسمح له هذا الشعور بالأمن أن يدع الشوك والنباتات البرية تنمو في حقله فتفسد زرعه، وزارع آخر يرى مجاعة في مستقبله فيهجر سنابل قليلة من القمح، وعليك ألا تفكري في مستقبلك بل فكري أن تشكليه حسب حاضرك الذي تعيشين فيه وابذري في حاضرك الحب الذي تودين أن تجني ثماره في مستقبلك.

الفصل السابع عشر

الأرملة

وذات يوم بينما أنا أخترق حقول الفول عائدة إلى المعبد رأيت امرأة تسير نحوي في نفس الطريق وكانت تحدق ببصرها أمامها وكأنها عمياء وقد عم الأسى أسارير وجهها فبدا وكأنه قناع من الأحزان والشجن. فسألتها عما إذا كانت تستطيع أن تدلني على منزل "كتشت" ناسج الكتان وكان هدفي أن أذهب عنها وحدتها، فقالت إنه يمكنها أن تصحبني إلى بيته، وأثناء سيرنا سوياً دعوت الإله "بتاح" أن يمكنني من أن أسري عن نفسها وأخفف من حزنها وذلك بأن تخبرني عما ألم بها، وتحدثت تلك المرأة وكأنها تحدث نفسها قائلة "في الأسبوع الماضي فقط كنت أسعد امرأة في أرض "كام" أما الآن فأنا أبأس من على الأرض طرا فقد تعارفت أنا وزوجي منذ طفولتنا لأن أبوينا كانا إخوة، ولما بلغت الخامسة عشرة من عمري وبلغ هو السابعة عشرة تزوجنا وكنا متلازمين، ومنذ خمس سنوات رزقنا بغلام وكنا نحن الثلاثة سعداء وعشنا أياماً هنيئة، وكان زوجي صياد أسماك وكثيراً ما أخذ ابننا معه في قاربه، وفي يوم عاصف انقلب بهما القارب، ولما دفعت العاصفة المركب إلى الشاطئ وجدنا جثتيهما مشتبكتين في خيوط الشباك.

لماذا قدر لي أن أعيش وحيدة في هذا الحزن؟ فقد تحطمت حياتي، ولماذا لم يتبدل الكون، لماذا أرى الشمس وأسمع الطيور رغم أن قلبي وحبي

وحياتي قد دفنت في الأرض وفقدت إلى الأبد؟ ولماذا تنزل الآلهة بي مثل هذا العذاب؟ وكيف يمكن لهذه الأصنام أن تكون قاسية بلا رحمة؟ فقلت لها: "إذا أغمضت عينيك فلن تزول الشمس من السماء بل ستظل أشعتها تدفئك، إنك أن تري زوجك وولدك الحبيبين إلى نفسك لفترة قصيرة في هذا العالم رغم أنهما بجانبك فإذا نمت فستكونين معهما" فقالت المرأة "إنه من السهل أن تقولي مثل هذا الكلام.. ولماذا يجب علي أن أصدق هذا الكلام؟ إني أراك تتحدثين كالكهنة رغم أنك فتاة أصغر مني سناً..

لا تصدقي أبداً من يحدثك عن ضآلة شأن الموت والاستخفاف به، لو فرضنا أنني صدقت ما تقوله الكهنة فما الفائدة التي أجنيها؟ فإني لا أرى شيئاً في منامي إن النوم في نظري نوع من العدم وكذلك الموت إنه نهاية الشعور ونهاية الآمال.. فقلت لها "ولكن إذا أمكنك أن تتذكري حياتك حيناً بعد النوم.. تذكريها بوضوح أكثر مما فعلت بالأمس ألا يريك هذا مبلغ الصدق فيما يقوله الكهنة" فقالت "من السهل أن تقولي ذلك إنك تطلبين مني أن أعتقد أن زوجي حي إذا رأيته متجهاً إلي في هذا الطريق أسمع صوته وأحس بيده في يدي، إن هذا مستحيل فلماذا تعذبينني بالتفكير في أشباح وأحلام لا وجود لها. فقلت لها

"هل لك أن تعملي شيئاً واحداً من أجلي وتعمليه بإخلاص من قلبك؟ قبل أن تنامي فكري في زوجك وابنك لا كما رأيتهما جثتين هامدتين ولكن فكري فيهما حينما كانا على قيد الحياة، فكري في تلك الأشياء السعيدة التي أديتموها سوياً... فكري في صوت ضحكات ابنك،

فكري في زوجك وهو يصلح الشباك في جلسته تحت الظلال وأنت بجانبه.. لا تحجبي نفسك عنه بأحزانك، وسأساعدك أنا على أن تتذكري أنك معه فإذا صحوت من نومك فستعرفين أنه حي، وإني لا أطلب منك أن تصدقي ما أقول بل سأقدم لك البرهان وستحكمين بنفسك، قابليني هنا غداً بعد ثلاث ساعات من بزوغ الفجر فسيكون عندي لك أخبار تريح فؤادك"

وكنت أعلم أنها لا تصدقني ولكنها وعدت أنها ستكون في انتظاري في الموعد المحدد.

وفي تلك الليلة أثناء نومي ذهبت إليها فوجدتها ما زالت أسيرة أحزانها ومقيدة في أغلال دموعها ورأيتها واقفة بجانب القارب المقلوب الذي دفعه الماء على ضفة النهر وقد تملكها الفزع حين رأت الجثتين مشتبكتين في الشباك تحت الماء، وبجانبها وقف زوجها وولدها يتوسلان إليها أن تتحدث إليهما كي يرياها أنهما أحياء وقد جاهدا في أن ينفذا من ضباب الحزن الذي يخيم عليها ويلفها بين طياته، فغمرت جسمها بشعاع من النور تلاشى معه شبح الموت من أمامها وانقشعت عنها تلك الغشاوة كما ينقشع الضباب أمام الشمس، وكانت كمن تصحو من سبات عميق فرأت زوجها وابنها فانفرجت أسارير وجهها وبدا عليها سرور أعظم من سرور الأعمى حين يسترجع بصره، فأخذتهم جميعاً إلى مكان يكسوه الحشيش النضر عند ضفاف النهر حيث تنمو الزهور والأشجار الباسقة ويسمعون خرير المياه وهي تندفع من الشلالات، وكأن هذا العالم يموج

بأشياء تشبه ما في عالم الأرض، ففي الأماكن التي عرفوا فيها السعادة كان الناس سيقابلون من أحبوهم من الموتى كما كانوا ينسون ساعات الوحدة بأيسر مما كان يتهيأ لهم في العالم الأرضي، بيد أنه ينبغي عليهم أن يعودوا من عالم الحقيقة هذا إلى العالم الأرضي كل يوم لفترة قصيرة تبدو أقصر مما إذا تركوا جانب الحبيب ليملأوا جرة ما من نهر يجري على مقربة من البيت، وقبل أن أتركها رسمت دائرة على وجهها وأخبرتها أنها عندما تعود إلى الأرض ستتذكر وأخرتها أننا عندما نتقابل في الغد سأوحى إليها بنفس الشيء حتى لا تظن أن ما رأته ما هو إلا حلم وليس بحقيقة..

وفي الصباح عندما قابلتها كادت تركع عند قدمي شكراً لي ولما عملت نفس العلامة على جبهتها بكت فرحاً وقالت: "لقد أخذت بيدي وأخرجتني من القبر ووهبتني الحياة وقبل ذلك كنت لا أثق مطلقاً فيما يقوله الكهنة ولكن لا حاجة إلى ذلك لأني أعلم الآن أن ما يقوله الكهنة صدق وسأعود كل يوم حتى أستطيع أن أقوم لغيري بمثل ما قمت أنت به نحوي".

الفصل الثامن عشر

هكسو ـ ديومنيس

خلال العام الأخير الذي قضيته في المعبد بدأ العمل في بناء بهوين للأعمدة، أمر (نياح) بإضافتها لمعبد (أتت). ولم تكن الجدران من قوالب اللبن تغطى بالطلاء، بل كانت من الحجارة تحفر عليها رسوم تبين حياة الناس في (كام) فثم صيادو الأسماك وهم يلقون شباكهم وصيادو الطيور في البرك والمستنقعات وصانعو الخمور وهم يعصرون العنب والرعاة مع قطعانهم.

وكان عليهم أن يحفروا الرسوم عميقة في الحجر حتى لا يمحوها مر السنين ولن تضم هذه النقوش عجلات فرعون أو حاملو الجزية إليه لأن نقوش المعابد لا تجمد إنساناً إذ لا فضل لشخص على أحر إلا بتقوى قلبه.

وكان المعماري الذي سيقيم هذه الأبنية ابناً لأحد نبلاء الدلتا واسمه "هكسو – ديومنيس" وكان لون شعره كلون النحاس المصقول وكانت عيناه صفراوين كعيني الأسد بهما بقع سوداء، وقد تطلب عمله أن يتردد كثيراً على المعبد لأنه كان يعد رسم البناء وتخطيط الرسوم بنفسه ويشرف على النقش على الحجارة، وكان له بيت قريب من المعبد فيه لفائف من

ورق البردي رسوم بعضها ملون وبعضها نقش بارز وتصميمات، وفي الفناء أقام نموذجاً للبناء الجديد من خشب النخيل والشمع المجفف وكان الغرض من هذا النموذج أن يلم كل الذين يعملون معه بفكرة عن البناء الذي سيشتركون في تشييده، وبعد تكوين هذه الفكرة عن البناء يتقن كل منهم عمله، وكان يقضي معظم وقت فراغه بجوار المستنقعات، وفي الحقول يرمم الحيوانات والطيور، وكثيراً ما تحدثت مع هذا الرجل وكنت أدعوه (ديو) لأني كنت أرغب أن أتعلم فن البناء حتى إذا أصبحت فرعون (كام) أمكنني أن أقيم المعابد والقصور الجديرة بأن تبين مراحل رحلتي في حكمي وحياتي.

وأحياناً كنت أخبره بالأشياء التي أراها حين أطرح جسدي وأنفصل عن هذا العالم ولما وجدته ينصت إلي كما ينصت الطفل إلى قصة جميلة، وكان يعتقد أن الناس تفنى أجسادهم وأن خلودهم في أولادهم أو ذكرياتهم في عقول غيرهم من الناس. وكان يتحدث عن الأطفال كما لو كان كل جيل يزيد في مقدار علم أبيه ومثل الآباء في ذلك كمثل شجرة تحمل كل موسم محصولاً من الفاكهة أكثر من الموسم السابق وتزهر بمزيد من الحرية على أغصانها التي زادت ثمراً وروح الطفل حسب فلسفته تبرز من عقل والديه وتحمل معها أفكار والديه المصقولة المهذبة ويرى الطفل الشمس أول مرة بعد أن يولد، أما الوالدان فيتمثل لهما خلودهما في أطفالهما، ومع أن (ديو) لم ير صورة منظمة من الحياة إلا أنه كان قانعاً بتلك الصورة التي كونها واعتقد أن ما أسرده عليه ما هو إلا نسج خيال جميل كما تضع

الخادمة فتاتاً من طعام أمام آلهة منزلها قبل أن تتناول طعامها، فأخبرته أن معتقداته هذه تدل على أنه نسي ماضيه وأنكر مستقبله بأكمله.

وبالنسبة "لديو" كان الزمن يمر سراعاً لدرجة أنه يكاد يسمع مرور الظلال الجارفة وهي تسرع عبر الرمال وكانت الحياة والزمن كل بمقدار، وحياته في هذا البحر المظلم من الفناء الدائم كقنديل من زيت له مدة وجيزة جداً ويجعله يرى ويشعر ويحيا فإذا فقد الزيت وهمد جسده فلن يتأثر بحر العدم الخصم بل يبقى هادئاً.

وقال "إن أعظم ما يصبو إليه إنسان هو أن تخرج صورة بناء كونها في عقله إلى عالم الوجود ثم يرى هذا البناء يشب الطفل نتيجة لعمله وجهده، وهكذا يخرجون من عقولهم شيئاً جميلاً يدوم مع الزمن حتى إذا عفى زمنهم وجاء المستقبل نظر غيرهم إلى أعمالهم وقالوا عنهم إن من بنى هذا يعلم كما أعلم أنا أن الجمال خالد والأجساد فانية".

لم أقابل في حياتي شخصاً له مثل هذه المعتقدات والأفكار سواء أكان من بين الأشرار أم الصالحين ولم يكن هو لا هذا ولا ذال وقد عرفت صغاراً لا يعرفون عن الشر أو الخير إلا أشياء بسيطة ولكن هذا الرجل قد خاض معترك الحياة واكتوى بنارها وصقلته تجاربها، ولذا لم أفهم علة هذا الجهل الغريب الذي يتخبط فيه وهذه الغشاوة التي غشيت بصره فحجبت عنه الحقيقة وقد حاولت أن أزيلها عنه بكل ما أوتيت من إرادة وذكاء وعقل وقلب، وكما أن الموسيقي الضرير يبعث بأنغام أعذب مما

يبعثها زميله المبصر الذي يمكنه أن يرى النجوم بعينيه كذلك قد يرى أولئك الذين يعيشون في هذا العالم الأرضي الجمال في الأشكال أكثر وضوحاً عندما تغمض أعين روحهم ويختم عليها.

كيف يعيش هؤلاء الناس وكيف يضحكون ويغنون ويشيدون بجمال النجوم كيف يعملون كل ذلك وهم يعتقدون أن كل يوم تشرق فيه الشمس عليهم يقربون من تلك الظلمة التي لا حد لها؟ لماذا يحاول هؤلاء الناس أن يعيشوا ويكدوا وهم يعتقدون أن نهر الحياة الذي لا حد له بركة راكدة؟ ولماذا وهم لا يرون الحياة ونظامها لا يثورون ضد هذه الجهالة التي تبعد عنهم الآلهة؟ والعلة في ذلك هو أنهم يعتقدون أنهم ما هم إلا ذرات رماد في عاصفة هوجاء تثيرها قوى غاشمة تؤدي بهم إلى فناء وعدم لا نظام فيهما.

الفصل التاسع عشر

حلم عن ميناوس

وأحياناً كان يقص على (ديو) أساطير عن وطنه (ميناوس) وهي جزيرة في بحر الشمال وكانت حكومتها ملكية وقص على كيف تعيش آلهتهم في النجوم، وإذا قصر إنسان في تقديم القرابين لهم ضربوه بقضيب من برق، وكانوا يعبدون العجول في بلادهم ويعللون ذلك بأن الأطفال تموت إذا لم يتوفر لها اللبن، وإذا انقرضت الأطفال انقرض الجنس البشري تبعاً لذلك، ويأتينا اللبن من البقرة ولا يمكن للبقرة أن تدر لبناً إلا إذا لقحها عجل فتحمل منه، ويتصارع هؤلاء القوم مع العجول المقدسة وكانوا يقفزون بين قرونها الحادة فيهتف لهم النظارة إذ يرون بشراً فانياً يتفوق على إله.

ولكي أدرك ما في قلب (ديو) زرت "منواس" في أحلامي، بلدة ميناوس تفوق "كام" في حضرتها وتكثر بها الكروم حتى تمتد إلى البحر، وكانت تقام حفلات رائعة في معابدهم ولكنها كانت قناعاً يخفي وجهاً لا وجود به، وآلهتهم ما هي إلا دمى من الحجر نرمز لأشياء لا وجود لها، وتدوي الموسيقى في معابدهم بحيث يسمعها الأصم، وتنبعث منها الرائحة الزكية القوية حتى يشمها من فقد حاسة الشم، ويتلمسون الصدق من شفاه أصنام قدت من حجر، ويسرفون في تزيين أنفسهم بالورد والزهور

لأعين لا تراها ومن هذه الأشياء ذات الحجوم المحدود يقيم الناس آثاراً رائعة الجمال إلا أنه إذا لم يأتهم العلم اليقين منها أصبحت مبانيهم أشبه ببهو خرب ترتع في أرضها المهدمة السحالي وتتشقق مذابحها تحت السماء.

ولا يوجد بهذه المعابد حالمون بالمعنى الصحيح، ولكن الكهنة تقطر جرعات من أعشاب بها بذور الخشخاش ويعطونها لأي شخص يأتي إلى المعبد ويمكنه أن يدفع ثمنها، ومن يتعاطاها يرى أحلاماً غريبة لأن هذا الشراب يفتح عين الروح لأماكن قد لا تود رؤيتها، وبعد ذلك يصحو النائم ويسرد حلمه للكهنة، وحيث إن هؤلاء الكهنة قوم ذوو فطنة وخبرة وعلم بأمور الدنيا بيد أنهم تنقصهم الحكمة الحقة تراهم يفسرون هذه الأحلام ويقولون إن لها معان خافية ويحورون ما رآه الحالم وما هو إلا هذيان محموم حتى يعتقد الحاكم المسكين أن ما رأى هو رسالة من عند الآلهة، وفي أحد معابدهم ويسمى معبد براكسيتلاريس (PRAXITLARES) كان الكاهن الأعظم ضئيل في روحه ضعيف أمام شهواته وكانت كهنة هذا البلد رهباناً لا يتزوجون وكذلك الحال مع كاهناتهم إذ يعتقدون أن حفظ بكارتهن أهم من فتح الطريق لأزواجهن.

ولقد كان في المعبد تمثال مجوف، وفي الحجرة السرية التي تقع تحت هذا التمثال يختفي الكاهن الأعظم ومنها يدوي صوته فيبدوا كأن التمثال يتحدث، وكان الناس يخشون له كأنه وحي من عند الآلهة، وكانت للعذارى أيام خاصة يأممن فيها المعبد ويطلبن من الإله أن يصف لهن الرجال الذين يمكن لهن أن يتخذن منهم أحباء أو أزواجاً ويغطين قاعدة التمثال بباقات

الزهور ففي هذا التمثال تتجسم أمانيهن فكان يمثل شاباً مفرط الجمال له أنف مستقيم وشفتان كالقوس وشعر مسترسل في حلقات.

وفي يوم من الأيام والعذارى منحنيات أمام التمثال ينبعث صوت الكاهن من التمثال قائلاً:

"أنا إله، إلا أني أحياناً يغريني جمالكن فأهبط إلى الأرض، وإذا أتيت إليكن في صورتي الإلهية الحقة فستموتن ميتة المحترق بالنار، كذلك لا يمكنني أن أتخذ شكل الإنسان الخارجي فإن فعلت ذلك فكأني غطيت ذهباً بقاذورات ولذلك سأتخذ لنفسي شكل أوزة عراقية وسأزور عشرة منكن اللاتي أعتبرهن أكثركن جمالاً لأزيدهن جمالاً فإذا رآهن الرجال اعتقدوا من فرط جمالهن أنهم يرون إلهات يمشين على الأرض، وسيركع أمامكن أعز الرجال كرامة ليطلبوا الزواج منكن، فإذا جن الليل وكان القمر محاقاً ستتسللن خفية إلى الهيكل الثالث وراء المعبد ويتدخل كل منكن بمفردها وعندئذ ستشعر كل واحدة بجناحي يرفرف على وجهها، ولها أن تحتفظ بريشة منه. فإذا امتازت واحدة منكن ببريق من إلوهية عن غيرها من البشر الفاني فستشعر بالإله تحت الأوزة لأني سأبدو لها في الظلام في أقدس صورة وأتخذ لنفسي شكل إنسان. وحذار أن تنبس واحدة منكن بكلمة عن هذا وإلا أفسدت رسالة الآلهة بنقلها إلى غيرها من البشر.. وسأنتظركن الليلة وأنا في شكل أوزة عراقية وقد أظهر لواجدة منكن في شكل إنسان".

ثم عادت البنات إلى بيوتهن وقضت كل منهن اليوم في شغف وانشغلن بتدليك أجسامهن بالزيوت ذات الرائحة الزكية ولما عدن إلى المعبد في ظلمة الليل كانت قلوبهن تنبض فرحاً أملاً في هذا اللقاء، وانتظر الكاهن الأعظم في الهيكل الداخلي فإذا دخلت فتاة ألقى حولها عباءة بها ريش حتى تشعر وكأن أوزة ضمتها بين جناحيها وبينما هي راقدة على فراش من حرير ستعتقد أنها أصبحت إلهة قد بلغت مع إله ذروة النعمة حيث تنسى ماضيها ومستقبلها في تلك النيران التي تثيرها ضمات الريش.

وبعد ذلك تخرج كل واحدة منهن من باب سري فتجد نفسها بمفردها على جانب الجبل وفي يدها ريشة واحدة من ريش الأوزة إلا واحدة منهن بدت حالمة إذا اعتقدت أنها فاقت زميلاتها جمالاً وفتنة.

الفصل العشرون

الإلهة العمياء

كان "ديو" يشرف على معبد خصص لإلهة الحق ولكنه لم يتمكن من رؤيتها وهي تمشي في أبهاء المعبد أو يسمع صوتها في هياكل المعبد الهادئة، ومع أني عجزت عن أن ألقنه شيئاً مما أعرف إلا أني تعلمت منه الكثير من شئون الدنيا، إذ بين لي أنه رغم أن الطير قد نقش من حجر إلا أن أجنحته تبدو دافئة إذا لمسناها بيدنا، وإذ أقمنا تمثالاً لجحش صغير وجدنا فيه رعونة الشباب وقد بين على أفريز يمثل الصيد عضلات فهد صغير تتحرك برشاقة تحت جلده، وأراني كذلك أن ظبية فاجأها الصياد وهي تشرب فوقفت جامدة في مكانها من الخوف، وأراني كذلك أن وضعاً لراقصة قد عفى عليها الموت مدة طويلة، وأن سمكة قد تتجمد وتموت إذا تحجرت إلا أن نعومتها تبقى آلاف السنين.

وبينما أرقب "ديو" يوماً من الأيام وهو ينقش إفريزاً يبين عليه بعضاً من صيادي السمك وهو يجذبون شباكهم المحملة بالأسماك تمنيت في قرارة نفسي أني إذا أصبحت فرعون لمصر فإني سأخرج ما في أفكار "ديو" إلى هذا العالم، وسأبعث رسلاً لتأتي إلي بالكتاب والصناع الذين يشكلون الأحجار، أحضرهم جميعاً إلى "من – أتت – إس" وستكون منشآتي من الجرانيت كما أنشأ غيري من الصلصال والطوب، وسترتفع الأعمدة التي

أبنيها فوق رءوس البشر كما ترتفع سيقان القمح فوق جرذان الغيط وسيعمل هؤلاء الصناع في الحجر بدقة كما يعمل الصياغ في الذهب، وسيكتب الكتاب على الجدران حتى تتمتع العين كما يتمتع القلب برسالتهم، وستطلى الجدران وتنقض حتى تصبح كالمرايا تعكس جمال "الأرضين" أي الوجهين البحري والقبلي، ففي أحلامي زرت بلاداً كثيرة تقوم فيها معابد عظيمة ولكنها خلو من التعليم والتبشير، وفي معابد أخرى وجدت بها تعليماً ولكنه يقوم في مبان لا تسر العين، ولكن في أرض (كام) يشع النور من معابد جديرة أن يشع منها النور، وسيشع هذا النور دائماً حتى يصبح كنور يخرج من مشكاة من مرمر لا خدش فيها.

ورغبت في أن أخبر "ديو" بما سأفعله من أجله في المستقبل ولكني خشيت أنه إذا علم أن أخي فرعون وأني ولدت على كرسي الولادة الملكي أن يغلق قلبه نحوي وكنت آمل أنه سيأتي ذلك اليوم الذي ستتفتح فيه أبواب قلبه على مصراعيها وسأجملها رغم أني ألبس التاج الأبيض. وبينما أنا أرقب الحجر وهو يتحول في يده إلى أسماك أمسكت بها الشباك أخذت أفكر في الخالقين العظام وأخبرته عنهم وكيف يخلقون من لحم ودم ما يعمله هو من حجر. ولكني رأيت أن كلامي لم يحدث أي تأثير في أفكاره رغم ميله إلى أن ينصت إلى صوتي، فقلت له أتعتقد يا ديو أن "بتاح" لم يخلق الأرض وكيف تعلم النمل أن يبنى له مدناً في تلال ولماذا لا تعيش زهرة اللوتس إلا في الماء ولا تبرز زهرة الخشخاش إلا من بين القمح فقال "إن زهرة اللوتس هي سلالة نبات عاش منذ آلاف السنين في أرض رطبة، أما النباتات التي كانت في حاجة إلى الشمس ودفئها على جذورها فقد ماتت

ولذلك لا نعرف عنها شيئاً، أما زهور اللوتس فقد كيفت نفسها ودفعت بسيقانها الطويلة حتى تزدهر زهورها في الهواء. فقلت له أتظن أن النبات الذي ينمو بجوار الحائط يرسل أوراقه من تلقاء نفسه ليحمي برعومه من أشعة الشمس الحارة؟ أتنكر وجود الخالقين العظام وتعتقد أن الأشياء تخلف نفسها وتتبدل من تلقاء نفسها؟.. فقال "ديو" يجب أن يكون الأمر كذلك فقد سمعت أن في البلاد الشمالية تخلق الحيوانات لنفسها فراءً ثقيلاً في الشتاء لتحمي نفسها وأشياء أخرى كثيرة مثل هذا، فالذي يتكيف منها حسب ظروفه يعيش، أما ما عجز منها فإنه يموت وهكذا نرى ما ينجح منها في ذلك وننسى ما اندثر منها.

فقلت له هل تعتقد إذن أن النبات له إرادة أصح من إرادة امرأة من البشر لأنك تقول إن النبات يشكل أوراقه حسب مشيئته؟ فقد عرفت نساء يرغبن في أن يكون لهن شعر أحمر، ورغم شوقهن إلى ذلك مدى ثلاثين عاماً إلا أن شعرهن ما زال أسود لم يغير لونه إلا تحت تأثير الصباغة، إنك تتحدث عن الطبيعة وتعتقد أنها إلهة عمياء، وأنها توأم "للصدف" وأن التغيير الذي يحدث في شكل أي كائن حي لا يتم إلا على أيدي الخالقين. يروق لك أن تنكر وجود الآلهة ولكن رغم ذلك فإنك لا تنكرهم لأنك تسمي قدراتهم بأسماء هذا العالم إلا أنك تستر الحقيقة تحت ستار من التعقيدات البسيطة. إنك تعتقد أن نبات السوسن البري كان ينمو في قديم الزمان على الأرض حيث وجدت نباتات طويلة حجبت عنه ضوء الشمس فمد أغصانه المتسلقة ليحمي نفسه من الفناء في ظل هذه الأشجار. أتظن أن زهرة البنفسج هي التي صنعت رائحتها وأن السمك صنع هذا القشر

على جسده؟ هل تنتظر الحجر الذي في يديك يتشكل من تلقاء نفسه دون أن تعمل فيه بإزميلك الذي توجهه أفكارك؟ لماذا تعطي هذه الزهور والأسماك كل ذكاء وفطنة وقدرة على خلق هذا الجمال من تلقاء نفسها، أنت الذي تحب النظام وجمال التخطيط وتحب أن يوضع كل حجر في مكانه بإتقان لماذا تضفي الفوضى على هذا الكون وتحاول أن تجعل من هذا النظام البديع الذي يسير عليه هذا العالم حالة تشبه حالة مخمور يترنح في سيره في طريق يؤدي به إلى العدم؟.. فابتسم "ديو" وقال "لماذا يا سكيتا تفكرين دائماً في أشياء غريبة وعميقة، اتركي كل هذه الأفكار إلى أن تحتاجي إلى حرارتها إذا تقدمت بك السن ولفحك ريح بارد ينبعث من قبرك وقربت منيتك، لماذا تفسرين جمال شجرة الجميز وهي تلقى بظلها على الثرى؛ ماذا يهمك أنت فيمن خلقها أو لماذا خلقت، تمتعي بجمال الشمس المشرقة ولا تعتقدي أنها من الآلهة وفكري في النهر أنه مبعث الماء الصافي الذي تغتسلين به ولا تنظري إليه كرمز للأبدية، تمتعي وأنت في شبابك ولا تفكري في الماضي، كوني شاكرة للجمال الذي وهبت إياه ولا تقارنيه بحلم تظنين أنه يفوق هذا الجمال.. تمتعي بالموسيقى ولا تصغي إلى أصوات تأتي من النجوم فإذا تقدمت في السن فستؤنس الذكريات وحشتك في وحدتك، ولكنك الآن لست في حاجة إلى هذه الذكريات لأن الحاضر براق أمام عينيك وسيأتي يوم آخذك فيه من هذا البلد القديم حيث أصبح كل إنسان رزيناً وقوراً بما أوتي من حكمة، سآخذك إلى ميناوس حيث تشدو القلوب بأغاني الشباب.

الفصل الحادي والعشرون

"ديو"

لما رأيت التفكير في المستقبل سيغشى أيامي أبعدته عن ذاكرتي لأن زهور الحاضر كانت جميلة تحت قدمي. ولما صحوت في الصباح شعرت بقلبي مفعماً بالسرور لأني وجدت الشمس تشرق على الأرض التي جمعتني مع ديو. ولم أسأل "تحوت – ترا – داس" بعد ذلك أن يسرد لي قصصاً عن المناضلين العظام في سبيل النور أو عن حكمة القدماء بل سألته أن يقص علي قصصاً عن أولئك الذين عمر الحب قلوبهم وكانوا أقوياء في غرامهم حتى بلغوا فيه قوة الآلهة.

ومع أني و"ديو"لم نتحدث عن الحب إلا أننا عرفنا أنه كامن في قلبينا وكان يعلم أني لا يمكنني أن أترك المعبد إلا بعد تنصيبي كاهنة، وظن أني بعد ذلك أصبح حرة فأشاركه حياته، وكان جسدي يضم ثلاث شخصيات فكنت مشوقة لأن أصبح كاهنة حتى أغدو جديرة بأن أكون تلميذة لـ "ني – سي – رع" وكذلك كنت في شوق إلى أن أشارك "نياح" الحكم. ولكن عندما أكون مع "ديو" أشعر بالحاجة إلى الحرية حتى أستمتع بحياتي كزوجة له.

وكانت الساعات التي قضيناها معاً كحلم صاف لا تعكر صفوه شئون العالم ولا هموم الأيام، وذلك لأني ركزت أفكاري فيها حتى أبعد عني

ذلك الوجل الذي قد يفسد علي سعادتي، هذا الوجل من أن أقضي نحبي في أثناء قيامي بالتجارب القاسية التي يستلزمها تنصيبي كاهنة.

ولما حان وقت المراسيم عرفت أمي بفطنتها ما في قلبي نحو "ديو" فأرسلته إلى الجنوب في مأمورية تتطلب غيابه ستة أشهر يختار فيها حجارة جديدة لتماثيل المعبد ومع أني أسفت لبعده عني إلا أني ارتحت لبعده عن المعبد مدة تلك المراسيم.

وفي مساء رحيله أخبرني أنه سيعود بعد مرور ستة أشهر قمرية من الآن سنتقابل بجانب المستنقع حيث تعودنا السير في الماضي وعندئذ سيصبح حراً في أن يفصح لي عما يكنه قلبه.

وكنت في شك من أمري هل إذا عاد سيجدني ويضمني؟ أو سيجد جثتي في تابوت هامدة لا تحرك قلبها نغمات ولا يستروح نسيم الحياة برائحة المر والقار.

وبعد رحيله بمدة وجيزة أرسل "ديو" أبيات قصيدة شعر كتبها بالألوان على قرطاس من البردي:

أنا مثال فقد يديه

وبستان لا ماء فيه

أنا قارب شراعي في يوم لا هواء فيه

وطائر لا يستطيع تحريك جناحيه

أنا زهرة لوتس في بركة جف ماؤها

وقوس قد تحطمت خيوطه

أنا هيكل لا إله فيه

وسماء ليل لا نجوم فيه

لأني بعدت عنك في رحلة طويلة

دون أن تهبيني حبك وقلبك

وبعد ذلك أرسل إلي أبيات قصيدة فيها المعاني الآتية:

لقد زرعت البذور

ونمت الحبوب في الحقول

ورمى الصياد شباكه

وملأ السمك شباكه

وعصر الخمار الكرم

وملأ الخمر الجر

وطارت عصى الرماية في الهواء

وسقط الطير في يد الصياد

وطال الليل

وبزغ الفجر

وحميت شمس الظهيرة

وطالت الظلال في المساء

قد منحتك حبي....

فهل تبادلينني حباً بحب؟

الجزء الرابع

١– مقدمة مراسيم التدريب

٢– المعذبون

٣– ألسنة السوء

٤– الكاهن المزيف

٥– كنز على الأرض

٦– الحريصون على أنفسهم

٧– مقر الآلهة

٨– مكان السجلات

٩– مكان الجو

١٠– مكان النغم العذب

١١– مكان الأريج

١٢- حيث يستجاب الدعاء

١٣- المعلمون

١٤- أرض السلام

١٥- أشتاك

١٦- التجارب (المحن) السبع البكرى

١٧- المجنحة

الفصل الأول

مقدمة مراسيم التدريب

كان يقع مكان التدريب في الغرب من البحيرة العظمى في اتجاه "أمنتى" وقد بني هذا المكان من زمن بعيد قبل وقتنا هذا على شكل هرم مدرج من ثلاث مصاطب تمثل الجسد والنفس والروح. فإذا ضم هذا البناء شخصاً يريد أن يثبت شعلة روحه كانت تشعل النار في قمته. وتمتد من البحيرة قناة مائية من الحجر إلى المدخل حيث توجد فتحة تؤدي إلى حجرة التدشين التي كانت أشبه بتابوت ذي غطاء مدبب. وكانت تغلق هذه الفتحة بواسطة ثلاثة حجارة مدلاة كي يحكم غلقها كما تحكم القبور. وهذا رمز إلى أن من تجرى عليه هذه المراسيم يفرض فيه كأنما مات وولد من جديد مزوداً بالحكمة، وهذه الرمزية تصبح حقيقة واقعة لمن يعجزون عن تحمل هذه التجارب القاسية فيقضون نحبهم. ومن قدر له أن تمر به إجراءات التدريب يعبر في قارب مذهب يشبه قارب الموتى، ويتبعه موكب من القوارب كما في جنازة فرعون، فإذا عادت وأجنحتها ثابتة يصبح الموكب احتفالاً بعودة محارب عظيم من ساحة النصر، وعبور الماء في العودة إلى الوطن رمز إلى أن الشخص المجنح يعبر مياه النسيان.

مكثت والدتي معي في المعبد سبعة أيام قبل بدء مراسيم تدريبي وشاركتني حجرتي، وقضيت معها هذه الأيام في دعة وحديث عذب، وفي

الليل كان نومي مجدداً لنشاطي إذ تمكن "ني – سي – رع" بفضل ما أوتي من حكمة أن يمنعني من الإتيان بأية ذكرى حتى أقوى على تحمل التجارب القاسية، وفي صحوتي ونومي في المساء كان يبعث فيّ أحد الأطباء الشافين روح "بتاح" حتى لا يصيب جسدي أي أذى إذ علي أن أطرحه أربع ليال وأربعة أيام.

وفي آخر يوم لي نمت حتى الظهيرة، ثم ألبستني أمي ثوب كاهنة وكان من الكتان الأبيض ووضعت في وسطي منطقة من الذهب خاصة بمراسيم التدريب، وفي إصبعي وضعت تميمة محفور عليها العلامة الدالة على أني إحدى كاهنات "أنوبيس" فإذا قدر لي العودة إلى الحياة أصبح ملكي وإذا مت فسيكفنون جسمي لدفنه، ويحتفل بدفني احتفال الغزاة الذين ماتوا في ساحة القتال. ثم طلى وجهي بطبقة من الذهب وبدا كأنه قناع الموت، وعلى قدمي وضعوا خفين ذهبيين يلبسهما كل من يمكنه أن يعبر الصراط فيصل إلى الآلهة.

وبعد أن انتهوا من كل ذلك قبلتني أمي في جبيني وقالت إنها في انتظاري لترحب بي في عودتي منتصرة. ثم رقدت في نعش صنعت جوانبه على شكل اثنين من بنات آوي يمثلان "أنوبيس" وحمل هذا النعش أربعة من الكهنة واخترقوا طريقاً طويلاً وقف الناس على جانبيه. وسبق لي أن رأيت أناساً في طريقهم إلى مثل رحلتي وعرفت ما يجري حولي رغم أن عيني كانتا مغمضتين، وسطعت الشمس على جفني المقفلين وكان يجب ألا

يختلجا لأنه كيف يعتقد أولئك الذين يرقبونني أنني إحدى مرآة الآلهة إذا لم يخضع جسدي لإرادتي.

ولما وصلت إلى البحيرة وضع نعشي في قارب الموتى، وفي مقدمة هذا القارب رأس أنوبيس وفي مؤخرته قرد مذهب يمثل الإله "تحوت" يمسك الدفة، وبعد ذلك سمعت صوت المجاديف فعرفت أن القارب الذي في المقدمة قد غادر الشاطئ. وفكرت في كل ما قاله لي "ني – سي – رع" عما سأتحمله؛ فعلي أن أذهب إلى كهوف العالم السفلى وحيدة، وعلي أن أسدي النصيحة للذين لم يؤتوا شيئاً من العلم، وعلي أن أحملهم على الإنصات إلي، وعلي أن أصارع ماردا عند الطريق الذي يقع على يساري، أصارعه وحيدة دون مساعدة، وعلي أن أتحمل التجارب القاسية وفيها أرى جميع مخاوفي مجسدة في شكلها الحقيقي، وعلي أن أقف أمامها جميعاً بمفردي لا بحكمتي التي اكتسبتها وأنا بعيدة عن هذا العالم، ولكن أصارعها وأنا في قيود هذا العالم وما يعترض طريقي من أشياء يجب علي ألا أعتبرها وليدة إرادة أخرى بل علي أن أصلح من إرادتي في هذا العالم قبل أن أحمل لقب كاهنة من كاهنات "أنوبيس".

وكان الإله رع يرسل أشعته الطويلة قبل أن تقف أصوات المجاديف وقبل أن ألج الطريق المائي الأخير. وبعد ذلك رفع نعشي من القارب وسمعت وقع أقدام الكهنة وهم ينزلون إلى الفتحة وشعرت ببرودة الحجارة تتسرب إلى جسدي. ولما وضعوا النعش انتابني الفزع القديم الذي شعرت به في أول ليلة لي في المعبد، وكان هذا الفزع أشد منه آلاف المرات،

وبدأت شجاعتي تتزعزع وتضطرب كما تضطرب المشكاة حين يجف زيتها وتناوبتني رغبة في أن أصرخ قائلة إنه ليس في وسعي أن أواجه هذه الأخطار، ولكن الكبرياء – وهو أقوى درع للإنسان – أنقذتني من أن أخيب أمل "ني – سي – رع"

ثم سمعت حفيف أثواب الكهنة وهم يتركونني وحيدة، وبدأت تنزل الحجارة الواحد بعد الآخر لتغلق على قبري الذي امتلأ بصدى صوت نزولها وأصبحت وكأني في وسط دق طبول يصم الآذان.

وفي هذا السكون الذي خيم حولي عرفت أنه عليّ أن أكون في حالة الموت ولن يكون جسدي بعد اليوم ملاذي الذي ألجأ إليه عندما تكون قوى الشر أقوى من أن أتصدى لها، هل يستجيب لي جسدي مرة أخرى بنفس السهولة السابقة أو سيضمني وكأني أسيرة متمردة.. أو قدر علي أن أكون "حكت" التي فشلت ولم تمت وتجلس الآن في الفناء ضريرة بشفتين متدليتين مبللتين. وقد لازمني الخوف من هذا الظلام ولكني تخلصت منه بقوة إرادتي وبدا لي كأني أسمع تكسر عظامه... كان علي أن أفكر في أشياء هادئة وديعة حتى أبقى على هدوئي، فسأفكر في نيران المطبخ التي تبعث بدخانها هادئاً في غروب الشمس وسأفكر في الطيور وهي تترك نبات البوص في الصباح الهادئ الوديع حتى أسمع حفيف أجنحتها في هذا الهدوء.. سأفكر في الزهور وهي تفتح أوراقها لاستقبال صباح يوم جديد.. وسأفكر في الأطفال وهم يتنفسون في وداعة بجانب أمهاتهم وهم في سباتهم.. سأفكر في هؤلاء المحاربين وسيوفهم التي تتلألأ في النور الذي من

أجله يحاربون، وستقيني شجاعتهم من الخور والضعف وستهبني ذكراهم القوة والعزم، وسيكون حب أمي عباءة أتدثر في ثناياها.. وسأذكر حكمة أستاذي "ني – سي – رع" وستكون كلماته لي هادية كما تهدي النجوم المسافر في الصحراء في ظلمة الليل البهيم.

الفصل الثاني

المعذبون

وبعد ذلك ذهبت إلى كهوف العالم السفلي...

هنا كل العالم أجرب لا ينفذ إليه نور وفيه يسكن أولئك الذين يكفرون عن ذنوبهم التي زادت إلى حد لا يمكن خلاصهم منها في هذا العالم، وقد تكرر نهيهم عن أعمالهم التي تتنافى وشريعة الآلهة وذلك بأنهم جنوا مرارة حصاد ما بذروا. ولكنهم صموا آذانهم ولذا أصبحوا في الأغلال مقيدين، تلك الأغلال التي صنعوها لأنفسهم، ويسامون سوء العذاب ويقاسون من العذاب الذي أذاقوه غيرهم في الدنيا.

وذهبت أولاً إلى مكان المعذبين، وهنا رأيت رجالاً ممددين على إطارات عجلات كبيرة وقد قيدت أيديهم وأرجلهم بحبال تجرهم إلى الوراء وهم يصرخون من شدة الآلام، ويقوم على تعذيبهم عشرون من زملائهم، فإذا بلغ العذاب أقساه قام المعذب واشترك مع إخوانه في تعذيب غيره الذي يرقد مكانه وهم يعلمون أنهم موتى ويبدون في صورة الموت البشعة التي رسموها للموت في عقولهم فيظهر بعضهم في شكل هياكل من العظام، ويظهر الآخرون في عظام يغطيها قطع من لحم عفن والبعض الآخر تراه كجثث تقددت من حرارة الشمس ولا نسمع فيها أنيناً ولا صراخاً بل

تسمع فيها أزيز الحبال وهي تشد أوصالهم وصوت تكسر عظام أذرعهم حين تنتزع من مفاصلها.

وبين هؤلاء الرجال رأيت امرأة قد وصلت في ميدان العذاب إلى آخر مراحله وذلك كي تكفر عن ذنب قديم اقترفته. فقد كانت على رأس قبيلة من النساء المحاربات، وانضمت إليها لأن حبيبها قد هجرها، فلكي تنتقم من الرجال أمثاله لآلامها كانت إذا أخذت أسيراً في موقعة أو أسرت راعياً وهو يرعى قطيعه ربطت يديه في شجرة وقدميه في ثور ثم تأتي بعصاة بها أشواك وتضرب بها الثور حتى يجن من الألم ويقسم ظهر الرجل الذي ربطته بالشجرة.

ولما أخذت بيديها شعرت بخفيف عظامها النخرة ولما أخرجتها من جهنم عاد لها جمال شبابها كما كانت من ألف عام، والآن هي في سبات عميق ستبقى فيه حتى تولد ثانية بقلب مفعم بالرحمة يشعر بآلام الناس وأوجاعهم.

ثم اتجهت إلى رجل كان كاهناً للشر في بلد يسمونها "بيدو" وكان في معبده الذي تقدم فيه الضحايا برج على شكل مخروط انتزع عليه قلوب آلاف من العبيد وهم أحياء ثم يشقها بسكين وكان يشعر بدمائها وهي تنبض بين يديه.

ويرقد الآن عاري الجسد موثقا على مذبح يرقب شخصاً في صورته يقدمونه لشخص يبدو عليه الشر والسوء، ثم يشعر بالسكين تشق جسده

وتعمل في جلده خطاً أحمر وبينما تقطع هذه السكين في قلبه يشعر بأصابع ذات مخالب وأظفار تنتزع قلبه ويجرى عليه هذا العذاب عشرة آلاف مرة ويتبين من يعذبه وهو يعرف أنه "هو" فيظن فيه توأما قاسي القلب ولا يدري أنه يرى صورة نفسه وأن سبب عذابه هو قسوته.

ثم رأيت رجلاً كان زعيماً لقبيلة كبيرة في أرض تكثر فيها المستنقعات وكان الناس يخشونه ويخشون غضبه، إذ كان عقاب من يغضبه الموت في الماء، فيربطه إلى حجر ثقيل حتى يثقل وزنه ويلقيه في الماء الضحل في حافة المستنقع، وفي فمه بوصتان مجوفتان تبلغ سمك كل منهما عقلة الإبهام، وعن طريقهما يتنفس، وكل يوم يوضع بعض من الصلصال المبتل حتى تضيق فوهتا البوصتين فيجاهد في سبيل هواء يخفف به آلام رئتيه، وقد بقي بعضهم على هذا الحال ثلاثة أيام وأربع ليال قبل أن يقضوا نحبهم. ولما مات هذا الزعيم وضع جسده في تابوت من حجر وقبل دفنه ثار قومه الذين يكرهونه وحملوا تابوته ووضعوه حيث اعتاد أن يعذب الناس، وضعوه في ماء موحل وفي فمه بوصتان مجوفتان رغم اعتقادهم أنهم ينتقمون من دمية لا روح فيها.

ولكن رغم موته بقيت روحه ملازمة جسده وأصبحت تجاهد في سبيل الحصول على الهواء على حين كان جسده في نفس الوحل الذي وضع فيه غيره من الناس.

فتوجهت إليه وأخرجته من الماء وأخبرته أنه سيخلق من جديد في الأرض وسيكون صياد سمك على علم بالبحر والعمل فيه وسيتعلم – هو الذي قضى على الناس بالماء – أن يطعم آخرين بالأسماك من تلك المياه.

ثم توجهت إلى شخص من هؤلاء الحاقدين على الناس والذين يبحثون عن سبل العذاب ويمتعون أنفسهم بضروب القسوة التي يمارسونها في أجساد غيرهم. فرأيت أحدهم يعذب أول الأمر بأن انتزعت كل سنة من فكيه ثم انتزعت أظافره من أصابعه، ثم دلكت أجزاء أصابعه العارية من الأظافر في قماش خشن. ثم انتزع شعره من رأسه شعرة شعرة حتى بدا جلد رأسه وكأن حشرات لادغة قد أوسعته لدغاً ثم بدأت فقرات أصابعه تقطع فقرة فقرة وتوضع في زيت مغلي حتى لا ينزف دمه ثم شقت جفون عينيه كي تصبح مفتوحة دائماً فترى الفزع أمامها ولا تغمض ثم بدأت الفئران الجائعة تأكل في جسده وتسمن على حساب لحمه، وبدت له هذه الفئران في شكل صورة أولئك الأشخاص الذين سبق له أن انتزع جلدهم أحياء وسامهم من العذاب.

ثم رأيت شخصاً سبق أن ألقى بالناس في النار، وجعل من النار عدواً للبشر لا خادمة لهم تراه الآن ولا نار بجانبه فأصبح في بلاد بها برد قارس. ويتجول فيها عاري الجسد فوق ثلوج تقطع قدميه كأنها السكاكين الحادة. ويمسك البرد بعروقه ويرى أمامه نيراناً وسط خيام فيجري نحوها عسى أن يجد لنفسه دفئاً ولكنه حين يصل إليها تتحول إلى جليد مدلى.

ثم توجهت حيث رأيت حيوانات تتلوى من الألم، فرأيت هناك ثيراناً على جوانبها جراح ورأيت كلاباً تكاد تموت من الجوع وقد كسرت أضلاعها تحت ضربات قوية، ورأيت قرداً قطعت كفتاه وطائراً دون جناحين.

وبينما أنا أرقبها رأيت أناساً تنظر خلال عيونها ولكنهم سجنوا في أجسادها لأن أولئك القوم قد عاملوا تلك الحيوانات بقسوة ولم يعاملوها برأفة كمخلوقات مثلهم لها حق الحياة.

الفصل الثالث

ألسنة السوء

ثم قصدت مكان هؤلاء الناس ذوي الألسنة التي تقطر سما حيث يقاسون من نفس السم الزعاف الذي أذاقوه غيرهم من البشر، ولم يكن بينهم أولئك الذين يرسلون الحديث بجهالة أو دون تفكير بل اقتصر هذا المكان على أولئك الذين يفصحون عما في صدورهم من غل وحقد وكراهية.

ورأيت أولاً رجلاً ملقى على وجهه وعلى بطن قدمه تنهال ضربات مؤلمة من قضيب رفيع بسرعة تفوق سرعة الوعل في عدوه، وكان ذنبه أن سرق لؤلؤة ثمينة، وليخفي ما قدمت يداه اتهم خادمه بالسرقة، وكان نصيب الخادم الضرب حتى مات.

ثم رأيت امرأة كانت تعكر صفو كل من سكن معها في منزل واحد، فأصبحوا وكأن راحتهم مهددة بحشرات لاذعة، وتتعذب الآن بهجمات الزنابير عليها، فأصبحت يداها من كثرة لدغاتها أشبه بنسيج قدم البطة، وتبصر عيناها الضيقتان من بين جفون متورمة، وتورم لسانها بين شفتيها المشققتين، وتجمع الذباب على ذقنها.

وبعد ذلك رأيت رجلا كان إذا قابل أناساً في ضيق لا يخفف عنهم كربهم بل كان يخبرهم أنهم لا يستحقون عطفه لأن ما هم فيه من ضيق هو من صنع أنفسهم، ولم يواس إنساناً، هذا الرجل تراه الآن راقداً في صحراء لا ظلال فيها والشمس تسطع على جسده حتى تشقق جلده كما يتشقق الطمي قبل ورود الفيضان، ويرى أمامه نخيلاً تحيط بعين ماء بارد وفي ظلالها رجل أمامه جرتان في إحداهما مرهم يبرد جروحه فيذهب إلى هذا الرجل ويسأله أن يدهن جروحه بهذا المرهم، ولكنه بدلاً من ذلك يدهن جروحه مما تحويه الجرة الأخرى، وما تحتوي سوى ملح أجاج يلهب جروحه فكأنها ألسنة من نار، وبعد ذلك يدفع دفعاً على أن يتجول مرة أخرى تحت الشمس المحرقة فيمشي دون هداية أو رفيق ينشد الراحة فلا يجدها.

ثم رأيت أولئك الذين سخروا من الأطفال ومن قوم لم يجاروهم في الشتم. رأيتهم واقفين عراة الأجسام في السوق وقد فقدوا السيطرة على أيديهم وأرجلهم فتأتي بحركات تثير السخرية، ويلوثون أجسامهم بالوسخ حتى أصبحوا أضحوكة كل من مر بهم.

ثم رأيت رجلاً شق ألسنة أناس عرفوا سره مخافة أن يفضحوا أمره كما فضح هو غيره من الناس والآن نراه راقداً بجلده المتورم على صخر على حين يمر به الساقون فلا يخرج صوت من فيه يناديهم حتى يروي فمه الجاف لأنه أصيب بالبكم.

ثم رأيت رجلاً اعتاد أن يختفي في الظلام ليرى بعينيه أشياء حصاناً من أعين الناس، ولكنه لم يرع أن له حرمة في نظره ولذا كشف عنها. والآن تراه راقداً متصلباً على الأرض ويرى النسور تحلق فوقه فينقض أحدها وينتزع عينيه من مكانهما، فيصبح في ظلمة لا تستمر إلا فترة وجيزة ثم يرى تلك الطيور مرة أخرى فينقض عليه أحدها حاملاً إليه العمى في منقاره.

ثم رأيت المكان الذي يعذب فيه أولئك الذين خانوا أصدقاءهم الأوفياء، وتلك أكبر خطيئة يرتكبها الإنسان، لأن من يخون الصداقة كمن خان العهد، فسيرحل وحيداً في رحلته وسيكون رفيقه الخوف والوجل. ومثل هؤلاء كمثل أولئك الذين يسيرون في أرض مقفرة باردة وأمامهم طريق لا نهاية له يقع بين صخور مظلمة، ونباتات ذابلة وقفار لا نبت فيها ولا زرع، يغطيهم ستار كثيف من الضباب حيث لا شمس ولا نجوم تتألق من فوقهم، ووراءهم يسير شبح تتجسم فيه كل مخاوفهم، ورغم أنهم يسرعون الخطى في هذا المكان الموحش إلا أن أقدامهم لا تبرحه لأنها مثقلة مما علق بها من وحل لزج. وسيترددون فيه حتى يأتيهم من يشفق عليهم رغم أنهم لا يستحقون شفقة ولا عطفاً ولا صداقة فينشلهم من هذا المكان... وبذلك يكفرون عن ذنبهم حتى يحفظوا للناس عهودهم ووفاءهم.

الفصل الرابع

الكاهن المزيف

ثم زرت رجلاً كان من بين كهنة "أنوبيس" في المعبد الصغير "لأتلانتا" وكان الشخص الوحيد في المعبد الذي أوتي الرؤية الصادقة في هذا المعبد وكان يجب أن يشع منه النور، ولكنه جعل ذاكرته كليلة ففقد القدرة على تذكر ما يرى في منامه، إذ أصبح كمرآة علاها السناح لا تعكس أي ضوء. وتقاعس عن استعادة ما فقد من موهبة، فأبى عليه كبرياؤه أن يعترف بما ألم به من عجز وأخذ يسرد ما لا يتفق والحقيقة بل من نسج أفكاره العلمانية، ولما حان الوقت الذي سمع فيه الكهنة الحقيقيون عن نبوءة الطوفان وهلاك العالم لم يحط من أموا معبده بها علماً فهلكوا وكاهنهم المزيف في اليم.

وكان عقابه أنه عاش أكثر من ألفي عام وحيداً في معبد يتردد في ردهاته وقع أقدامه وفي هذا المعبد أصنام آلهة لا يعرف وجوهها، وتسمعه يدعوها رغم أنه يعلم أنها لا تسمع لأن آذانها قد أصيبت بالصمم ولأن قلوبها قدت من صخر إلا أنه ليس أمامه سواها. ويتوسل إلى تلك الآلهة أن يكون قد نجَّى شخصا واحدا وبقى حياً في تلك الأرض الخربة، ويأتي هذا الشخص إليه لأنه اعتقد أن العالم كله قد هلك نتيجة خطيئته. وكثيراً ما كان يقف على باب المعبد ينظر في السهل الذي لا نهاية له، ويرى طفلاً جميلاً يجري نحوه فيظن أن الآلهة قد استجابت لدعائه ولكن هذا الطفل

يحترق في يده بمجرد لمسة لأن يديه منصهرتان ويرى الطفل في يده أصبح تمثالاً صغيراً من خشب محترق، وأحياناً يرى شخصاً متجهاً نحوه في ثوب كاهن فإذا مد يديه ليصافحه رأى أنه يمسك في يديه عظام أولئك الذين ماتوا غرقاً في اليم من زمن بعيد، وأحياناً يرى أمه متجهة نحوه وعلى وجهها علامات الرحمة والحنان ولكنه بمجرد أن يلمسها تتحول في يده إلى نبات مائي ينساب منه الماء بين أصابعه، وأحياناً يرى زهوراً أمامه في الأرض الجرداء فإذا جرى نحوها تحولت إلى شعاب مرجانية دميت بسببها قدماه.

وعندما أتيت إلى هذا الرجل وقف أمامي ولم يجرؤ أن يمد يديه نحوي خشية أن أتحول إلى رماد بمجرد لمسه فوضعت يدي على كفيه فتهلل وجهه فقلت له: "قد حانت ساعتك وستعود إلى العالم مرة أخرى لتدرب ذاكرتك وسيستغرق ذلك منك خمسة مرات تحياها حتى تنال تلك الهبة على وجهها الأكمل، وكان من واجبك أن تنالها فيما فرط من زمن. أما وحدتك فقد انتهت، فبعد خمسة أشهر ستلدك أمك وستشعر بالطمأنينة والراحة بين ذراعيها وسيكون لك ثلاثة إخوة رفقاء لك في هذه الدنيا، وعندما تبلغ السابعة سيأتي رجل من أصحاب الرؤية إلى بيتك ويقول إن عليك أن تذهب إلى المعبد لتتدرب حين تبلغ الثانية عشرة من عمرك، وسيأتي ذلك الوقت الذي فيه تنتشر الحكمة بين الناس وستنتشر تعاليمك وعلمك في كلمات عذبة، وسيطلق الناس عليك لقب "الكاهن ذو اللسان الفضي".

الفصل الخامس

كنز على الأرض

ثم ذهبت إلى حيث أولئك الذين اتخذوا من ثرائهم إلهاً على الأرض فرأيت رجلاً كان يملك حقول كرم، وكان يمكن أن يجلب حب النبات السلام لقلبه، ولكنه ملأه بالقلق والوساوس فحبست روحه ولذا تراه الآن محبوساً في عقر داره وقد سد عليه نبات الكرم الذي كان يحبه.. سد عليه المسالك، فقد تسلك أغصانه حتى غطت الجدران وفتحات الأبواب والنوافذ، وزحفت على الأرض وحجبت أوراقه الشمس والنور حتى أصبح جو الحجرة أشبه بماء مظلم من شدة ضغط مياه البحر عليه. ولما زاد نموه ضايقه فروعه كما تضايق العلقة المسافر في الأحراش، فأخذ يصرخ ولكن صوته لم يسعفه إذ فقده فأصبح كسمكة لا صوت لها، وظن أن أفرع هذا النبات ستزحف نحوه حتى تطبق عليه كما أطبق حب الكروم على قلبه.

ولما كان على قيد الحياة في الدنيا لم يعرف له عدواً سوى الحشرات التي تصيب كرومه، ولم تكن السماء بالنسبة له إلا منظراً يراه خلال شكل أوراق أشجار العنب، والحياة بالنسبة له هي أن يرى الكروم تنمو، والموت أن يرى أغصانها تذبل. وقبل وفاته أوصى أن يدفن تحت شجرة الكرم الكبرى التي تسلقت جدار منزله حتى يكون جسده سماداً أو غذاءً لها، وكانت أشجاره هذه هي كل شيء لديه، هي أمه وأبوه... وأولاده...

وذووه وآلهته التي يعبدها، وكان يدعو لها بالنمو حتى لا يضارعها سواها في نموها في تاريخ هذا العالم. ولما مات استجابت الآلهة لدعائه.

ثم رأيت رجلاً ملأ بيته بالكنوز النادرة عندما كان حياً في هذا العالم، وكان يشعر بالغيرة إذا بدا جمالها للناس وارتاحوا له، ورغم ذلك كان يدعو الناس إلى منزله ليروها فيحسدونه عليها وكان يحب أن يرى أصابعهم تمر على كئوسه اعتقاداً منه أن الحسرة ستملأ قلوبهم عندما يرون أنهم يحتسون خمورهم من كئوس لا تدانيها كئوسهم، ثم كان يسمح لهم بالسير على أرض بيته المغطاة بخشب الأرز حتى تبدو لهم أرض بيوتهم كطمي مضروب في أكواخ صيادي الأسماك، ويسمح لهم كذلك أن يرقدوا بين الفهود المطلية بالذهب التي تزين أسرته حتى يبدو فراشهم المتواضع وكأنها أرائك من خشب عليها قش حقير.

وكان يسير في أرجاء منزله ويمر بيده على الخشب الثمين المصنوع منه أثاث منزله ويداعب رأس تماثيله الصغيرة المصنوعة من العاج كما يداعب رأس كلب من كلاب الصيد، وإذا رأى ذرة من تراب على مائدة أمر بضرب خادمه، وملكت عليه زينة بيته لبه وبصره فلم ير النجوم أو جمال الأشجار لأنه لا يشعر بجمال شيء إلا إذا اقتناه أولاً، واتخذ من منزله معبداً لا يؤمه إلا هو ومن مقتنياته ومما يملك آلهة يعبدها.

فلما وافته المنية لم يتيسر لروحه أن ترحل بعيداً عن جدران منزله، وأصبح عبداً لتلك الأشياء التي اقتناها في دنياه، فإذا رأى تمثالاً من العاج

بدا يتصدع فإنه لا يلتئم إلا إذا أخذها بين يديه، ويرى النمل الأبيض وقد أخذ يصيب أثاث منزله ولا ينقذها من التلف إلا إذا صقلها بقطعة من قماش ناعم، لذا تراه يجري هنا وهناك في أرجاء منزله كي ينقذ ما يملك من التحلل وتراه يشعر بالعطش ولكن كئوسه قد نضب خمرها، ويشعر بالجوع ولكن صحافه الذهبية فارغة ويشعر برغبة ملحة في النوم ولكنه لا يجرؤ على ذلك ظناً منه أنه إذا أتى الصبح تهشمت كل تلك الأشياء التي أحبها.

ولما ذهبت لأخفف عنه رأيته يكنس الغبار الذي غطى أرض حجرته المحبوبة وثار الغبار حوله في شكل سحابة خانقة ولم يلمع خشب الأرز إلا حيث وقف. ولما توجهت نحوه انقشع الغبار عنه وتراجع كما يتراجع الزبد عن شاطئ البحر، وانفتح أمامي طريق ممهد مصقول كأنه نور قمر على سطح البحر وقلت له: "قد بنيتَ على الأرض قبراً لروحك لا لجسدك وعشت فيه بروحك، والآن حان الوقت لإطلاق سراحك".

ثم أخذت بيده وأخرجته من سجنه الذي بنته يداه وأطلعته على الجزء من العالم الذي سيخلق فيه من جديد. وكان يطلق على هذا المكان "الجزيرة البيضاء" وذلك بسبب صخورها البيضاء التي تعالت فوق سطح الماء.

وأخبرته أنه لن يجد في هذا المكان ما يبعده عن الحقائق أو يذكره بالأشياء التي أحبها وكان قلبه متعطشاً إلى الحكمة إلا أنه كتم تعطشه

ونسبه إلى تعطش جسده، ولكي أهدئ من نفسه منحته ماء في كأس من فخار ولما ارتوى كسر الكأس خشية أن يتعلق به قلبه فيهواه.

الفصل السادس

الحريصون على أنفسهم

ثم توجهت إلى حيث يوجد أولئك الذين لم يدينوا لآلهة بحق عليهم، بل عبدوا صنماً أعمى يمثل التعسف والظلم وسموه "القدر" ولم يحكموا إرادتهم بل انساقوا وراء خيالهم.

وبينهم قوم يخافون الموت جوعاً، فبالرغم من أن أجرانهم ملآنة بالغلال، وبطونهم متخمة بالطعام إلا أنك تراهم هنا أشبه بالهياكل من شدة الجوع وحولهم جرار فارغة وآنية ماء مكسورة.

وهنا أناس آخرون سبق لهم أن أصيبوا في الدنيا بشيء من الحمى، ولكنهم هنا يقاسون آلام جميع الأمراض التي تنتاب الجسم التي سمعوا عنها، ويقضون لياليهم في بحر من العرق بسبب آلام خلقوها لأنفسهم.

وهنا نرى قوماً يخشون الموت في ساحة القتال رغم أن بلدهم تعيش في سلام ولو أن أجسامهم راقدة على فراشها في أمان في بيوتها إلى أنهم يشعرون بالسهام تصيبها وتهوى هراوات أعدائهم على رءوسهم.

وترى هنا قوماً سبق لهم في الدنيا أن ملكوا حقولاً أجادوا ريها، وأبقاراً سماناً يندفع اللبن من أثدائها، ولكن هنا في هذا المكان يديرون

أيديهم وهم يهيمون فوق حقولهم الجدباء القاحلة وهم يرون ماشيتهم السقيمة وهي تنفق.

ثم توجهت إليهم جميعاً وأخبرتهم أنهم قساة على أنفسهم ومثلهم كمثل كاتب قطع يده اليمنى أو بستاني أتلف أغنى نبات عنده، وأخبرتهم أنهم بسبب خوفهم خلقوا أشياء بعثت الفزع في قلوبهم فأبعدوا عن أنفسهم رحمة الآلهة وأقاموا بينهم وبينها حواجز من صنع أيديهم.

ولم يستمع لي إلا نفر قليل منهم، وتحدثت إلى واحد منهم كان يموت كل ليلة مرة وبقي على هذا المنوال زمناً. وكان جندياً حين كان على الأرض وكان في حامية "ناكش" وكان مرتحلاً في حملة في غابات الجنوب. وعرفت أن حول معسكره كمين من الأقزام، فطلبت منه أن يعود إلى الأرض، وأن يذهب على رأس جنده العشرين خلال واد ضيق متجهاً نحو النهر حيث يمكنهم أن يتفادوا هذا الكمين، ووضعت يدي على كتفيه وقلت له "ستكون لك الشجاعة التي تمنيتها، ولن تعود إلى أرض الظلام مرة أخرى وستكون في زمرة الشجعان" وهنا اطمأنت عيناه وزال عنه الفزع وتقمص جسده ثانية واختفى عن نظري. وعلمت أنه قبل غروب الشمس مرة أخرى على أرض "كام" سيحل موعد عودته إلى منفاه، وأنه عند موته سيجد أن عذابه من الميتات السابقة قد انتهى وسيسير راضي النفس قرير العين بلا وجل نحو النور.

ثم تحدثت إلى رجل كان يخشى الألم والمرض وأخبرته أن يكف عن التفكير في أمراضه، بل عليه أن يؤوي كل ضعيف أو مريض مر في طريقه، وعن طريق إغاثة كل من يستحق المعونة يصبح في زمرة أولئك الشجعان الذين يتحملون الآلام الدفينة دون ولولة بل يقابلونها بابتسامة الرضى.

ونهيت رجلاً ثريا – خاف يوماً ذا مسغبة – عن حراسة أجرانه خشية عليها، وأن يكون للفقراء حق معلوم في غلاله، وبذلك يشعر بنفس القناعة التي يشعر بها أولئك الذين أطعمهم من جوع، وسيعلم أن خيراً له أن ينام على القش والطوى ويجد النعيم حين يترك الدنيا بدلاً من أن يعيش في خوف من قحط يقض مضجعه.

وقد استمع لي هؤلاء الثلاثة إلا أن كثيراً أصموا آذانهم ولم يعملوا لاكتساب تلك الشجاعة التي تخلصهم وبقوا مع أولئك المحزونين والذين يعيشون في سجون بنوها لأنفسهم.

الفصل السابع

مقر الآلهة

وبعد ذلك رأيت أمامي البناء الشامخ العظيم بعمده، ومنه يشع النور كما لو كان من مرمر ينبعث منه لهب لا يخبو. وأمام هذا البناء أسدان كبيران تبدو أسود العالم بالنسبة لهما – سواء من حيث الحجم أو التوحش – كقطة صغيرة بجانب غضنفر مفترس، وكانا يشرفان على من عل بحيث كنت أبدو بالنسبة لهما كفأرة غيط. وكنت أعلم أنه يجب علي أن أسير نحوهما في هدوء واتزان، ويجب ألا أسرع الخطى لأنهما على بينة بما في قلبي الذي يجب أن تعمه الطمأنينة، وكان علي كذلك أن أستقيم في قوة دون وجل، وعندما سرت نحوهما صغر حجمهما حتى أصبحا في حجم الأسود العادية على الأرض، وعندما مررت بينهما انبطحا على الأرض في وداعة الأشبال التي كانت في فناء والدي.

ثم صعدت الدرجات وعبرت الشرفة ذات الأعمدة تحت العتبة الكبرى، ووقف أمامي حارس الباب فسألني أن أخبره عن المكتوب على تلك العتبة، فلما نظرت إليها لأول مرة كانت ملساء ناعمة ثم بدت عليها كتابة بحروف من نور وقرأتها "السلام والحق والحكمة وحدة واحدة ومنها يشع النور الذي لا يخبو ولا ينبعث منه أية ظلال".

ثم انفتحت الأبواب أمامي، فرأيت أشياء كثيرة عجيبة في نوعها ولكنها لم تبد غريبة، لقد رأيت أشياء كثيرة لم ترها عيني العلمانية ومع ذلك بدت هذه الأشياء مألوفة لديّ محببة إلى نفسي لأني في هذا المكان كنت كشجرة تعرف كل جزء وكل مرحلة من مراحل نموها على مر الزمان، بخلاف ما كنت عليه في العالم الأرضي إذ كنت كورقة شجر على أحد الأغصان، ثم دخلت قاعة كبيرة حيث جلس جمع كبير على مائدة طويلة بيضاء ناصعة كأنها حجر مصقول أو لؤلؤة لامعة أو عاج إلا أنها لا تشبه هذا ولا ذاك إذ كان ينبعث منها ضوء خافت، ويستطيع المراقبون إذا نظروا إليها أن يروا أي جزء من أجزاء العالم وكأنه يبدو في مرآة، وقد فاق هؤلاء المراقبون العظام كل مخلوق إلا أنهم كانوا في شكل إنسان وقد بدت على وجوههم حكمة الشيخوخة وجمال الشباب، ولم يكونوا رجالاً أو نساءً إلا أنهم أوتوا العلم والجمال والقوة وإدراك الرجل والمرأة مجتمعة في شخص واحد، وهنا كان يشع النور من كل شيء وكأن النور مادة حية.

الفصل الثامن

مقر السجلات

ثم عرجت إلى مكان السجلات حيث تأتي حفظة كفتى ميزان "تحوتي" بالناس الذين لا يقدرون أن ينفذوا في ماضيهم وهنا يعرضون عليهم الأمور التي تنعكس في مستقبلهم حتى يمكنهم وهم في الدنيا أن يوازنوا كفتي الميزان من تلقاء أنفسهم.

وكان المكان أشبه بقاعة كبيرة جدرانها بيضاء ناعمة، ولكنها تبدو أمام من يؤمها أشبه بمكان السجلات في الدنيا بالشكل الذي تحفظ به هذه السجلات في أوطانهم ولذلك تختلف حسب من يراها، فبعضهم يراها وكأنها مخزن فيه ألواح من الطمي، وتبدو السجلات للبعض الآخر كأنما نقشت على صحائف من ذهب أو كتبت في ألوان زاهية على قطع من جلد جميل، ويراها البعض الآخر كملفات من أوراق البردي أو كنقوش على جدران المعابد.

ومهما كان الشكل الذي يرونها فيه فإنهم يرون بين السجلات سجلاً يحمل أسماءهم الصحيحة ولا يتيسر لغير صاحبه أن يقرأه، وعندما يحملونه في أيديهم يرون ما يجب عليهم الإلمام به حتى يسرعوا نحو إتمام رحلتهم

الطويلة التي قدرت عليهم... يرونها كصورة في كأس الرؤية أو كذكريات في حلم إلا أنها أكثر وضوحاً.

ثم رأيت رجلاً هرماً من أرض التنين وفي يده لوح من حجر اليشب الأبيض وفي هذا اللوح رأى نفسه في حياته الأخيرة حين كان ابناً لبستاني وينحصر عمله في رعاية زهور سيده. وكان هذا الغلام يحزن حين تسقط أوراقها وتذبل وكان يتوق إلى أن يسجل جمالها على الحرير. فعرف عنه سيده ذلك وأخذه إلى منزله ودربه ليكون كاتباً، فأصبح الولد الآن رجلاً ثرياً يقتني في منزله تحفاً جميلة من اليشب والعاج والبرنز والصيني الأملس. أما الرجل الذي كان سيداً له وعطف عليه وصادقه فقد أصبح فقيراً يحصل على رزقه من كده في حقول الأرز. وفي الصباح سيقابله ذلك الرجل الذي قرأ من اللوح متجهان إلى المعبد وسيتحدثان معاً عن فلسفة هؤلاء القوم، وسيعودان إلى المنزل معاً وسيرى أحدهما أن زميله يلبس الموشى من الثياب والآخر يلبس جلباباً أزرق من القطن وستتجدد الصداقة بينهما.

ثم رأيت امرأة عاقراً، فشاهدت كيف كانت في الزمن الماضي حين كان لها طفل توفي وهو في السادسة من عمره وأنها في الصباح حين تمر في محفتها خلال الشوارع سترى غلاماً صغيراً يلعب في الثرى، ولو أنها لن تذكره إلا أنها ستشعر نحوه بالحنان في قلبها، وستوقف محفتها وتأخذ الطفل بين ذراعيها وعندما تعرف أن والديه قد توفيا، وأنه يعيش مع عم والده الذي يعمل صائغاً في الفضة وترى أن هذا العم راغب عن بقاء الطفل والإحسان له وتمنحه كيساً من ذهب وتأخذ الطفل معها، وسيشعر كل من

الطفل والمرأة بالسعادة وهما يعيشان معاً لأن ابنها الذي مات من مائتي عام عاد إليها وسكن بيتها.

ثم رأيت غلاماً عذب في حياته الأخيرة ليخون صديقاً ولكن جسده تغلب على إرادته ففاه بكلمات لا تتفق وضميره فشقى بسبب هذا طول أيامه لأنه عرف عن نفسه الجبن، والآن أصبح ابن راع للمعز في "ميناوس" وينعم بحياة سعيدة هادئة ناعمة نعومة حشيش المرعى الرطب الذي تطؤه قدماه ومع ذلك فإنه سيذهب إلى قاعة الثيران المقدسة حيث يتدرب على إخضاع جسده لإرادته كي يصبح هذا الجسد طبعا له دون وجل، وسيبقى بها حتى ترسم إلهة الشجاعة علامة على جبهته فيكون من أبنائها.

الفصل التاسع

مكان الجو

ثم عرجت على المكان الذي فيه يضبط جو الأرض ومناخها. وهنا حسب مشيئة السيد يدوي الرعد وترى الأرض وميض البرق وتهب العواصف الهوجاء عبر السماء فتجتث الأشجار والحشائش منذرة بني الإنسان بصوت العذاب في يد "وادن" وهنا الرياح الصرصر العاتية التي تثير مياه المحيطات وتجعلها تعلو كالجبال الشامخة وتزيد بعد أن كانت هادئة حتى تصل السماء وتحجب وجه "رع" عن عين الإنسان الفاني، كما أن هنا أيضاً منبع الهدوء تنبعث منه رياح الصيف الناعمة التي تهز تلك المساحات الشاسعة من الغلال التي نضجت، كما ينبعث منها ذلك النسيم العليل الذي ينساب في المساء مؤذناً بانبلاج قمر الصيف.

وهنا تتحول البحار إلى تلك الأمطار التي تهطل في لونها الفضي على الأرض فتحييها بعد موتها وتنساب مياهها في عيون وتنحدر من شلالات وتجري في نهيرات فتبعث الزهور والحشائش النضرة في الصحاري القاحلة. وهنا أيضاً ينتشر شراع السحب الثقال التي تغمر العالم بأمطارها الكئيبة. وهنا أيضاً ضباب الصباح الذي يحجب الأرض عن الشمس كأنه مظلة من أوراق الكرم وقت الظهيرة. وهنا الدرع البلوري من الجليد الذي يخفي تحت بياضه عيوب الأرض ويختفي تحته كل لون، ولكن إذا ما تسلطت الشمس

عليه ذاب فترى الأرض بعد أن كانت هامدة قد دبت فيها الحياة التي أوقفها الثلج تحته برهة قصيرة ما لبثت أن ربت بمجرد أن لمس "رِع" غطاء نعشها الأبيض بأشعته.

الفصل العاشر

مكان النغم العذب

ثم ذهبت إلى مكان كله أنغام فيه يتجمع النغم العذب، وفيه تسمع الآذان ما يشنفها، وشعرت وأنا في هذا المكان بانسجام الأنغام وتوافقها، وفيه تتجمع رغم تباينها في نغم جميل كما تتجمع مياه البحار والشلالات ورذاذ المياه المتطاير في بركة هادئة تحت ضوء القمر ولا نسمع على الأرض إلا صداها، ولكن هنا في هذا المكان تسمع للنجوم صوتاً جلياً في فضاء الليل تنشد في لمعانها أغان تنم عن عظمتها اللانهائية، كما نسمع أغاني النصر تتوهج توهج الشمس وهي تسير في زهو بنورها، ونسمع أنشودة الأمهات تبعث بها الكرى إلى جفون أطفالهن حلواً هادئاً هدوء الغسق المعطر الدفيء، وهنا تسمع تلك الأنغام التي يود قلب كل محب أن يبثها ويعبر بها عما في نفسه من هوى ونشوة متزايدة على أوتار فضية، وتبعث أنواعاً من الحبور والمسرة، أما دموع الشجن الحائرة فإنها تتجمع وتتركز فيها أحزان الدنيا، تسقط وتندفع في أنة مع مطر الصيف المنهمر في صفاء قطراته، وهنا مواكب من النغم الذي يملأ الفضاء وتنسج من أشكالها ويتألف من اجتماعها أشكال تعبر عن أنشودة عذبة شجية.

هنا المصدر الذي تنبعث منه كل أنغام الموسيقى ولا يصل منها إلى الأرض إلا قطرات فضية مبعثرة كما تتدفق نغمات من أوتار القيثارة أو

العود أو تغريد الطيور التي ينبعث من نبرات أصواتها في أثناء الليل فتثير أريج الزهور الناعسة.

ولا يؤم هذا المكان إلا الموسيقيون الذين يأتون إليه في منامهم ويدعون أن يحتفظوا بذكريات هذا المكان في صحوتهم، فإذا عادوا إلى الأرض سكبوا الدمع لضآلة النغم الذي يمكن لآلات البشر الموسيقية أن تبعثه، فمهما حاول الإنسان وأتى بآلات المزامير وأخذ يردد منها أنغاماً ليصل إلى الحد الذي يتمثل فيه هذه العظمة من الموسيقى كان مثله في ذلك مثل صياد نشر شباكه ليقتنص نور الشمس الذهبي.

فيا أيها الموسيقار: لا تأت إلى هذا المكان إن كنت عاقلاً وإلا تضرعت إلى الإله "بتاح" صارخا: "إلهي.. إذا عدت إلى العالم أصبني بالصمم حتى يمكنني أن أحتفظ لنفسي بذكريات ما سمعت عند زيارتي لهذا المكان في هدوء داخل نطاق جسدي".

الفصل الحادي عشر

مكان الأريج

ثم عرجت إلى حيث الأريج يجمع مقوماته وما يناسبه فهنا رائحة الورد الأحمر القاتم وحقول الفول الهادئة الناعسة وقت الأصيل، وضجعة الطبيعة وقت الخريف في الغابات الكثيفة، وعبير الأرض بعد حرثها عقب هطول الغيث عليها.

وهنا ينبعث دخان المطابخ الذي يدعو الناس إلى الاشتراك في الطعام فتعم بينهم المحبة، وتنبعث رائحة العيش أثناء خبزه، وأريج الزهور المتفتحة أثناء الليل وهي تنهل من أشعة القمر، وهنا تنبعث رائحة البرسيم مع طنين النحل وهدوء الطرق التي تكتنفها أشجار الليمون وعناق الزنبق في دلال واسترخاء، كما تنتشر رائحة الزهور التي تنمو على الجبال الشاهقة متحدية برودة الجو.

وهنا أيضاً تنبعث حرارة الزهور وقت الظهيرة ورائحة الماء وهو يجري فوق الصخور، ورائحة الكتان الأبيض ورائحة الجليد. كما تنبعث رائحة لفائف أوراق البردي بما تحويه من حكمة، ورائحة خشب الأرز والمر، ورائحة الناردين العطرية الساخنة التي تنشرها في الأرجاء كما تنبعث الأحلام التي لا يذكرها صاحبها بوضوح، كما تشعر برائحة قشر الليمون

القوية وتحس نشوة الولهان من عبير أشجار البرتقال، كذلك نحس برائحة ليالي الشتاء التي تبعث الحزن، وشذى زهرة الخزام الزرقاء الذي ينتشر في الآفاق معلناً قدوم الربيع.

هنا تشرح حاسة الشم القلوب، وتبعث فيها متعة تنسيها سحر الألوان وعذوبة النغم.

الفصل الثاني عشر

حيث الدعاء المستجاب

ثم عرجت على المكان حيث تستجاب فيه الدعوات ولو أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذها على الأرض. فهنا المكان الذي فيه ترى أولئك الناس الذين عاشوا في أرض سادت فيها المجاعة فتراهم يأكلون حتى يذهب عنهم الجوع بآلامه إلى غير رجعة وترى العطشى يطفئون ظمأهم من ماء عذب ينساب في قنوات باردة، وهنا نساء سبق أن بكين عقمهن يحملن أطفالاً يسندن رءوسهم على ثنيات مرافقهن فيجد الأطفال اليتامى الرعاية ويشعرون بالعطف والحنان.

وهنا يبصر الأعمى خلال أستار حجاب جفونه المقفلة، ويسمع الأصم نغمات الموسيقى العذبة، ويستمع لأصوات أصدقائه.

وهنا ينعم الأعرج الكسيح بالعدو السريع، ويجد الأكمه نفسه طليق اللسان، ويجد الأطفال دُماهم المهشمة قد أعيدت سيرتها الأولى، وتعود إليهم حيواناتهم المدللة بعد أن غابت عنهم، وهنا يغرس سكان الصحاري حدائق غناء وتشق الزهور أرضهم في ليلة واحدة وتراهم ينعمون بالراحة في ظلال الأشجار الوارفة التي غرستها أيديهم، وترى أولئك الذين فاجأهم الليل في غابة موحشة يجدون أنفسهم بين أصدقائهم، وأولئك الناس الذين

قضوا لياليهم في بحار عاصفة هائجة تراهم يهتزون في هدوء فوق بحار هادئة وسفنهم تمخر عباب المحيطات في ريح مواتية.

وهنا يرى المثال المسكين تمثاله يلوح أمامه لا خدش فيه بعد أن صنعه بأزميله البدائي، ويشعر الموسيقى بأوتار قيثارته تهتز تحت أصابعه كما تهتز حقول القمح في مهب الرياح الشمالية.

هنا تمحى الآلام وتعود سلاما ويتحول الخوف إلى طمأنينة، ويرى المحبون المنية أو بعد الشقة في الأرض لا تحول بينهم وبين أحبائهم لأنهم حقاً قد أصبحوا صحبة وعم قلوبهم الفرح والحبور.

الفصل الثالث عشر

المعلمون

ثم عرجت على مكان المعلمين، وهنا رأيتهم يتحدثون إلى قوم صغار في روحهم لم يدركوا حين كانوا على الأرض لماذا خلقوا على الأرض ولم يعلموا إلى أي أفق تتجه رحلتهم. ورأيت ساحلاً بجانب بحر قاتم الزرقة وأشجاراً من نخيل تختلف عما ألفناه في الدنيا، وبين أوراقها ثمار كبيرة الحجم لها جلد سميك خشن. ورأيت القوم يتمتعون بجمال الطلعة وتميل بشرتهم إلى الحمرة ولنسائهم شعر يسترسل حولهن فيغطيهن كأنه عباءة، ويزين هذا الشعر باقات من الزهور، ويتحدث للجميع رجل يلبس مثل لباس رجالهم ويعدونه مستشاراً لهم.. وكان يحدثهن وهو جالس تحت شجرة باسقة بجوارها ماء هادئ تسبح فيه أسماك مختلف ألوانها، فمنها القرمزي والبنفسجي والأخضر والذهبي، وتسبح هذه الأسماك في السطوح القريبة من البحر وكأنها طيور تطير في سماء زرقاء صافية في فصل الصيف، وكان يحدثهن عن جمال آخر سيجدنه وهن في قاربهن الذي سيحملهن ويبحرن فيه في مختلف أطوار حياتهم وأنواعها التي سيعشنها، وسيجتزن حدود هذا البحر وعندئذ ينسجن لأنفسهن أكاليل النصر من تلك الزهور التي تنمو فيما وراء عالمهن والتي ينعكس لونها على السحب عند غروب الشمس وقت الأصيل.

ثم ذهبت إلى جزيرة أخرى في المغرب حيث ترتفع الجبال ويكسو قممها الجليد وتناطح السحاب، ويعتقد الناس أنها مسكن الآلهة. وهنا رأيت كثيراً من أشجار اللوز بزهورها ورأيت أشجاراً أخرى تزدان بزهور بيضاء كالثلج. ورأيت المعلم وكأنه رجل قد أثقله كر السنين والأعوام في الأرض ولكن في جبينه هدوء وصفاء، ولون وجهه كلون العاج القاتم، ويلبس رداءً من حرير زعفراني اللون موشى بزهور من خيوط خضراء وفضية. وكان يعظ من حوله وهو جالس في الظلال الوارفة ألا يفكروا في جمال المعبد وعظمته ولا في سقفه المصنوع من الذهب أو أن التنين السماوي له أسنان من فضة، بل عليهم أن ينصتوا فقط إلى كلمات الحق، لأنه خير لهم أن يأكلوا الأرز من صحاف من خشب من أن يشربوا السم من كأس من يشب.

ثم ذهبت إلى مكان آخر في هذا العالم فرأيت شلالا شاهقاً تسمع خرير مائه وهو يندفع في مضيق من صخور حمراء اللون كلهب يرتفع إلى عنان السماء فتلاقيها وكأن ضوء الفجر يناجيها. وهنا أشجار لها أريج زكي كرائحة الصمغ الغالي الثمن أو أشجار العنبر حين تحترق فينتشر عبيرها، وتفصل هذه الأشجار مسافات منتظمة حتى بدت وكأنها الأعمدة. وتشبه وجوه الناس هناك وجوهنا على الأرض إلا أن شفاههم أرفع وبشرتهم نحاسية قاتمة، ويعيشون في كهوف، ويستخدمون الحراب في صيد الأسماك، ويطهون طعامهم على نار مكشوفة ولكن إذا مشوا فلهم مشية الملوك في كبريائهم، أما محاربوهم فيضعون ريشة قرمزية في شعرهم وترمز إلى معنى يختلف عما ترمز إليه في أرض "كام" إذ معناها هنا أنه شخص لا تنحني

هامته للخوف. وإذا أخفق أحدهم في أداء واجب نيط به فعليه أن ينزل في قارب صغير إلى الماء في الجنادل، فإذا نجح في إدارة قاربه بين صخور الجنادل التي يغطيها الزبد فإن قومه يحتفون به مرة أخرى، وإذا طغى عليه الماء وغرق فله مطلق الحرية في أن يلتحق بالصيادين العظام في عالمهم الروحي، وفي هذا المكان تهذب الشجاعة العلمانية حتى تصل أسمى مراتبها والاتصاف بها سهل يتحقق للإنسان عندما يتغلب على أية صعوبة تعترض سبيله، سواء أكان ذلك بأن يتسلق صخرة عارية أم يبارز آخر من قبيلة محاربة تتصف بالشجاعة، وذلك كي يتحكم الإنسان في جسده ويسيطر على إرادته قوة وصلابة، ويضع مدربهم ريشة صفراء ترمز إلى تلك الحكمة التي أوتيها فيما وراء هذا العالم ورغم عدم وجود كهنة بينهم كما هو الحال عندنا، إلا أننا يمكننا أن نسميهم بكهنة "أنوبيس" لأنهم يأتون بالحكمة إلى قومهم عن طريق الأحلام، وفي كل مرة يستعيدون ذاكرتهم ويهدون بها قومهم، ويلبسون ريشة أخرى، ولذلك يلبس من أوتي الحكمة مع وقرة السن أو من يعترفون له بالزعامة غطاء من ريش على رأسه يكاد يتدلى إلى الأرض. وقد كنت على بينة من هؤلاء إذ سبق لي أن عشت بينهم رغم مضى زمن طويل على ذلك.

ثم ذهبت إلى "الجزيرة البيضاء" حيث أوتي سكانها من الحكمة الشيء الكثير وهنا ينصت الكثير لمعلميهم لأنهم وهم على الأرض كان لهم معلمون اختلطوا بالناس في مكان يسمى "إ – في – بارو" حيث يدرب الكهنة على طريقة "أنوبيس" وكان حول معبدهم خندق كبير وجدرانه التي حوله بنيت من كتل من صخور لم تشذب وصلت ببعضها بقطع من خشب

وطمي ثم غطيت بطلاء أبيض، وكانت الناس ترمق هذا المعبد في شيء من الوجل ويقصدونه في أحلامهم ليتعلموا فيه ما يفيدهم وينفعهم. وهنا يحدد توالي فصول السنة بحدود تختلف عن تحديدنا له، وكان الوقت وقت القر وفيه الأرض هامدة وتحولت أوراق غاباتها الكثيفة التي تغطي التلال إلى لون درع نحاس كأن النار قد لفحتها فجفت الأشجار وأصبحت عارية وغطت تلك الأوراق مسالك الغابة لتحمي الأرض من الريح العاتية، وأخذت أرقب تغير الفصول، فرأيت أشجار الشتاء تتخذ أشكالاً في السماء معقدة ودقيقة لدرجة أن يعجز أي رسام أن يأتي بمثلها، ثم أتى عليها غشاء من خضرة بدأ يزحف عبر الوديان إلى الغابات ثم انتشر على الأغصان كأنه لسان من نار خضراء ثم نشرت الأشجار أوراقها الجديدة، وهكذا أتى الصيف بظلال من أغصان الشجر الوارفة. ورغم أن إلمامهم بالفنون ضئيل إلا أنهم يقدرون الجمال كما يرونه فبدلاً من القيثارة والعود لديهم طيور مغردة تحلق في الفضاء وتبدو كأنها تقف فوق نبرات صوتها التي ترتفع في تغريدها إلى السماء. ويأوي إلى هذا المكان أولئك الذين وجدوا طريقهم في الحياة محفوفاً بالمشاكل؛ فلا يجدون هنا ما يعكر عليهم صفو تفكيرهم، فلا معابد ولا أصنام ولا راقصات ولا خمور ولا ولائم في القصور، بل هنا بساطة مجردة، ويتعبدون لآلهتهم في خمائل من الأشجار ويرون آياتها في خلق الأغصان أكثر مما يرونها في أروع ما يصنعه المثال من تماثيل وأصنام.

ولا فواصل هنا بين الناس فلا فرق بين غني أو فقير أو بين أمير وخفير وذلك لأن أجلهم شأناً أكثرهم علماً ومعرفة. أما الشباب الذين لا يمكنهم أن يحصلوا العلم بأنفسهم فإنهم يتبعون هداية كهنتهم كما يتبع الأطفال إرشاد من يحبونه.

الفصل الرابع عشر

أرض السلام

ثم عرجت على سكان أرض السلام الذين يتمتعون بالسرور الذي غرسوا بذوره في العالم، وهنا رأيت أناساً عاشوا في أزمان مختلفة ومن أمم متباينة وقد وزنوا قلوبهم بميزان الصدق ونالوا حريتهم وانطلقوا في حرية يجتازون الطريق إلى "تحوتي".

وهنا بفضل ما أوتوا من نور صلاحهم يعرفون معنى السعادة التي تمنوها ويدفعهم ذلك إلى رغبة في الاستزادة وإلى شوق يملأ قلوبهم إلى إتمام رحلتهم بين النجوم. وهنا يستعيدون لحظات أيامهم السعيدة التي سبق أن عاشوها دون أن يشوبها قلق المستقبل أو تكدر صفوها أحزان الماضي بل تراهم في حلل أشبه بحليهم في أيامهم المجيدة.

وهنا قوم عاشوا على الأرض منذ عشرة آلاف سنة قبل سقوط "أتلانتا" وآخرون ينعمون في سلام قبل أن يقدر عليهم أن يمتشقوا سيوفهم. وهنا الجمال الذي يملأ خيال الرسام دون أن تربطه قيود من خشب أو طلاء، وهنا المعابد مسقفة بالذهب والعشب يعجز سكان أرض التنين في الأزمنة الغابرة أن يبنوا مثلها.

وهنا سفن شراعية تمخر عباب البحر الواسعة وقد ساعدتها رياح مواتية فرست على جزر الغرب التي تمنى الملاحون الذين مضى عليهم الزمن أن يروها، لأنهم حلموا بهوائها العطر وتبينوا أنه لا يوجد مثل هذا الجمال على الأرض. وهنا يمكن للسباحين أن يكشفوا أسرار البحار ويشاركوا الأسماك أعماقها في ضوئها الخافت ويبحثوا عن الجمال بين خمائل شعابها المرجانية. وهنا رجل تمنى أن يكون طائراً فتراه فوق الريح بجناحين ممدودتين ينافس الأوز العراقي في سرعته ويتوج شروق الشمس كالنسر في طيرانه.

وهنا رأيت قوماً لم يسبق لي معرفتهم على الأرض ولكن سبق لي أن جبت خلال أراضيهم وكان لي جسد كجسدهم وعرفت "أتلانتا" القديمة وما قبلها لأني عشت فيها، وهنا عرفتها كما لو كان علي أن أعود إليها بعد يقظتي من نومي هذا.

الفصل الخامس عشر

أشتاك

وبعد ذلك حاربت وحيدة ضد "أشتاك" الذي قاد أتباعه إلى سبيل "ست" منذ خمسة آلاف سنة. سبق أن كنا إخوة، ولكن عندما تقابلنا آخر مرة على الأرض كان كاهناً ذا نفوذ في الجزء الجنوبي من "أتلانتا" وكان يذكر صداقتنا القديمة، وكان يغريني بأن يمنحني أراض واسعة إذا اتبعت ملته، ولكني كنت على بينة من أنه يستخدم قوته ونفوذه لا في سبيل النور والهداية ولكن على النقيض من ذلك، ومن ثم لم أعره أذناً صاغية وانضممت إلى جماعة متجولة من الجنود كانوا يحمون الناس بحد سيوفهم من اضطهاد الكهنة. وقتل جسدي في إحدى المواقع وهو في مقتبل العمر ورغم أن عظامي ابيضت حيث سقط جسدي فإني قضيت نحبي وأصبحت روحي حرة.

ولما حاول "أشتاك" أن يغريني بأن ألتحق بجيشه قلت له سيأتي وقت أصبح فيه ذات نفوذ وعندئذ سأتحداه في مبارزة، وبفضل قوتي سأرغمه إلى العودة إلى النور. والآن حان الوقت لأبر بوعدي وأتحداه، فإن كان أقوى مني فسيموت جسدي وإذا انتصرت عليه أنقذت أتباعه وأخرجتهم من الظلمات إلى النور. فارتدينا كما كنا نرتدي على الأرض عند آخر مقابلة لنا، وكان قوياً في بنيته وعليه سمة الكبرياء، وكان في هامته المرفوعة كتمثال

ضخم من الجرانيت، وكانت بشرته في لون العنب الأزرق، وكان يلبس رداء أرجوانياً موشى برموز حمراء وسوداء، أما أنا فكنت في صورة شاب من قوم حمر البشرة ضاربة إلى السمرة وكنت ألبس رداءً أحمر يستر الجزء الأسفل من جسدي يلبسه المحاربون، وحول رأسي عصابة ذهبية يلبسها قائد الجند. وتصارعنا بإرادتنا لا برماحنا، ووقفنا بمفردنا فوق قمة جبل، وحيدين على جزيرة في بحر من الفناء تكسوه السحب، واصطف جيشه وراءه ليرقب زعيمه وهو يناضل من أجله. ورغم أنهم كانوا ألوفاً إلا أنهم بدوا أمامي كسحب قاتمة ينبعث منها الرعد، وكان من ورائي شعاع من نور قرمزي ينبثق من أعماق الفضاء.

وشعرت أني وحيدة في هذا الكون أحارب قوى الشر، فصوبت إرادتي وكأنها وميض برق ولكن عينيه صمدتا دون جزع. ونسيت الماضي والمستقبل ولم يتبق أمامي سوى الحاضر في نضالنا وظننت أن قدرتي على الاحتمال قد وصلت أقصاها، ولم اعرف آلهة ولا قوى أخرى إذ كنت وحيدة وكان على إرادتي أن ترفض الاستسلام لإرادته، ومرة أخرى أرسلت أشعة من نار لتقابل تحدي كمينية. وأخذ الوهج الأرجواني المنبعث منه يرتجف ويخبو وأخذ النور يخترق السحب المتجمعة من خلفه، وبعد جهد ترنح أمام موجات إرادتي وخر عند قدمي لا حول له ولا قوة. ثم رأيته كصبي صغير كما كان عندما كنا إخوة، وبدأ كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة وأني قضيت عليه ولو أني علمت أنه عاد إلى الدنيا حيث يتعلم التواضع وفي نوره الوهاج يتهذب صلفه وعندئذ سيصبح عظيماً بعد أن يخرج من الظلمة إلى النور. وقبل أن يختفي من أمامي أصدرت آخر أمر لأتباعه أن

يعودوا ويسلكوا الطريق الذي رسمته آلهة العالم لهم، وبذلك انحسرت السحب، ورأيت أمامي سهلاً فسيحاً يعبره جيش "اشتاك" الجرار سائراً نحو منفاه.

الفصل السادس عشر

التجارب السبع العظام

وبعد ذلك تحملت التجارب السبع العظام.

فلن أتمكن من أن أجتاز وأعبر بحار الزمن بحكمة اكتسبتها أو مما تجمع لدي من خبرات في رحلتي الطويلة، لأن في هذا الاختبار لإرادتي كنت مقيدة بحاضري مطوقة بحدود الدنيا وبما في قلبي من خوف.

رأيت أمامي مستنقعاً مترامي الأطراف به طمي يهتز وقد سد أعين وأنوف وأفواه أولئك الذين قضوا نحبهم غرقاً فيه من زمن بعيد، وقد برزت من سطحه الأدكن أذرع هياكل عظيمة برزت أصابعها المنقبضة في محاولتها اليائسة طلباً للنجاة، ويخرج منها فقاعات كريهة الرائحة تشق مساحة واسعة انبعثت من أنفاس أولئك الموتى الذين عمرتهم، وعلى سطح هذا المستنقع مجموعات من أعواد الغاب والبوص الذابلة كلما خطوت فوقها غاصت تحت قدمي وابتلعها الطمي، ولكني بفضل إرادتي تحكمت في خطاي فأصبحت خفيفة حتى كنت أنتقل من مجموعة من الغاب إلى الأخرى قبل أن تغوص في الطمي، وقد بدا المستنقع أمامي وكأنه يمتد إلى ما بعد مدى البصر وشعرت أن جهدي في السير عليه لا نهاية له، ثم شعرت بالأرض الثابتة تحت قدمي، فعرفت أني اجتزت التجربة الأولى بنجاح.

وبعد ذلك رأيت أمامي كهفاً في جانب الجبل يبدأ عنده طريق يؤدي إلى ظلمة كالحة تعمها الخفافيش التي تجمعت حولي بأجنحتها الجلدية يضيئها تفسفر خافت انبعث من أجساد متعفنة أفسدت الهواء القليل الموجود برائحتها الخانقة، أما فتحة الكهف فقد كانت منحدرة انحداراً سريعاً وأخذت في الضيق حتى اضطررت إلى الزحف ثم استلقيت ولم أتمكن إلا من جر جسدي جراً داخل الشق بين الصخور وذلك بغرس أصابعي في الصخر، وتقدمت في ظلمة أحلك من ظلمة القبر حتى خيل إلي أنه سيقبض علي في هذا المكان وأبقى إلى الأبد في مدفن في بطن جبل سيخر على الأرض فيسحق عظامي. وهنا توقف الوقت عن السير حتى بدا كأنه الدهر وقد توقف إلى الأبد، ووجدت طريقي مقفلاً يعترضه صخر ولكن بفضل إرادتي وعزيمتي دفعت يدي اليائستين في الصخر، وكادت أصابعي تتآكل حتى تصبح قطعاً من عظام مهمشة، وأخيراً انتزعت نفسي من هذا المكان إلى الحرية في الهواء الطلق، وهكذا انتصرت في التجربة الثانية.

ثم رأيت أمامي سهلاً من نار أظلم هواءه دخان متصاعد من لحم محترق، ومن بين أعمدة اللهب المتوهجة التي تطلب المزيد رأيت أجساداً متفتحة تتلوى من الألم. وحينما فكرت في تلك الآلام المبرحة التي يعانونها بدا لي كأن جلدي يتشقق تحت وطأة الحرارة وتبرز منه عظامي متفتحة في لحمي المملوء بالبثور، ورغم ذلك خضت هذه المجموعة من اللهب التي تلتهم كل ما يقابلها ولكنها انحسرت أمامي وخبت كما تخبو نار الأعشاب إذا اقتربت من مياه النهر. ثم تقدمت وسرت على طريق يغطيه رماد متوهج، ولكن لونه الأحمر لم يترك أثر الدماء على قدمي، وأخيراً شعرت

بريح باردة تهب علي وانقطع زفير النار من أذني وهكذا انتصرت في التجربة الثالثة.

وبعد ذلك وقفت على ضفة نهر واسع وعرفت أنه يجب على أن أعبره، ولما نظرت إليه وجدت الماء يعج بالتماسيح، وكنت على وشك الفرار فزعاً من هذا المكان لأني تذكرت كيف اختطفت تمساح رجلاً مرة أمامي وسمعته ينكسر بين فكيه كأنه غصن شجرة صغير، وسبحت هذه التماسيح على طول الضفة وهي ترقبني بعيونها ذات الجفون الثقيلة وكان الماء هادئاً اللهم إلا من تموجات أحدثتها التماسيح وهي تسبح نحوي كأسماك جائعة متلهفة لطعامها من الحشائش في بركة من البرك، ولكني أوقفتها جامدة في مكانها بقوة إرادتي وطفت التماسيح فوق الماء كأنها قطع من خشب فعبرت النهر على ظهرها الصلب وكانت التماسيح التي أمام عيني هادئة، أما تلك التي تركتها فقد أخذت تهز ذيولها وتضرب بها غضباً وهي تتبعني، وبينما أنا أشعر بأنفاسها المفزعة وصلت إلى الضفة الأخرى في أمان، وهنا عرفت أني انتصرت في التجربة الرابعة.

ثم رأيت أمامي طريقاً ضيقاً على جانبيه حملة سهام وقسي وبينهم جثث قتلاهم ترتعش من فرط ما أصابها من سهام، وآخرين يزحفون على أيديهم وأرجلهم من الآلام ملطخين الطريق بدمائهم، ورأيت أثناء سيري وسط هذا الأنين أنه إن أصابني سهم واحد واخترق جانبي فلا بد وأني سألقى مصرعي ويقضي جسدي العلماني نحبه. وكانت وقايتي الوحيدة ألا أبدي أي خوف، ولذلك سرت إلى الأمام بخطى متئدة وكانت تيارات

السهام حارة وهي تمرق بجوار خدي ولها طنين كطنين النحل الغاضب وهي تمر حولي. وسرت في هون في طريق الموت هذا إلى أن وجدت هواء ووجدت نفسي وحيدة فوق سهل يغطيه حشيش نضر وهكذا انتصرت في اجتياز التجربة الخامسة.

ثم رأيت صخرة هائلة تعلو فوقي وتناطح السحاب وكانت شهباء اللون أشبه بالكهوف التي لم تدخلها أشعة الشمس، وفي أسفلها أشكال ممسوخة مشوهة لأجسام مهمشة بسبب وقوعها من مرتفع شاهق، مزقت عظامها لحمها. وعرفت أنه علي أن أتسلق هذه الهوة التي امتدت فوقي كأنها حائط مصقول، ولكن عندما دققت النظر وجدت بها شقوقاً في سطحها الأملس حيث يمكنني أن أتعلق بأصابعي في جهد اليائس، وقد بدا جسدي أثقل من الصخر كلما جاهدت وتسلقت، فأحياناً ينهار الصخر تحت يدي وأبقى معلقة عليها بمفصل أصبعي، وقد امتدت عضلاتي حتى أصبحت كأوتار تنبعث منها آلام حادة، ولكن رغم كل ذلك أخذت أزحف صاعدة حتى تمزق جلدي وأصبح مهلهلاً على ذراعي وأمسكت أصابعي التي لم يبق عليها إلا إهاب على عظامي، ولما شعرت أن جذب الهوة تحتي سيتغلب على قوة إرادتي قمت بمحاولة أخيرة يائسة وصلت بفضلها إلى قمة هذا العائق ثم ارتميت ممددة الجسم على الأرض والسرور يملأ قلبي في هذه المرساة المباركة وإذا بجسدي خال من أي أثر لجراح، وهكذا انتصرت في اجتياز التجربة السادسة.

وكان أمامي بعد ذلك، الاختبار الأخير، وكان بالنسبة إلى أشق من كل ما مر علي لأنه فيه تتركز جميع مخاوفي، إذ رأيت أمامي حفرة كبيرة بها أفاعي وحيات تحيط بأفعى كوبرا هائلة قد انتصبت على لفات جسمها، وفي أرضية الحفرة حيات سامة تسعى هنا وهناك وتنسج بأجسامها وذيولها شكلاً للموت الزؤام، ورغم ذلك كان علي أن أعبر هذه اللفات المتصلة من الأفاعي وأسحق الكوبرا بين يدي، وكانت عيناها متوهجين ورأسها المفلطح الكبير يلمع بالقشر الذي نزلت في هذه الحفرة بين فحيح الحيات فانحسرت وتراجعت أمامي في أفواج كالموج الكريه، وأمسكت بالكوبرا بأسفل رأسها المتمايل وأمسكتها على بعد مني حتى لا تصيبني ضرباتها وقد تكررت محاولاتها عشرة آلاف مرة ثم عشرة آلاف مرة حتى خيل إلى أني كدت أستنفد عزيمتي وبدا لي الوقت كأنه الدهر وبدت الأرض باردة ولكن تحت وطأة الهجمة الأخيرة من غريمتي وقعت على طياتها وأصبحت أنا وجسدها الهامد في حفرة فارغة.

الفصل السابع عشر

المجنحة

وبعد ذلك امتلأ الهواء بأنغام الموسيقى، ولم أعد بعد ذلك في هذه الأرض الباردة الشهباء اللون، بل رأيت "ني – سي – رع" يغطيه شعاع من نور أصفر وعلى محياه علامات البشر وهو يقول "الآن قد أصبحت في زمرة المجنحين، وأصبحت حرة في الجيئة والروحة كما تشائين، وأن تمشي خلال كهوف العالم السفلي لتنيري السبيل لأهلها دون خوف، فقد سمعت النغم العذب في موطن الموسيقى ورأيت الجمال في موطن النور، وستسجلين كل ما رأيت حين تعودين إلى الأرض كي تنشرح قلوب شعبك، وستعرف قلوب المجرمين وأهل السوء معنى الخوف حتى يرجعوا عن غيهم ويجدوا طريق الهداية الذي يؤدي بهم إلى حيث انطلاق النجوم وحريتها. انشري جناحيك وامرقي برفق عائدة إلى الأرض كحمامة بيضاء تعود إلى وطنها حاملة رسالة أصحاب الأجنحة.

وبعد ذلك عدت إلى جسدي الذي رقد أربعة أيام وأربع ليال على تابوت من الحجر الجيري الأبيض في مكان التدريب قبل رسمي كاهنة، وشعرت بثقل جفوني على مآقي وكان جسدي بطئ الحركة لا يستجيب لإرادتي كأنه قام من مرض الحمى منهوك القوى، ولم أعد في ظلمة بل كان "تحوت – ترا – داس" ينتظر بجانبي ليسجل حديثي، وكان هناك مصباح

زيتي ينبعث منه ضوء يدفع عنه ظلمة المكان. وقد ازدحمت ذكريات ما رأيت في رأسي وكأنها مياه نهر متدفقة، ودعوت "بتاح" أن تكون هذه الذكريات صافية حتى أنقلها في كلمات واضحة صافية صفاء قطرات الفضة اللامعة.

وسردت على "تحوت – ترا – داس" ما رأيت من جمال يفوق كل ما نتصوره على الأرض، وعن الأنغام التي لا يمكن للأذن أن تسمعها في هذا العالم، وعن ألوان تفوق الشمس وبريقها عند الغروب وعن الهدوء والسكينة والطمأنينة التي تعم القلب وتملؤه بالسلام. كما قصصت عليه تلك المخاوف التي لم يتعودها هذا العالم، ولآلام التي فوق البشر ومن العبرات التي لا يمكن لعين بشر فإن أن يسكبها.

ولما انتهيت من سرد ذكرياتي هذه سمعت وقع أقدام تتجه نحونا من الفتحة، وكان القادم "ني – سي – رع" في ردائه العلماني، ولما رأيت البشر على وجهه تحققت من أني جديرة بأن أكون إحدى تلميذاته، وقبل أن يأمرني بالحركة سمح لي بالراحة، وأعطاني جرعة أعشاب ونبيذاً لأشرب وجاء طبيب بعث الحياة والنشاط في جسدي فأصبح ما تحملته من عذاب هيناً.

ثم أخذ "ني – سي – رع" بيدي كما أخذ بيد آخرين إلى مكان الراحة ورأيت خلال الفتحة نور الشمس وهي تسطع على أرض "كام" كأنه جدار من ذهب. وكان في انتظاري خلق كثير يرتدون ملابس الأعياد

وعلى رءوسهم أكاليل الزهور، وعلى جانبي الطريق الحجري المؤدي إلى الحجرة ألوية النصر بأعلامها المرفرفة وألوانها القرمزية الصفراء والخضراء.

وبعد ذلك أمسكت بدفة قارب الزمن، وتقدمت أسطولاً من القوارب عبر البحيرة كما يفعل المحاربون المظفرون عند عودتهم من ساحة القتال، وكان على سطح الماء حولنا زهور نضرة، وتنتشر في الجو أصوات شعبي وهم ينشدون أنشودة النصر لفرعون مجنح:

يحق لنا أن نبتهج..

لأننا مررنا في ليل أدهم

أما الآن فسماؤنا تتلألأ بالنجوم..

يحق لنا أن نبتهج..

لأننا نروي في أرض جدباء يغطيها ضباب أشهب اللون..

والآن يشرق علينا "رع" في عظمته

يحق لنا أن نبتهج..

لأن حراب أعدائنا قد ضيقت علينا الحصار وأحاطت بنا..

أما الآن فقد قهرنا الأعداء وننعم بالحرية

يحق لنا أن نبتهج..

لأن ألسنتنا كانت معقودة في كهوف لا صوت فيها..

أما الآن فإننا نشدو بالأغاني في أقصى الأعالي

يحق لنا أن نبتهج..

لأننا عشنا في خوف من مسبغة..

والآن أفراننا تخبز الخبز..

ويملأ النبيذ الجرار حتى فاض

يحق لنا أن نبتهج..

إذ سرنا على الحجارة والشوك..

ولكن الآن حضر إلينا حامل النعال..

وسيقودنا إلى المراعي النضرة الهادئة

يحق لنا أن نبتهج.

إذ كنا أطفالاً نبكي في الظلام.

أما الآن فالبشر يملأ جوانحنا..

لأن النور قد أنار ظلمتنا

يحق لنا أن نبتهج..

إذ كنا في ظلمة الأرض..

وأصبحنا الآن كالأشجار الباسقة

نسمع رسالة الحمام..

التي تعشش في أغصاننا

يحق لنا أن نبتهج..

إذ كنا عطشى..

ولكننا الآن ننهل من نهر الحياة..

يحق لنا أن نبتهج..

إذ كنا في وحدة..

والآن نحن الأشقاء الصغار لأب يحنو علينا بعطفه وحبه

يحق لنا أن نبتهج..

إذ كنا في خوف..

أما الآن فنعيش أقوياء في حماية سيف ماض.

يحق لنا أن نبتهج..

إذ كنا في ضلال في مفترق الطرق..

أما الآن فإننا نسير خلف "المجنحة" منطلقين نحو الحرية.

الجزء الخامس

١– زواج فرعون

٢– الحياة اليومية

٣– فرعون في الاستقبال

٤– السام

٥– الخراج

٦– عيد "من"

٧– ديو

٨– شريعة أرض "كام"

٩– حملة إلى بلاد "بنت"

١٠– الحلقة الذهبية

الفصل الأول

زواج فرعون

تبينت بعد أن تم تدريبي أني كنت أنظر إلى هذه الفترة من سنين طويلة كهوة سحيقة تعترض طريقي، والآن وقد اجتزت هذه الهوة على جسر بنيته بنفسي، والآن والخف الذهبي في قدمي يمكنني أن أستمر في رحلتي غير هيابة حتى ولو اعترضت الجبال طريقي.

وحدد موعد قراني بـ"نياح" بعد تدريبي بخمسة عشر يوماً، وفي مساء ذلك اليوم عدت إلى القصر. وفي تلك الليلة تحدثت إليه طويلاً وقد ابتهج قلبانا لأننا سنحكم معاً ونكون فرعونا واحداً، ومع أ كل واحد منا كان يحب الآخر إلا أن قراننا ما كان إلا رمزاً لحكمنا كفرعون واحد، واشتقت أحياناً إلى أن أكون كالنساء الأخريات اللائي لهن أزواج أقرب إليهن من أخ وهم آباء لأطفالهن، ثم سألت "نياح" إذا كان يفضل أن تكون بجانبه ملكة أن يشاركني الحكم سواك، فقد كنت أتطلع سنين إلى هذا اليوم الذي تجلسين فيه معي على العرش حتى نكون معاً كما كنا ونحن أطفال، فالحكم ضرب من ضروب الوحدة والعزلة – نعم إن لي رفقاء في الصيد، ومحاربين تحت قيادتي ومستشارين ووزراء، ولكنني بالنسبة لهم – مهما قربوا إلى – أنا فرعون، ولكن ليس هناك من حجاب بيني وبينك"

ورغم هذا الكلام تساءلت أليس هناك امرأة من النساء يهواها جسده وقلبه. وسألته هذا السؤال فأجاب "ألم تزوري مكان الحريم ورأيت زوجاتي الأقل مني قدراً، فهناك أربع زوجات ولي بنتان وولد، ورغم أني مغرم بزوجاتي فإني لا أميل إلى أن تجلس إحداهن على العرش، إذ يجب ألا تشارك فرعون الحكم إلا من يوازيه. ورغم أن "سكت" هي أم لابني وهي وديعة وعلى قدر كبير من الجمال لكني لا أعتمد على حكمها أو رؤيتها حتى ولو كان ذلك خاصاً بزينة خفي الذي في قدمي، بينما أنت يا أختي لا أخشى أن أترك لك حكم بلادي".

وتذكرت أني سبق أن رأيت "سكت" في عيد الإله "حوروس" وعرفت أنها تعيش في القصر ولكني لم أتبين أنها زوجة "نياح" وقد شعرت فجأة بأني غاضبة لأن ابن امرأة أخرى سيرث العرش بعدي فقلت له "لك أربعة أطفال من نسوة غيري، ماذا يكون لو كان لي ولد من رجل آخر" فعبس وجهه ولذلك كما كان يفعل حين يدعي أنه لا يدرك قولي وقال "أنت الزوجة الملكة، وإذا أنجبت ولداً فسيكون أول من يرث لأنه سيكون ابني بحكم الآلهة، ولكن إذا استمعت لصوت العقل فلن تدعي أن رجل يعاشرك معاشرة الأزواج وذلك لأن طبيعة النساء تجعلهن يملن إلى الخضوع إلى من يحببن حتى يصبح سيدهن، وفرعون لا يعترف إلا بالآلهة أسياداً عليه، وستجدين أن النساء حين يحملن سيقتصر تفكيرهن في حملهن وسيطغى ذلك على حكمتهن".

ولما رأى معارضة مني استرسل قائلاً "قد دربت نفسك طوال مدة عشر سنوات استعداداً للحكم ولذلك فمن خرق الرأي أن تطغى على حكمتك هذه الأمور التي تجعل حياة النساء لا تتعدى في أفقها إناء دهانهن، ولا يسيطرن إلا على مكان نومهن، وحتى هذا سيفقدنه في سيطرة الرجل عليهن، والأجدى بك يا سكيتا أن تحكمي من أن تضعي اللفائف حول طفل، وأن تجلسي على عرش تعلوه كفتا ميزان "تحوتي" خير من أن تكوني لرجل.

فقلت له: هذا كلام سهل عليك قوله، فأنت فرعون ولك أن تتخذ مائة امرأة ولكنك تأبى على أن أتخذ رجلاً واحداً.

فقال: ليس لدي مائة امرأة.. فليس لدي سوى أربع نسوة. واثنان منهن زوجان اسماً فقط فإحداهن تبلغ أحد عشر عاماً والأخرى تسعة، وهما ابنتا وزيرين، ولا أراهما إلا حين أمنحهما دمي وأتأكد أنهما سعيدتان في منزلي.

فقلت له: قد أنصت إلى حكمتك أو قد استرشد بنفس القوانين التي تسير عليها، لأنه ولو أني امرأتك رسمياً إلا أن لك زوجات أخريات وكما أشاركك العرش أشاركك نفس الحقوق التي تتمتع بها.

فقال: عليك أن تستفيدي من ذاكرتك التي دربتها فترة طويلة من الزمن لعلك تجدين سجلاً لك فيها يبين لك حماقة رأيك أكثر من أن يبينها الجدل معك.

ثم قال إن عليه أن يرحل لأن على أن أنام طويلاً تلك الليلة لأن مراسيم اليوم التالي ستكون متبعة لي. وقبل أن يذهب وضع يديه على كتفي، وبدأ كأنه على وشك أن يفضي بشيء في نفسه ولكنه ذهب دون أن ينبس ببنت شفة ولم أره قبل الاحتفالات.

وفي صباح ذلك اليوم الذي نصبت فيه فرعون تضرعت إلى الآلهة طويلاً أن يكون السوط والصولجان في يدي رمزين حقيقيين للعدل والرحمة، وعندما أحلف يمين فرعون أجد الكلمات المناسبة لتعبر عن أفكاري، وأن يكون كلامي وافياً وألا تجعل عقدة في لساني. وتحدثت إلى والدي بعيداً عن هذا العالم وعرفت أنه مسرور لتحقيق رغبته في أن أتولى الحكم مع أخي "نياح".

وكان ثوب عرسي من الكتان الرقيق يتدلى على قدمي وله طيات على ثديي وكتفي وعليه وشي لأشكال من النحل والبوص وزهور اللوتس، وعلى حافته سبعة صفوف من خيوط الذهب جعلته متفتحاً كالزهرة، ولبست قلادة الصدر ذات الأشعة الخمسة كل حبة فيها تتخذ شكل ورقة من أوراق الشجر رمزاً إلى حياة علمانية: فكان الصف الأول من القاشاني يرمز إلى "الخات" والثاني من النحاس الأحمر يرمز إلى "البا" والثالث من الفضة يرمز إلى الـ"نام" والرابع من الأكتروم ويشير إلى الـ"زا" والخامس من ذهب نُقِّى ثلاث مرات ويمثل الـ"معت". وكانت كل حلقة من حلقات أساوري الذهبية على شكل أسد ذي رأسين رمزاً إلى القدرة على رؤسة كل ما في هذا العالم، ولبست كذلك شبكة حية "الكوبرا" الذهبية التي لا

يلبسها إلا من تغلب هذه الحية في الاختبار السبع، وبانتصاره عليها يكون قد أضاف قوتها إلى إرادته.

وسرت في مقدمة موكب العرش إلى المعبد في المحفة الملكية يحملها أربعة وعشرون حمالاً، وألقت الأطفال الزهور في طريقي، وتبعني "زيب" وبجانبه "ناتي" و"سما" يحمل العلم الخاص بي، وبعد ذلك سار ثلاثة من قواد الحرس الخاص الملكي كل معه مائة جندي من رماة السهام وحملة الهراوات وحملة الحراب وخلف هؤلاء مائتان من الموسيقيين، بعضهم كان يغني والبعض كان يلعب على المزمار مع القيثارة والبعض الآخر على الناي. ثم تبع ذلك محفات أخرى كل محفة منها محمولة على أكتاف أربعة من الخدم عليها نساء القصر وزوجات النبلاء كل حسب درجتها، ثم تبع ذلك بنات يقدن ثيراناً بيضاء زينت رءوسها أكاليل الزهور القرمزية كنت قد أهديتها قرباناً للإله "بتاح" تذكاراً لهذا اليوم الذي فيه قابلت "ني – سي – رع" لأول مرة، وفي النهاية سار حملة الهدايا من القطرين يحملون أنياباً من العاج وقلائد من الذهب وقدوراً مليئة بالدهون والطيوب وقناني من المرمر بها زيوت ثمينة وقلائد من اللازورد والعقيق والفضة والدهنج "الملاخيت" وجلود الفهود.

وحول الفناء الأمامي لمعبد "أتت" اصطف قواد الجيوش ودروعهم تلمع في المشمس كأنها حائط من نور.

وأقيم تمثال للإله بتاح من خشب الأرز المغطى بطبقة من الذهب في أسفل الشرفة ذات الأعمدة، وأمام البوابة المؤدية إلى الفناء الداخلي أقيم العرش المزدوج العظيم من الجرانيت الأحمر وعليه جلس تمثال "زا – أتت".

واجتمع رهط كبير من الكهنة في ردائهم الرسمي على درجات الشرفة فكان أصحاب الاستشفاف يحملون ريشة "معت" القرمزية المزدوجة، وكهنة حوروس بأجنحتهم المطوية التي تشبه أجنحة الصقر تحيط بوجوههم، وكهنة بتاح ومعهم مفتاح الحياة الذهبي، والمبصرون ومعهم قرص القمر المجنح، وكهنة أنوبيس في عباءاتهم الصفراء تضمها رأسان من الذهب لبنات آوى، وكانت أرديتهم البيضاء الناصعة في ضوء الشمس تحمل حافتها خطوطاً من البنفسج يمثل كل خط فيها طوراً من أطوار التدريب في المعبد التي مرت بهم.

وكان نياح في انتظاري أمام التمثال وفي يده السوط وعلى رأسه التاج الأحمر ووقفت أمي بجانبه وعلى رأسها التاج الأبيض وتحمل الصولجان في يدها.

وبادئ الأمر قدمت ونياح الهبات المراسيمية للإله "بتاح" وبعد ذلك قادتنا والدتي ووراءها الكهنة عبر الفناء الداخلي حتى وصلنا إلى ردهة الهياكل، فتقدم "نياح" معي دون أن يكون معنا أحد إلى هيكل "بتاح" لأن كل من يرتبطا برباط الزوجية أمام الآلهة يجب أن يكونا بمفردهما ولا

يصحبهما أحد إلا الكاهن الذي يمثل الآلهة، ووقف الكاهن الأعظم وراء التمثال من أعلى حتى يبدو كأن بتاح هو الذي يتحدث.

وفي أول الأمر نادانا باسمينا ثم قال "أنت يا من سميت عند ولادتك "نياح" وكفرعون تعتبر ثاني اثنين يحمل اسم "زا – أتت" وأنت يا من دعيت عند ولادتك "سخت – آ – رِع" وكفرعون ستحملين اسم "زات – أتت" زوجة "زا – أتت" وابنته.. ومن الآن فصاعداً ستظهران للناس جميعاً في هذا العالم أنكما تسيران في نفس الطريق كما تلازمت روحاكما خلال رحلتهما في دائرة الفلك. فإذا كل أحدكما أعطاه الآخر من قوته، وإذا ضل أحدكما الطريق هداه الآخر إلى طريق الحرية، وإذا أصاب أحدكما سهام الشر كان الآخر له درعا. وسيتمم كل منكما الآخر كما يتمم الصولجان السوط والسهم. القوس، والدفة قارب الزمن.

وستكونان معاً أبا لشعب عظيم وسترعيان هذا الشعب كما رعيتكما أنا "بتاح" وستكونان له الأذن التي يسمع بها الحكمة، والفم الذي ينطق بها عن حكمته، والعين التي يرى بها ثمار هذه الحكمة على الأرض.

والآن أنتما في أوج حياتكما.. فعندما تغرب الشمس وتعودان إلى وطنكما الحقيقي سيبتهج قلبي برحلتكما اليومية.. ومن الآن فصاعداً "زا – أتت، زات – أتت" يصبحان فرعون واحدا".

وعندئذ وأمام الكهنة في بهو الهياكل خلعت أمي التاج الأبيض ووضعته على رأسي. وفي أثناء خروجي أنا ونياح إلى فناء بركة اللوتس

تذكرت الوقت حين وقفت كطفلة في انتظار "ني – سي – رع" في اليوم الذي التحقت فيه بالمعبد كي أكون إحدى تلميذاته.

وفي الفناء الأمامي للمعبد اجتمع عدد كبير من الناس منتظرين في سكون أشبه بسكون حقل من القمح يموج مع النسيم.. اجتمع هذا العدد من الناس ليستمعوا إليّ وأنا أردد القسم أمام الآلهة. ثم وقفت أمام "بتاح" وأمامي والدتي وهي جالسة على عرش من الجرانيت بجوار تمثال "زا – أتت" العظيم وحلفت يمين فرعون:

"بتاح! أيها الإله الأعظم! أتوسل إليك أن تسمع صوتي.. حتى تشهد بين الآلهة جميعاً أن هذه الكلمات تنبع من قلبي وروحي وهي الحق. بهذا الصولجان سأكون راعية لشعبي حتى لا تحيد أقدامهم عن الطريق القويم، بل تسرع الخطى نحو النهر العظيم حيث يتخذون لأنفسهم مكاناً في قارب الزمن فيعبرون الحياة ليسكنوا في أرض السلام. وبهذا السوط سأرد الغزاة عن بلدي، وسيكون حامي الأبرياء، وسيخشاه المذنبون حتى يغيروا ما في قلوبهم ويعودوا إلى طريق الحرية، وبقوة "الكوبرا" الذهبية سأهاجم قوى الشر وستكون معابد "كام" مركز إشعاع تهدي الناس فلا يضلون الطريق ولا يسيرون في الظلمة، ولتعلو الأصوات من أفنية المعبد حتى تصل إلى وقع أقدام "حملة النعال الذهبية" حتى تصبح المعرفة الحقة على كل لسان في بلدك. ولن يعرف طفل الخوف أو آلام الجوع أو يعيش دون والدين، ولن يعيش رجل أو امرأة دون صديق، ولن يقاسي أحد من ضعفه عن العمل، لأني سأكون والداً لجميع أفراد شعبي. سأكون العين

البصيرة للأعمى، والصوت المجلجل للأصم، وبلسماً للجرحى ودواء للمرضى وسأكون عكاز الضعيف، ودرعاً لهؤلاء الذين تعدى عليهم الأعداء. وسأذكر دائماً أن كل من على الأرض استمد الحياة منك، وفي تذكري ذلك أعرف أن صلة القرابة تربطي وشعبي. وسيبقى الباب مفتوحاً لحكمتك تلج منه إلى نفسي كي يشع نور الآلهة على شعبي وستهديهم بيدك فوق يدي.

بتاح!.. يا من بفضل حياته أمشي في هذا العالم... حوروس... يا من دربت إرادتي على الحكم... أنوبيس... يا من أرشدتني إلى طريق الآلهة إليكم جميعاً أقدم قسمي المقدس أني سأقيم الوزن وسأبقى على توازن كفتي ميزان "تحوتي".

وبعد ذلك هتف لي الشعب مرة واحدة معترفاً بي فرعونا، ومرة أخرى عادت أفكاري إلى أول يوم التحقت بالمعبد، وبدا لي أنني أستطيع أن أرى بنتاً صغيرة حزينة.. هي أنا متجهة لأول مرة إلى البوابة المؤدية إلى بيت التلميذات.

وبعد أن أدى كل وزير يمين الطاعة لي ثم لأخي ولنا معاً كفرعون واحد عدنا إلى القصر واقفين في عجلة حربية يجرها جوادان أبيضان، واصطفت الناس على جانبي الطريق والجو يدوي بغنائهم وعظيم فرحتهم.

وفي المساء أقيمت وليمة في قاعة الاستقبالات في القصر دعي إليها الكهنة والوزراء والنبلاء والقواد الذين وفدوا من جميع أرجاء بلاد

"القطرين" يرحبون بفرعون، ونصبت مظلات حول القصر حيث دعي هذا الجمع من الناس، أما خارج الأسوار فقد قدم شواء من لحم الثيران وقدمت الخمور للناس حتى تجرعوا منها ألف جرة كذلك قدم السمك ولحم البط والأوز. والكعك والخبز الأبيض حتى يشاركنا الشعب التمتع بالولائم والاحتفالات.

ولما انقضت الوليمة وخلا كل إلى نفسه وجدت أفكاري جامحة لدرجة أني لم أتمكن من تجنبها ولداً ذهبت إلى حجرة "نياح" فوجدته مستيقظاً فتحدثنا ملياً عن أحداث اليوم ثم قال "نياح": "حيث إن كلامنا أرق فهيا بنا إلى البحيرة نستقل قارباً فالبدر ساطع الليلة والنسيم عليل وموات لهذه الرحلة، انظري كيف يحرك النسيم الستار بلطف".

فعدت إلى غرفتي ولبست قميصاً بسيطاً وتركت شعري مسترسلاً، وخرجنا إلى الحديقة حيث يسطع القمر خلال أشجار التين فيلقي ظلالا تشبه في بياضها وسوادها ريش الأيبس، وقطفت شيئاً من التين لنأخذه معنا فقد تعودنا ونحن صغار أن نأخذ شيئاً معنا حتى نشعر بأننا مقدمون على رحلة استطلاعية، وتذكرت أننا كنا نتخيل أننا مكتشفون لأرض جديدة وأن الفاكهة أشبه بحيوانات اصطدناها بحرابنا لتكون لنا طعاماً، وزجاجات الماء هي نصيب الجندي في رحلته عبر الصحراء.

وقد رآنا أحد الحراس ونحن نبرح القصر فظن أننا عاشقان فضحك وتمنى لنا ليلة طيبة.

وكان القارب مربوطاً بحبل إلى رصيف خشبي أعد بين أعواد البوص، فحللنا رباطه ودفعناه من الماء الضحل بقضيب من الخشب حتى بعدنا عن الشاطئ وبمجرد أن نشرنا الشراع امتلأ بالهواء وخرج وانساب في هدوء يتهادى فوق ماء البحيرة. ورأينا فرس النهر ومعه صغاره في الماء فتجنبناه وسرنا بعيداً عنه لأنه سبق أن قلب أحد القوارب.

وبعد ذلك ألقينا بالحجر المتصل بالقارب بحبل في الماء فوقف القارب، وخلعنا ملابسنا ونزلنا في الماء نسبح وقتاً طويلاً في ضوء القمر وكان الماء منعشاً وكنت في العادة لا أميل إلى السباحة في البحيرة خشية وجود التماسيح في أعماقها ولكن هذه الليلة لم أهتم بذلك ولم أفكر فيها. ولما صعدنا إلى القارب رفعنا الحجر وتركنا القارب يسير حسب ما يشاء الريح وفي تلك الليلة الهادئة بدا فرعون شخصاً آخر غيرنا، إذ كنا شخصين يختلفان اختلافاً بينا عمن رأته الناس في حفلة الزواج.

وعندما أطرح جسدي وأبعد عنه، وأنظر من عل إلى حيث يجب علي أن أعود عندما أصحو أجد شيئاً من عدم المطابقة بيني وبين هذا الجسد في هذا العالم، إذ يبدو أن جسدي ليس مني، ولا أماثله في شيء إلا حين ألبسه فقط وأتقمص شخصي. هنا بدأ كل من "نياح" و"سكيتا" كشيئين حقيقيين.. أما فرعون فكان بعيداً عنا بعد أصنام المعبد عن الآلهة التي ترمز لها.

ثم قلت لأخي: قد جاهدت عشر سنوات لأخفف الأمور العلمانية عن كاهلي، وقد فكرت في أمور كهنوتية ومكثت طويلاً في وحدتي كي أستمع إلى صوت روحي، وقد جاهدت كي أفتح أبواب ذاكرتي وقد سبحت في النور الذي انبعث من البوابة المفتوحة إلى الأبد، وسبق أن عشت مع قوم ينظرون إلى حفلات القصور ورجال الحاشية كأنما هي دمى وألعاب أطفال، وسيكون أمراً عسيراً علي أن أتذكر أن الكلمات تبدو أكثر حكمة إذا وصلت آذانهم من شخص يلبس رداء الاحتفال.. أما بالنسبة لملكة فإن أعمالها التي تأتي بها من غير قصد أو تفكير ينظر إليها بمجهر يكبرها حتى تبلغ حجم الظل بالنسبة للشيء في غروب الشمس، فإيماءة بسيطة تصبح عطفاً نبيلاً منها، وتبرم بسيط يصبح صوتاً لغضب ملكي.

فقال "نياح": هذا أكثر سهولة عليك مني، فما عليك إلا أن تنامي فتنعشك ذكرياتك التي تحملينها وتنعمين بها" أما أنا فأحياناً أحلم ولكن نومي بالنسبة لي ما هو إلا ستار كثيف يحجب ليلي برقدته عن صحوتي نهاراً".

فرددت عليه "ولكن جسدك درع لأفكارك فلا تقفز من فمك كما هو الحال معي وتزين حكمتك كلامك، ولا يسمع الناس منك إلا ما تعتقد أنه سار لآذانهم، أما أنا فكثيراً ما أقول ما في قلبي معتقدة أن المستمعين على استعداد لسماعه، وكثيراً ما أخطئ تقدير أعمارهم. فقد كنت مع "ني – سي – رع" كل هذه السنين، وكنت تلميذة لرجل على جانب كبير من

الحكمة، وكان لا يحملني ما لا أطيق، وإنما يعرف ما تحتاج إليه روحي من غذاء، والآن ينتظر الناس مني أن أهديهم، فعلي ألا أكون مترددة في أمر وإلا اعتورهم الوجل من أن يتبعوني، وعلي ألا أتضجر أو أكون حمقاء وإلا تزعزعت الثقة في عدالة فرعون. فقال "نياح" نحن معاً يا "سكيتا" وسنتلازم دائماً... فلا حاجة تدعو إلى أن نعيش في وحدة كما عشت أنا سنين عديدة".

فقلت له: سنكون أقوياء معاً وسنكون كعمودين عظيمين وبلدنا "كام" كالعتب العلوي لهذا الباب يرتكز عليهما وسنكون مع شعبنا بابا يفضي إلى النور والهداية.

ولتخليد هذا اليوم لن نقيم لوحاً تذكريا بل سنقيم صرحاً يؤدي إلى فناء القصر، وسيحفر على أحد برجيه اسمك وعلى البرج الآخر اسمي، وعلى العتب نبات البوص والنخلة وزهرة اللوتس ونبات البردي، والشمس وقت الظهر وميزان "تحوتي"، ولن يكون لهذا الباب مصاريع تغلقه لأنه سيكون بابا مفتوحاً يصل إلى فرعون، وسيعرف من يأتي بعدنا أن في زمننا أقمنا العدالة والحق في القطرين.

الفصل الثاني

الحياة اليومية

ولما كنت حديثة العهد بالحكم بدت المراسيم اليومية كلعبة كنت ألعبها أنا و"نياح" في طفولتنا عندما كنا نتخيل جرار الخمور الاثنين والأربعين قاضياً، وبوصة منزرعة من النهر سوط فرعون، والأشجار في تمايلها مع الريح شعباً ينحني أمامه ليظهر ولاءه. وما زلت أحافظ على القيام مبكرة من نومي بعد الفجر وأسجل على لوحي كل ما أتذكره مما جرى وأنا بعيدة عن العالم في أحلامي مما قد يساعدني فيما يجب عليّ عمله في أثناء النهار. وبجوار حجراتي كانت هناك صومعة صغيرة على شكل الحجرة التي كنت أنام بها وأنا في المعبد، ولم يكن بها أي أثاث وجدرانها البيضاء خالية من أي نقوش أو زينة إلا من بعض زهور في مشكاة تحت الشباك المرتفع وهنا أتعبد قبل نومي وعند صحوتي وأدعو الآلهة أن تجعلني جديرة بتراثي وأن تهبني شيئاً من الحكمة والعدالة والرحمة. ثم أستحم مع "نياح" في البركة الخاصة بحديقة العشب التي غرسها "زا – أتت" والتي تطل عليها حجراتنا، وبعد السباحة معاً أرقد على أريكة ضيقة عالية وتقوم "باكي" بتدليك جسمي بزيت ذي رائحة زكية حتى تلين عضلاتي تحت أصابعها، ثم بعد ذلك تبلل جسمي بماء معطر مرطب من إناء فضي، وفي أثناء استرخائي تعالج يدي وقدمي فتطلي أظافري بلون أحمر فاتح، وإذا كان اليوم يوم حفل تغطيها بورق مذهب من رقائق الذهب.

وفي أثناء إقامتي في المعبد لم يكن لدي إلا مشط واحد ومرآة صغيرة من النحاس الأحمر حيث كانت صورتي تنعكس غير واضحة كما لو كنت أراها في سطح بركة اضطرب ماؤها بتأثير الرياح. أما الآن فلدي أمشاط من العاج محفور عليها خاتمي المكون من: صقر الإرادة المدربة على القارب المنتصر فوق أجنحة فرعون المجنح ومن أسفل ذلك اسمي الحوري "زات" مكتوباً بثقبان يليه مفتاح الحياة يحيط به قضيبا القوة: القوة المستخدمة على الأرض وخارجها كفرعون مجنح، وكان الخاتم محفوراً على جرار زيوتي العطرية التي كانت هدية من والدتي يوم زفافي وكان لدي أحقاق المراهم والدهون وقنايا الطيوب ومرايا فضية بمقابض من عاج محفور، وألواح حجرية لصحن الدهنج لعمل الكحل الذي أظلل به جفوني ومراود أتكحل بها حتى تبدو عيوني واسعة كتماثيل الآلهة، وعالجت حاجبي بملقاط من الفضة حتى تنحدر إلى أعلى فتكون أشبه بجناحي طائر يطير. وكانت "باكي" تمشط شعري الذي قص إلى كتفي، وتصقله بقماس الكتان الرقيق وكان ناعماً كشعر حصان أدهم. وكنت ألبس أحياناً غطاء رأس من الكتان على شكل أبي الهول أو شعراً مستعاراً ضفائره من الصوف وأطرافها من الذهب ولكن غالباً ما كنت أضع حول شعري أكاليل من الزهور أو شبكة من خرز أزرق اللون ثمين، أما في الحفلات فكنت ألبس عصابة من الذهب يحليها ثعبان "الكوبرا" الملكي أو التاج الأبيض وكان هذا التاج ثقيلاً على رأسي ولو أنه مصنوع من طبقات من الكتان المنشى. وإذا كان اليوم حاراً تناولت أنا وأخي طعام الإفطار تحت الجوسق المبني في حديثة النباتات، أما إذا كان بارداً تناولنا طعامنا في إحدى حجراتنا الخاصة. ونتناول اللبن في

كئوس من المرمر والفاكهة في صفائح مرصعة باللازورد، وكانت الفاكهة من رطب البلح والتين والبطيخ والمشمش والعنب، ونغسل أيادينا في إناء به ماء معطر ونجففها في فوط موشاة برسوم من الغزال وسمك قرمزي أو أشكال من ورق العنب.

وكل يوم كنت أقوم أنا وأخي بالاستقبال ويستغرق ذلك إلى قبل الظهر وإذا كان "نياح" غائباً عن العاصمة كنت أقوم بالاستقبالات أربعة أيام في الأسبوع وكان من يتخلف عن الاستقبال يجلس في حجرة الأختام مع الوزراء والمشرفين ومن إليهم ممن حضر بشأن قرارات فرعون، وكانت ترد الرسل إلينا من المدن البعيدة تحمل الأخبار عن المحصولات الزراعية، ورخاء الأهالي أو مشاكلهم، أو كل ما يهم أهل "كام" سواء أكان ذلك فتح طريق أو قناة مائية أم بناء معبد جديد أم مساكن للمسنين يقضون فيها بقية أيامهم في هدوء ودعة أو زرع أشجار على جانبي الطرق الرئيسية حتى يتمتع المسافر بالمسير في ظلالها، أو تخطيط متنزهات عامة للشعب. كل هذه المشاريع يصدق عليه بخاتم فرعون، وذلك لأن سكان "كام" بالنسبة لفرعون كأهل بيته، وأرض كام بالنسبة له كحديقته الخاصة وبيوت "كام" بالنسبة لفرعون كقصره، وفي بهجتهم رضاه، وفي حزنهم عبرات قلبه.

أما ما يختص بالمعابد فكنت أمهرها بخاتمي ككاهنة "ميري – نيت" محبوبة "ني – سي – رع" وهو الاسم الذي سماني به بعد تدريبي، ومعنى "ني – سي – رع" المولود كاهناً للنور لأنه عند ميلاده وقبل عودته إلى الأرض كان كاهناً تم تدريبه وكتب اسمه مشفوعاً برمز "نيت" إلهة أولئك الذين

ولدوا مزودين بتجارب الأيام، وكان هذا الرمز عبارة عن حزمة من القمح ربط برباط من الجلد لكي يظهر أن الحكمة التي ترمز إليها قد جمعت، ويقطع الحزمة سهما الإرادة المدربة يتجه أحدهما إلى هذا العالم والآخر إلى ما وراءه، أي أنه يمكن توجيه هذه الإرادة إلى كلا الاتجاهين، وفي الاحتفال بعيد الإلهة "نيت" يحمل رمزها فوق سارية علم، أما في الكتابة فيمثل اسمها بصارٍ يحمل حزمة القمح ويحمل خاتمي المحراث، "ميرى" ومعناه "المحبوب" إذ كما يشق المحراث الحقل قبل جني المحصول كذلك يشق الحب القلب ويخصبه، ويتبع ذلك خاتم "ني – سي – رع" وكان أحد أسماء "مينيس" العظيم "زار – آب" ومعناه صاحب القلب الحكيم وكان الخاتم الذي يحمل اسمه حزمة من أعواد البوص والبردي ربطت معاً برباط من الجلد القرمزي إذ وحد بين أرض الشمال أرض البردي وأرض الجنوب أرض أعواد البوص بعقلية الحكيم ودم المحارب الأحمر، وكان والدي يستخدم نفس هذا الخاتم، أما أنا و"نياح" فكان خاتمنا يتخذ شكلين فأحياناً حقل البردي وأخرى حقل البوص يتلوه في الغالب طائر صغير معناه "ابن الأرض" و"زا" في شكل الغربال ومعناه فرعون ابن "حوروس" "زا ابن زا" وكتب والدي اسمه على شكل حية وذراع وهي العلامات الصوتية لكلمة "زا". أما أنا ونياح فقد استعملنا الحية فقط. وكان يحيط بهذه الأختام مربع ذو أعمدة يدل على أننا قد اكتسبنا الإذن بالدخول في بيت الآلهة ذلك البناء العظيم المزين بالعمد، وفي أعلى ذلك المربع كانت صورة الصقر رمزاً إلى الإرادة المدربة ويدل ذلك على أنه الاسم "الحوري" لفرعون وذلك بالإضافة إلى الاسم الحوري نكتب "أتت" الريشة التي تنطق "ا" وهي نفس ريشة الحكمة

ونفس الدائرة التي تنطق "ت" فإذا أردت أن أبين أني قد وضعت الخاتم بنفسي فإني أستعمل الشكل الخاص بي الذي يتضمن رمز الكاهن وهو عبارة عن نقطة ماء وهذا يدل على أني قد أسقطت مياه "ماعت" على الأرض كما ينهمر المطر من السماء وهذه العلامة التي تعني "الحكمة التي تذكر" هي أيضاً العلامة الصوتية "تت".

وكان "رع – حتب" وزير القصر الملكي، وفي سجلاته التي عند كتبته يدون الخراج وكان يتصرف فيه حسب صالح "كام" وكان مراقب القصر يتقلد منصبه منذ عهد والدي وكان يسيطر على جميع خدام القصر وعشرين طاهياً ومائة خادمة وناسجي الكتان وغاسلي الملابس وحاملي الماء، وكان "هاركا" لا يزال مراقب العجلات الحربية وكانت الحيوانات الملكية تحت رعايته فكان يعنى بالجياد والأسود، وكلاب الصيد والحمير والأوز والبط والماعز التي تدر اللبن وكان حامل كأس فرعون هو المشرف على الكروم وكان يزرع العنب ويحصد ويعصر ويعبأ في الجرار ويخزن بناء على أمره، وكان شقيق "مآتا" مشرفاً على الحدائق وكان تحت إمرته ثلاثمائة رجل وامرأة يعملون في الحدائق والبساتين وحقول الغلال التي تتبع فرعون. وكان كل هؤلاء يأتون في بعض الأحيان لفرعون يسألونه الرأي والمشورة أو ليخبرونه عن ظهور نبات جديد، أو أن عنباً استورد من بلاد أخرى قد أينع نبته أو أن فرسة قد ولدت مهراً أو عن آفة أصابت حقل القمح. وكان فرعون يستمع إلى كل هذا بأذن واعية وقلب حنون.

وإذا كان الجو حاراً أوى من في القصر إلى فراشهم مدة ساعتين وقت الظهيرة وحين تخف حرارة "رع" في رحلته كنا نخرج أنا و"نياح" في قارب على سطح البحيرة أو نخرج مع النبلاء للصيد، فكنا نصيد التماسيح بالحراب أو نلقي بعصى الرماية على الطير البري في المستنقعات وكنا نتسابق مع القواد في عجلاتنا الحربية، ولم يبز أحد نياح في سباقها فكان إذا أمسك بعنان الجياد انقلبت وكأنها العصافير الطائرة وإذا سمعت صوته سابقت الرياح في سرعتها. وكثيراً ما كانت تقام الحفلات في القاعة الكبرى للقصر، ولكن أحب الأمسيات إلى نفسي كانت تلك التي أقضيها أنا ونياح بعيدين عن الناس، فكان يفضي كل واحد منا للآخر بما قام به خلال النهار، وإذا جلست لأحكم بين الناس كنت أحيطه علماً بما عرض علي وأسأله عن حكمه فيها، وبدا لي أن السنين الطوال التي مرت بي وأنا بعيدة عنه قد مرت سراعاً في سرعة الظل وهو يتحرك ذراعاً على الأرض، وكانت قلوبنا متقاربة وأفكارنا تجري في وفاق كأنهما جوادان في عربة واحدة يجريان في خطى منتظمة.

وبمجرد أن نصبت فرعون تركت أمي القصر، ورغم أن الحكم أنهكها إلا أنها شاركت "نياح" لترعى شئون "كام" إلى أن تقلدت أنا زمام الأمور معه. وعندئذ أصبحت حرة في أن تترك حياة المراسيم والحفلات وتعيش في ذلك المنزل الذي كان أحب مكان إلى قلبها في العالم لأنها عاشت فيه مع والدي أيام شبابها. وكان هذا المنزل عبارة عن قصر صغير بناه "مينيس" يحيط به أشجار الجميز وكانت مروجه تمتد إلى البحيرة، وكثيراً ما كنا نذهب أنا و"نياح" لزيارتها في بيتها، ورغم أن يومنا كان شاقاً ومحملاً بالمسئوليات فإننا كنا نشعر في كنفها بالسعادة وكأننا طفلان.

الفصل الثالث

فرعون في الاستقبال

في كل ليلة تسبق جلوسي لاستقبال الناس لأحكم بينهم أتلو هذا الدعاء: "إلهي! إذا عرض علي في الغد أمر لا تسعفني تجاربي أن أصدر فيه حكماً عادلاً.. أتوسل إليك أن تريني وأنا في أحلامي بعيدة عن هذا العالم ما يعينني على تبيانه حتى أرى الحق وحتى تكون كفتا الميزان الذي أجلس تحته رمزاً حقاً للعدالة".

وفي صبيحة أحد الأيام عرفت عند صحوتي أني سأحكم بين امرأتين، وعلى أن أذكر إحداهما بسوار من ذهب تلبسها على ذراعها الأيسر والأخرى وهي البريئة تتميز بأثر جرح رأسي على صدغها الأيمن.

وكان العرش في قاعة الاستقبال مصنوعاً من الخشب ومغطى بطبقة من الذهب وأرجله على شكل أسد، وحينما كنت أجلس وحيدة في هذه القاعة كنت أحمل السوط والصولجان، أما إذا جلس "نياح" معي فقد كنت أحمل "اللوتس الذهبية"، وكان على جانبي القاعة مائدة يجلس إليها الكتاب يسجلون الأحكام ومعهم أولئك الذين يسردون تفاصيل القضية المعروضة للحكم، وقد أدخل "نياح" هذا التقليد في السنة الخامسة من حكمه، وكان قبل ذلك يسرد كل من المتنازعين قصته في الزمن المحدد له،

وقد يتكلم الإنسان ساعة من الزمن دون أن يمد مستمعيه بالمعلومات الكافية عما يود أن يشرح.. ولكن الآن خصص لكل واحد كاتب يلخص كل قضية مشوشة في كلمات قصيرة.

وأول قضية عرضت علي كانت بين أرملة أحد النبلاء الأثرياء من "أبيدوا" وبنت كان لها غلام. وكان والد الطفل الذي مات قبل ولادته ابن هذه الأرملة الثرية وكانت تطالب بحضانته لتربيه بين أهلها مدعية أنه بيته اللائق به لأن أمه فاسدة لا حق لها في حضانته ولا تستحق صدقة منها. أما أم الطفل فكانت تود أن تبقي الطفل في رعايتها وقالت إنها قد ورثت أرضاً زراعية صغيرة المساحة تكفي لتربية الطفل وإطعامه وتدبير ملبسه وستنشئ الطفل حسب تعاليم الهداية والنور.

فأمرت أن يؤتي بالمرأتين؛ فكانت إحداهما امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها وثيابها ثمينة إلى حد الإفراط، وكان فمها علقماً ويداها ناعمتين وسميكتين، وكان على ذراعها الأيسر خمس أساور من ذهب. أما الأخرى فكانت فتاة صغيرة تلبس قميصاً من الكتان الخشن وعباءة زرقاء تغطي شعرها وعلى صدغها أثر جرح.

وكانت الأرملة الثرية تخشى ألا تلقي مني أية مجاملة، وعرفت أنها تتمنى أن تدعى إلى إحدى حفلات القصر حتى تظهر بذلك للناس نبالة أصلها لا أن تدعى إلى مجلس قضاء يكون الناس فيه سواء ولم ينم وجهها على أنها من سلالة صافية أصيلة، فقد تكون ابنة أحد التجار الأثرياء، إذ

يدل شكل أنفها على أن في دمها بعضاً من دم أهل "زوما" وكانت يداها المكتنزتان غير مستقرتين فكانت تلوي عقدها بين أصابعها وكانت أساورها لها خشخشة على ذراعيها، ورغم ذلك تظاهرت بالطمأنينة بسبب ثرائها ووقار مظهرها، ولم تخش مطالبة امرأة تعتبرها هي فاسدة.

أما الفتاة الأخرى فقد وقفت هادئة وذراعاها على جانبيها ولها الطلعة المتعالية التي تتميز بها حاملات الجرار على رءوسهن. ولم تترك عيناها وجهي وكانت هادئة واثقة من عدالتي مطمئنة إلى أني على بينة من سريرتها وإني قطعاً سأحكم لها بحضانة ابنها.

ووجهت كلامي إلى البنت وسألتها لماذا تبقين هذا الطفل عندك فأجابت: يا ابنة "حوروس" يا من تحملين الحكمة المزدوجة، أي وازنة القلوب ومرآة الحق، قد أحببت والد هذا الطفل زوج قلبي رغم أني لم أتمكن من أن أشاركه بيته كزوجة له لأني لا أملك إلا القليل وكانت أمه تود أن يتزوج من زوجة من دم نبيل تجلب له الكنوز ليثري بها منزله، ورغم أننا لم نتمكن من الارتباط برباط الزواج أمام الكهنة إلا أن جسدينا تلاقيا على الأرض وعندما كنا نرقد لم نخش أحداً ولم نشعر بالخجل في قرارة أنفسنا.

ولما مرض قبل مولد طفلنا أخبرني خادمه أنه كثيراً ما ردد اسمي ودعاني، ورغم ذلك لم يسمحوا لي برؤيته رغم أني كنت أنتظر في الحديقة كل يوم وأتوسل إلى أمه بكل الوسائل وبكل خضوع وإذلال لتسمح لي أن أرى حبيبي وأسري عنه بعض آلامه، وعيرتني بأني من بنات الليل وأني قد

لطخت حديقتها حين وطأتها قدماي فأصبحت بذلك أقذر من المكان الذي تلقى فيه قاذورات القرية. وبعد وفاة ابنها أرسلت من يتجسس علي حتى ولد طفلي فأرسلت خدمها لمنزلي يحاولون أخذه مني وإبعاده عني مع أن هذا الطفل هو كل ما تركه لي حبيبي. فسألتها عما يمكنها أن تقدمه له.

فقالت "سيكون له طعامه ومأواه، وسيتمتع بالشمس والهواء، وبالنهر يستحم فيه وبالنباتات يزرعها فتنمو، وبالحيوانات يلهو بها فإذا ما اشتد عوده فسيكون له حقل يحرثه وبقرة يحلبها ويرعاها، وسيتعلم سبل السفن وكيف يلقي بشباكه على الأسماك، وسأعلمه الحق والدعة حتى إذا نظر في مرآة لا يخشى أن تواجه عيناه عينيه، وسأعلمه حتى يحفظ لجسده طهارته وقوته وأن السعادة في الدنيا أن يرى عليها شخصاً تحبه الناس أكثر مما يحبه هو".

وقد تبينت أن كل ما قالته الفتاة صدق لأني سمعته في منامي، وبعد ذلك تحولت إلى المرأة الأخرى وسألتها عما يمكنها أن تقدمه لحفيدها، فهاجت علي الفتاة وقالت إنها كذوب فاسدة وأنها من باب الشفقة فقط قررت من أجل ولدها الذي مات أن تخلص الطفل من العيش مع امرأة كهذه ولما كانت هي من أصل نبيل فإنه لا يمكنها أن تدع حفيدها يعيش عيشة الخدم ويفلح الأرض، ثم أردفت تصف الثروة التي ستئول إليه من بساتين وكروم وخادمات وذهب تملكها بعد أن ترملت وأنها إذا ماتت ستئول كلها إليه وسيكون هو وارثها الوحيد.

وبعد أن انتهت من حديثها تمهلت قليلاً قبل أن أتكلم، وكانت هذه المرأة في ثقة من أني سأحكم في صالحها، ولم تعرف أنني رأيت قلبها وما تكن سريرتها وعرفت قيمته. فقلت لها سيجد الطفل في منزلك كل ما يحتاج إليه لراحة جسده، فسينام على فراش من ذهب، ولكن أين تسبح روحه حين يرقد على هذا الفراش الوثير. قد بينت لي بجلاء أنك لا تعرفين شيئاً عن كيفية تنمية روحه، إنك تعتقدين أن الثراء أهم من الحب لأنك تريدين أن تمنحيه مالاً، وفي نفس الوقت تنتزعينه من أمه... هذا يدل على أنك حمقاء، فإذا اعترفت بالطفل حفيداً لك وجب عليك أن تعترفي بأمه كابنة لك، ولكن لطغيان ذاتيتك تنظرين إلى الفتاة نظرة احتقار وازدراء، ولما كنت تعتقدين أنها أذنبت فقد شاركها ابنك تلك الخطيئة، لذا كان لزاماً عليك أن تعملي جاهدة لتعويضها عما جلبه ابنك عليها، ولكن بدلاً من ذلك ترغبين في أن تحرميها من ابنها وتسلبيه منها فأنت لذلك سارقة، وحيث إنك تودين طرد من أحبها ابنك من باب منزلك فهذا يرينا أنه لا رحمة في قلبك ولا حنان.

ورغم كل ذلك فإنك وأنت اللصة الحمقاء الغليظة القلب تقدمين على احتقار فتاة أحبت رجلاً وطفلاً حباً مجرداً من الأنانية وهذا يدل على أنك قليلة الخير ولا تتمتعين بشيء من الحكمة. وأخيراً لم تجرئي على الوقوف أمام القضاء في بلدك لأن القوم هناك يعرفون عنك ذلك، ولولا غرورك وصلفك لأصبحت الفتاة زوجة ابنك.. وحضرت هنا لتعرضي القضية أمامي ظناً منك أني أنا فرعون سأخدع بكلامك وهذا يبين أن لصاً

أحمق غليظ القلب لا خبرة له ولا دراية يجرؤ على احتقار أولي الأمر وذلك بمحاولتك إخفاء الحقيقة عني.

"لهذه الأسباب يجب أن تضربي بالسياط على قدميك وستستبدل هذه العقوبة بأن تمنحي والدة حفيدك ذلك القدر من كل ما تملكين الذي كان يصبح نصيبها لو كانت زوجة لابنك عند قرانها أمام الكهنة بدلاً من يكون رباطها قلبيا فقط. وبهذا يكون شرعياً أمام الآلهة. وستعطينها كذلك حملى حمار من ذهب وحمل واحد من فضة وعندما ترين الطعام قد قل على مائدتك وأن الخادمات قد قللن من منزلك سيذكرك هذا بأني أنا فرعون وأنا "الحق".

ثم جاء أمامي رجل يمت بصلة القرابة لوزير "أرض ابن آوي" وكان نبيلاً ثرياً واسمه (شالنوك) وطلب أن يكون له الحق في عرض قضيته على مسامع فرعون.

فقد حول مجرى الماء إلى كرومه ليزرع بها ثلاث كرمات على حين لا يمكن إلا زرع واحدة فقط وكان نتيجة ذلك أن جفت الأراضي التي تقع بين أرضه والنهر وهلك كل ما فيها من حبوب.

ولما رأيت أنه لم يفعل ذلك عن جهالة بل عن عدم مبالاة بصغار الملاك وأنصبتهم وأن مشاعرهم لا تستحق عنده رحمة ولا التفاتاً لذلك حكمت عليه وأعلنته بالحكم "لقد ترديت في الذنوب لأنك لم تدرك ما الذي جنيته على الآخرين، فقد أنستك حديقتك الوارفة تلك الحقول التي

جفت. وحيث إن الإدراك هو نتيجة التجارب والخبرة، وحيث إنه بعد هذا الإدراك ستجني ثمرة لم تتعودها، فستعيش في كوخ فلاح وسيكون لك أرض خصبة وثوران يجران محراثك، وبجانب منزلك مخزن غلال ارتفاعه ستة أذرع وعرضه ثلاثة أذرع، فإذا ملأت هذا المخزن بالغلال التي حصدتها بيدك فستعود إليك أرضك".

ومع أن هذا المخزن يمكن ملؤه في ثلاثة أشهر إلا أن "شالنوك" عمل فيه ثلاث سنوات وذلك لأنه كلما نضج القمح وبدأ يتخذ لونه الذهبي سلبت الروح عن نبته هذا فأصابه العفن وسقطت سنابله قبل نضوجها، وهكذا شقى في حرارة الشمس حتى ارتوى حقله بدمع قلبه، وذاق تلك المرارة التي أذاقها للكثيرين من الزراع، وعندما أخذ اليأس يدب في نفسه نضج قمحه وامتلأت مخازنه وسمعت أرجاء منزله وقع خطوات صاحبه، وأصبح أرق الناس قلباً وحاشية في أرض ابن آوى.

الفصل الرابع

القاتل بالسم (السام)

في يوم من الأيام في أثناء نزهتي مع "نياح" خلال حقول الكرم، وقد أخذ الليل يرخي سدوله بعد الأصيل قال إنه قد سمع حديثاً يعد برهاناً على حصافة أحد حكامه. وقص على خبر "ابن شاتر" رئيس كتاب وزير "أرض الصقر" فقبيل اعتلائي العرش بثلاثة أشهر قضى هذا الوزير نحبه، وأحضر الرسول الذي نعاه إليه التماساً من "ابن شاتر" يرجو فيه أن يعين وزيراً مكانه. وكان "نياح" على وشك التصديق على ذلك لولا أن تذكر أني رأيت في أحد أحلامي صقراً ذهبياً ممدداً وقد فارق الحياة وانتفخ جسده في الشمس وكأنه مات من السم. ومضى وقت على هذا الحلم مما جعل "نياح" لا يعيره اهتماماً إلا أنه رأى تفسيره الآن إذا كان شعار هذا الوزير هو الصقر الذهبي على أرضية من اللون الأزرق، ولذلك رد "نياح" الرسول صفر اليدين وقال له إن على من أرسله أن يحضر بنفسه إلى العاصمة قبل أن ينعم عليه بما يطلب.

فلما مثل "ابن شاتر" بين يديه، وجد "نياح" أنه على قدر كبير من العلم وكان قديراً على أن يخفي ما في نفسه وكان وجهه قناعاً لها. وكان في مديحه معسول اللسان بحيث يمكن أن ينخدع بزخرف قوله كل من سمعه حتى ولو كان فرعون. ولكن المراقب الذي يرقبه قال إن الضوء الذي يخرج

من نفسه يدل على أنه مثقل بالقسوة والنهم والحسد، وإنه لا يصلح لأن يسوس غيره فحسب بل إن ما ينبعث منه يزيد الحفرة المظلمة ظلمة على ظلمتها وكان يجيب عن كل سؤال بجواب معسول، ورأى "نياح" أنه على درجة من الحذق بحيث إنه لن يكشف عن حقيقة نفسه، ولذا أخبره أن يعود في اليوم الثاني ليسمع قرار فرعون. وبعد ذلك سأل "نياح" "ني – سي – رع" أن يفحص قرارة ذاكرته لأن في قرارة نفسه انعكاساً لأعماله الدنيوية.

وقام "ني – سي – رع" بما كلف به وقال لنياح "ابن شاتر" قد اغتال الوزير بالسم، وأخبره عن اسم السم الذي استعمله في جريمته وأن "ابن شاتر" قد دس السم في اللبن الذي كان يتناوله الوزير بدلاً من الخمور أو الجعة وأخبره كذلك أن إثم جريمته تمت في خمسة عشر يوماً.

وفي اليوم التالي مثل "ابن شاتر" بين يدي "نياح" وكان يظن أنه سيحظى بتقدير عظيم وألقاب ومركز، ولكن بدلاً من ذلك سمع قصة جريمته، إذ أخبره "نياح" بتفاصيلها وما نجم عنها، فظن "ابن شاتر" أن مجهولاً كان يرقبه وأوشى به لأنه لا يدري سبيلاً آخر يكشف جرمه، فخر على وجهه أمام فرعون صارخاً طالباً الرحمة، فأصدر عليه "نياح" حكمه فقال "أنت الذي قضيت على شخص كان من واجبك تبجيله وسببت له ميتة بطيئة مؤلمة... ستموت بنفس الطريقة التي أمته بها فلن تعرف موعد إطلاق سراحك، فستحبس في سجن مظلم حيث يصور لك قلبك المذنب صوراً عن خطيئتك وضحيتك ترتجف لها هلعاً، وستلازمك هذه الصور ولن

تجد لها بديلاً. وخشية من ألا يطيق جسدك ذلك ويهن أمامها فستخرج كل ليلة للرياضة، وستعصب عيناك لأنهما لا يستحقان أن يريا النجوم. وسيقدم لك نوع واحد من الطعام مرتين في اليوم، وستتناوله على ضوء مصباح، وستتمتع به أياماً كثيرة إلى أن يأتي يوم تشعر فيه بأمعائك تتلوى ألماً حتى تظن أن روحك ستفارق جسدك، ولكنك ستشفى وتستعيد قوتك ثم تعاودك نفس الآلام، وسيتكرر ذلك، وفي آلامك المبرحة ستتضرع إلى الآلهة حتى تبلغ ويلات العذاب حداً تتخلص منها روحك.

وقد تفكر في الامتناع عن الطعام حتى تتجنب هذا العقاب، ولكنك تجهل وطأة الجوع وآلامه والإضراب عن الطعام يتطلب إرادة أقوى من إرادتك وبخاصة حين تشم رائحة أنواعه الممتازة تنبعث من مطابخ فرعون وعندما تشتد بك آلام الجوع ستقبل عليه حتى ولو كان به سم زعاف. وإذا أمكنك فرضاً مقاومة الجوع فإن آلام العطش أفظع وأشد ويندر أن تجد أحداً يفضل أن يموت عطشاً وفي يده كأس من اللبن ولو كان مسموماً وإلى يوم مماتك لن تشرب غير هذا السائل الذي لقى سيدك موته في تناوله".

ثم توقف "نياح" في حديثه؛ فأثنيت على حكمته وقلت إنه جزاء وفاق فضحك وقال إنك لم تسمعي إلا ربعاً من حكمته فقد وجد "ابن شاتر" ميتاً هذا الصباح وقد انحسرت شفتاه، وتقلص جسده كأنه ما زال في آلامه الأخيرة وعيناه اللتان انطفأ نورهما تحملقان كأنهما يريان شكلاً مفزعاً، مع أننا بحكمتنا لم نضع أي سم في طعامه... ومن أين له أن يدري

أنه كان يأكل نفس الطعام الذي يأكل منه أهل القصر ثلاثة أشهر وكنا نقدم له أحياناً ما نأكل منه نحن، ولكن لما كان يتمثل أمامه صورة ميتة مفزعة، فقد تأثر جسده بما صوره عقله فمات ميتة يستحقها. مات فريسة ذكرى ما انطوت عليه نفسه من شر وإثم".

الفصل الخامس

الخراج

كان أهل "كام" يقدمون الخراج طواعية كهدية وكان لا يتعدى جزءاً من اثنتي عشر جزءا في الستة أشهر السابقة، وكان يصرف هذا الخراج في صالح البلاد اللهم إلا عشراً كان يوهب للكهنة وعشراً آخر لفرعون.

وكان الوزراء يتصرفون في ثروة البلاد، ويتبعون نظام المقايضة في السلع التي نملك منها الكثير مع البلاد التي تملك سلعاً تقل عندنا وكان في كل مدينة كبيرة مراقبون لنهر النيل يسجلون ارتفاع مياهه ويعرفون مناسيبه وإذا ما كان المحصول سيملأ الأجران، ويستعمل فائضه في المقايضة بسلع أخرى أو أن هناك خوفا من مجاعة تسود البلاد فكان العاج والذهب يحولان خبزاً للناس، أما من يملك عقاراً أو أي شيء لا يصيبه عطب فيدفع جزءاً من اثنتي عشر جزءاً من محصوله أو رءوساً من مواشيه أو مما نسج من كتان.

أما تجار الأسماك وغيرهم ممن يتاجرون في سلع سريعة العطب فعليهم أن يقدموا جزءاً من اثنتي عشر جزءا يومياً للمعبد أو للفقراء منحة لا يتقاضون عنها شيئاً. أما الذين يعملون لحساب غيرهم ولا عقار لهم فعليهم

أن يعملوا شهراً من اثنتي عشر شهراً لحساب فرعون في حقول الغلال أو قمائن الطوب أو تعبيد الطرق أو حفر القنوات.

ويجبى الخراج في أنحاء البلاد في المعابد بخلاف العاصمة فإن الخراج يقدم لفرعون. وفي السنة الأولى من حكمي تسلمت أنا ونياح الخراج من الدرجات المؤدية إلى الفناء الخارجي للقصر فجلسنا على عرشين خاصين بالمراسيم مغطين بجلد حمار وحشي مخطط، وفي المكان الأدنى منا جلس الكتاب يسجلون كميات ما قدم، وعلى الجانب الأيسر من الفناء وقف موظفون مختصون باستلام الخراج والإبقاء عليه وهؤلاء هم: المشرف على مخازن الغلال ورئيس رعاية الماشية الملكية، ووزير فرعون والمشرفون على شئون البيت الملكي. وكانت الناس سواء في أمر الخراج فلا فرق بين كبير وصغير في تقديم الخراج فالجميع سواسية أمام فرعون، فترى فلاحاً بسيطاً مع حمارين محملين بأكياس القمح يتبعه أحد النبلاء ومعه حمالوه يحملون عاج أنياب الفيل، ثم تتبعه امرأة تحمل بطتين في قفص من أغصان الأشجار يتبعها تاجر ومعه ستة أباريق من الزيت، ثم فتاة صغيرة معها حزمة فجل وحزمة بصل ثم غلام ومعه عنزة واثنان من صغارها، ورجل يحمل بالتين من الصوف الخام، ثم نبيل ومعه أربعة قلائد من الذهب، ثم سيدة تمت لبيت فرعون بصلة القرابة ومعها ظبيتان أليفتان ويحمل خدمها دهوناً وطيوباً في ست جرار مرصعة بالذهب واللازورد ثم رجل يقود عجلاً لونه أحمر وأبيض، وامرأة تحمل فوطاً موشاة بتطريز جميل ونبيل من الجنوب ومعه ذهب ودهنج وست عربات محملة بالغلال وعربتان عليهما جرار النبيذ من عصير عنب نادر.

ويستغل الخراج في الصرف أولاً على مصالح سكان المعبد، فمنه يدفع ثمن طعام الكهنة وملبسهم، وأجور خدم المعبد، وتكاليف رحلات الأطباء وأصحاب الجلاء البصري الذين يجولون خلال البلاد. وذلك كي لا تتأثر حياة الكاهن بمطالب الحياة وتعقيداتها.

ثم يأتي في المرتبة الثانية الصرف على اليتامى من الأطفال والعجزة من الذين أقعدتهم وقرة الشيخوخة عن العمل في الحقول، وكان هؤلاء يعيشون إما في منازل أصدقائهم ويصرف لهم تكاليف إقامتهم قمحاً من الأجران يكفي لطعامهم واستبداله بأشياء أخرى يحتاجون إليها، أو يعيشون في بيوت خاصة بهم أمر فرعون ببنائها. وفي كل بلد كبير منزل للأطفال وسط الحدائق حيث يمكنهم اللهو والدربة فيها على غرس النبات والعناية به ويلحق بهذا البناء مزرعة يلمون فيها بما يجب أن يعرفوه عن الحيوانات إخوانهم في الخليقة. ويتدرب بعضهم ليكونوا صيادي أسماك أو بنائين. أما الفتيات فيتدربن على نسج الكتان ليصنعن منه ملابس وعلى الطهي وإدارة المنزل، ويشرف على هؤلاء الأطفال نسوة عاقرات يشتقن إلى الأطفال.

كذلك يقوم أطباء بزيارة المرضى الذين تسمح حالة أسراتهم برعايتهم في بيوتهم، أما إذا كان هؤلاء المرضى بلا أهل يرعونهم فإنهم ينقلون إلى المعبد ويبقون به حتى يستعيدوا صحتهم.

وثالثاً: يستخدم الخراج في الإنفاق على الحاميات والأساطيل سواء أكانت السفن تجارية أم حربية.

ورابعاً: يصرف من الخراج على الأشغال العمومية كتعبيد الطرق وشق الترع والطرق المائية وغرس الأشجار ونظافة المدن.

وكنا نجلس أنا ونياح لاستلام هذا الخراج بعد الفجر بساعتين إلى غروب الشمس ويتخلل ذلك ساعة للراحة وقت الظهر. وكنت أسمع من وراء أسوار الفناء أصوات الماشية في طريقها إلى المراعي الفرعونية وأزيز العجلات وهي تحمل الغلال إلى المخازن.

ولم يحضر هؤلاء لأداء الخراج المفروض عليهم خوفاً من سوط فرعون بل شكراً لصولجانه، وكانوا يحضرون وكأنهم جاءوا ليقدموا هدية لوالديهم في عيد ميلادهما.

الفصل السادس

الاحتفال بالإله "من"

لما انحسرت مياه الفيضان عن الحقول وأكسبت الأرض قوة وصلاحية للبذر احتفلت البلاد بعيد الإله "من" إيذانا بافتتاح الدورة الزراعية الجديدة، فذهبت و"نياح" إلى معبد "أتت" في عربتين رسميتين، وتبعنا النبلاء وقواد الجيش ثم الوزراء في محفاتهم، ووضعت على رأسي التاج الأبيض تاج الجنوب، ووضع "نياح" تاج الشمال الأحمر.

ووضعت في الفناء الأمامي ثلاثمائة جرة من جرار الغلال في ثلاثين صفاً كل صف فيه عشرة جرار، وفي أيام والدي الذي كان كاهناً شافياً وفرعون في نفس الوقت كان هو الذي يقوم بنفسه ببث الحياة في غلال الجرة الأولى، ولكن الآن كان الكاهن الأعظم للإله "نياح" يقوم بهذه المهمة، فبفضل إرادته يجعل روح النبات في الغلال تتحرك وتنتشر بسرعة فيشق الزرع الأرض حاملاً محصولاً جيداً وكذلك يعطي البلاد حصاداً وفيراً. وسار الكاهن الأكبر بين صفوف الجرار يتبعه تسعة من الكهنة الصغار وكان يقوم هو ببث الحياة في الجرة الأولى من كل صف على حين يقوم التسعة كهنة بنفس العملية في التسع جرار الأخرى.

وبعد الاطمئنان على هذه البذور توضع الجرار على عربات، كل عربة يجرها ثلاثة ثيران بيضاء اللون مزينة بالزهور وعلى قرونها قطعة صغيرة من الذهب في أعلاها ثم طلى الباقي باللونين الأخضر والأحمر، ثم يؤتى بعد ذلك بتمثال الإله "من" في صورة إنسان منتج ويؤتى به من المعبد محمولاً على محفة من خشب غطيت برقائق الذهب.

وسرت أنا و"نياح" في طليعة الموكب وقد حمل التمثال أربعون شاباً من الكهنة الشبان وطافوا به حول حدود مدينة "من – أنت – أس" وكان يقف كل من أصحاب الحقول في انتظار نصيبه من الحب وبمجرد استلامه إياه يبذره في الحال. ولذا كنت ترى وراء الموكب الحب وقد انتشر على الأرض وتساقط عليها كأنه مطر من ذهب. وكان يحيط طريقنا جمع كبير من الناس كان من بينهم أطفال ومعهم الماعز، ونساء يحملن أقفاصاً بها بط وآخرون قد أحضروا بقراتهم كي يقع عليها ظل الإله "من" فتكتسب خصوبة وكانت الناس تنشد الابتهالات لهذا الإله في أثناء سير الموكب قائلين:

أيها الإله "من"... يا من رحمت الإنسان في وحدته هب "أرض كام" خصوبتك... دع الأرض تستقبل البذر في بطنها وتخرجه نباتاً جميلاً حتى بصيرة الإله "رع"... امنح غصون أشجار الفاكهة قوة حتى تقوى على حمل محصول البساتين... دع أشجار الكروم تزين أوراقها بعناقيد العنب التي تتلألأ كالجواهر... هب عجولنا القوة حتى تدر البقر لبنها. امنح البط صغاره حتى يكون وراءه الكثير فوق البرك ودع الطير البري يملأ الغاب.

نبتهل إليك أن تجعل "أرض كام" مأواك ومسكنك حتى ترسل إلينا ذريتنا من بين أولئك الذين أحبهم قلبك".

وفي وقت الظهيرة تمد الولائم في القاعة الكبرى للقصر احتفالاً لهذه المناسبة، وكنت أنا و"نياح" والنبلاء والوزراء وقادة القواد نجلس على مقاعد الاحتفالات عند نهاية القاعة، ولا يجلس أمامنا أحد، وفي الجهة المقابلة لنا من القاعة مد ستار أبيض يمثل عليه مناظر بخيال الظل في أثناء الوليمة فمثلاً كان يبدو على هذه الشاشة حملة الخراج في موكبهم ومعهم قلائد الذهب وأنياب العاج ويتبعهم الظباء والماشية معلقة من أقدامها على قضبان، وسلال محملة بالفاكهة، وصبية تقود كلاب الصيد وفهود أليفة مشدودة في مقودها وكان على هذا الستار شريط من الأبيض والأسود دائب الحركة.

وكنت أزين رأسي بإكليل من الزهور، ويزين ثوبي الأخضر الفاتح وشى من الذهب على شكل سنابل قمح رمزاً إلى الخضرة النضرة التي يأتي بها النهر ستتحول ذهبية اللون بفضل حرارة الشمس، وكل زخرفة على قلادة صدري كانت تمثل زهرة أو نوعاً من الفاكهة. أما "نياح" فكان يلبس ملابس زرقاء عليها وشى على شكل أسماك وطيور وظباء رمزاً إلى النهر الذي تستمد منه الحيوانات الحياة تحت القمر.

أما بقية الضيوف فقد صفوا على جانبي القاعة وبجانب كل مقعد مائدة منخفضة وضع عليها الطعام وعليها زهرة لوتس، وجلس كل مع من

يود التحدث إليه، فجلس البعض جماعات أو زوجين والبعض فضل أن يجلس وحيداً حتى يمتع عينيه وبطنه دون أن يفسد أحد عليه هذه المتعة. ومن النساء من لبسن أثواباً ذات ثنيات من كتان رقيق شفاف.

وكانت الموسيقى تعزف في أثناء تناول الطعام، ولم تكن الموسيقى مثيرة كما تفعل أناشيد الجنود وهم مقبلون على موقعة بل كانت تشنف الآذان وتؤثر فيها كما تؤثر المياه في حديثة مجدبة. وقد امتزجت ألحان الناي والمزمار مع أنغام القيثارة وكانت الأنغام تنساب في الهواء فتجعله عليلاً كما تنساب المياه التي تسقط من عل في أنغام متناسقة.

وجلس وزير أرض الأرنب الذي بلغ السبعين من عمره وحده إذ أحب ألا يفسد أحد عليه متعة الطعام، إذ كان طاهوه معروفين بمهارتهم فكانوا يعنون بطعم ما يطهون كما يعني الرسام باختيار ألوانه ومزجها. وكان الوقت الذي يستغرقونه لإعداد سمانة يتمتع بها السيد الوزير بالنسبة له كبحر من بحور الشعر لملحن يعده للغناء.

وعلى يمين الوزير جلست زوجة أحد القواد في الحرس الفرعوني مع زوجها وامرأة أخرى؛ ولاحظت أنها نادت الخادمة التي كانت تحمل إناء كبيراً من القشدة الممزوجة بالعسل وبها بلح وقطعة من البرتقال جففت في الشمس، نادتها ثلاث مرات. ولم أدر متى تتبين أن حبها لهذا النوع من الحلوى لا يتمشى مع ثوبها الشفاف.

وجلس على يميني "بتاح – كفر" وقص علي قصة طويلة عن نفسه وعن أخيه عندما ركبا قارباً في النيل وقت الفيضان سارا به حتى جنوب "نخت – آن"، وكيف أن قاربهم صدم صخراً وبقى في جزيرة ثلاثة أيام إلى أن وجدهما والدهما. ولم أعر هذه القصة أذناً صاغية لأني سبق أن سمعتها منه مرات عديدة قبل ذلك. وكانت بيننا صداقة متينة ولو أننا كثيراً ما تحدثنا معاً وكثيراً ما وهبني من حكمته إلا أنه كان مغرماً بالتحدث عن توافه هذا العالم، فكانت أية مخاطرة صبيانية موضوعاً مشوقاً له يتحدث عنه كما لو كان يتحدث عن نصر عظيم واتاه في التغلب على شر من شرور الحياة. وهذا ليس بغريب فالحياة الدنيا هي لهو الناس جميعاً وحياتهم الروحية بالنسبة لهم ما هي إلا متاع. أما بالنسبة لحاملي النعال من أمثال "بتاح – كفر" فالطريق إلى الآلهة طريق يحملون فيه أعباءهم وما الحياة الدنيا بالنسبة لهم إلا متاع ودعة وراحة.

وانتشرت في الجو رائحة الفاكهة وأريج الزهور وكانت الخادمات يلبسن قمصاناً من الكتان الأخضر وعلى رءوسهن أكاليل من سنابل القمح الخضراء وكن يسرن بين الضيوف يقدمن الطعام لهم في صحاف. فكانت هناك طيور يغطيها ورق العنب وظباء صغيرة شوى لحمها وقدمت على سفود من الفضة، كما قدم البلح الطازج على أرز يتصاعد منه البخار والفريك والسمان المحشي بالتين وكان هذا هو الطعام المفضل لدي.

وكانت "سكت" والدة ابن "نياح" جالسة على المائدة الفرعونية وكانت قليلة الكلام وفي طعامها كانت أشبه بغزال يشرب من بركة تشم

منها رائحة لبؤة ضارية قريبة منها. وكانت عيناها واسعتين. نظرتها هادئة يبدو فيها الخجل والغباء معاً. وساورتني الحيرة وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي عما يجذب "نياح" نحوها. فلعله يسر لدعتها بالنسبة لقوته ومثله في ذلك مثل الأسد "ناتي" حين يسمح لقطة أن تشاركه مأواه.

وكانت هناك إحدى زوجاته التي تلي "سكت" في الأهمية وكان اسمها "تتاب" ولاحظتها وهي تأكل العنب، وذكرتني وهي تمد أصابعها لتأخذ العنب من الطبق.. ذكرتني بقرد يقبض على قرص عسل، ولو أني أحب قردي لم أشعر نحوها بأية عاطفة، فكانت عيناها جريئتين ومستديرتين ولما رأتني أنظر إليها أغمضت جفنيها، ويغلب على ظني أن "نياح" قد أسف على ما أولى أباها من شرف بأن ضم ابنته إلى أهل بيته.

ثم مرت فتيات بين الضيوف بسلال من بوص مليئة بزهور نضرة كي تأخذ النساء منها زهوراً بدلاً من التي يحملها وقد ذبلت نتيجة حرارة الجو. وقد شرب مراقب ملاحظي النهر كئوساً كثيرة حتى فقد اتزانه، فلما مرت إحدى الفتيات بسلة الزهور أخذ منها إكليلا وحاول أن يضعه على رأس السيدة الجالسة بجواره، ولم يكن رقيقاً أو رشيقاً في حركاته فأتلف لها نظام شعرها وكان يجب عليه أن يعرف تماماً أن قاعة الولائم الفرعونية ليست بمنزله ولا بحانة تحتسي الجند فيها الخمور.

ثم تقدمت فتيات عاريات ممشوقات القوام ورقصن رقصة ظل الرياح الشمالية. فوقفن بادئ الأمر ساكنات يمثلن حقلاً من القمح في يوم

سكنت ريحه، ثم همهمت الطبول الساكنة لتمثل الخمول الذي تبعثه حرارة الجو، ثم همست المزامير صوت نسيم الأصيل فتموجت أذرع الراقصات ليمثلن تمايل الحشائش في المروج حين يداعبها النسيم، ثم اهتززن في دعة كما تهتز أوراق الشجر عند بدء الزوبعة ثم علا صوت الجنك إيذانا بقوة الريح فتمايلت الراقصات ذات اليمين وذات الشمال كما ينثني نبات البردي نحو المستنقع، ولما مثلت الموسيقى صوت العاصفة أصبحت الراقصات في حركاتهن كأشجار واجهت أغصانها ريحاً عاتية فتبعثرت أوراقها وحملتها العاصفة هدية للسحب المتسابقة، ثم أخذ صوت الطبول يعلو وينخفض كأنه قصف الرعد وخيل إلينا أن العاصفة قد أحاطت بنا. ولما بدأت تخف أنغام الموسيقى بدأت حركات الراقصات الموزونة تعود إلى دعتها ثم بعثت الموسيقى أنغاماً هادئة فسكنت الراقصات وكأنهن أشجار في مساء ساكن لا ريح فيه.

وقبل أن تنتهي الوليمة شرب المدعوون وأنشدوا أنشودة سبق أن كتبها "نامر" الذي أنقذ سيده من السم، وإحياء لذكراه كنا نغني هذه الأنشودة كلما أقيم هذا الحفل إلى يومنا هذا، وملئت كئوسنا بخمر باردة للمرة الأخيرة وأنشد الجميع هذه الأنشودة:

نبيذ فرعون النادر.. في جرار من خزف..

تحمل سداداتها أختامه...

وعصير الكروم مخزون... في كهوف في الصخر...

حيث يولد الخمر... من عناقيد العنب وشمس الصيف الحارة...

فإن تجرعها شخص... لينسى العالم بأفكاره...

فإنها كسوط في يد فرعون يهوي على جبينه...

أو كشبل نام عند أقدامه ينهش جسده حتى تبدو عظامه..

دع الحمقى يشربون الخمر...

لينسوا متاعبهم وتختفي عن أبصارهم...

أما نحن فنشربها... في سبيل الحكمة والشجاعة والحق...

وقهر الأعداء... ونشر النور على الأرض...

الفصل السابع

"ديو"

حين عشت في المعبد كنت آمل أن أجد القناعة عندما أصبحت كاهنة وأمارس السلطة التي كنت أسعى لها، ولكن الآن بعد أن شاركت أخي في التاج المزدوج كثيراً ما شعرت بالرغبة في التمتع بقوة "ني –سي – رع" الهادئة فبعد طول صحبته رأيت أن حديث النبلاء والأتباع كعزف صارخ على مزمار منفرد من البوص بعد سماع موسيقى رائعة ائتلفت فيها أنغام الجنك مع الناي.

فكان علي دائماً أن أكون فرعون، بعيدة عن الناس، ذات عقل رصين لا يقطع على تفكيري أحد، وليس هناك من شخص أخلع أمامه ثوب السلطان سوى "نياح"، وليس لي أن أتبرم إذا بدا لي شعري في المرآة أشعث، أو ألقي بالشمع إذا كان رسم عيني غير نظيف، فعلي دائماً أن أحتفظ بهدوء تام لا يعكره شيء ما كما لو كان الضوء حولي يلمع كاللؤلؤ بدلاً من أن تشوبه بقع الغضب الحمراء. ولا يدري أحد أني كثيراً ما شعرت وكأني جنك شدت أوتاره شداً وثيقاً فإذا مسه أحد أخرج أنغاماً جافة، أما التيجان والشعر المستعار وملابس الاحتفالات كلها فقد بدت ثقيلة بعد لبس القميص في المعبد والشعر المسترسل، أما جلستي دون حراك على

العرش فقد أتعبت عضلاتي التي تعودت الحرية. وكنت في المعبد وحيدة على حين يحيط الناس بي الآن ولا يتركونني إلا عند نومي أو صلاتي في محرابي، يحيط بي أناس يجب علي أن أبدو لهم عاقلة رحيمة، أناس قد تؤذيهم كلمة مني تخرج من غير قصد ولا تؤذيهم إن خرجت من فم غيري، وكنت أنا موضع ولائهم وحكمتي موضع احترامهم، وكنت بذلك صورة أبقوا عليها في قلوبهم. وما كان يدري أحد بما أكن من شكوك ومخاوف أو كلمات حمقاء غاضبة لم تنبس بها شفتاي بل كانت صارخة مدوية في جنبات أفكاري الصامتة. نعم كان "نياح" معي ولكن كنت أشعر بوحدة، إذ رغم أن أخي "نياح" يلازمني إلا أن نفسي كانت تتوق إلى ذلك الرباط الذي يربط اثنين يكون كل واحد منهما بالنسبة للثاني ككفة الميزان.

ولم أخبر "نياح" بما في نفسي من شوق لأني خشيت عليه أن يحزن إذا علم أنه رغم أني أشاركه الحكم بجانبه مازلت أشعر بتلك الوحشة التي تشعر بها أولئك النسوة اللاتي يشعرن بالحنين إلى رجل يشاركهن حياتهن.

وما زال "ديو" في مخيلتي، وكم شعرت بالحنين إلى عودته، فقد كان الشخص الوحيد الذي عرفني لا ككاهنة أو فرعون بل عرفني كما أنا "سكيتا" فقد مضى على غيبته خمسة أشهر قمرية منذ أن سافر إلى المحاجر في الجنوب، والآن أصبح القمر بدراً مرة أخرى، وفي هذه الليلة سينتظرني عند البحيرة.

وبمجرد أن غابت الشمس آويت إلى حجرتي وأخبرت خدمي أني متعبة ولا أود أن أرى أحداً وألا يقترب أحد من حجرتي إلا إذا دعوته، ثم تركت القصر مخترقة الحديقة الخاصة التي انبعثت من أعشابها التي زرعها والدي رائحة زكية ثم سرت خلال الكرمة حتى وصلت إلى الطريق الذي يحفه الغاب، وقد أفزعني حيوان اندفع في ظلمة الليل، وعلى جانبي هذا الطريق بدا الماء من خلال البوص أسود كالقار.

ثم رأيت في صفحة الماء ضوءاً ينعكس من باب المظلة بجانب البحيرة. هناك كان "ديو" في انتظاري!

وكثيراً ما تقابلنا في هذا المكان في مرعى الإله "رع" وأخبرته أني إحدى وصيفات الملكة فأدرك أني لست حرة دائماً لأقابله، وفي الأيام التي لم نتمكن فيها من المقابلة كان يترك كل واحد منا للآخر رسالة في شجرة التين المجوفة التي كانت خارج سور حديقة القصر، وكان أحياناً يترك رسماً وأحياناً قصيدة من الشعر، وقد أرسل يوماً قصيدة تحوي المعاني الآتية:

البركة الجافة في فنائي...

امتلأت بالماء العذب وغطتها زهور اللوتس الزرقاء...

وذلك لأنك شملتها بنظرة منك...

وحديقتي الجرداء غطتها الزهور..

لأن أقدامك وطأت ثراها...

وأشجار كرومي مالت من ثقل عناقيد العنب...

لأن يدك لمست سيقانها...

وحقولي المهجورة أوت إليها الطيور المغردة...

لأنها سمعت صوتك العذب...

وجنكى المكسور يندفع منه النغم...

لأنه سمع غناءك..

وأصبحت داري المتواضعة قصرا

يزدان بأفنية وعمد...

لأنها أظلتك من شمس الظهيرة...

وأنا – الذي يعمل في الصخر...

سأكون أعظم من فرعون...

إذا منحتني قلبك.

فأرسلت إليه قصيدة رداً على شعره:

إن كنت أنا ريح الشمال العليل..

كان جبينك دائماً رطباً...

إن كنت جرة خمر...

فلن ينضب كأسك...

وإن كنت نهراً...

فلن تجف حديقتك...

وإن كنت نعلك...

فلن يشعر قدمك بحجر في طريقك...

وإن كنت سلة فاكهة

فلن تشعر بألم الجوع...

وإن كنت رمحاً...

فلن ينال منك عدوك في معركة...

ولكني ما أنا إلا امرأة...

وحتى قلبي لا أملكه لأمنحك إياه...

لأنك سبق أن استوليت عليه..

وبعد ذلك وجدت في شجرة التين المجوفة الأبيات الآتية:

رأيت حبيبتي نائمة

وكأنها حديقة هادئة تحت القمر

رأيت حبيبتي تقوم من نومها

وكأنها شمس تزيل الضباب من الأنهار

رأيت حبيبتي ترسل العبرات

وكأن عبراتها نجوم الليل

وسمعت حبيبتي تضحك

فكأن طيور الليل تغني وقت الظهيرة

ورأيت حبيبتي تمشي

وكأن النسيم العليل يداعب سنابل القمح

وكنا نسير سوياً بجانب النهر، حيث نسيم المساء العليل وحيث تتلاطم مياه النهر مع ضفته في موجات صغيرة تنبعث منها تنهدات خافتة. وقلت له "لم تهواني يا ديو، مع أنك لا تصدق كل ما أحدثك عنه ويمكنك أن تجد مائة راقصة أجمل مني؟ إنك لا تصدق أن الحب يطول مع الزمن بل تعتقد أنه أمر يطرأ فجأة بين اثنين ومثله في ذلك مثل قطع صغيرة بين خشب النخيل التي تحترق ولكنها لن تلبث أن تتحول إلى لهب مشتعل إن قلبتها عصى الموقد". فرد قائلاً "يا حبيبتي... لماذا دائماً تفكرين في أسباب الأمور وعلاقاتها؟ ألا يكفيك أني أحبك؟ إني لا أدري العلة في أن أجمل الراقصات تبدو وكأنها امرأة نوبية من طاحنات الغلال لكثرة ما اكتنزت من اللحم بمجرد أن تمر ذكراك في مخيلتي، وإذا رن صوتك في أذني بدا لي أعذب الغناء وكأنه صوت إزميل على حجر المسن، ولكني قانع بذلك.. فأنت جميلة حقاً ولو كنت مثالاً لرأيت ذلك بعينيك، وتلك القصص الذي تروينها لي أجمل من تلك الأساطير التي يلقيها الناس حول النار في وطني، تلك الأساطير التي تتحدث عن العالم حين كان في بدايته وحين كانت الآلهة تسير جنباً إلى جنب مع الناس في حدائق الغرب".

"لك الله يا ديو... ويا لبلدك المسكين...! كم أود أن أذهب هناك وأتحدث إلى قومك... هل لديهم هذا القدر الضئيل من الحقيقة حتى إنهم يعتقدون أن ما لديهم لا يعدو أن يكون أسطورة حاكٍ؟".

فقال "ستحبين هذا البلد إذا زرته وسيعلمك قومي كيف يمكن اقتناص الحاضر الجميل حتى يبدو كأنه الخلود كما يخلد الطير في طيرانه إذا عبرنا عنه في تمثال من حجر، وهناك ستبتسم عيناك وتعبر أغانيك عن فرحة قلبك، وسأضع على رأسك أكاليل الورود والياسمين وسنعدو سوياً على شاطئ البحر على نغمات خريره، وسنتسلق الجبال العالية حتى نرى السحاب عند أقدامنا، وننام تحت النجوم وسنسير سوياً خلال الوديان المليئة بالزنابق البرية... هناك سيكون لنا بيت أبيض وسط حديقة لم يسبق لك أن رأيت مثلها، حديقة على سفح جبل بها شلال يندفع الماء فوقه في خرير كالحداء يبعث الكرى إلى أجفاننا، وشرفات فسيحة تنحدر إلى البحر، وسيكون لنا حمام أبيض أليف يطير ويقف بأرجله المرجانية اللون على كتفك ويردد صدى رضانا وقناعتنا، وستكون طرقات الحديقة من السعتر وسياجها من الزهور والرياحين، وستتجمع زهور بلدي لتجمل هذا المكان كل في فصل نموه... سنكون معاً دائماً وسيملأ جمالك عيني إلى أن أخلده في تمثال أقيمه لك... وبعد موتنا بالآف السنين قد تعثر الناس على تماثيلك التي أقمتها لك وسيعرفون أن الإنسان ولو أنه أخذ يبحث عن الجمال منذ خلق هذا العالم إلا أنه عثر على هذا الجمال الذي ينشده في صورة امرأة عاشت في "ميناوس".

وكان "ديو" راقداً فمررت بيدي على جفنيه حتى لا يفتح عينيه ويرى العبرات تترقرق في مآقي، لم يكن ما قصه علي سوى أشياء رأيت في أحلامي أننا نقوم بها معاً، فقد رأيت وادي الزنابق البرية ورأيت أوراقها وكأنها قد نبتت في أرض "كام" ثم رأيتها في صحوتي لماذا قدر علي أن أولد

لألبس التاج على رأسي ولا أجد إكليل الياسمين إلا في أحلامي. فإذا كشف حقيقة أمري فقد أفقده في هذه الدنيا.. هل تراه يدرك الحقيقة وهو نائم أم ترى أحلامي ذاتها تتبدد هباء؟.. قد لا تستمر هذه السعادة مدة طويلة إلا أن ذكراها ستلازمني دائماً وإذا دخلت الحقول السماوية فيمكنني أن أعيش في هذا الحاضر مدى الخلود.

ومع أني أخبرت "ديو" أني لن أترك القصر أبداً إلا أنه لم يصدقني فقد ظن أن هناك مركزاً خلاباً لي في القصر يدفعني لأن أعلق أهمية عظمى على صداقة الملكة، وكان يأمل في أن أبهة القصر وبريقه ستنطفئ أمامي وسأرحل معه وأقيم في منزله في الدلتا. وكان يكره الملكة إذ كانت في نظره رمزاً للعظمة والمراسيم التي يحتقرها وكان يقول عنها إنها أنانية لا رحمة في قلبها ولا شفقة لأنها تضطرني للبقاء معها على حين يمكنني أن أجد السعادة معه، وحين كنت أدافع عنها وأحاول أن أقنعه بأن حياة فرعون ليست بالحياة الهينة لم يصغ إليّ، وكنت أعرف أنه لا بد وأن يأتي الوقت الذي يعرف فيه أني والملكة شيء واحد، وكنت في حيرة أي الصورتين ستبقى في قلبه: الملكة التي يمقتها أم المرأة التي يحبها.

وقد دعوت "بتاح" أن أنجب له طفلاً، ولما عرفت أن "بتاح" قد استجاب إلي أخبرت "ديو" بذلك وعندئذ قال إنه لن يتمكن إنسان أن يفصل بيننا وإنه سيطلب مقابلة الملكة ويطلب منها أن تمنحني حريتي لأكون زوجته، وكنت على وشك أن أخبره ولكن فات الوقت إذ كان علي

أن أعود إلى القصر، ولذا طلبت منه أن يقابلني في اليوم التالي ساعة الغروب وعليه ألا يطلب مقابلة الملكة قبل هذا الموعد.

وأدركت أن تلك اللحظات التي اختلستها مع "ديو" في حديقة لا يؤمها أحد، تلك اللحظات أشرفت على الانتهاء وعلي أن أترك هذا المحراب من الخضرة الذي لا يعكر صفوه أحد، وأسير معه في وضح النهار فهذه سنة الطبيعة تأبى البقاء على وتيرة واحدة فلا الشمس تتوقف عن مسيرها في السماء ولا تبقى حياة البشر دون تبديل. وقد سررت لأني سأشارك المحبين حريتهم وأشعر بأن دنياي قد عمها غرامي وأعرف معنى ما وضعه الإله "من" في عباده فمن الحماقة ألا نتمتع بنضارة الشباب ونتركه يضيع ثم نرضى بالزفرات إذا رأينا أغصان الأشجار عارية في ضوء القمر بعد أن جفت أوراقها إذ نتوق إلى ظلال وارفة في الصيف بعد ذهابه، وسنعمل أنا "وديو" معاً في رفعة وطننا "كام".

وأعددت خطة حياتنا معاً؛ فالمباني التي ما زالت في عقل "ديو" يجب أن تشاد وتبنى، فسيكون هناك معابد جديدة في أنحاء البلاد حيث يتعلم الناس كما تعلمت أنا، وسنجلب أخشاب الأرز لأبوابها من وراء البحار وستحمل السفن حجر الجير الأبيض من الشمال والجرانيت الأحمر الوردي اللون من المحاجر في "زا – آن" وسأجمع الصناع من القطرين والبنائين والمثالين والنجارين والكتاب، وسأغرس الحدائق حول هذه الأبنية، وسأنشئ أحواض الماء بين الأشجار وعلى مائها تنمو زهور اللوتس في شكل بديع، وسأقيم قصراً صغيراً في الجنوب حيث تعترض الجزر الصخرية

سير النهر، حتى الأثاث سيكون حسب ما يهواه "ديو" وسيكون هذا الأثاث من الخشب الغالي الثمن المطعم بالصدف واللازورد في زرقة السماء، وبه خطوط من العاج وشرائط من الذهب وعلى الستائر رسوم للأوز العراقي وهي تمرق فوق الغاب وتغطي رسوم زهور اللوتس الجدران وستكون أرض الحجرات من أخشاب الأرز، وسأجعل ديو مالكاً لضيعة كبيرة كما لو كان ابناً لفرعون من امرأة ثانية، وإذا رحل ليرى ما شيده فسيكون تحت تصرفه مركب له أربعون مجدافاً، وستكون له جياده وعربة يقودها بنفسه فقد سموت به إلى مصاف الآلهة.

ما أشد حماقتي عندما أسفت لأن أولد من بيت مالك، فإذا كنت مجرد "سكيتا" لأصبحت زوجته أمام الكهنة ولعجزت عن أن أمنحه شيئاً ما سوى حبي له فإذا كانت بصيرته مفتحة للنور لأخبرته من زمن بعيد عن تراثي، لأن توافه هذا العالم لا تغني شيئاً في نظر أولئك الذين هم على علم بأجنحة الزمن الهائلة واكتساحها البطئ للفضاء، فهؤلاء يرون الإنسان وقد تجرد عن منزلته ومركزه في هذه الدنيا ويعرفون أن الثراء قد يكون في ابنة صغيرة لصياد وأن الفقر قد يكون في آلاف من خزائن الذهب وأن المتحابين يسيران في الحياة في أشكال وصور مختلفة، ويتحدث كل إلى خله في لغات عدة، ولكن لماذا ينتابني الوجل من أن أفقد حبه عندما يعلم أن سكيتا وفرعون ما هما إلا شخص واحد؟ سيرى أن شعري له نفس اللمعان رغم أني ألبس التاج الأبيض، وأن يدي هما نفس اليدين الصغيرتين اللتين أحبهما رغم أن أصابعها ألفت حمل السوط والصولجان.

سأقابله غداً مساء، ولن يخفي قلبي بعد اليوم أفكاري المحبوسة ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك حجاب بيننا، ففي رفقته سأكتسب قوة أصبح بها أقدر على خدمة الإله، وسنضحك معاً على كلامه الذي تعود قوله عن كراهيته للملكة...

وفي صباح اليوم التالي وأنا جالسة أقضي بين الناس بدت لي امرأتان تجلسان على عرش واحد: "فرعون" التي تحكم بالعدل و"سكيتا" التي تحلم بالسرور حين يتبدد الخوف وتشعر بسعادتها وطمأنينتها حين تجد السلام الذي تنشده.

وكان اليوم حاراً وبدت الساعة طويلة، وحين كنت على وشك أن أنهي الجلسة نادى الكاتب بصوت جهوري: "هكسو – ديومنيس" وكانت عبارات الحب التي ستعبر له وتخبره أن حبيبته "سكيتا" هي "زا – أتت" ما زال صداها يتردد في قلبي وكانت عيناه وهو يتقدم نحوي متجهة إلى "ناتي" الرابض عند قدمي والآن سأعرف إذا ما كان حبه يدوم مع الزمن أو أن الأمل فيه ما هو إلا بركة ضحلة ستجففها شمس الحق وتصبح صحراء، وخطرت قصة "مينيس" الثاني في ذهني حين جلس دون حراك على عرشه وأخذ يرقب الوافدين نحوه ليعرف هل كانوا يحملون الهدايا أو الخناجر في أيديهم.

وأخيراً وقف "ديو" أمامي، ورفع رأسه ونظر إلي، ورأيت الحيرة في عينيه، وقد انقلبت إلى بغضاء ودون أن ينطق بكلمة واحدة أشاح عني وترك القاعة.

وفي نفس المساء بلغني أن "هكسو – ديومنيس" قد ترك العاصمة وأن النماذج التي أعدها للمباني الجديدة للمعابد وجدت ملقاة في فناء داره الخاوي بعد أن هشمها.

وبهذا تلاشت "سكيتا"، ولم تبق إلا الملكة.

الفصل الثامن

شريعة أرض كام

في اليوم الأول من العام الجديد كانت تعلن شريعة "كام" في جميع أنحاء البلاد فيعلنها رئيس الكهنة في كل معبد، والوزراء في عواصم المديريات، ورئيس البلدة في كل قرية، وقائد القواد في الحاميات، وربان السفينة في البحر أو النهر، وفرعون في العاصمة الملكية. وأعلنت القوانين في العام الأول من حكمي على الناس من فوق درج الفناء الكبير في القصر فقلت:

"اسمعوا صوتي.. لن يعترض إنسان سبيل شخص في القطرين يبحث عن الحكمة في المعبد أو يسعى إلى عدالة فرعون. إن سكان "كام" إخوة وسيعامل كل منهم الآخر كما يعامل أخاه، فلن يرفض إنسان أن يقدم الطعام لمسكين أو المساعدة لمريض، ولن يغتصب إنسان شيئاً لا حق له فيه، لن يخيف أحد طفلاً أو يجعل هرماً يقاسي بسبب ضعفه وإلا انصب عليه جام غضب فرعون الذي هو والد الجميع، وعلى كل أن يعامل خدمه كما يجب أن يعامل به: بالعدل والرحمة. كذلك على الخدم سواء في المنزل أو الحقل أن يثبتوا أنهم جديرون بأن يعاملهم أسيادهم هذه المعاملة. وعلى الرجال أن يعاملوا زوجاتهم بالمعروف حتى يفرحن لقدومهم ويسعدن بأن ينجبن منهم أطفالاً، وعلى النساء اللاتي يعشن مع أزواجهن أو إخوة أو

والدين أن يحسن معاملتهم وأن يعطينهم من اللسان حلاوة ولا يدعن ألفاظهن تخلق الشقاء في المنازل، بل يجب أن يجعلن كل من يشاركهن العيش سعداء.

ولا تدعوا حيواناً يقاسي من قسوة أو إهمال وسوء غذاء، وكل من يثبت عليه أنه أجاع حيواناً فسيبقى دون طعام اثنتي عشر يوماً، كي يدرك آلام الجوع فلا يسببها لغيره من المخلوقات وكل من له حيوانات أدمى ظهر أحدها بالضرب أو لعدم إحكام الطقم عليه فجزاؤه خمس جلدات على قدميه وخمس على ظهره على كل حيوان أهمل أمره.

"وأولئك الذين يهملون زرعهم حتى يجف ويذبل مع وفرة الماء سيصادر محصول أراضيهم جميعه ويوهب للمعبد كهدية دون مقابل حتى يعرفوا معنى القحط. وكل من يصطاد سمكاً أزيد من حاجته ويتركه على ضفة النهر حتى يفسد، سيحرم من إلقاء شباكه ثلاثة أشهر.

وكل تاجر تسول له نفسه أن يغش الناس في سلعة أو يجور في المقايضة يحرم من الاتجار في "كام" ستة أشهر، وإذا تكرر منه ذلك فيحرم من أملاكه وتوزع على الناس ولن يترك له منها إلا ما يكفي قوته كي يعيش ويسعى وراء رزقه بيديه وبكل ما أوتي من قوة.

وكل موظف أو وزير أو مراقب أسواق أو كاتب أو مشرف يثبت عدم نزاهته في شئون وظيفته ويعصى كلمة فرعون سينفى من أرض "كام".

وكل من عصى هذه الأوامر يعلم أن فرعون سيد الجميع وأنه سيرى أن الإنسان منكم يعامل كما يعامل غيره من الناس.

وإذا ارتاب أحدكم في حكمة أمر هو مقدم عليه فليسأل نفسه هل يصح أن يقدمه لفرعون أو لمن يمت لفرعون بصلة فإذا أجابه قلبه بنعم وارتاح ضميره إليه فليمض فيه وإلا فليكف عنه واعلموا أنكم أبنائي وأن ما يفعله كل منكم لأخيه يوجه إلي كذلك، فلا تنطقوا بكلام تخشون أن أسمعه، وعاملوا أولادكم كما لو كانوا أولادي أنا... وعاملوا حيواناً لكم كما تعاملون هذا الأسد الرابض عند قدمي... وتعهدوا زرعكم كما لو كان حديقة فرعون.

وجاهدوا دائماً حتى يمتد بنا الزمن ويأتي ذلك اليوم الذي يصح أن يقول كل منا فيه إنه ليس بيننا عاص أو من يعاني ألماً وليس هناك من يذرف الدمع بسببي ففي هذه السياسة تتمثل حكمة الآلهة وبها تتحقق أماني فرعون نحو شعبه.

الفصل التاسع

الحملة إلى بلاد "بنت"

بعد ستة أشهر من ارتقائي العرش، أتتنا الرسل بأخبار تقول إن أهالي "بنت" قد أغاروا على حدودنا الجنوبية ولم يرسلوا لنا الخراج هذا العام فخرج لهم "نياح" يعلمهم الحكمة وطريق الصواب ومعه عشرة آلاف جندي من الجيش الملكي الذي تحت قيادته مباشرة وهذا الجيش لا يستدعى إلا وقت الحروب فقط ويتبع طريقة خاصة في اختيار جنده، فكل نبيل محارب يختار مائة جندي من ضياعه، ويعتبر هؤلاء أصدقاء له لأنهم تزاملوا في طفولتهم ويتدربون على رمي الرماح والقتال بالسهام على يد نفس المدرب الذي درب سيدهم. وإذا لقى أحد منهم حتفه في ساحة القتال فتصبح أزاواجه وأولاده في رعاية هذا السيد كأنهم أحد أفراد منزله، وكان يمنح كل محارب بيتاً يسكن فيه هو وعائلته، وقطعة أرض يزرع فيها خضرواته، كذلك يوهب كمية من الغلال تكفي خبزه والمقايضة على سلع أخرى، ومعظم النبلاء يمنحون جنودهم جرة من الجعة كل شهر عندما يكون القمر بدراً، ولفة من الكتان الخشن، وأخرى من الصوف كل عام.

وقبل أن يتحرك "نياح" بجيشه استعرض فرقه فكان هناك خمسة آلاف من حملة القسي، وألف جندي من حملة الهراوات الغليظة، وألفان من حملة الحراب. وكان على رأس كل مائة جندي قائد وعلى رأسهم قائد

قواد، وكان يصحب هذا الجيش ألفان من حملة الخيام والغلال والطهاة وغيرهم ممن يعنون بالطعام والماء ومستلزماتهما وكان الجميع مسلحين بسيوف قصيرة وضعت في غمد وعلقت في حزام، وكانت هذه السيوف تستخدم في الصيد والحرب. وعلى رأس كل رجل غطاء من الكتان يقيه حرارة الشمس يشبه غطاء رأس أبي الهول وعباءة من الصوف كان يحملها كطرد أثناء السير ويتدثر بها في نومه. وكانت تزين أذرع القواد أساور من ذهب وعلى غطاء رءوسهم خطوط خضراء وقرمزية، ولكل قائد علمه يحمل رمزه ورمز إقليمه ويحمل أتباعه نفس الرمز على عصابة رءوسهم.

ولم يصطحبوا جياداً معهم في هذه الحملة إذ أصبحت الخيول نادرة بعد أن توقفت التجارة مع "زوما" وكانت الذكور فحولاً من الخيل تشترى من "زوما" مقابل ذهب أو عاج أو عطور أو الدهنج ولكنهم لم يبيعوا لنا أنثى الخيل خشية أن تنتج الخيل في بلادنا فيضيع عليهم هذا المورد من الدخل، ولكن في حربنا معهم أسرنا خمس فرسات فأصبح عندنا خمسين حصاناً في الإصطبلات الملكية فكانت هذه من بين الأشياء الثمينة التي نقتنيها وكنا نرعاها رعاية مختارة لأنه إذا قدر وأصابها طاعون حرمنا من الخيل في أرض "كام" ولذا كانت العجلات الحربية الخاصة بفرعون والقواد العظام تجرها حمير بيضاء. وإنا لنأمل أن نقهر بلاد "زوما" يوماً ما والبلاد التي تقع شرقها وعندئذ يتهيأ لكل نبيل أن يقود خيله بنفسه.

وصاحب الجيش أربعة أطباء وكاهنان من الكهنة وست فتيات من أصحاب الجلاء البصري. وكانت ترد إليّ من المعبد كل يوم أخبار تقدم

"نياح" وكم صليت للإله "بتاح" متضرعة أن يحميه وأن يعيده ظافراً منتصراً.

وسار الجيش نزلا في النهر في تسعين سفينة، وعند مصب النهر أبحروا شرقاً إلى أن وصلوا إلى الأرض الضيقة بين البحرين، وهنا نزل الجيش وسار أربعة أيام إلى أن وصل إلى البحر الضيق حيث كان في انتظارهم أسطول مكون من مائة سفينة، وأبحرت بهم السفن متجهة نحو الجنوب الشرقي في محاذاة الشاطئ، ثم نزل الجيش إلى البر على الشاطئ الشمالي لبلاد "بنت" حيث لا توجد حامية قوية لأن أهل بنت كانوا يعتقدون أن أي هجوم من "كام" سيأتي من جهة الصحراء.

وكان مقر حكم "شبستيز" ملكهم على بعد مسيرة أربعة أيام من الشاطئ، وقسم نياح الجيش إلى جناحين حتى يطبقا على المدينة من الجانبين في وقت واحد. وكانت جيوش الأعداء عبارة عن شرذمة غير منظمة ولذلك سرعان ما هزموا أمام تقدم جيوشنا المنظمة التي تدفقت نحوهم دون رحمة كما تتدفق مياه الفيضان. وبعد أن حاصر "نياح" المدينة انتظر كي يستسلموا لأنه ذهب إليهم ليريهم قوة "كام" لا ليهلك أهلهم.

وفي اليوم السادس جاء "شبستيز" وقدم الخراج وسجد عند قدمي "نياح" ولمست جبهته قدم "نياح" ليظهر خضوعه وليقسم يمين الولاء لبلادنا "كام" وأخبر نياح أنه على استعداد لأن يقطع أيدي ٢٠٠٠ من المحاربين ليعبر عن أسفه لأنه رفع يده ضد بلاد "أتت" ولكن "نياح" أجابه

بأنه يأسف أن يقوم "شبستيز" بعمل يشينه ألفي مرة، فبدلاً من ذلك عليه أن يظهر ولاءه بأن يطبق قوانين كام في بلاده.

ومكث "نياح" في مدينتهم أربعين يوماً حضر أثناءها اجتماعاً من رؤساء القبائل والقرى وأدوا يمين الطاعة له بصفته سيدهم الأكبر، ثم عاد نياح بعد ذلك مخترقاً الصحراء إذ أراد زيارة "ناكش" أما سكان "بنت" الذين اعتبروه مخلصهم من الاستعباد فقد حزنوا لفراقه وأرسلوا مائتي حمال مع الجيش ليحملوا له الخراج.

الفصل العاشر

الحلقة الذهبية

عم السرور شعبي لأني سأرزق طفلاً، إذ سيعترف به منتمياً إلى بيت فرعون من الجهتين فلن يكون ابني فقط بل سيكون ابن "نياح" كذلك، والآن أصبح جسدي يربطني إلى الأرض بعد أن كان خفيفاً وعندما كانت تسلك روحي طريقها إلى الآلهة لم تعد تأتي بأية ذكرى، ولذا دعوت أن يعود "نياح" قبل أن يولد طفلي وأن يجلس تحت الميزان حيث جلست وحدي.

والنسوة اللاتي فقدن من أحببن لم يكن عليهن إلا أن ينمن فيلقين أحبابهن في أحلامهن إلا أن "ديو" قد هجرني حتى في أحلامي، لذلك رأيت ألا أتمادى في حبه حتى لا يملأ حبه قلبي فيحجب حكمتي وهما ملك لشعبي، وألا أكرهه لأني حاولت أن أذكر أيام حبي القصيرة الغابرة فبدت كأنها لامرأة غيري وتطلعت بعينين غير عيني إلى طيفين يبدوان وكأنهما في أغنية من أغاني الحب.

وعندما تركت المعبد صحبني "تحوت – ترا – داس" ككاتبي وما زلت في نظره تلك الفتاة التي شاركته حبه للألفاظ المنمقة، وكان يحكم وظيفته على بينة من آلامي وأحزاني فكان يقول لي تذكري يا "سكيتا" كيف

علمتك أن تعبري عن سرورك بكلمات براقة حتى يصبح كقرص لامع تشع منه السعادة وتخترق ظلمة أيام الشقاء وسترين بريق سرور الماضي الذي لا يخبو بجانب تلك الأحزان التي لا تلبث أن تنقضي فلا تسمحي للأحزان أن تلازمك فتظلم السبيل أمامك بضجيجها، بل اجعلي منها تمثالاً جامداً لا حراك فيه بعد أن تتركيه بعيداً عنك وكأنك تمثال أقيم على طريق مهجور ولذلك حاولت أن أسري عن قلبي الحزين متأسية بتلك الكلمات الرقيقة:

في "ميناوس" يتفتح زهر الياسمين الأبيض..

ولكني لم أره ذابلاً على أغصانه..

وينساب الريح في وديان الزنبق.

ويبعثر الأوراق زهوره التي فقدت إشراقها..

ويغطي السعتر الأرض برداء أرجواني..

ولكن لن تطأه أقدامي..

حتى لا يضيع شذاه..

تبدو الشواطئ بيضاء في خرير أمواج البحر..

ولكنها لن تحمل ذكرى مروري..

لن تسجل خطاي..

والقمر يلقي بظل الأشجار..

في حجرة خاوية كقلبي..

وعلي أن أرخي ستائر النوم حولي..

ولو أن خرير الماء لا يصدح خارج نافذتي..

حتى أجد السلام فيما وراء دنياي المريرة..

عميقاً أعمق من سبات المنية..

وعندما حان الوقت لأن يترك طفلي جسدي ويخرج إلى هذا العالم كان "نياح" على بعد مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة. وكم اشتقت إلى أن أكون مثل غيري من النسوة يلدن أطفالهن وبجوارهن حب أزواجهن يشجعهن ولكن قدر لطفلي أن يولد على كرسي الولادة الملكي وأنا أتحدث مع الكهنة الحاضرين معي حتى أريهم أن إرادتي لها السيطرة التامة على جسمي، وأن آلام الولادة لن تحملني على الصراخ، وكان معي "بتاح – كفر" وكان همه أن يطمئن على صحة جسدي، وبمجرد نزول الطفل كان عليه أن يتولى الإشراف على من يرعاه، وبقي معي كاهن طبيب ليقوم بتقوية الطفل إن أنهكته ولادته. وجلست "مآتا" ورائي لتأخذ الطفل وتغسله في زيت دافئ ثم تلفه في قماش من كتان معقم كما أخذتني بين

ذراعيها عندما ولدت وكان معها سيدة أخرى تدعى "باكي" ومهمتها أن ترعى جسدي حين أخففه من سيطرتي عليه وأتركه لرعايتها. أما ثوب الولادة فكان عبارة عن قميص فضفاض يتدلى حتى الأرض ويرتفع حتى رقبتي ويضم حولها بدبوس ذهبي على شكل قمر مجنح وتحت أكمامه الواسعة غرست أظافري في راحة كفي. ورغم ما سببه ذلك من ألم إلا أنه سرى عن عقلي قليلاً كما تنسى طعنة من سيف القلب أحزانه. وشعرت بالعرق يتصبب على وجهي ويسير كما تسير أقدام الفراشة ولم أتصور أن هناك آلاماً في الدنيا مثل هذه الآلام إذ كانت تتجمع في موجات قرمزية وتصطدم بإرادتي التي جمدت كالصخرة ولكن قبل أن تكتسح إرادتي أمامها كانت هذه الموجات من الألم تتراجع لتتجمع وتصبح أشد مما كانت قوة وإيلاماً ولم يدر كاهن من الرجال قسوة قوة جذب الأرض للطفل على امرأة ورغم كل ذلك كان علي أن أتحدث عن أمور كهنوتية في تؤدة واتزان دون أن تنحبس أنفاسي.

فتحدثت عن الطريق الجديد بين "من – أتت – أس" و"أبيدوا" وحاولت أن أذكر كل جزء من هذا الطريق وأن أهدئ من روعي حتى يسلك العقل مسلك الهدوء، وشعرت أن ضبط نفسي والسيطرة عليه أشبه بلهب وددت الإبقاء عليه في ليل عاصف تعمل الريح على إطفائه وأصبح في بحر من الظلمة والآلام، وفكرت في الأمهات وما يكابدنه من آلام وأتصور ما أنا فيه وأذكر أن كثيرات قد شاركنني هذه الآلام، ولكن لا يدري بالآلام إلا من يكابدها، فهي سجون يقاسي صاحبها وحده في نطاقها دون أن يعلم به أحد.

وسمعت صوتي ما زال يتحدث عن أشجار وارفة عندما جاءتني آلام كحد السيوف ولد معها طفلي وسمعت صراخه، وعندئذ نظر إلي الكاهن الطبيب نظرة أبعدت روحي عن جسدي فشعرت بالهدوء والراحة. وانتعشت وأنا بعيدة عن الأرض، وعندما عدت إلى جسمي وجدته ضعيفاً وفتحت عيني ورأيت "باكي" ترقبني وهي جالسة بجوار فراشي، وقالت لي إن "بتاح – كفر" قال إن طفلي جدير بأن يحمل السوط وسيحمل اسم "دن" الذي كان يحمله عندما كان جندياً قبل أن يولد ولو أنه عاد إلى الأرض في هيئة طفلة صغيرة.

وكان شعر ابنتي في لون النحاس المشوب بالصفرة كما لو كان شعر والدها النحاسي اللون قد خلط بالذهب ولذلك سميتها "تشيكا".

وعاد "نياح" وعمر ابنتي ثلاثة أيام، وبمجرد وصوله إلى القصر حضر إلى حجرتي وكانت عيناه مصوبتين إلى شعر الطفلة الأحمر وهو واقف بجوار فراشي وفي صوت بارد ناعم كالصخر قال "أنبت حوروس شعراً أحمر بعد رحيلي". ثم استدار ليتركني فناديته فعاد على مضض ووقف في انتظار حديثي. لقد كنت في نظره فريدة بين نسائه ومع ذلك كنت ثائرة وغاضبة وأخذت أفكر في أمري.. ما خطب نسائه الناعمات؟ فهن أشبه بأربعة ببغاوات ثرثارة، منظرهن جميل ولكنهن غبيات وكل هدفهن في الحياة التزين بالكحل يضعنه على جفونهن ويطلين أظافرهن. نعم إن أصابعهن ناعمة ولكنها فارغة كالتماثيل وكن أشبه بالهرة في حبهن للمتعة ولكنهن أقل روية وعقلاً منها. وإذا تصادف وذهبت إلى غرفهن انزوين لرؤيتي، فأنا فرعون

وهن لا شيئ، ولكن لماذا أهتم بهن، مع أنهن بالنسبة له كعلبة قسي جميلة أو ككلب حاد الشم أو كعجلة حربية تدور أسرع من غيرها، وليس بغريب أن يكون "نياح" عطوفاً عليهم ويقدم لهن العاج والقلائد والزيوت الغالية. وكن يخشينني، فأنا فرعون القطرين التي يحيط بها البحر والصحاري والجبال كما أن روحي يمكنها أن تنفصل عن جسدي وتذهب إلى أعتاب الآلهة. ورغم كل ذلك ما زلت أشعر بالغيرة من هؤلاء النساء اللاتي لا يمتزن عني ولا تتعدى سلطتهن جدران الغرف التي يعشن فيها، كما لا يتعدى عرشهن حصيرة على فراشهن، ومثلي في غيرتي منهم كمثل من يحسد الثيران وهي تقنع بما يقدم لها من غذاء في حظائرها، وهل يشعر "نياح" بالكراهية لابنتي ولأي مدى؟ إن له ثلاثة أطفال أعرف أمهاتها.

حفظت هذه الأفكار مدة طويلة، وأحطتها بسياج قوي من الكتمان ولكنها بدأت الآن تتسرب من بين أسوار عقلي المحكمة. وكان جسدي حبيس إرادتي لأشهر قمرية عديدة وبعدها ضعف سيف إرادتي وأصبح وكأنه وضع في غمد من قماش ثقيل، وأخذت الأفكار تحطم قيودها وتتقدم بقوة لتغزو الأماكن الخفية في شغاف قلبي وكان نياح في انتظار جوابي.

ورغم أني كنت في نظره الوحيدة بين زوجاته إلا أني قلت له "أظن أنه ليس بين نسائك من لها مثل هذا الشعر الأحمر حتى تنجب لك طفلاً مثل طفلتي". ولما سمع هذا الكلام تركني وحدي، ولما بلغت "تشيكا" اثنتي عشر شهراً مرضت بطاعون اجتاح البلاد وأوشكت على الموت، فكان وجهها وجسدها مغطيين بطفح أزرق وكانت حرارتها في ارتفاع تارة

وانخفاض أخرى. ولم تتناول من الطعام سوى اللبن والنبيذ يقطر في فمها عن طريق بوصة توضع بين شفتيها. وبقى نياح يرعاها ليلاً ونهاراً وأحست البنت بالهدوء بين ذراعيه، ذلك الهدوء الذي لم تجده بين ذراعي، وفي اليوم العاشر بردت جبهتها وغطاها العرق وهنا قال "بتاح –كفر" إن الخطر قد زال عنها وأنها ستعيش ولما استعادت قوتها كان "نياح" ملاذها إن أصابها ضر أو مكروه، وكانت تشركه معها في سرورها في لعبها بدميتها وهكذا أصبحت تلك الطفلة التي كانت طعنة للصلة بيني وبينه: أصبحت أقوى حلقة من حلقات السلسلة الذهبية التي تربطنا.

وأسفت كلما فكرت أني أشحت بوجهي عن أطفاله من نسائه الأخريات ولذا ترددت على مساكن زوجاته وتبادلت معهن الحديث وتعلمت كيف أدرك وسائل تفكيرهن، وقدمت لهن الهدايا وأعطيتهن الحلي وكنت في بادئ الأمر أنظر بعين الاستخفاف إلى سرورهن إن أعطيتهن ثوباً أو سواراً أو إناء عطر جديدا ولكني أدركت أن هذه الزينة هي سلاحهن وكأنها الرمح في يد الجندي أو اللوح في يد الكاتب، وحبوت أطفالهن بالحب والرعاية كما فعل "نياح" مع "تشيكا".

وهكذا تعلمت أن الغيرة أمر مرذول، لأن الحب للشخص الذي تأكل الغيرة قلبه مثله كمثل طوق من الفضة قد تعلقت به يده، فإذا فقده ظن أنه أصبح صفر اليدين.

وسأعلم هذه الدروس جميع الرجال والنساء الذين يقاسون من هذا الكأس كأس الحزن الذي كان مريراً على شفتي وكثيراً ما قاسيت منه.

الجزء السادس

١– رحلة عبر البحر

٢– قصر كيوداس

٣– أرتيميوديز

٤– فنميناوس

٥– فناء العجول المقدسة

٦– طقوس المعابد في ميناوس

٧– الساحر

٨– احتفال بوسيدن

٩– الرحلة إلى الوطن

الفصل الأول

رحلة عبر البحر

عندما بلغت "تشيكا" ثلاثة أعوام وفد "كيوداس" ملك ميناوس في زيارة رسمية لبلادنا "كام" إذ كانت تربط بلدينا أواصر صداقة قوية، ووعدنا أن نرد الزيارة له في مملكته في جزيرتها خلال العام، وبعد عام من زيارته أي في السنة الخامسة من حكمي، وفي اليوم الثاني من الشهر الرابع ودعنا "تشيكا"، وأمي، وكم كنت أود أن يحضرا معنا إلى ميناوس، ولكنها كانت ستقوم برعاية شعبنا فترة غيابنا، أما "تشيكا" فستكون أسعد حالاً منها لتلهو في حرية في أرجاء القصر أكثر من أن تبقى أياماً حبيسة على ظهر سفينة ضيقة.

وقد اشتقت زمناً طويلاً إلى رؤية ميناوس ولم يقلل من تمتعنا بهذه الرحلة سوى أنه كلما تقدمنا زاد البعد بيننا وبين من نحب، وكانت "كام" هادئة بعد أن أخضع "نياح" بلاد "بنت" فلم يجرؤ أحد على أن يتحدى قوة "أتت"، ولكن لما بدأ المجدفون يحركون المركب الملكي نزلا في النهر، ورأيت "تشيكا" تضؤل كلما بعدت المسافة وهي ممسكة بيد والدتي على رصيف الميناء تمنيت أن يهدد الخطر بلادنا حتى أجد مبرراً لإصدار أمري لربان السفينة أن يعود بنا في الحال.

وكانت يتبعنا ست مراكب، وصاحبنا "بتاح – كفر" و"زرتر" وفتاتان من صاحبات الاستشفاف، وأربع وصيفات وعشر خادمات وستة من شبان النبلاء وعشرون من أتباع "بتاح" و"زيب" وثلاث قواد على رأس ثلاثمائة جندي من جنود الحرس الملكي وثمانية موسيقيين ومعهم ثلاث من آلات "الجنك" واثنان من "الفلوت" وثلاث من الناي وكلهم كانوا يجيدون الغناء. ومن بين الهدايا التي أخذناها إلى الملك شبل أليف يبلغ عمره أربعة أشهر وصندوقان من خشب الأرز ملئا بالذهب، وعقود من اللازورد والعقيق والإماتيست، وخمسون ثوباً من الكتان الرقيق وأربعة صناديق مزينة بالذهب والقاشاني واثنا عشر نابا من العاج.

واستغرقت الرحلة ستة أيام حتى وصلنا الشاطئ، وذلك بسبب توقفنا كل يوم لنستقبل الناس المجتمعين كما كان يفعل والدي في رحلته إلى "ناكش" حين اصطحبناه.

وكان أهل الشمال أقصر قامة من أهل الجنوب ولكنهم أكثر بدانة منهم وأصواتهم أكثر خشونة وكلماتهم أقل رنيناً. وفي الشمال تسقط الأمطار في مواسم معينة ويندر أن يقل الماء فيها، ولذا كان إقليماً تكثر به مخازن الغلال، وقبل موسم الحصاد تمتد حقول القمح إلى نهاية مدى البصر، وكانت المدينة الرئيسية في هذا الإقليم تقع على المصب الشرقي للنهر قرب البحر وتسمى "أس – آن" وأطلق اسمها على حامية الشمال، وكانت تعسكر الحامية خارج المدينة في الجهة الشرقية منها.

ومن هذه المدينة تحكم الدلتا، وفي الأيام التي لا تنمو فيها زهور اللوتس والبردي يأوي النحل بين الغاب وكان ينتقل ملك الشمال إليها، وكان يسكنها في العصر القديم الوزير "هورم –كا" وكان محارباً عظيماً كما كان حصيفاً حكيماً. وسبق أن اشترك مع والدي في الموقعة الأخيرة ضد بلاد "زوما" وكان له ولد صغير في الثامنة من عمره اسمه "هورم –كا" أيضاً وقلت لهذا الغلام أن يعمل جاهداً ليكون كأبيه فيصبح يوماً وزيراً في أرض "كام"، وأعطيته نموذجاً لمركب مصنوع من خشب الجميز له مجاديف من العاج مثل تلك السفن التي كان يصنعها "نياح" في صغره، وأعطيت أخواته دمي ووالدته عقداً من الذهب واللازورد.

ومكثنا عندهم ثلاثة أيام اجتمعنا فيها بالشعب الذي حضر من أراضي الغلال ليرى فرعون. وفي اليوم الرابع ركبنا سفينتنا الكبرى التي أخذت تمخر عباب البحر وكان شراعها أحمر كما كان وجسمها الأسود مزيناً باللونين الأزرق والذهبي، واصطحبنا معنا خمس سفن أخرى من "كام" وأرسل "كيوداس" ثماني سفن من أسطوله ليرافقنا وكانت سفنه أعلى من سفننا إلا أن أشرعتها أصغر وكانت مقدمة كل واحدة منها على شكل سمكة لأن البحر عندهم هو العنصر السائد لديهم.

وأبحرنا نحو الشمال الشرقي ثلاثة أيام حتى لاح لنا الشاطئ، ثم سرنا في البحر مع ريح مواتية ثمانية أيام أخرى نحو الشمال، وكان على يميننا تلال تبدو عند الأفق، ومررنا بثلاث سفن من سفن "كام" متجهة جنوباً تحمل خشب الأرز.

ولم أشارك "نياح" سروره عندما هاج البحر وماج إذ كنت أود دائماً أن تسير السفينة الصغيرة سير طائر البحر والكبيرة سير الأوز العراقي في النهر، وكنت أمقت العواصف كتلك التي واجهتنا الآن، والتي تشق السفينة طريقها فيها في يأس بين أمواج كالجبال، وكلما اشتدت العاصفة زاد سرور "نياح" فقد وقف ساعات عند الدفة وبدا عليه البشر من ضربات الرذاذ على بشرته، وغطى الماء المجدفين الذين أمسكوا بالمجاديف في قوة حتى تقاوم مقدمة السفينة الرياح، وكنا إذا أغلقنا باب ممرات السفينة ونوافذها خيل إلينا أننا في جوف سمكة كبيرة ابتلعتنا وإذا فتحناها اندفع الماء مما زاد من عناء الرحلة، ورقدت وصيفاتي في فراشهن من دوار البحر وتمنين من الإله "بتاح" الموت حتى يرحمهن مما نحن فيه، ولم أشعر بدوار ولكني تمنيت أن أكون إلهاً حتى آمر الأمواج فتسكن.

وبعد ليل طويل هدأت العاصفة وعاد البحر هادئاً، ومشطت وصيفاتي شعرهن وغسلن دهان عيونهن الذي سال على خدودهن، وأخذت كل منهن تنسل إلى سطح السفينة وجلسن في الشمس في حالة يرثى لها، يمتدحن البحر وجمال منظره، لكن مديحهن له كان في شيء من الحذر، وكن أشبه برجل مر بقفص فيه فهد ونظر إلى منظره في خشية من أن تكون قضبان القفص ضعيفة.

وفي اليوم الثاني عشر رسونا في جزيرة كبيرة هي إحدى مديريات "ميناوس" وتزودت فيها سفننا بالخس والفجل والرمان والعنب والبرتقال وجبن الماعز والزبدة وسردين محفوظ في الزيت. وهنا كانت حقول الكرم

التي تنتج النبيذ المشهور الذي يرسل منه مائة جرة هدية كل عام إلى "كام" كما رأينا حقول البنفسج الذي يستخرج منه زيت الطيوب والدهون. وقضينا الليلة في منزل المحافظ وقبل رحيلنا أهديناه سوارين من الذهب لذارعه وعقداً لامرأته.

ثم أبحرنا شمالاً حتى رأينا الشاطئ الجبلي الذي لازمنا على يميننا خمسة أيام ثم سرنا جنوباً مارين بجزيرة "باكس" حيث تصنع سفن أسطول ميناوس في مينائها الجميل، ويربى على مرتفعات الجزيرة نوع من الماعز له شعر ناعم طويل يصنع منه أحسن أنواع الأقمشة الصوفية. وكانت الريح مواتية ولم نتوقف بل سرنا جنوب غروب الشمس حتى رأينا جزيرة "ميناوس" الكبيرة. وبمجرد أن قاربنا الشاطئ خرج أسطول يضم خمسين مركباً من الميناء ليرحب بنا، وكان لون شراع أكبرها الأحمر والأبيض وهما اللونان الملكيان في ميناوس.

ولما أصبحت المركبان الملكيتان كل في محاذاة الأخرى أشبه بثورين في حظيرة واحدة، ألقى جسر من الخشب ليصل بينهما فعبرناه لنحيي "كيوداس" وكان يلبس رداءً أبيض وحافته مزركشة بالذهب واللون الأحمر وشعره البرونزي الذي استرسل في حلقات على كتفيه قد وضع داخل عصابة شبكة بسيطة من الذهب، وعلى قدميه نعل مطعم بحجر الأماتيست وعلى الأصبع الأول من يده اليمنى وضع خاتماً فيه فص كبير من حجر الأماتيست كذلك. وبمجرد أن خطونا على ظهر السفينة بدأت

فتيات لابسات قمصاناً شفافة لونها لون زهرة اللوز تلعبن على القيثارة والصنوج وأنشدن أنشودة ترحيب بنا:

"أشرقت الشمس بعد ليل طويل...

وعم الشجر العاقر براعيم الثمار...

وغنت الطيور بعد صمتها بصوت يجلجل في الأرجاء...

وهدأ البحر حتى أصبح كبحيرة وسط حديقة غناء..

وملأت الأنهار الأسماك بلونها الفضي...

حين سمعت نشيد الترحيب بفرعوني "كام" وهما يشرفاننا بقدومهما...

وأخبرنا "كيوداس" أن الملكة "ارتميودس" في انتظارنا للترحيب بنا في القصر. وكان الميناء غاصاً بسفن صغيرة جاءت لتحيتنا والمركب الملكي يسير نحو رصيف الميناء، وكان الشاطئ غاصاً بسكان القرى المجاورة وقد اشرأبت أعناقهم فوق أكتاف بعضهم البعض ليرونا، وكانوا يتحدثون في انفعال وحماس وكانوا يرتدون أبهج الملابس ذات الألوان الزاهية وهي وإن لم تكن قوية وواضحة كملابس أهل "كام" إلا أن كل لون منها كانت له درجاته. وكنت كلما نظرت إلى أحد رأيت ابتسامة ترتسم على وجهه تنطق بالترحيب بنا في صداقة بريئة كصداقة الأطفال، وشعرت بأن كلا منهم قد عمته البهجة لزيارتنا بلادهم.

الفصل الثاني

قصر كيوداس

ركبنا محفة وقطعنا المسافة إلى القصر في ساعتين، وعند كل منحن من منحنيات الطريق ظهر لنا منظر جميل فهناك شواطئ البحر في بياض زبد الأمواج وخلجانها في لونها الذهبي، والبحر تتغير ألوانه بين الخضرة والزرقة، كما بدا شجر الزيتون المتشابك مع الزهور، والورود البرية المتدلية فوق الصخور. أما منازل القرى الصغيرة فكانت مطلية بلون أبيض أو أصفر أو أحمر ضارب إلى الرمادي، وكان لا بد لهذه المنازل المعلقة على منحدرات وعرة أن تستند إلى أساس متين ثابت.

كان النسيم عليلا وانتشر معطراً بشذى الزهور المنبعث من الوديان. وكانت أغصان الزيتون الملتوية قد أثقلتها السنون، وكانت تغشاها خضرة النبت الحديث، فكانت أشبه برجل هرم أوتي من العلم الكثير فأخذ يجدد شبابه، أما الأطفال فخرجوا من بيوتهم وألقوا الزهور على محفاتنا إذ كان كل سفح تل في هذه البلاد جنة من جنان الآلهة.

وبدا قصر "كيوداس" على البعد كأنه مدينة فخمة بنيت على سفح جبل أو كدرج بني لمردة يبلغ ارتفاعها خمسين فرسخاً وهرعت "أرتميودس" هابطة على الدرج الطويل لتحيتنا، وكان صوتها دافئاً عذباً وهي تحييني وكانت كتمثال جميل من النحاس والعاج فبشرتها ناعمة كالعسل الباهت

وشعرها أجمل من لون الزهور الصفراء. ولما أرتني جمال منزلها وزهور شرفاته وغاباته كانت تتحدث في نشوة طفل سعيد شاركه زميل له حبه للعبة من لعبه. وكانت الحدائق التي تحف بها أشجار السرو الباسقة تمتد وتنحدر حتى تتصل بغابات الزيتون، وهكذا تضافر الإنسان والطبيعة على تنسيق هذا الجمال فكل وردة أو حوض من أزهار البنفسج أو جيش من الخزامى الزاحفة تحت الشمس، بدا وكأنه نما ليعبر عن جماله وسعادته.

أما حجرات القصر فكانت تنفتح على شرفات واسعة تظلل الشرفات التي تحتها، وكان لحجرة نومي إفريز عليه نقوش تمثل راقصات في رداء أسود وأحمر، تعلوها رءوس عجول قدت في حجر أبيض وربطت بين قرونها حبال من زهور نضرة. وكان رأس سريري على شكل محارة، وحشياته ووساداته لينة مكسوة بحرير أصفر، وغطيت أرض الغرفة الحجرية بأبسطة بيضاء وسوداء لأن المباني في ميناوس من الحجر، وكانت هناك أصص من الفخار فيها زهور حمراء وضعت أمام أعمدة يتكون منها ثلاث بوائك تنفتح على الشرفة الخاصة في نهاية الغرفة بحيث تصبح أشبه بالجوسق "الكشك" مفتوحاً للشمس، وكانت هناك مصاريع رقيقة، و(شيش) رقيق يقفل وقت المطر ليقيها منه، وكان بداخل الغرفة ستائر زرقاء ترخى وقت القيلولة إن وددت أن آوي إلى مضجعي.

وكان حوض الاستحمام أشبه بتابوت حجري ولم يكن مقاماً في الأرض كحماماتنا، وينبثق الماء البارد فيه من فم سمكة من حجر ثم ينصرف في قناة صغيرة قدت في الأرض، وكان بالحمام آنية فخارية بها

أعشاب جافة وزهور تنبعث منها رائحة زكية تملأ أرجاءه، وقد وضعت هذه الآنية الجميلة على أرفف مثبتة إلى الحوائط وعليها رسوم لطيور البحر والمحار والمرجان المتشعب.

وعند أحد طرفي الشرفة حيث يمكن رؤية البحر من بعد كان هناك حوض للسباحة، وفي الجهة الأخرى منه خميلة تظللها الكروم والورود المتسلقة وعليها براعمها الشائكة وكانت توحي بالرغبة في التمتع بالجلوس تحتها.

ولما عدت إلى غرفتي كي أتهيأ للوليمة التي أقيمت تكريماً لنا، كانت وصيفاتي قد أخرجن ملابسي من صناديق السفر ووضعنها في صناديق طويلة من خشب الأرز الملون. وأخبرتني "مآتا" أنها وجدت اثنتي عشر مشجبا للشعر المستعار في الغرفة التي تحفظ فيها ملابسي إذ ظن أهل ميناوس أننا صلع الرءوس وذلك لأنهم سمعوا أننا نلبس أحياناً شعراً مستعاراً وقت الحفلات الرسمية. لك الله يا مآتا! إذ كانت تتيه عجباً بشعري أكثر من تفاخرها بشعرها، وكانت تشعر أن بريقه نتيجة تمشيطها إياه في طفولتي" وازدحمت الأفكار على لسانها وهي تلمع شعري وأخبرتني أن للفتيات اللائي أحضرن الماء الساخن لحمامي شعوراً مصبوغة بلون أصفر برتقالي ويصففن شعورهن ويربطنها بشريط بدلاً من أن يلبسن شعراً مستعاراً وقمصاناً من الكتان كما تفعل حاشيتي كما أنهن عاريات الصدور، فضحكت لقولها هذا ونصحتها بأن تكون أكثر فهما لعادات غيرنا من

الناس وإلا اعتقدوا أننا قوم كالتماثيل لا حياة فينا ولا نستجيب لما حولنا من ظروف.

فزفرت "مآتا" بشدة قائلة "يا لهن من نسوة ماكرات خاسئات، ليس فيهن من أسمح لها بالعمل في قصرنا ولو نصف يوم حتى ولو كان ذلك لتنظيف حظائر الأسود".

فقلت لها "اسكتي يا مآتا... إنهم يختلفون عنا، فقد يكونون أحدث عهداً بالحياة ورغم ذلك فهم أصدقاؤنا، وقد نتمكن من تعليمهم شيئاً من الحكمة؛ فبناء على علمي بكهنتهم أرى أنهم في حاجة إلى هذا التعليم، ولكن العبوس والقنوط يغلقان القلوب فلا تستجيب للكلمات التي قد ترشد هؤلاء القوم، إن من ينظر إلى وجهك يظن كأننا وسط غابة من الحراب أو كأنك سمعت أن خمورنا قد دس فيها السم، أو أن العقارب قد ملأت فراشنا. فردت "مآتا" قائلة "إذا كان يسرك أن أخفي أفكاري فسأفعل ذلك مرضاة لك، أما عن قولي هذا فلا أعبأ بشيء فإنهم لن يفقهوا قولي كما أنني لن أفقه سفاسف حديثهم وإلحادهم".

فقلت "بالله عليك ابتسمي يا مآتا... فأنا أيضاً أجد صعوبة في التعبير عن نفسي بلغتهم، ولكني مسرورة أني تعلمت شيئاً من هذه اللغة قبل زيارتهم لنا في العام الماضي. وكان أمراً جميلاً منهم أن يرحبوا بنا بلغتنا".

وبمجرد أن تركتني "مآتا" دخل علي "نياح" ليرى إن كنت مستعدة فأخبرته عن رأيها في أهل ميناوس. وكان مبتهجاً وبقي في انشراحه، وقال ونحن سائران إلى الوليمة، إذا كان رأي "مآتا" هذا فحمداً للآلهة أنها لم تكن موجودة في حجرتي، لأني عندما ذهبت لأستحم وجدت ست فتيات واقفات لخدمتي فصرفتهن شاكراً".

وفي أحد جوانب قاعة الحفلات رأيت أعمدة تلقي ظلالها وكأنها أستار تسدل وقت الغروب وكانت هناك مائدتان طويلتان من الرخام على جانب الحجرة وأخرى أصغر منهما على مكان مرتفع في أحد طرفيها حيث جلست أنا و"نياح" بين "كيوداس" والملكة. وكانت الملكة تلبس ثوباً مطرزاً من الكتان الأزرق يزينه شريط وهداب بنفسجي، وكان الثوب ملتصقاً بوسطها وفخذيها، وكانت فتحته واسعة وكان شعرها مصفوفاً في كوم مرتفع في حلقات فوق رأسها، وقد عقص في مكانه بدبابيس من الفضة تعلوها أحجار الأماتيست.

وكان يجلس معنا على مائدة الملك "بتاح – كفر" و"زرتر" والكاهن الأعظم في ميناوس، ورئيس وزرائهم وأمير البحر. وجلس النبلاء والقواد مع السيدات كذلك على مقاعد عليها وسادات أمام الموائد الطويلة. وهنا مفروض على المرء أن يقضي الحفل في الحديث مع من يجاوره ولم يكن لأحد الخيار في رفيقه كما هو الحال في "كام".

أما نبيذهم فكان أصفر باهتاً بارداً جداً ولكنه هادئ المذاق، وصبوه لنا من جرار لها رقبة طويلة ومقبضان جميلا الشكل، وكان يقدمه غلمان في قمصان قصيرة وربطت شعورهم المجعدة بأشرطة.

وقدموا لنا أصنافاً من السمك لم يسبق لي أن أكلتها، وقدموا لنا أطباق الحلوى وكان أحدها يحوي عسلاً ممزوجاً بلوز مصحون مع ورقات الورد المسكر وقد نثرت على المائدة زهور البنفسج والورود البيضاء. وبينما نحن نمتع شهيتنا بمثل هذا الطعام اللذيذ كانت تشنف آذاننا الموسيقى ورقصت الراقصات الجميلات وكان منظرهن متعة لأبصارنا.

وعلى صوت مزامير الغاب جاء راقص يعدو وسط القاعة وحول وسطه أوراق العنب، وفي يده حبل طويل من الزهور سحب به ست فتيات في نفس ملبسه كما لو كن سبايا يقدمهن للملك، ثم دارت البنات فجأة وأخذن يرقصن حوله وهو واقف وسطهن، وأخذن يضفرن بأرجلهن هذا الحبل حوله حتى وجد نفسه قد قيد بحبل الزهور وأصبح أسيرهن، ثم أخذن يسخرن منه فقطع هذه السلاسل من الزهور، فجرين منه مدعيات الخوف منه وهو يعدو وراءهن ليطاردهن في الليل.

ثم تبع ذلك رجلان وفتاة وكان الجميع على جانب كبير من الرشاقة وقاموا بحركات بهلوانية، فأخذ الرجلان يلقيان الفتاة كل للآخر ويتلقيانها وذراعاها منشوران إلى الخلف كالأجنحة وهي تندفع في الهواء كطير يواجه الريح بصدره.

وكان القوم يهتفون للراقصين والراقصات بعد كل رقصة يؤدونها ويلقون عليهم الزهور وقد تملكتني الدهشة حين حدث ذلك لأول مرة. ففي "كام" إذا امتدحنا راقصة بعد رقصتها كان مثلنا كمثل من وقف أمام تمثال يمتدح المثال دون مبالاة بالتمثال الذي صنعه فعندنا وقع الرقصة وتوافقها ينفصل انفصالاً تاماً عمن أدت الرقصة كما يختلف التمثال عن المثال، ولكن القوم يمتدحون الراقصة نفسها لا الفكرة أو الشعور اللذين أحيتهما الراقصة في حركات جسدها، وأخذت وردة بيضاء كانت بجانب طبقي وألقيتها على فتاة انتهت من رقصتها، ورأيت أن "كيوداس" قد سر من ذلك، لأنه عند زيارته لنا في "كام" لا بد قد اعتقد أننا نضن بمديحنا، غير عارف أننا إذا طربنا ممن يقوم بعمل رقصات "خيال الظل" كنا كمن يتغنى للقمر لأنه ألقى بظل شجرة تين على جدار.

وفي تلك الليلة قبل أن أنام جاءني "نياح" في غرفتي وكان عائداً من السباحة إذ كان الماء يتساقط من شعره فأخبرته أن يجففه قبل أن يأوي إلى فراشه. فقال نياح "سررت حين ألقيت الوردة على الفتاة لأن ذلك أدخل السرور في نفس "كيوداس" وقد وجدت التفاهم صعباً مع زوجته وكان الأمر سهلاً لو كانت معه حينما زارنا في كام، ولكنه تزوجها في الربيع فقط، فقلت له: "إنهم هنا سعداء وأكثر منا بهجة وقت شبابنا. قد لا يعرفون كنههم أو من أين جاءوا أو ما مصيرهم، ولكنهم يعيشون في ضحك ولهو في ومضة عمرهم الذي هو حاضرهم".

فقال نياح "ولكن بهجتهم هذه كالزبد سرعان ما يذهب جفاء" فقلت "قد تكون على صواب، ولكن هذا الزبد يحمل كل الألوان الساحرة مدة بقائه، يحمل ألواناً أجمل من كل ما في أعماق البحار، ورغم أنه قد هيئ لنا الرضا على مر السنين إلا أنهم يستنزفون الحاضر فيأخذون كل ما تحمله ثدياه ويقبضون بأيديهم على كل حبة من حبات الزمن كما لو كان وردة فيقطرون في لهفة وعمق كل قطرة من عطرها قبل أن تتساقط أوراقها فتفرغ ما في قلبها".

فقال نياح "ولكنهم لا يدرون شيئاً عن الحكمة، آه لو تمكنت من أن أجعل كيوداس يسمح لكهنتنا بأن تأتي وتملأ معابده" فقلت "إنهم شباب صغار مرحون وهذا يكفيهم، فإذا غيرنا سبل عيشهم فذلك قسوة منا، ويكون مثلنا كمن ينتزع دمية "تشيكا" المحبوبة لديها ويقطعها وينزع عنها ريشها ويظهرها لها كخرقة من قماش وليست بقطة تقص عليها قصصها، فلنتركهم وشأنهم فإنهم ليسوا بقوم سوء بل هم شباب وعندما يكبرون سيولدون مرة أخرى في أرض كأرضنا. والآن قد تأخر بنا الوقت وكان النهار طويلاً علينا ويجب أن ننال قسطاً من النوم... نعمت مساء يا نياح... اذهب إلى غرفتك وأخبرني في الصباح كيف قضيت ليلتك".

الفصل الثالث

أرتيميوديس

تعودت "أرتيميوديس" أن تتردد على حجرتي وتجرب الدهون التي لم تكن تعرفها من قبل؛ فالدهنج لم يكن معروفاً في "ميناوس" وكانت تحب أن تدهن جفونها باللون الأخضر الذي عندي، وأريتها كيف يمكن أن تعمله عجينة إذا مزجت به شيئاً من الزيت على إصبعها، ووعدتها أنها لن تحرم منه مادام موجوداً في "كام" وسأرسل لها بلوحة صغيرة كالتي أستعملها كي تسحق هذا الدهنج وتحوله إلى مسحوق. وكانت تستغرق وقتاً طويلاً في زينتها إذ كان عليها أن تلف كل حلقة من شعرها حول قطعة صغيرة من الخشب وتربط عليها بخيط ثم يبلل الشعر بماء الورد قبل أن يجف، وكانت بشرتها جميلة ولونها كلون لآلئها، وكانت تستحم كل يوم في لبن الماعز وتدلك يديها في قشدة "الماشية" حتى تبقى على نعومتها.

وكانت لها حجرة طويلة تحفظ فيها ملابسها، وكان يوضع كل ثوب على رف خاص به، وكانت مرتبة حسب ألوانها وكان من بين ثيابها ثوب أحبته بصفة خاصة صنع من الحرير الأصفر وزين بأشرطة فيروزية اللون وآخر فيه خطوط حمراء وبيضاء وينتهي عند الرقبة بلون أخضر زاه وثالث له خمس ثنايا ينتهي عند ذيلها بلآلئ صغيرة وقماشه بنفسجي اللون. وكانت نعالها تختلف في ألوانها الكثيرة كاختلاف ثيابها بيد أننا عندما كنا

نجتمع على انفراد فإنها كانت ترتدي قميصاً بسيطاً يربطه تحت ثدييها حزام من الأشرطة الملونة. وكانت تتحدث عن أثوابها بشغف وحماس كما يتحدث القائد لزملائه عن خطط إحدى المعارك، وكانت تتحدث عن الألوان كما يشكل الشاعر بكلماته فكرة أغنية قبل أن يلحنها ملحن، وتجد نفس المتعة التي يجدها "تحوت – ترا – داس" في تركيب جملة من ألفاظ جميلة. وقد دهشت عندما رأت أن لي من كل ثوب أربعة على شاكلته، فأخبرتها أن كل الأثواب التي نلبسها في بلدنا متماثلة وحيكت في نفس الشكل الذي سبق أن كان عندنا أكثر من مائة عام. ولا تشارك الملكة زوجها أعباء الحكم ولما أخبرتها عن نفسي رثت لحالي لأنه بدلاً من أن أتمتع بحياتي كملكة فإني أحمل أعباء الحكم ومسئولياته، وأحضرت لها معي شبلاً صغيراً لأني أدركت مقدار سروري عندما اقتنيت "ناتي" وظننت أن هدية كهذه ستدخل السرور عليها أكثر من أية هدية أخرى. وبدا عليها السرور بادي الأمر وقالت إنها ستجعله ينام على وسادة بنفسجية بجوار فراشها، إلا أن مخالب أودع الأشبال خشنة وأسنانه الصغيرة حادة فمزق وسادته البنفسجية ومزق أشرطة ثوبها فوجدت أنها يصعب عليها أن تجمع بين شغفها بالملابس ورغبتها في اقتناء هذا الشبل، كما يصعب الجمع بين حمامة وديعة وقطة شرسة في بيت واحد. وقالت لي يمكنني الإبقاء عل الشبل في حجرتي إذا شعرت بالوحشة والشوق إلى "ناتي".

وهدأ الشبل بمجرد أن وجد نفسه معي وابتهج وطاب نفساً وكان يزأر كلما رأى أناساً يقتربون مني وزاد شغفي به لدرجة أني هممت أن أعود به معي وأهديه لابنتي "تشيكا"، لذلك أخبرت "أرتيميوديس" أني أعتقد أن

هذا الشبل لا يتحمل شتاء بلادهم وسأرسل لها بدله قماشاً كتانياً مزركشاً وأساور عليها رسوم بديعة لتكون أحسن رمز لصداقتنا. وكان كل يوم يأتي علينا كزهرة تنمو في شجرة الدهر فبعد عناء الحكم ومهامه أصبح همنا أن نفكر في متعة أنفسنا حتى نبعث السرور في نفوس مضيفنا. وقضينا خمسة أيام سعيدة في قصر صيفي قرب البحر مع "كيوداس"، "أرتيميوديس" ولم يشاركنا أحد غيرهما وارتدينا قمصاناً بسيطة كالتي يلبسها صيادو الأسماك وطهونا طعامنا بأيدينا فوق نار الرماد المتوهج للأخشاب المتوهجة والمتخلفة التي نوقدها من الأخشاب التي أشعلناها.

وعلى السواحل الصخرية حيث يهمس البحر للبدر بهمسات خافتة رأينا زهوراً في برك من الماء تضم أوراقها الريشية الشكل كلما لمسها أحد، كذلك رأينا حشائش البحر الحمراء وكأنها شعور عروس البحر كذلك رأينا "الكابوريا" وهي تسرع لتختفي وراء الصخور.

وكان من عادة "نياح" أن يلف خيوط الصيد حول وسطه وكنا نسبح معاً حتى نصل إلى صخرة قائمة في البحر العميق وهنا نلقي شصنا بما فيه من طعم إلى أن نشعر بسمكة قوية تناضل على خيط الشص، وأمسكت مرة إخطبوطاً وكانت قرون استشعاره كمجموعة من الحيات وبدا الشر من نظرته لي إلى أن قضى عليه "نياح" بسكينة الصيد ثم علق السمك الذي صدناه من خياشيمه وتدلى من كتفه وهو يسبح عائداً إلى الشاطئ. ثم رقدت في الشمس وأخذت أشعتها تصقل بشرتي التي كانت تلمع بملح البحر. ولم نرتد ملابسنا حتى قرب الليل إذ لم تكن الشمس قوية حتى في

وقت الظهيرة وزاد غرامي "بأرتيميوديس" ولكني لم أعرف ما في قلبها نحوي أو أدرك سبل إدراكها للأمور، وكانت تحب أن تسمع عن سبل حياتي ولكنها لم تسألني عن أفكاري ولم ترغب في التحدث عن أشياء بعيدة عن العالم الأرضي بل كانت تود أن تسمع عن الطعام الذي يأكله شعبنا وعن مقدار الوقت الذي يعمل فيه وكيف يسرون عن أنفسهم، ولكن حين أخبرها عما يتعلمون رأيت أنها كانت تنصت إلي تأدباً منها وإذا رغبت في أن أتبين منها معتقداتها كانت تتجنب الحديث وتغير مجراه إلى التحدث عن طبق شهي جداً أعده طاهوها أو عن شيء جديد أعدته لتدخل السرور على قلب "كيوداس"، وكانت تتحدث عن زوجها كما لو كانت هي راقصته المحببة لديه الأثيرة عنده، فكانت تخبرني كيف أن في قدرتها أن تنسيه الحكم وأعباءه حتى ولو كان في ذلك تعطيل لأساطيله وأحياناً أخرى تتحدث عنه كما لو كان شاباً جميلاً يتحرق شوقاً إليها وأحياناً تتحدث عنه كما لو كانت أما تزهو بطفلها الماكر ويبدو أن حبها لزوجها يتغير بتغير حالتها النفسية، ولعل ذلك راجع إلى أنهم في ميناوس لم يتعلموا بعد أن بقاء الحب متوقف على معرفة مقدار ما في الطرف الثاني من خير أو شر وحكمة أو حماقة في بساطة مجردة بل في رغبة أكيدة أن تبقى بجانبه وتلازمه في رحلتهما الطويلة.

وفي ليلة من الليالي نمنا في محفات مسدولة ستائرها حملتنا فوق أحد الجبال الكبيرة التي تتوج جزيرتهم، ولأول مرة أمسكت بالجليد بين أصابعي وتمكنت أصابعي من تشكيله بفضل حرارتها. وسبق لي أن عرفت بياض اللآلئ البراق والبياض الدافئ للعاج حين يكون حديث القطع وبياض زبد

الأمواج المتلاطمة وبياض أوراق الزهور وهي تسطع في الشمس لكن الآن والجليد في يدي قد أمسكت بلب البياض نفسه الذي هو أجمل الألوان جميعها وقد تحولت إلى نقاوة وطهارة.

وبدت أعلام النهار في الجهة الشرقية من السماء وطغى نسيم الصباح على نجوم الليل فأخفاها وما زالت الدنيا تحتنا في ستار من الضباب وكنا ونحن في جزيرة بيضاء فوق السحاب نرى البريق البارد حول أقدامنا يتحول إلى عرش المرجان للآلهة. وكان الأفق في عظمته كعجلة الزمن يحيط بنا ويحتضننا بين ذراعيه على حين تحركت الدنيا النائمة على صوت عجلة الإله "رع" وقد عاد إليها حين سمع أنغام الموسيقى في الفجر ليحيي رعاياه في صباح يوم جديد.

الفصل الرابع

الفن المناوي

وكما اختلفت آلهة المناويين عن آلهتنا، فقد اختلفت صورهم وتماثيلهم وحدائقهم ومبانيهم ولم أتمكن من معرفة أوجه الاختلاف إلا بعد أن مكثت في بلدهم أياماً كثيرة؛ ففي "كام" نرى صورة الكون منظمة لا فوضى فيها ولا شيء للصدفة فيها فالنجوم تجري في مجاريها عبر السماء، وتخرج الغلال من الحب ثم ينضج، ثم يسقط من سنابله ثم ينمو ثانية في دورات متوافقة لا خلل فيها، وكما أنه لا يقع صخر في الماء دون أن يسبب تموجات فيه كذلك لا يوجد من عمل سواء أكان خيراً أم شراً دون أن يقابله ما يماثله في المستقبل يحدده الحاضر. ولا يقتصر ذلك على الكون أو حياتنا، بل إن حبة رمل تحملها الرياح قد قدرت بمقدار في عدالة لا تشوبها شائبة يرمز لها بكفتي ميزان "تحوتي". وينعكس هذا التوافق على كل شيء تعمله في تناسق هو رمز الجمال الذي نراه على الأرض.

وفي "كام" كل جانب من جانبي حجراتنا المتقابلين انعكاس للآخر. إذا كانت هناك نافذة في جانب ولم تقابلها أخرى مثلها في الجانب الآخر رسمنا شبيهة لها على الجدار المقابل، وليس القصد من أن نتصور أن الرسم نافذة حقيقية بل كي تظهر أننا نعرف أن الجمال في التعادل ككفتي الميزان وتفقد زهرة اللوتس نصف جمالها إذا قطعناها لأن نصف جمالها الآخر

يتمثل في صورتها المنعكسة وهي تطفو على سطح الماء الصافي وتمتزج معها في توافق وانسجام نعمل على تحقيقه في حدائقنا، فإذا غرست شجرة رمان على أحد جانبي البركة زرعت مثيلتها على الجانب الآخر وإذا نمت زهرة حمراء على يسار جدار يجب أن تنعكس صورتها على الجدار المقابل.

وحاضرنا صورة تنعكس من ماضينا ويحدد مستقبلنا. وبهذا فقط يمكن أن نرى حاضرنا في كليته لأنه إذا رأى فرد جانباً من جوانب الميزان كان ذلك لا معنى له ولا يمكن أن يفي بالغرض المطلوب ونحن نعلم أن الجمال خالد، وهو والحالة هذه لا يمكن تحديده بالحواس الخمس بل ندركه بالروح فحسب، وإنا لا نرسم إفريزا بطريقة ترى العين صورة إنسان بل ترى فيه الإنسان نفسه، ويسجل رسامونا الأشياء التي يأملون أنها روح من يراها حتى يمكنه أن يكوّن ببصيرته ما أدركه الرسام بروحه.

كما أن علامات الكتابة تعبر عن كلمات تعبر عن أفكار وتنقل صورة في عقل الكاتب كذلك كانت صورنا تعبيراً لما رآه المصور لا بعينه فقط بل بقلبه، فإذا أراد رسامونا تسجيل جمال حديقة فإنهم لا ينقلونها كما يرونها بأعينهم لأنه تقليد الحقيقة الظاهرة فقط، فلا يمكن لإنسان أن يجلس في ظل صورة شجرة رغم أنها قد صورت بأمانة، ولا يمكن لزهرة مهما أتقنت صورتها أن تبعث برائحة أكثر من رائحة الملاط الذي رسمت عليه. ولكن كما أن الغلال تنبت من البذر الجاف كذلك يغرس الرسام بذور الفكر: فبركته مربع فسيح تميزه خطوط الماء، فإذا كان به زهور اللوتس وأسماك فإنه يظهرها أيضاً كما يحدد أشجاره التي يرسمها ويبين

مكانها الذي غرست فيه وثمارها وزهورها التي تحملها فإذا رآها إنسان فتحت في عقله هذه البذور ونمت حتى يخيل إليه أنه يسمع الريح وهي تهز أوراق الأشجار أو يرى السمك يهتز في ظل زهور اللوتس ويتذوق عصير الرمان سائغاً على لسانه ويحس بشعور الرضا والمتعة بحديقته حيا في عقله.

إننا لا نقيم تمثالاً يرى الناس فيه أنه يتنفس بأنفه، ولا ننقش كل شريان أو عضل أو نسيج للبشرة لأن الجسد في حد ذاته لا أهمية له إذ أن المثالين عندنا أقوياء في تعبيرهم الروحي، ويمكنهم أن يعبروا عن الروح التي تسكن جسد الرجل الذي يقيمون له التمثال، فكما أن نبات الغاب يعكس صورته في الماء كذلك تعكس روح الرجل الذي يقيم التمثال من أجله. ويمكن أن ترى هذه السمة في فننا في أقصى مراتبها في التمثال الذي أقيم لـ "مينيس" العظيم فإن عدالته وشجاعته تشعان منه، كذلك تبدو حكمة والدي وحنانه حية في تمثاله الذي قد من الجرانيت.

ولكن في "ميناوس" رأيت تماثيل أقيمت في صورتين: فمنها ما هو انعكاس لصورة الجسد فقط ففيها كل ثنية من ثنايا العضلات وكل ثنية الجفن، وكل شريان دقيق في الرسغ والمرفق كل هذه بدت وكأن الجسد قد تحول إلى صخر، فظهرت في جثة تخلت عن الروح التي تسكنها. وكانت هناك تماثيل أخرى انعكست فيها روح أصحابها عن طريق انعكاسها في روح من صنعها من المثالين فإذا نظرنا إليها أمكننا أن نقول عن صاحبها إنه نهم شره أو إن هذا الرجل كان محباً لجمع الذهب، أو هذه المرأة يغلب عليها الخداع والمكر، أو كانت مسرفة في حبها، ولكن لم يكن بينها ما

يمكننا أن نقول عن أصحابها إنهم كانت لهم أفكار عميقة أو تملأ الرحمة قلوبهم أو كانوا أقوياء في روحهم.

أما صورهم فكانت ينقصها أهمية الروح، فإذا نظرت أول وهلة إلى إفريز عليه صور لراقصات بدت لي إذا أشحت النظر عنهن أنهن قد تحركن ورفت أثوابهن الرقيقة مع مر الرياح، وعندئذ أجد أن هذه الصور ما هي إلا تقليد لراقصات لا عمق فيه ولم تعبر عن الحقيقة كما يعبر ظل شيء عن الشيء نفسه ولم توح صورهم إن وقعت على جدار بصوت المزمار ولم يعد لأكاليل الزهور رائحتها، وإنما كانت كأصداف قواقع جوفاء لم يسبق أن جرت الدماء في أجسادها السريعة الحركة، ولم تعبر صورهن عن حبهن أو حزنهن لأن روح هذه الصور طلاء ودنياها هي الحجر. وكان القوم في "ميناوس" يباهون بجمال أجسامهم. وحتى في ذلك فإنهم يختلفون عن شعب "كام" فجمال الجسم بالنسبة لنا لا يقتصر على شكله فقط ولكن يتعداه إلى الروح التي تسكنه، فنحن نضع الدهنج على جفوننا ونرتدي الكتان الرقيق ولكن كل ذلك كمظلة جميلة يقيمها الرجل لامرأته التي يحبها ولا أهمية كبرى لهذه المظلة، ولكن هنا في ميناوس يحب الرجال الجسد لأجل الجسد فقط ومثلهم كمثل قوم نشروا الرياحين على أرض بيت مهجور حيث يغطيه التراب ولا تطؤه أقدام الأحياء من الناس.

ولكنهم كانوا سعداء في شبابهم هذا، وإذا حاولنا أن نشرح لهم طريقة تفكيرنا نكون أشبه بمن يحاول أن يخبر قطة صغيرة حديثة الولادة هانئة ترضع في أحضان أمها الدفيئة ونجبرها قسراً على أن تعرف عنا ما ستراه عيناها عندما تتفتحان.

الفصل الخامس

ساحة الثيران المقدسة

وصلنا إلى ساحة الثيران المقدسة بعد الظهر بساعتين والشمس مازالت في كبد السماء فلا تلقي ظلاً لشيء وبذلك لا تعاكس اللاعبين. جلست أنا و"نياح" على جانبي "كيوداس" على كراسي لها ظهر منخفض ومطلية بالأحمر والأبيض لوني "ميناوس" وكانت حاشيتنا في نفس الشرفة الملكية المواجهة للبوابات التي تخرج منها الثيران المقدسة. وكانت الساحة بيضية الشكل، يحوطها عشرة أدوار من الدرجات الحجرية اجتمع عليها بقية المتفرجين. وقد جلس بعضهم على وسادات والآخرون على عباءات مطبقة في ألوان زاهية جميلة وكان يجوب المكان بين هؤلاء بائعو النبيذ وحملة الماء وفتيات يحملن سلالا بها كعك مسكر وفاكهة وحلوى. وكان هذا الجمع الحاشد من الناس في سرور ونشوة يمرحون ويضحكون وهنا فكرت في التباين بين هؤلاء القوم في حضرة ملكهم وبين قومنا في حضرة فرعون. إذ كان القوم يتمتعون بحرية قد تخرج بهم عن حد اللياقة والآداب العامة.

لماذا إذن يرغبون في هدوء المعابد وسكونها وهم نيام في خمائل تغطيها زهور العسل لماذا يحلمون بالجنات السماوية ولديهم النسرين ينمو تحت أقدامهم والياسمين يعلوهم كالنجوم وينسج لهم أكاليل وباقات فوق

رءوسهم وما حاجتهم إلى الحكمة، فسيعرفون هدوءها عندما تتقدم بهم السن أثناء رحلتهم الطويلة، وإذا كانت دنياك بين ذراعيك فاكتنز من ذكرياتها وأنت في أوج شبابك حتى تنعش قلبك بعذوبتها وحلاوتها حين تشعر بالكلل في رحلتك في الدنيا.

وهنا قطع علي "كيوداس" أفكاري وأخبرني أنه سيشترك اليوم في المباريات خمس فتيات وسبعة رجال، وأثناء حديثه وسط الساحة برز رجل وقرأ أسماء أولئك الذين سيختبرون مهارتهم مع الثيران. وفتحت البوابات على مصاريعها ودخل منها موكب اللاعبين وكانوا واقفين في محفات حملها حمالون على أكتافهم وداروا بها حول ساحة النزال بين هتافات المتفرجين. وكانت الرجال والفتيات عراة إلا من قطعة قماش مغطاة بطبقة من الذهب بين أعجازهم، وكانت أجسادهم مغطاة بالزيت فلمعت حتى بدت كالعاج. أما الفتيات فقد قصصن شعورهن قصاً قصيراً كالرجال وغطين رءوسهن، ولما وصلوا جميعاً أمام المنصة الملكية رمى كل بزهرة إلى "كيوداس".

واشترك في أول مصارعة فتاتان ورجل واحد وتقدم هؤلاء الثلاثة ووقفوا في وسط الساحة، ثم نفخ في الأبواق وفتحت على صوتها الأبواب واندفع ثور أسود جميل، وكانت قرناه مطليتين بلون الذهب وحول رقبته باقة من الزهور وفجأة دفع رجليه الأماميتين ثم توقف منتفخاً من الغضب، فتقدمت نحوه إحدى الفتاتين فهاجمها الثور وبينما هو يخفض رأسه كي ينطحها أمسكت بقرنيه وقفزت فوق رأسه ثم نزلت إلى الأرض تعدو خلفه. فاحتار الثور، ثم رأى الرجل على يمينه فهاجمه، وفي هذه المرة قفز

الرجل قفزة انقلب فيها جسمه رأساً على عقب ثم اعتدل فوق ظهر الثور قبل أن يقفز إلى الأرض في سلام، وهنا هتفت له الجماهير في حماس شديد، وبينما يعدو الثور عبر الساحة أمسكت الفتاة الأخرى بذيله وبينما هو يتحول إليها قفزت من فوق ظهره إلى الأرض فقابل الشعب هذه القفزة الرائعة بهتافات مدوية وقال لي "كيوداس" إنه لا يوجد في البلاد من يمكنه أن يأتي بمثل ما أتت به هذه الفتاة.

ثم أدخلت بقرتان كي تقودا العجل خارج الساحة. ومثل الفائزون أمام الملك فتوجهم "كيوداس" بأكاليل من الورد الأحمر لأنهم تغلبوا على "ثور الورود" وقال لي "كيوداس" إنه لما كان هذا العجل قد تغلب عليه إنسان فإنه قد أصبح غير جدير بأن يكون عجلاً مقدساً وسيؤخذ إلى المراعي حيث الحيوانات التي تربى للضحية حتى يحين وقت الحاجة إليه.

وكان العجل الثاني أبيض اللون يزين عنقه زهر البنفسج، وكانت هجماته أقل عنفاً من سابقه وكان اللاعبون من الفتيات وأخذن يقفزن بين قرنيه وهن يستدرن في الهواء. ولما جيء بالبقرات لتقوده ومثلت الفتيات أمام الملك ليتوجهن أمر "كيوداس" إحداهن بالبقاء معنا إذ كانت ابنة أحد ربان السفن وكان جسمها مشدود العضلات كعضلات الفتية، وعلى فخذها أثر لجرح طويل.

ولما أعربت لها عن إعجابي بمهارتها أشارت إلى أثر الجرح قائلة "أحياناً أخطئ وإني لسعيدة الحظ أني لم أخطئ أكثر من مرة". وقد أخذتني الحيرة

في أمر هذه الفتاة فهل شعرت بالخوف أو أن أفكارها عن الخوف تلاشت في اهتمامها بأن تقفز في رشاقة فلم يصبح لديها متسع من الوقت للتفكير في الخوف، وقد ذكرتني وأنا أتحدث إليها بأهل أرض الشلالات، فهنا في ساحة الثيران في ميناوس تبدو الشجاعة في أجمل صورها أما في بلدنا فإننا نتعلم أنه إذا اعترض الخطر سبيلنا وجب علينا أن نتحداه ونتغلب عليه ولكن هنا يبحث القوم عن المخاطرة كما يبحث الصياد عن صيده بين الأعواد الطويلة، فهذه الفتاة تعيش بين قوم يعتقدون أن أجسامهم هي أنفسهم الحقيقية، وأن شبابهم فرصة لن تسنح لهم إلا مرة واحدة، ورغم ذلك فإنها لا تخشى أن تخاطر بشبابها بين قرون الثيران الجامحة التي قد تقضي عليها أو بين حوافرها الساحقة التي تسمع بين صداها نذير المنية.
وجاء بعد ذلك عجل أسود في رقبته عقود الأقحوان التي صنعت منه أكاليل من سينازله، وكان العجل الأخير ذا لونين الأحمر والأبيض ولذلك كان من عجول "كيوداس" إذ كان كل عجل صغير في البلد في هذين اللونين ملكاً للملك وكان لهذا الثور خوار وغضب وكان صوته كقصف الرعد وهو يدوي في الساحة، ولم يفزع ذلك اللاعبين بل قاموا بقفزات رائعة بين قرنيه وقبل أن يتحدى آخر لاعب هذا الثور قال شيئاً لم أفهمه ولكن "كيوداس" أخبرني أنه أعلن أنه سيقوم بأصعب مخاطرة وفيها يلوي جسده في الهواء وهو يقفز بين قرني الثور وينزل راكباً فوق ظهر الثور ووجهه متجه نحو رأسه.

اندفع الثور وساد الصمت المكان إلا من صوت حوافره التي تضرب الأرض وقفز اللاعب أعلى من زملائه السابقين ورأسه إلى أسفل وبينما

يدور جسده في الهواء توقف الثور فجأة ونزل اللاعب ولكنه لم ينزل على ظهره بل على طرفي قرنه. ولما كان طرف القرن كالخنجر فقد بقر بطنه وكأنها تينة قد زاد نضوجها فتفتحت وقبل أن يتمكن أحد من العدو لإنقاذه نطحه الثور وأخذ يركله حتى أصبح كعصف مأكول.

وكان مسلك الناس عجيباً فبدلاً من أن يحزنوا ويندبوا من مات أمامهم انبعثت منهم هتافات مدوية يحيون العجل، وألقوا عليه سيلاً من الزهور ولما جاء البقر ليغريه على ترك الساحة هتف الناس في حماس بالغ وألقوا عباءة على جسد الميت وهنا وضعت يدي على كتف الفتاة الجالسة عند قدمي مواساة مني لها خشية أن يؤثر منظر زميلها وهو مقتول في أعصابها، إذ كانت معرضة لنفس الميتة ولكن لم يظهر عليها ما ينم عن تأثر في قلبها.

وسر "كيوداس" وقال لي "انظري. قد تقمصت الآلهة في عجلي ليكون محصول الزرع عندنا عظيماً... لا يمكن لأحد سوى الإله "زيوس" أن يتغلب على أعظم رياضي في البلاد" ولما سألته إذا ما كان يشعر بالأسى لموت رجل كهذا قال "لقد كان رائعاً.. ولم يغلبه سوى "زيوس" نفسه وإن هذا العجل الذي شرفته الآلهة بأن تقمصت جسده ولو لمدة بسيطة سيعيش بجوار المعبد وسيتولى عشرون من العذارى خدمته وسيحضرن له الطعام وينظفن مأواه ويفرشن أرضه بالتبن النضر والزهور اليانعة، وسيخصص له مرعى ويكون له ما يشتهي من بقرات. وحيث أن الثور ملكي سيمنحني المعبد نصف ما يأخذ من خراج، وسيدفع الناس عن

كل بقرة يلقحها خمس جرار من الزيت أو ثمانيا من النبيذ أو ما يساوي قيمتها. وكانوا يعتبرون قطع روث عجل كهذا سحراً قوياً ضد أمراض الحنجرة وكانت تقدر قيمتها بما يعادل وزنها من الفضة.

وكنت أعتقد بيني وبين نفسي أن الكهنة رغبة منهم في زيادة دخلهم كانوا يخلطون روث هذا العجل مع روث حيوانات أقل منه، ولكن الناس لم يرتابوا فيهم حتى إن بعضهم كان على استعداد ليدفع لؤلؤة لكمية منها يغطى بها صدر طفل مريض.

وقد فكرت ثانية ونحن نترك هذه الساحة في ذلك القتيل الذي تركنا جسده تحت عباءة ملقاة في الساحة، وترددت في فؤادي إحدى الذكريات، فقد تذكرت أني رأيت هذا في قاعة السجلات حين كنت أجرب جناحي فقد أخبرت الآلهة هذا القتيل أن يسعى وراء الشجاعة في "ساحة الثيران" والآن قد وجدها وأصبح من أبنائها.

الفصل السادس

الطقوس الدينية في معابد "ميناوس"

لا تختلف الأيام في معابد "كام" بعضها عن البعض الآخر فلا يتميز يوم عن يوم، وليس هناك يوم أكثر أهمية من الآخر يلتمس فيه الناس الرأي واستقصاء النصيحة. فمثلنا إن فكرنا في الحكمة في يوم واحد وفضلناه عن بقية أيام الأسبوع كمثل رجل حرم على نفسه الماء ستة أيام ثم هرول إلى النهر الذي يقع عند باب بيته ليروي منه ظمأه في اليوم السابع. وفي "كام" يوم في كل سبعة أيام يرتاح الإنسان فيه من عناء العمل فيترك السماكون شباكهم ويتمشون في حقول الفول وتقف الثيران عن العمل على حين يتمتع رجل المحراث باحتساء الجعة، فمن الأفضل أن يتوفر لكل إنسان وقت ينام فيه في ظل ظليل تحت الظلال.

وإذا أراد إنسان أن يفكر في أمور تشغل باله مدة طويلة فيمكنه أن يفكر فيها سواء أكان في عمله أم جالساً يروح بمروحته طلباً للهواء العليل وقت راحته، فالآلهة بالنسبة لأهل ميناوس لا يكونون جزءاً من حياتهم العادية ولكنهم منفصلون عنهم؛ ولذلك تخصص لهم أيام، فلا يذهب القوم للمعابد إلا وقت توقف العمل عندهم حين ترسو السفن ويتوقف زارعو العنب عن جنيه، ورغم ذلك فإنهم لا يؤدون ذلك بواعز من قلوبهم ولكنها مراسيم شكلية يؤدونها.

وذهبت مع "نياح" و"كيوداس" إلى معبد "براكستلاريس" ويقع على شرفة واسعة على جانب الجبل ولم يكن هناك فناء أمامي بل رأينا عدداً من الدرج يؤدي بنا إلى بوائك لها أعمدة وردية اللون عليها حفر طولي وقد بدا المعبد وكأنه قد من مرجان أدكن اللون وفي داخله قاعة واسعة ينبعث النور إليها من نوافذ مخبأة في السقف وكانت الجدران مطلية بشكل يجعلها تبدو كأنها أقواس وبوائك، وفي داخلها إفريز عليه صور النيران المقدسة وفتيات وفتية يعزفون الناي، وأقيم تمثال لـ "زيوس" إله الرعد على مذبح ضخم من الحجر. وكان هناك سيف في يده اليمنى وبيده الأخرى المرفوعة فوق رأسه أمسك بقضبان البرق. وكان يواجه هذا التمثال العرشان الملكيان بظهريهما العاليين المطليين المزخرفين بالذهب. وجلست ونياح على جانبيهما وجلس خلفنا نبلاء ميناوس حسب درجاتهم، أما بقية القاعة فكانت مزدحمة بأناس كثيرين وكان البعض وقوفاً والآخرون جلوساً على مقاعد خشبية ولما استقر بنا المقام خرج الكاهن الأكبر من باب خلف التمثال تخفيه ستار عن أعين الناس وكان ثوبه من الحرير الأرجواني متدلياً على كتفه وكان كتفه الأخرى عارية، واسترسل الثوب إلى الأرض في ثنيات، وتبعه صبية يلبسون أردية خضراء ذات أكمام يحركون مباخر تنبعث منها رائحة أوراق خشب العود ذات رائحة عطرية، وبعد ذلك أتت فتاتان تحملان صحناً كبيراً له مقبضان وعليه جدي مذبوح لساعته وكان الدم ما زال يسيل من رقبته وهما يضعانه أمام المذبح، ثم أخذ الكاهن الأعظم يرتل صلواته ودعواته المراسيمية، ولم أفقه إلا قليلاً مما قال، وكان صوته أجش لا يشجع على التفكير الواضح، ونبرات صوته أشبه بطنين النحل في يوم

قيظ من أيام الصيف ومر الوقت وئيداً بطيئاً بطء القوقع في سيرها فتساءلت بيني وبين نفسي إذا كان "زيوس" قد شعر بشيء من السرور في هذه التوسلات المطولة التي انبعثت من صوت خرج في نبرات واحدة، وكذلك شككت في أن هذا الكاهن الأعظم يمكنه أن يصل بتلك الكلمات التي تمتمها إلى النجوم بدعائه، أو أن تلك الرسالة التي أرسلها قد تلاشت مع صدى الأصوات التي كانت في القاعة.

ثم سمعت حفيفاً نتج عن حركة من الناس الذين كانوا بلا شك نياماً كما كنت، وتبينت سبب عودة النشاط إليهم فقد حضر على دقات الصنوج والمزمار اثنتا عشرة راقصة خلال ستار على الباب، وكن يحملن قسيا وجعبا للسهام معلقة إلى أحزمتهن ووضعن على رءوسهن أطواقاً فضية على شكل قمر.

وكانت قمصانهن الشفافة مثبتة بحبال من الفضة على صدورهن ولونها كلون السماء في الليل، وهمست "أرتيموديس" قائلة: إنهن خادمات إلهة القمر، وحضرن كي يغرين "زيوس" ألا يتحدى سيطرتها في السماء بما يبعثه من سحب ورعد ورقصت الفتيات في توصل أمام التمثال وأخذت أذرعتهن تتموج تموج الماء في ضوء القمر. وارتفعت نغمات المزمار وتظاهرت الفتيات بالخوف من غضب إله الرعد عندما كان صوت الصنوج يعلن اقتراب الزوبعة ثم بعد ذلك هدأت الصنوج رمزاً إلى أن الإله قد استجاب لهن وأنهن نلن عطفه، وأخذ صوت الصنوج يخفت حتى استحال إلى همهمة كتلك الهمهمة التي نسمعها من الموجات الطويلة التي تتبع

العاصفة، وبعد ذلك اندفعت الراقصات وأتباع الكاهن في أنشودة مديح وفيها يعدون الإله "زيوس" إن أمسك الرعد في يديه وثقلت خمائل أشجار اللوز بثمارها فتملأ جرار الزيت بأن سينار ألف مصباح تمجيداً له، وإذا امتلأت حقول الكرم بثمرها فستملأ أحواض النبيذ حتى تفيض وسيشرب الناس نخبه تعظيماً لاسمه.

وكان المنظر كمناظر الحفلات والولائم حتى كدت أعبر لـ "أرتيموديس" عن مقدار إعجابي بالراقصات والمنشدين الذين أتوا بهم للترفيه عنا لولا أني تذكرت أننا في حفل ديني وفي معبد من معابد الآلهة، ولم يكن في طبيعة الناس أن ينظروا إلى الراقصات دون أن يعبروا عن شعورهم، ولكنهم هنا بدا عليهم الجد كما يبدو على الناس في "كام" حين ينصتون إلى تلاوة شريعة بلادهم، فالمعبد في أرض كام مكان تشحذ فيه الهمم ويصحو فيه الفكر، ولكن انقلبت هنا الآية إذ طغت الطقوس الدينية على العقل حتى غم عليهم لدرجة أن النعاس أصاب السامعين فمالت رءوسهم حتى أصبحت على وشك النوم العميق وبذلك تهدأ حواسهم. وكان على المذبح وعاء من الخزف المزجج الجميل وعليه مناظر خاصة بالمعبد باللونين الأسود والأحمر، وكان هذا الوعاء مملوءاً بزيت شجرة لوز أصابها البرق ولم تمت بل شقها فأصبحت شجرتين، وبهذا الزيت دهن الكاهن الأعظم جبين الملك والملكة كما مر به على صدريهما وأعينهما وفعل ذلك معي ومع "نياح" بعد أن رضينا بذلك.

وقد سر الكاهن الأعظم أننا نشاركه طقوسه ولم يدر أننا في "كام" نبجل آلهة غيرنا من الناس ما لم يكونوا من أتباع "ست"، إذ الحق واحد في كل مكان ويربط الناس طرا في رباط واحد في الإخاء، وكل الآلهة إن كانوا آلهة صدق من هذا الرعيل مهما تعددت صورهم بين أهل الأرض وحتى لو اتخذوا صنماً لا روح فيه إلهاً لهم فليس من تعاليمنا أن نستخف به أو نعامله بلا تبجيل. وبعد ذلك انصرف الكاهن من حضرة الإله كما جاء وعندما تركنا المعبد دهشت أن أجد أن الوقت قبل الظهر بساعتين إذ بدا لي أنه قد طال أكثر من ذلك وأننا سنرى ظلال المساء تخيم على الأرض بسبب طول الوقت الذي استغرقته طقوس هذا الحفل ومراسيمه.

وفي ساعة القيلولة تحدثت و"نياح" حديثاً طويلاً عن حفل مراسيم هذا الصباح وكنا في ظلال الشرفة الخاصة بنا وكنت مستلقية على وسادات زرقاء أنظر إلى أشكال أوراق الشجر والسماء من ورائها، أما "نياح" فكان جالساً وذراعاه معقودتان حول ركبتيه وهو ينظر إلى البحر، وفجأة سمعت صوته يخترق هذا السكون الذي غلب علي فيه النعاس قائلاً: إذا كان الإدراك هو ثمرة الخبرات والتجارب فيجب أن أكون رجلاً حديث الولادة في هذه الدنيا، وذلك لأني لم أدرك شيئاً من معابد هؤلاء القوم فقد قضيت ساعتين هذا الصباح أرقب فيها كاهنهم الأعظم يسير في جلال وعظمة وهو يردد صلواته ومع ذلك لم أسمع كلمة واحدة تنم عن حكمة حتى ولم يذكر أبسط القوانين التي تنظم معيشة الناس بعضها ببعض، فإما أن هذا الكاهن غبي وإما أنه يدعي العلم والمعرفة وإما أنه كلاهما معاً، فقد حاول أن يساوم مع إلهة كما لو كان بائعاً متجولاً في السوق يبيع سلعاً

رخيصة فيحاول أن يستدر منه رحمته وعطفه بوعوده أن يقدم له الخمر والحيوانات قرباناً، أو يخدعه بأن يقدم الراقصات كما لو كان تاجراً ثرياً لم ير في حياته جمال امرأة، ولم يكن بينهم مجنح واحد يمكنه أن يطير فيما وراء حدود هذه الدنيا، كذلك لم يكن بينهم من تمكن من إدراك ما في آلهتهم أكثر مما سمح له عمره المحدود في هذا العالم ورغم هذا نسبوا لآلهتهم حكمة أكثر من الواقع، ورغم أن أكثر النبلاء غروراً لا يصدق من يثني عليه في حضوره لأن ثوب الرياء يشف عما تحته فإنهم يمدحون "زيوس" كما لو كان يمكن التأثير عليه بمثل هذا الملق الرخيص.

فأخبرت نياح أني عندما سألت "كيوداس" إذا ما كان في معابدهم مستشارون في "ميناوس" بدت عليه الدهشة وقال إنه إذا كان هناك نزاع بين أفراد شعبه أبقوا هذا النزاع والخلاف إلى أن يذهب أحد مشرفيه إليهم.

وقال نياح: ألم تلاحظي أن الحيرة تبدو على وجوههم إذا سمعوا أحداً يتحدث عن الموت، وكأنه خالف أمراً مألوفاً يجعلهم يشعرون نفس الشعور الذي أشعر به إذا تبينت وأنا أستقبل الناس للحكم بينهم أني نسيت أن أضع لحيتي، ويبدو عليهم أنهم لا يرهبون الموت ولكنهم لا يتحدثون عنه، ولن ننسى شجاعتهم في ساحة الثيران إذ لم يبالوا بموت رفيقهم، ولما مات ذلك الفتى لاحظت أن نساءهم لم يشحن بأنظارهن عنه. ليس منهم من يرهب التحدث عما يعرف، فلا بد إذن أن الموت لا يكشف لهم عن

وجهه الحقيقي. ماذا يأملون في الموت؟ هل بعد الموت سيعيش مرة أخرى على أرض في بلد ظليل أو ينسون في بركة ليلها لا ينجلي؟

فقلت إنهم لا يدرون وعلى الكاهن أن يحدثهم عن تفاهة الموت، وأن الموت سبيل مألوف لديه، بذلك يمكنه أن يرشدهم كيف يحيون حياتهم حتى إذا ولجوا سبيل الموت مرة أخرى سيبهجون لما يرون في العالم الآخر.

ثم أشار "نياح" إلى خمس سفن كانت تدور حول رأس صخري جهة الغرب وقال "لهم أن يفخروا بأسطولهم ويختاروا رجاله فلا يتخذون من لا دراية له بالبحر حتى يضمنوا أنه سيرشدهم دائماً إلى مرسى أمين لسفنهم، كذلك لا يستخدمون أولئك الرجال الذين يضنون على سواهم بإرشادهم عن أمكنة الصخور الخطرة على الملاحة بل يستخدمون البحارة الذين يعرفون سبل البحر وأين تستخدم المجاديف، فإذا جرؤ شخص لا يتوفر فيه ذلك وادعى أنه مرشد ألقوه في اليم، ليتمتع بسباحة طويلة، هذا بالنسبة لأسطولهم أما في سبيل حياتهم في الدنيا والآخرة فيشكلها لهم كهنة حياتهم مغلقة".

واسمعي يا "سكيتا".. رغم أن "كيوداس" لا يدرك ماهية الكاهن على حقيقتها إلا أنه رأى عندما كان في زيارتنا ما تعنيه معابدنا للناس، وكذلك أدرك مقدار قوتنا في آلهتنا، ولو أنه لم يفهم حكمتك على حقيقتها إلا أنه يجلها إجلالاً عظيماً. وإذا طلبت منه أن يسمح لنا بأن نرسل كاهناً لقومه

من بلدنا ليتحدث إليهم فإني واثق من موافقته على ذلك لسببين: أولهما أنه يحمل لنا كل إجلال، وثانيهما أنه يقدر صداقته لبلدنا حق قدرها".

فقلت له: ألا تذكر يا "نياح" حلماً رأيته أنا من زمن طويل زرت فيه هذا البلد ورأيت الكاهن الأعظم يتنكر في شكل أوزة عراقية ثم يمتع نفسه في محرابه! وقبل أن أحضر إلى هنا عرفت أن هذه المعابد لا نور فيها، وشعرت بأمل في أن نكون الشرارة التي تشعل نور الهداية لهم وظننت بادئ الأمر أن هؤلاء القوم قدامى في خلقهم وعلي أن أساعدهم على إزالة هذه الغشاوة، وقد حجبت عنهم المعرفة لسوء استعمالهم إياها في ماضيهم، فمثلهم كمثل كوم من خشب النخيل الجاف لا يلبث أن يشتعل إذا مسته نار. ولكني تبينت الآن أن هذا الأمل عبث، لأني علمت وأنا بعيدة عن هذه الدنيا أن المعرفة لم تحجب عنهم بل هم حديثون شباب في خلقهم، فلا يمكن والحالة هذه أن تشعل نار الهدى في خشب أخضر.

فقال نياح: ولو أن الاستعداد لديهم ليكونوا كهنة غير موجود إلا أنه يمكننا أن نرسل لهم مدرسين يعلمونهم، فإذا استمعوا لهم أمكنهم أن ينقلوا ما تعلموه جيلاً بعد جيل.

فقلت: لو حضر إليهم "بتاح" وكان هناك من بينهم من ينصت له وقدروا كلماته حق قدرها ونقلوها إلى كل من يلقونه ثم دونوا تعاليمه وسجلوها بنقشها على الحجر، فقد ينسى الناس ذلك بعد مائة عام إذا لم يتوفر من بينهم كهنة صدق يتبعونهم عن عقيدة، فلكي تبقى التعاليم وتحيا

يجب أن تنساب إلى هذا العالم خلال أبواب مفتوحة وإلا ماتت وأصبحت كذراع مثال انتزع منه ففقدت أصابعه بذلك قدرتها بمجرد أن امتنع عنها دم الحياة الذي كان يجري في جسد صاحبها.

فقال: حتى ولو كان مبلغ علمهم من المعرفة الحقة ضئيلاً عما كان فيما فرط من عصور فإن ذلك القليل لا شك خير من لا شيء لا يخلف وراءه شيئاً له صفة الدوام.

فقلت: وستصبح ميناوس أكثر فقراً في عالم المعرفة ما دامت تقتصر على نصف الحقيقة ولا يدأب قومها على تذكرها فلا يبحث إنسان عن كمية ضئيلة من التبر في كأس من الرمل. وقد يقول كثيرون من الناس ألا قيمة لها، ففي هذه المعابد يوجد رجال ولكنهم ليسوا بكهنة. فماذا يجديهم إذا تفوهوا بكلمات غيرهم، ماذا يكون الحال إذا تحدوا كهنتها وسألوهم عن مصدر معرفتهم ولم يجيبوا بأنهم رأوها بأنفسهم واعتقدوا في صحتها، بل قالوا لهم إننا نقلناها عما كتبه رجل حكيم على لوحة يبلغ ارتفاعها سبعة أذرع وسجلها في ملف قديم من أوراق البردي. فإذا فاه أي كاهن بإجابة كهذه في "كام" فلن يجد رجلاً من الغباء ليعيره أي اهتمام.

إن هناك حكمة كبيرة سجلت عن الماضي، ومن المفيد أن تقرأ هذه التسجيلات ورغم أن المعلمين الحقيقيين قد علموا نفس هذه التعاليم خلال الأزمنة إلا أن هناك بعضاً منهم قد وضع الحقيقة في أحسن قالب يمكن أن يوقظ قلوب من يسمعها. فالحقيقة الواحدة تختلف في درجات وضوحها ومقدار ما تشع ممن يحملها فتبدو في أول أمرها كشمعة لا تمحو إلا ظلمة حجرة ثم

تتوهج كشمس فتزيل ظلمة الدنيا بأسرها، ويستمر مصباح الضوء يشع على الدنيا إذا تيسر له كهنة يرعونه، أما إذا أهمله كهنته فإن ذبالة المصباح تتوهج مدة قصيرة ثم يصبح فارغاً عديم الفائدة رغم أن المرمر الذي صنع منه قد نحت نحتاً جميلا وسرعان ما يخمد المصباح وينطفئ نوره وتخبو حرارته.

وسيحل الوقت الذي فيه يتبين هؤلاء الناس فقرهم الروحي، وعندئذ ينشد كهنتهم ويمتدحون آلهتهم عبثاً فلن يجدوا من يحضر هذه المهازل، وسيجد من كان يشهدها في الأسواق العامة حكمة أكثر مما يجدونها في المعابد، وعندئذ تسري الهمسات، ويتهامس الناس في منازلهم حول نيران مطابخهم وفي حقول الكرم، وفي المراعي والسفن بهمسات يقولون فيها "إننا وحيدون تعوزنا القيادة الروحية وإنا لا ندري إلى أين نحن مسوقون ولا من أين أتينا، نحن في وجل من أمرنا" وستتطور هذه الهمسات وتكبر حتى يتحدوا الآلهة قائلين "نطالب بحكمتكم لأنفسنا" وتستجيب الآلهة لهم وترسل لهم أبناءها الذين مرت عليهم سنون طويلة والذين يمكنهم أن يعبروا الطريق إلى الآلهة، ويعود أبناء الآلهة إلى الأرض ويتحدثون إلى الناس في صوت واضح وفي قوة الحكمة المتكاملة وسيقولون هذا هو الحق.. لأننا كهنة صدق".

الفصل السابع

الساحر

وفي مكان ليس ببعيد عن القصر يوجد وادي صغير سدت الأشجار الكثيفة عنه مسالك النور فبدا مظلماً وكان به معبد خرب، ولم يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد غروب الشمس أو قبل طلوعها في الصباح إذ اعتقدوا أن أرواحاً شريرة تسكنه وتحل فيه، وإذا زار أحد هذا المكان والقمر بدر عاد ببصره خاسئاً لفظاعة ما رأت عيناه، وعندما سألت "كيوداس" عن أمره تحرج وبدا له أنه شيء يخشى الكلام عنه. وقد تحيرت في ذلك فإما أن يكون هناك أمر سوء في هذا المكان أو أن روحاً قد جبست فيه نتيجة جهل صاحبها فأصبح في حاجة إلى معونة.

ولذا عزمت على أن أبرح مكاني ليلاً دون أن يشعر بي أحد وأكشف المكان الخرب، وقد وافقني "بتاح –كفر" على ذلك، فذهبنا معاً وبارحنا القصر في ضوء القمر وسرنا إلى الوادي بين أشجار الأرز الكثيفة، وما كان المعبد إلا هيكلاً صغيراً قد تساقطت أعمدته، وكانت هناك شجرة قد نمت في أرضية المعبد بجانب تمثال مكسور لأحد الآلهة، وكانت للمكان رائحة كتلك الرائحة التي تنبعث من مكان قديم وأوراق أشجار طال عفنها. ولما عم اليأس من العودة إليه خيم عليه شعور من الخوف وأصبح

ككفن من نسيج العنكبوت الثقيل، وأمكنني أن أدرك علة الفزع الذي انتاب كل من دخل هذا المكان.

وأشار "بتاح – كفر" لي بالتزام السكينة ثم غطى عينيه وأطل على هذا المكان وقال "يوجد هنا شخص توفي من خمسمائة عام وكان اسمه "كيروديديس" وولد مزوداً بعلم قليل، ولو صبر لتعلم شيئاً عن الاستشفاف. ولكنه كان نهما في سبيل المعرفة وحاول أن يغتصب الطريق إلى الآلهة لنفسه من غيره بطريق غير سليم، وعرف أن الناس ضعاف الأجسام أو الذين أصابتهم الحمى يرون صوراً لا تبدو لعين بقية الناس. وأحضر ثلاث نسوة إلى هذا المكان وأجبرهن على أن يأكلن ما يكرهن فأكلن لحم طفل حديث الولادة، وإفراز القطط وبيض الحيات وصراصير منقوعة في الزيت. ولما عافت أنفسهن هذا الطعام ولفظنه عاود إجبارهن على الأكل حتى هزلت أنفسهن ولم يتمكن من الإبقاء على أرواحهن فأمكنهن أن يرين ما وراء أجسادهن وأخذن يهذين فزعاً مما رأين، وبذلك أصبح ذلك الرجل الذي كان من واجبه أن يكون كاهناً أصبح ساحراً، وسجل حديثهن سنين عديدة إلى أن ثارت إحداهن ضده ودست السم في طعامه ومات وهو يقاسي آلاماً مبرحة.

والآن لا يقوم إلا بشيء واحد فقط يكرره المرة بعد الأخرى خلال هذه الأعوام الطويلة: وهو أكل القاذورات التي أرغم غيره على أكلها ثم يتلوى من الآلام ثم يعاود الانحناء نحو النار ليرى طعامه هذا الذي يفزعه يغلي في المرجل، ولم يمكنه أن يتحكم في يده حتى لا تضع هذا الطعام بين

شفتيه ولم يعرف أنه بقي على هذا الحال خمسمائة عام لأنه اندمج في إطار الخلود فلا يعرف إلا حاضره وهذا الفزع الذي يقاسيه الذي لا نهاية له يتجدد باستمرار.

وعندئذ طلب إلى "بتاح –كفر" أن أخلصه، وبينما هو يرقب أن كل شيء يسير على ما يرام تجردت من جسدي وتركته على الأرض، وشعرت بأن ضباباً رمادياً شاحباً يطبق علي ولكني دفعته أمامي بضوء أصفر براق، وعرفت أن ذلك الساحر الذي سأخلصه موجود تحت قدمي ولكني لم أتمكن من أن أتبينه تماماً إذ بدا منكمشاً لشدة فزعه، ثم خاطبته قائلة: ستستمع إلى ما أقول.. لن يكون الموت بعد ذلك هو ما تتنفسه ولن يعرف لسانك العفن بعد اليوم ولن ترى عيناك القاذورات، لأنك ستنام وعندما تصحو ستولد من جديد تحت الشمس.

ولم أر عند قدمي رجلا مرت عليه السنون وهو في سحره بل رأيته شاباً كما كان قبل أن يتردى في الوسخ. وكان أشبه براعي ماعز صغير سبق أن رأيته راقداً في الشمس على حين ترعى قطعانه على سفح الجبل في ظلال أشجار الزيتون.

ثم عدت إلى جسدي، وطهر "بتاح كفر" هذا المكان بمياه السلام والأمانة حتى يتطهر من هذه الذكرى كما يطهر "بتاح" الجرح بأن يبث فيه الحياة، وتركنا الوادي وقد أصبح مكان سلام وأمن وسطع عليه نور القمر دون أن يحجبه عنه حجاب.

الفصل الثامن

احتفال "بوسيدون"

كان اليوم السابق لعودتنا إلى بلدنا "كام" يوم الاحتفال بالإله "بوسيدون" وفيه تقدم القرابين لإله البحر تضرعاً إليه أن يرسل الرياح المواتية لأساطيلهم ولا يرسل أعاصيره إلا والسفن آمنة في مرساها.

وطلب إلي "كيوداس" أن أشترك في هذا الحفل وأرتدي ملابس أهلميناوس وأحسست أن "مآتا" وهي تساعدني على ارتداء ملابسي تود أن أعود طفلة كما كنت حتى أكون في سن تتحكم فيه في ملبسي، وصففت شعري حسب الطريقة "المناوية" وأبقيت على حلقات شعري في مكانها بمشابك لها رءوس من المرجان، وكان ردائي ذا "كرانيش" حليت بالصدف من حبات اللؤلؤ وكان الجزء العلوي منه مزيناً عند حافته بعناقيد من خرز المرجان وبدا منه ثدياي بعد أن طليتهما بلون ذهبي رغم معارضة "مآتا"، ولما عارضت في ذلك أخبرتها أنه يحسن بنا أن نراعي شعور الناس وأن ذلك أجدى من أن نكون عبيداً لعاداتنا وقلت لها "إن قواعد الخير والشر سواء في كل زمان ومكان، ولكن التواضع والتأدب يتخذان أشكالاً كثيرة فهما وليدا الساعة والمكان، وتتخذ مقاييسها ممن يعيشون حولنا، فإني أرمى بالحماقة إن تصرفت هنا كفرعون، كما أرمى بها إن وضعت التاج

الأبيض على جبيني وأنا أسبح في البحيرة أو إذا جلست في قاعة الاستقبال وأنا عارية الجسد.

ومن العسير عليك أن تسحبي سفينة في مجرى نهر جف ماؤه ولكنها تطفو بسهولة فوق الماء، فالمجاملة بين الناس كالماء للسفينة في مجرى النهر، وقد تنعدم الشجاعة والحكمة في المجاملة ولكنها كخضرة المرعى الرطب التي فيها جمال الألوان على اختلافها، ويمكن أن تكون المجاملة كالأغطية الكتانية الباردة التي نستلقي عليها ونحن متعبون أو كوهج الموقد في ليلة باردة، وقد تتعارض المجاملة مع ريح التجارب التي تدفع سفننا في رحلاتها ولكن لا بأس من أن نطوي الشراع قليلاً إذا أخذ غيرنا من المسافرين في تهدئة سرعة سفنهم في النهر.

ولما انتهيت من ملبسي لحقت بالآخرين الذين اجتمعوا في الشرفة، وكانت "أرتيميوديس" قد وضعت لآلئها في خيوط في شعرها ووضع "كيوداس" تاجاً من المرجان، ورأيت أن الملابس التي أعطوها لي ولنياح لا تقل فخامة عن ملابسهم. وكانت المحفات التي حملتنا نزلا في التل على شكل محارات وكان حملة المحفات يلبسون أقنعة على شكل أسماك.

وعندما رأيت الأسطول راسياً من فوق الجبل كانت السفن بأشرعتها ذات الألوان الزعفرانية والبرتقالية والزرقاء مع اللون الأسمر الخفيف لخشب الأرز الرطب تبدو جميعاً وكأنها أوراق تويج زهرة قد وضعت في إناء من اللازورد.

وكانت على جوانب سطح السفينة الملكية زهور البنفسج وقد امتزجت عذوبته مع هواء البحر الذي يفوح برائحة الملح ورفرفت الأعلام الخضراء فوق صاريات السفن وكأنها نباتات البحر، أما المجاديف فقد كانت فيها خطوط باللونين الأحمر والأبيض، وتناول "كيوداس" الدفة من قائد السفينة وتقدمنا الأسطول خارج الميناء، وكانت الريح هادئة وتلاقت الأمواج الضاحكة مع جوانب السفن، وأخبرتني "أرتيميوديس" أن هذا دليل على أن الإله "بوسيدون" طيب المزاج على حين قابلهم في العام الماضي بالعواصف حتى اضطروا إلى الالتجاء إلى الميناء تفادياً لغضبه.

ولم أدر مبلغ اشتراك "أرتيميوديس" في معتقدات شعبها، فهل كانت تعتقد حقاً أن البحر إله نهم لا يهدأ إلا إذا قدمت له الهدايا والقرابين كل عام، وكأنها قرأت أفكاري فأجابت: "إذا كان بوسيدون راضياً عنا فسيقبل منا هباتنا، وأما إذا لم يتقبلها منا فستطفو ويصبح شعبنا بائساً تعساً إذ أن الكثير لهم تجار أو صيادو أسماك أعزاء لديهم قد يتعرضون للأخطار، وقال "كيوداس" إنه من الضرر للبلد أن تعرف وقت غضب الإله عليها ولقد أعد الملك الخراج الملكي لكي يلقى به في أي مكان يريده "بوسيدون" فقد أخبرني الكاهن الأعظم أن البشائر تدل على الخير، ولم تكن العواصف أسوأ من المعتاد وسيكون الأسطول في حالة مرضية أكثر من ذي قبل، وأخيراً وصلنا إلى لسان أرض داخل البحر حيث كان الماء مندفعاً وسحب معه كثيراً من السفن على الصخور. وفي هذا المكان قدم "كيوداس" الهبة المراسيمية للإله "بوسيدون"، فألقى الخراج الأول وألقت بقية السفن بباقات الزهور، وابتلع اليم كل هذه الهبات بين هتافات الناس وابتهاجهم،

ولما رأى القوم أن الهبة قد قبلت قبولاً حسناً فتح "كيوداس" قفصاً من الخوص خرجت منه ثلاث حمامات بيضاء دارت حول السفن ثم اتجهت نحو الجزيرة تحمل الأنباء الطيبة.

ثم انتشرت سفن الأسطول في خط واحد وبإشارة من المركب الملكي سارعت في السباق وأخذت كل منها تشق عباب الماء لتنال قصب السبق.

وبعد ذلك رأينا إحداها على يسارنا من بعد وقد خرجت عن خط السفن وكان رذاذ الماء يندفع أمام مقدمتها وانتشرت أشرعتها ووصلت فتحت الميناء قبل غيرها وقوبل انتصارها بهتافات مدوية وقال "كيوداس" إنها نالت أعلى مرتبة بين سفن الأسطول وسيوضع في مقدمتها عجلميناوس الذهبي وتحتفظ به إلى احتفال السنة القادمة وستنافسها السفن الأخرى في العام القادم للحصول عليه.

الفصل التاسع

رحلة العودة إلى الوطن

وأخيراً اتجهت أشرعة سفننا نحو وطننا. وكان البحر هادئاً وأخذت جبال ميناوس تختفي عنا في الغرب، وهكذا تركنا ذلك البلد الذي رأيته منذ زمن بعيد في أحلامي وهو يتمتع بجمال حقيقي. ولكن الآن وقد انقضت هذه الفترة الذهبية أصبح من واجبي أن أعود إلى حمل الصولجان والسوط مرة أخرى. وجلست أنا و"بتاح –كفر" على ظهر السفينة نرقب الخط الذي تشقه سفينتنا وهي تمخر الماء الهادئ، وكان بتاح متدثراً في عباءته لأن الريح تبعث البرد في جسم من تقدمت به السنون، ولاحظت أنه في حالة يمكنه معها من أن يعبر عما في نفسه، فسألته إذا كان آسفاً لتركه "ميناوس" وعن رأيه في حياة هؤلاء القوم التي شاركناهم إياها مدة شهرين. وتظاهر "بتاح –كفر" بالجد في حديثه ولو أن الضحك كان بادياً في عينيه وقال "أشك في أن الكاهن الأعظم في ميناوس يحمل احتراماً كبيراً لريشتي المزدوجة إذ يعتقد أني كذاب مخادع وهو رجل قليل الخبرة لا يدرك كنه العوالم فيما وراء أرضنا وتعقيداتها هذه بل إنه يشك في وجود عالم آخر، وعاملني على أساس الثقة التي توجد عادة بين دجالين يعرف كل أسرار الآخر وحيله.

ولما سألني كيف أخدع قومي أجبته بأني أزيل عنهم الخداع ولا أخلقه، ورغم تأدبه معي تبينت أنه يعتقد في قولي هذا إمعاناً في الخداع، ونظر إلي كمشعوذ ينظر إلى زميله بعد أن أخبره عن حيله التي يمكنه بها أن يخرج كتكوتاً من أذن رجل، فضن هذا الزميل بأن يخبره عن حيلة يحول بها تمثالاً صغيراً إلى حزمة ريش وثلاث رمانات ولذلك شعر بالحنق وبخيبة الأمل. وسألني عن ثروتي وأرضي ولما أخبرته أن لي حجرتين في القصر أنام في واحدة وأحفظ في الأخرى حاجياتي القليلة لم يصدقني كما لم يصدق أني لم أملك ثروة طائلة مكدسة، ولما أخبرته أني لست في حاجة إليها، سألني هل وصلت الكهنة في "كام" إلى المستوى المعيب الذي فيه لا تقدم قرابين للآلهة. فأخبرته أن الناس عندنا يعطون جزءاً من اثنتي عشر جزءًا من كل ما يملكون كل عام للمعبد على سبيل الهدية فقال "أنت كاهن أعظم وفقير! كنت أظن أن "كام" تدعى بأرض الذهب. فأخبرته أن أرض الذهب تقع في الجنوب ولكن لا يوجد الكثير من هذا المعدن الأصفر في "كام" وهناك أشياء كثيرة للمقايضة ندفع أشياء غالية مقابلا لها وشرحت له كيف يصرف الخراج عندنا.

أخشى أنه قد استنفد صبري لأنه حين سألني عن رأيي في الطقوس الدينية في معبده أجبته أظن أن الغناء جميل ولما أبديت أسفي خشية أن أكون قد ضايقته رأيت أني على النقيض من ذلك أدخلت السرور على نفسه. وقال إن المغنيات في معبده أجمل بكثير من غيرهن في المعابد الأخرى، ولذلك فإن كثيراً من الناس يؤمون معبده ويترددون عليه أكثر مما يترددون على المعابد الأخرى، ولذلك فإن دخلهم من العجول قد

تضاعف. حقاً إنهم قوم غريبو الأطوار، غير عاديين لدرجة أني شعرت أني أعيش بين قردة جميلة نسيت كيف تتأرجح بذيلها. وحين قلت لهم ذلك، ظنوا أني كاذب ولما حدثتهم عن الحكمة ظنوا أني أحمق ولما ضاق صدري بهم وأهنتهم اعتبروا ذلك مديحاً لهم.

الجزء السابع

الفصل الأول

حلم منذر

وكان نياح يقوم كل عام برحلة في النهر شمالاً وجنوباً حتى لا يمر عام دون أن يشاهد الناس فرعون، وكان يقضي عشرين يوماً في الحامية في الجنوب يمارس فيها هواية الصيد مع قواد جيشه ونبلاء الجنوب.

وفي السنة الثامنة من حكمه، عندما كان في "ناكش" عادت روحي التي كانت ترقب البلاد وأنا نائمة تنذر باقتراب وقوع خطر على البلاد، فرأيت في منامي الفتيات ذوات الجلاء البصري في المعبد وقد صرخن لفقد أبصارهن، ورأيت سحابة سوداء تندفع نحو أرض "كام" من الشرق وهي بعيدة عني وتندفع نحوها من البحر الضيق ورأيت جيشاً من النمل الأسود يتقدم نحو قصري.

ولما صحوت عرفت أن هذا الحلم رمز لخطر وددت أن يتذكره جسدي وقد عدت إليه حثيثاً. لقد أحسست بخطر يهدد "كام" ولكن ما كنهه...؟ لا أدري، هل تتعرض البلاد للقحط أو يجتاحها وباء أو يهاجمها عدو. لذلك أسرعت بإرسال رسول إلى معبد "أتت" يستدعي "ني – سي – رع" وطلبت منه أن يبحث عما يهدد بلادنا، فتناول مرآة فضية من المائدة وحملق في بقعة براقة فيها وبذلك تخلصت روحه من جسده، ثم

أخفى عينيه بيديه وأخذت روحه تسرد ما تراه وهي بعيدة عنه فقالت "في شرق النهر سحابة داكنة، إنها سحر بغيض وضع هناك حتى يعمي العيون فلا نتمكن من اختراقها ولكن بقوة عزيمتي سأطرد هذا الظلام، إني أرى جيشاً من أهل زوما يتقدم بقيادة "زرناك" ولد "ساردك" الذي قتل بيد "أتت" العظيم وقد عبروا الصحراء خلسة، وأرسلوا أمامهم جواسيس يتقنون التحدث بلغة بلادنا متنكرين في زي رعاة الماشية، فإذا رأوا شخصاً من شعبنا رحبوا به كصديق فإذا وثق فيهم وقبل صداقتهم قضوا عليه حتى يخفوا غدرهم.

وكان معهم كاهن من عالم الظلمة قوي لدرجة أن أخفى قومه تحت سحابة حتى لا يراهم من لم يؤت قدرة أقوى من قدرته فلا ينفذ إليهم ويكشف سوء مقصدهم ومعه شخص يسيطر على جسده أحد أتباع "ست" إله الشر ويلقبونه "بلشزار داك" أي "بوق الآلهة" ولا يتحدث عن طريقه إلا سيده الشرير لأن من ورائه كاهناً ذا بأس يشد أزره. وكانوا عشرين ألفا يسيرون ببطء لكثرة ما معهم من أحمال، وما زالوا على بعد مسيرة ثلاثة أيام من النهر فإن ساروا غرباً وصلوا إلى النهر بين "أبيدوا" و"من. أتت. أس".

وأثناء حديثه عرفت أن أجنحة الدمار ترفرف فوق "كام" لأن الوقت كان وقت الحصاد الذي رجع فيه كل جندي إلى بلده ولم يكن تحت إمرتي سوى خمسة آلاف من الرجال. وحتى لو فرصنا أن "نياح" أو حامية الشمال ستخف اليوم لنجدتنا فلن يسعفوا قومي أو عاصمتي، إذ

سيصلون حتما بعد فوات الفرصة ولن تكون عاصمة ملكي التي أعطيت المواثيق لحمايتها بعد ذلك مكان أمن وسلام بل سيعم الخراب الحقول والحدائق، وكان على كل رجل من بلادنا أن يحارب وكأنه إله حرب لأن عددهم يفوق عددنا بنسبة أربعة جنود إلى جندي واحد.

ولو كان "نياح" هنا ليقودهم لتبعوه إلى كهوف العالم السفلي ولو أغلق "ست" نفسه السبيل أمامهم، وكان على فرعون دائماً أن يكون على رأس جيوشه في جميع المواقع ومع أني امرأة إلا أني حلفت القسم الأعظم أن أسوس قومي بالسوط والصولجان كي أذيق أعداءه العذاب، ولذلك استمد جسدي قوته من روحي وسيقودهم "زا – آتت" ولو أن فرعون ليس إلا ملكة.

وتحولت إلى "ني – سي – رع" وقلت له "أرى لزاماً أن ندعو الآلهة حتى تلهمنا السداد والحكمة حتى نقضي على جيوش "زوما" قبل أن يدنسوا حقلاً واحداً بظل أجسامهم. وسألت عن عدد العجلات الحربية التي معهم؟ فأجاب بأنها قد تبلغ خمسمائة أو تزيد.

وإذا استخدمنا كل ما لدينا من خيل حتى الإناث، ولو أمكنني أن أحول الرمال إلى تبر فلن يتيسر لنا أن نستخدم أكثر من مائة من الجياد في ميدان القتال. وكان لزاماً علينا أن نقاتلهم في مكان يصعب فيه استخدام عجلاتهم الحربية؛ فهناك في الجنوب على مقربة من المكان الذي قلت إنهم سيصلونه من النهر إذا اتجهوا غرباً توجد صخور عالية تكون نصف دائرة

تصل إلى النهر عند طرفها وينفرج في وسطها مضيق ينثني بين التلال حتى يصل إلى الصحراء، ويلتقي هذا المضيق من جهة الشرق بمجرد نهر جاف في هذا الوقت من السنة من جهة الشمال. فإذا أمكننا أن نفاجئ جيشهم هناك فإن مهارتنا تتفوق على كثرة عددهم، ولكن كيف يتاح لنا أن ندفع لهم إلى هناك؟

فقال "ني – سي – رع" عند غروب الشمس كما هي العادة كل مساء سيستمتع كاهنهم القوى إلى الأوامر التي تأتيه من تابع "ست" الذي هو سيدة، أوامر سيسمعها على لسان "بلشزارداك" وإن من يسيطر عليه قوي ولكني أقوى منه، وسأتغلب وأسيطر على تابع "ست" حتى لن ينطق خادمة إلا بما أوحى به أنا إليه وسأقيده حتى لا يتمكن من تحذير كاهن زوما مما فعلت، ففي هذا المساء سيدعو صوت "بلشزارداك" "زرناك" وقواد الجيش وسيسمعون هذا الكلام:

أنا "ست" أتحدث إليكم بنفسي، ستعرفون معنى النصر، لأني أنا الذي أقودهم، ولكن إذا عصيتموني فسأرسل لكم الوباء تتعفن معه أجسامكم قبل أن يأتيكم الموت، ستهدمون معابد "بتاح" و"أنوبيس" و"حوروس" وستقضون على أتباعهم وتقضون على كهنتهم وأصنامهم التي في هياكلهم وستملأ كهنتهم معابدهم وتقيمون تمثالاً لي من الحجر يبلغ ارتفاعه عشرة أذرع. وإن أرض "كام" ليست بمستعدة للقياكم لذا سيكون النصر سهلاً والمحصول غنياً وافراً. سيروا جنوباً يوماً ثم توجهوا غرباً وفي مساء اليوم الثاني أقيموا خيامكم على رأس مضيق صخري منحدر سترونه

أمامكم يؤدي إلى سهل ترعى فيه قطعان ماشية تتجول بين المراعي. إنها مشيئتي أن تذبحوا مائتي عجل قرباناً لي، ويحرق نصف كل عجل منها حتى أتمتع برائحتها وستأكلون النصف الثاني حتى تقوى أجسادكم للحرب في سبيلي وستبقى عجلاتكم الحربية وخدمكم الذين يحملون متاعكم في معسكركم بينما يقود "زرناك" جنوده منحدراً في المضيق وإذا كنتم مخلصين في تضحيتكم فستسمعون أوامر جديدة في مساء اليوم الثالث، فحتى هذا اليوم لن تسمعوا صوتي.. أطيعوني.. أنا.. ست.. قد بلغت".

فقلت له "لكنهم سيرون الخطر يهددهم في هذه الخطة، وبكل تأكيد سيرون أنهم قد يحاصرون في هذا المضيق فلا يجدون لأنفسهم مخرجاً".

فقال "إنك لا تعرفين مقدار خوفهم من "ست".. إنهم لا يجرؤون على عصيان ما يعتقدونه أمراً صادراً منه".

فقلت: إن خطتك هذه جديرة بالإله "بتاح" في حكمتها، وسيكون فيها القضاء المبرم عليهم جزاء اعتقادهم في الشر وإرضائهم للآلهة المزيفة.. أعطهم أمراً آخر بأن ينحدروا من المضيق بين الصخور في الفجر حتى يصلوا السهل عند شروق الشمس، وسينتظرهم "زيب" برجاله في المضيق الشمالي، وسيقضي "مآتس" على مؤخرتهم، وسيجدون عجلاتي الحربية وحملة الحراب من الحرس الملكي في انتظار ملاقاتهم عند وصولهم إلى السهل، وكما ردهم والدي إلى البحر فسيعرفون مرة أخرى مقدار بأس "كام".

فقال: لقد أصدرت الأوامر لكل من "زيب" و"مآتس" ولكن من سيقود الجنود في السهل؟

فقلت: ستكون عربة فرعون في مقدمة خط القتال تقود المعركة. إني كثيراً ما أرسلت رمحي في جسد تمساح وسددت سهمي نحو أحد الطيور، أما الآن فأمامي صيد يستحق كل ما لدي من مهارة؟، وإني أدعو الآلهة أن يشرب رأس سهمي من دم "زرناك" فقد علمتني يا "بي – سي – رع" الحكمة فأمكنني أن أحكم.. هل يرضيك أن أخيب ظن شعبي ولا أقودهم؟"

فأجاب: إن علي أن أقول للنساء الأخريات إن اشتراكهن في الحرب ضرب من الحماقة ولكن قد وضع والداك خاتمة على جبينك ومن ثم فإنك ستكونين جديرة بأن تقودي عجلاته الحربية بكفاية ومهارة.

الفصل الثاني

مدرج الغلال

ولم يكن في الحرس الفرعوني قائد قواد سوى "نياح" ولما أصبحت فرعون عينت "زيب" حامل لوائي وسبق أن تولى منصب قائد في أثناء الحملة على بلاد "بنت" أما القائد الآخر "مآتس" فأعطيته إمارة الجيش وقد سبق أن عرفته حين كنا نخرج معاً في صحبة "نياح" لنصيد الأوز العراقي بين الغاب، وكان الابن الوحيد لشقيق "مآتا" المشرف على أرض الغلال في المدينة الملكية.

وفي ظرف ساعة من الزمن كانت الجنود قد تجمعت في صفوف على رصيف الميناء، ومنذ غارة جيش "زوما" بقيادة "ساردك" كانت هناك قوارب سريعة في النهر معدة لأن تحمل ثلاثة آلاف رجل مزودة تزويداً كاملاً بالغلال والنبيذ والسهام، والأربطة لتضميد الجروح وأشياء أخرى من مستلزمات الحرب، وكان بالمدينة الملكية ست مراكب تجارية انضمت إلى الأسطول لنقل الخيل والعجلات الحربية وبقية الجيش، وأمرت أن تتبعني مركب محمل بزيت الوقود حتى تحترق به أجسام جنود "زوما" لأن أجسادهم لا تستأهل أن تضمها "كام".

وذهبت إلى غرفة الأختام وأخرجت خوذة والدي من صندوق كانت محفوظة به في قماش من كتان رقيق منذ أن لبسها في انتصاره الأخير. ولما حان وقت الرحيل ودعت ابنتي "تشيكا" فتعلقت بي لأن ضوضاء الاستعدادات الحربية أمر يخيف طفلة مثلها، وكان خدها ناعماً وهو ملتصق بخدي، وخيل إلى أن جسدي لن يكون لي بعد ذلك بل سيكون متقمصاً ويعيش في طفلتي في أرض "كام" بينما تسبح روحي مع الزمن. وأخذت سوطاً للاحتفالات ووضعته في يديها وقلت لها اسمعي يا "تشيكا" ستحكمين بالنيابة عني أن أعود فستجلسين في الولائم ولن يحملك أحد على النوم مبكرة.. فقالت الطفلة: ولكنك تلبسين لباس المحاربين والمحاربون مآلهم إلى القتل، فطمأنتها قائلة بأن "زيب" سيرعاني ويقوم بحراستي، وكيف ينالني أذى وجنودي حولي، وسنطرد جنود "زوما" من بلادنا وستفر جنودهم كما تفر الكلاب المجرمة أمام زوجة صاحب الأوز حين تباغتها وهي تشمشم حول عشها.. ابتسمي يا ابنتي حتى تكوني جديرة بأن تحملي السوط، والآن على أن أرحل. تعالي معي كي ترى الجنود في بدء الجنود في بدء تحركاتها.

وفي مدى ثلاث ساعات تم نزول جنودي في السفن يتبعهم "زيب" وعدون في عجلتي حتم أنضم إليهم على رصيف الميناء، ولما علمت الجنود أن فرعون سيقودهم في ساحة القتال قابلوني بصرخة المعركة "أتت والنور" في صوت واحد يعبرون عن بهجتهم لقيادتي. وانحنى المجدفون فوق مجاديفهم وأخذت السفن تترك مراسيها، وأبحرنا صعداً في النهر على نغم أنشودة أخذ ينشدها رجل الدفة حتى تسير المجاديف على وتيرة واحدة.

اجذبوا مجاديفكم أيها النوتية.. يا من تجدفون

اجذبوا مجاديفكم..

حتى يمخر مركبكم عباب الماء..

مثل أوزات برية تنطلق كالسهام..

وهي تعود إلى الغاب وقت الشروق..

هب بقوة أيها الريح..

حتى تريح النوتية المنهكة القوى..

في ظلال الشراع المنتشرة..

وابتسمت لنا إلهة الريح، ولما هدأت الريح في المساء كانت النوتية قد حصلت على قسط وافر من الراحة لذلك أسرعنا صعداً في النهر، وتحدثت مع "زيب" و"مآتس" و"بتاح – كفر" الذي رافقنا ومعه "زرتر" وخمسة من الكهنة الأطباء. وتدارسنا خطة المعركة، وكانت السفن متقاربة لدرجة أنه يمكن لسباح قوي أن ينقل الرسائل من مركب إلى آخر، فكان يغوص في الماء من مؤخرة قارب ويسبح للقارب الذي وراءه، وفي عودته تلقى له الحبال ويسحب للمركب الرئيسية.

وسبق أن اشتقت في طفولتي أن أكون محاربة وأتبع "نياح" في النضال والآن أخذت أدعو "بتاح" ألا أخيب أمل بلادي في، وتذكرت حين حاربت بسيفي وعشت حياة المحارب في "أتلانتا" ولكن كان ذلك من زمن بعيد، وليس بيسير أن تبقى روح المحارب حية في جسد امرأة.. ماذا تكون الحال إذا انتابني الخوف ونقلته إلى قومي الذين ينظرون إلى شجاعة فرعون كلواء يلتفون حوله أو صرخة يستجيبون لها؟

وكان القمر محاقاً والسماء تتغنى بضوء النجوم المتلألئ، الذي عكسته المساه، فبدت كأن النجوم هبطت من السماء لترتوي منه ولم ترتو بعد، وكانت القرى النائمة ساكنة في أثناء مرورنا، وسمعت صوت عواء ابن آوي في صيده خافتاً والهواء ساكن، وسمعنا حفيف الغاب بسبب هروب حيوان، كان يستقي، خشية من صوت مجاديفنا، وكانت "كام" هادئة كطفل نائم يتنفس في هدوء ولا يدري أن حية الكوبرا تزحف نحوه على الأرض، والآن على ألا أشعر بوجل في المعركة ففأرة الماء تتشجع إذا رأت أطفالها في عشهم تحت ضفة النهر معرضة للخطر، فشعب "كام" أطفالي والقطران هما مأواهم وعلي أن أجعلهم يعيشون في أمان، فكلاب الصيد يمكنها أن تخرج الأسد من عرينه، ولكن اللبؤة تقف أمامها إذا ولدت أشبالاً وحان وقت الدفاع عنها، وستبقى "كام" هادئة هانئة ناعمة في حمى سيوفنا.

واستمرت رحلتنا يومين وليلتين، وفي اليوم الثالث وصلنا إلى مدرج الغلال الساعة الواحدة بعد الظهر. وكان هناك مخزنان للغلال لم يستعملا

مدة تقرب من مائتي عام، وقبل أن يتحد القطران كان هذا المكان أحد مخازن الغلال الرئيسية لأرض "اللوتي" ولما كانت الغلال تأتي الآن من أرض "البردي" أصبح هذا المكان مرعى لا يعيش فيه سوى عدد من الرعاة، وكانت تودع فيه أحسن العجول والبقر لترعى وتتجول كي تتوالد ماشيتنا وترسل منها العجول الصغيرة في أنحاء البلاد لتنتج نسلاً من العجول القوية. ولما لم يكن هناك مرساة للسفن على ضفة النهر لم تتمكن السفن من الاقتراب منها، فاضطرت الخيل أن تسير على عوارض خشبية فجفل بعضها وتراجعت إلى أن هدأها سياسها وتمكنوا من قيادتها على هذه العوارض حتمي بلغت الشاطئ.

وأخبرني "بتاح – كفر" أن جيوش "زوما" لم تصل بعد إلى مكان معسكرهم إذ لم يجرءوا على أن يشكوا في أوامر ووعود "ست" إله الشر فلم يرسلوا جنود استطلاع لتكشف لهم عن مواقع العدو ولذلك لم ننتظر الليل حتى نسير تحت ستارة بل عبرنا مدرج الغلال وعسكرنا عند أسفل سفح الصخور.

وقبل بزوغ الفجر بخمس ساعات تحرك "مأتس" ومعه جنود الذين بلغوا اثنى عشر ألفاً ومائتين من حملة الهراوات وأخذ كل مكانه المقرر له في الخطة الحربية وكان مرسوماً له أن يصعد طريقاً فوق الصخرة يقع إلى جنوب المضيق وينتظر عند قمته بقدر المستطاع دون جلبة حتى إذا ولج آخر جندي من جنود "زوما" المضيق في طريقهم إلى السهل سد عليهم

سبيل التقهقر فإذا أرغمناهم على التراجع نحوه وجدوا رءوسهم تصطدم في الحائط من الحجارة.

أما "زيب" فتساق المضيق مع حملة السهام ليختبئ هو ورجاله في مجرى النهر الشمالي الذي يقع في وسط الطريق بين معسكر جيش "زوما" والسهل وكان عليه أن يسمح لنصف جيشهم بالمرور ثم يهاجمهم بوابل من السهام حتى تتلوى جيوشهم كما تتلوى حية قسم ظهرها تحت ضربات العصى.

وقبل أن يتخذ المحاربون أماكنهم وجهت إليهم الكلمة الآتية: إن عدونا يفوقنا عدداً، فلديه عدد من الجند يبلغ أربعة أمثال جنودنا، لذلك وجب علينا أن نحارب كآلهة حرب لا كبشر، إنها حرب بين النور والظلمة، وفي قتل كل رجل منهم إعدام لشخص سوء، وستشارككم الآلهة السرور والبهجة في قتلهم وعند الفجر سأقودكم إلى النصر كما قاد "أتت" العظيم آباءكم.

الفصل الثالث

المعركة ضد جيوش "زوما"

انتظرنا في ظلمة الفجر عند الفجوات التي انقسمت عندها الصخور كما لو انقسمت بسيف قاطع، وكان في السماء الحمراء سحب كالمشاعل المتلألئة في الهواء على حين كانت عجلاتنا الحربية تتحرك وعلى جوانبها وخلفها حملة الحراب. وبعد ذلك مرت كلمة من مراكز المراقبة أن "زرناك" في طريقه إلينا مخترقاً المضيق، فوقف رجال العربات عند رءوس خيولهم تهدئها حتى لا تصهل أو تضرب الأرض بحوافرها فتكشف عن مكاننا.

وسمعنا طنين ترتيل جنود "زوما" خافتاً على بعد وهم يتقدمون ليقدموا قربانهم لإلههم "ست"، وبعد لحظة ستجري دماؤهم حمراء كلون الفجر الغاضب وسرعان ما تروي دماؤهم هذه الحقول: وتخضب دماؤهم أراضينا. وسيكون هناك أعمدة من النار والدخان لا تتصاعد من الأبقار التي يقدمونها قرباناً لإلههم "ست" بل من أجسادهم التي كانت ستنهب أرض "كام" وسيختلط رمادها بثرى تربتنا.

وفي أثناء انتظاري وسط خط العجلات صليت لوالدي ذلك الفرعون العظيم كي أكون جديرة بأن أضع خوذته على رأسي، وسمعت أغاني "زوما" تعلو في أذني وأدركت أن بعد دقائق سأتقدم هذا الصف من العجلات. "والدي... استمع إلي إذا قدر لي أن أموت فلتكن ميتة مشرفة

وفي سبيل النصر" وعندئذ رأيت عجلته أمامي، ولم تكن خالية بل كان بها والدي يركب في عظمته.

وبينما تتقدم عجلته صفوف العدو في السهل لوح والدي لي بيده أن أتقدم فصرخت صرخة الحرب المدوية "أتت والنور" وقادتني عجلة "أتت" كالموج الزاحف وهاجمنا هذا الجيش الجرار من المشاة.

وسببت عجلاتنا صوتاً كصوت الرعد وهي تهاجمهم وأرسلنا أول دفعة من حرابنا ورأيت إحداها تصيب كاهنهم الأعظم في فخذه تحت بطنه فأردته قتيلاً مضرجاً في دمه القذر، وحاولوا أن ينتشروا أمامنا ولكن أطبقت عليهم حملة الحراب كما تطبق أجنحة الصقر على فريسته وانقلبت العجلة التي على يميني إذ أصيب حصانها بطعنة من سيف فبقرت بطنه، ورأيت أحد قوادنا يفصل رأس أحد "الزوميين" واندفع الدم من رقبته التي لا رأس بها قبل أن يرتطم جسمه على الأرض، ورأيت أحد سائقي العجلات يوقف خيله ويقفز منها المحارب كي ينتزع حربته التي استقرت بين ضلوع رجل سقط تحت العجلات، ورأيت قائداً شاباً يحارب ويستمر في النضال رغم أن يده اليسرى قد فصلت من رسغه.

وبعد ذلك رأيت أمامي "زرناك" بين الرجال المندفعة يرتدي لباس الملوك وقفز فوق وسط عجلتي محاولاً أن يصرعني بسيفه، فدفعت حربتي في حلقومه حتى ارتوت قبضتها بدمه الذي انبثق من فمه وغطى تلك الكراهية التي تشع من عينيه، هاتان العينيان اللتان كانتا تأملان أن تريا

"كام" مغلوبة مقهورة... والآن إذا مت فقد قتلت عدوى وانتشيت وسكرت بخمرة النصر.. وشعرت بموجة الفرح وكأنما رأيت حية الكوبرا تموت، وتركت شعري يسترسل في الهواء حتى يرى زرناك بعينيه قبل أن يقضي نحبه إن امرأة على عرش فرعون كانت محاربة أجل شأناً من ملك زوما في ساحة الوغى.

ولما رأى الزوميون ملكهم قد وقع صريعاً سادت الفوضى بينهم وحاولوا الانسحاب طلباً للنجاة من المضيق. ولكن وجدوا طريقهم مغلقاً بجنودهم الذي أجبرتهم جنود "زيب" على الانسحاب، ولم تتمكن عجلاتنا من متابعتهم فوق المضيق الصخري فأوقفتها جميعاً وتركت لحملة الحراب أن يتبعوا العدو الهارب.

واستمرت أصوات المعركة تدوي في المضيق نحو ساعة من الزمن ومرة أخرى سمعت صرخة المعركة من "زيب" وهو يندفع من المضيق منتصراً. وقد أصابني جرح بعد موت "زرناك"، ولما عادت عجلاتنا إلى السهل وضعت عباءتي حتى أخفى إصابتي، ولما رأيت النصر محققاً التفت إلى جرحي فوجدت سهماً مكسوراً في ذراعي الأيسر قرب كتفي.

ولما أتى "زرتر" ليعالج جرحي قرر أنه من الضروري أن يجري عملية جراحية ليستأصل رأس السهم، وقال إنه إذا عجزت عن تحمل الألم فسيدعو كاهناً من كهنة "حوروس" ولكني رفضت ذلك وقلت إن إخراج السهم يسبب آلاماً أسهل بكثير من آلام الولادة.

الفصل الرابع

النصب التذكاري

قتل منا ما ينيف على ألف وأربعمائة محارب وأصيب خمسمائة بجروح خطيرة رقدوا بسببها في ظلال الأشجار متدثرين في عباءات، وسرت بينهم بصحبة أطباء من الكهنة وأخبرتهم عن مقدار نشوة أطفالهم عندما يعلمون أن رب أسرتهم رجل عظيم.

وبعد ذلك سمعت أن "مآتس" قد لقى مصرعه إذ أصابه سهم بعد أن تهشمت رءوس تسعة زوميين تحت وطأة هراوته، فأمرت أن يحتفل بدفنه كما يحتفل بدفن الأمراء، وأن يدفن بجانب مقبرتي في "أبيدوا" التي سأدفن فيها في يوم من الأيام إذ كلانا يجد راحته بعد الضجة في هذه الموقعة في سبيل النور.

أما الغزاة فقد قضينا عليهم جميعاً ولم نترك سوى ثلاثمائة جريحا، ورغم أن هؤلاء الجرحى يجري في عروقهم دم أهل "زوما" إلا أننا سنسمح لهم بالبقاء إلى أن تلتئم جروحهم ويرافقون جثة ملكهم بعد تحنيطها عائدين إلى بلدهم حتى يرى شعب "زرناك" كيف يعود ملك إليهم سولت له نفسه أن يفتح "القطرين" أما خدمهم الذين بلغ عددهم ألفين فسيبقون في أرض "كام" مدة عام وسيعملون في صنع اللبن "الطوب" ويلقون نفس المعاملة

التي يعامل بها قومنا، وسنعامل كل أسرى الحرب نفس المعاملة حتى إذا عادوا إلى بلدهم حملوا معهم ذكرى حسن المعاملة والرحمة التي عوملوا بها في أرض "كام". ولم يكن في معسكر الأعداء ما يستأهل حمله أو أخذه سوى أربعمائة وثمانين حصاناً، وكانت هذه الجياد صالحة للتخصيب. وقتل من جيادنا عشرون من أنثى الخيل التي ولدت من الخيل التي أخذها والدي من "ساردك".

وفي المساء عندما مالت الشمس إلى المغيب حملنا جرحانا من أحراش الأشجار إلى القوارب حتى نعود بهم مسرعين إلى "من – أتت – أس". وكنت متعبة منهكة القوى وكان جرحي يحترق في جسدي فجلست مع "زيب" مرتكنة على شجرة بعيدة عن لفح نيران الطبخ، وأخذ يقص علي المزيد من أخبار المعركة فقال إن صفوف الزوميين اضطربت لما فوجئت بحملة السهام والنبال من رجاله، ولو أن بعضاً منهم قد ثبت في مكانه إلا أن الكثيرين قد ولوا الأدبار، ولكنهم وجدوا طريق الفرار مغلقاً برجال "مآتس"، وقد ملأ الحزن قلب "زيب" لوفاة "مآتس" لأنهما كانا صديقين حميمين وأخوين مدة طويلة من الزمن. وأخبرته عن والدي وكيف عاد ليقودنا إلى النصر والآن قد لحق به "مآتس" في عجلته الذهبية وسبقا الشمس في رحلتهما. وحدثته عن تلك الأيام حين كنا صغيرين وعن أول مرة لقيته فيه وكيف علمني الشجاعة، وعن صداقتي له التي نشبت بعد غضبي منه وكيف أنقذ حياة "نياح" في رحلة الصيد في الجنوب عندما هاجمه فهد جريح وقلت له إن الاثنين: الطفلة الغاضبة والصبي الذي كان يرعى الأسود أصبح أولهما فرعون وثانيهما قائد القواد.

ولما علم أبي أنعمت عليه بأعلى رتبة في الجيش حاول أن يعرب عن شكره لي فقلت له: كثيراً ما خاطرت بحياتك في سبيلي وسبيل من أحب فأجاب: "عندما كنت بنتاً صغيرة وضعت حياتي بين يديك وستبقى كذلك دائماً تتصرفين فيها كما تشائين". وأدركت أنه سيخدمني حتى ولو لم أكن فرعونا بل حتى ولو كنت ابنة راع من رعاة الماشية. وطوال تلك الليلة كانت السماء مضاءة باللهب المتصاعد من أجسام أعدائنا المحترقة، وعند الفجر وارينا التراب جثث من قتل منا في سبيل النصر... أولئك الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الذود عن بلادنا ورقدت أجسامهم مدثرة في عباءاتهم، وأسلحتهم في أيديهم. وناموا في سبات عميق على حين هامت أرواحهم في سلام آمنة، وألقيت على قبورهم هذه الكلمة:

"أي بتاح العظيم الذي وهبت الحياة لأبنائك.. تقبل هؤلاء الضحايا قبولاً حسناً عندما يعودون إلى موطنك الذي منه أتوا.. إن الحمرة هي حمرة إله المحاربين، وسيوفهم حاربت في سبيل النور.. قد عاشوا كراماً وماتوا كراماً وستبقى ذكراهم مستقرة في قلوبنا كما سيخلدون عندك".

ثم أصدرت قراراتي هذه:

"كي نخلد هذا المكان سيقام عليه نصب تذكاري وستنقش هذه العبارة "هنا ترقد أجسام أربعة عشر مائة وثمانين محارباً من أرض "كام" قضوا نحبهم كي يمنحوا الطمأنينة لسكان القطرين لكي يحموها من الظلام ويبقوها في النور" وستنقش أسماؤهم مع اسمي وسيسجل التاريخ الذي

انتصرنا فيه وهو اليوم الثاني عشر من الشهر الرابع من موسم الحصاد في السنة الثامنة من حكم "زات – أتت – نخت"... "سختا – رع – ميرى – نيت" ابنة "أنوبيس" حاملة اللوتس الذهبية رمز الحكمة، المحافظة على توازن كفتي العدالة، حاملة السوط والصولجان، حاكمة القطرين حامية حدود "كام"،.. فرعون، وستحفر هذه العبارات حفراً عميقاً في الحجر حتى تظل خالدة مدى أجيال طويلة حتى يرى أولئك الذين سيخلقون في أرض "كام" مرة أخرى أسماءهم مسجلة مخلدة على هذا النصب التذكاري ويتذكرون ويقولون في ابتسامة قد سبق لنا أن دفنا في هذه الأرض.

الفصل الخامس

العودة إلى الوطن

أذاعت المعابد أخبار الموقعة في كل أنحاء البلاد، وتجمع الناس على ضفتي النهر ليروا فرعون وجيشه عائدين من معركة النصر. ووصلنا "من – أتت – أس" بعد أربعة أيام، وكانت "تشيكا" في انتظارنا على رصيف الميناء. وكانت ترتدي ملابس أمير محارب وفي يديها السوط الذي وضعته في يدها حتى أخفف عنها وطأة فراقها عني.

وفي جدية تماثل جدية الوزير مدت إلي يدها تسلمني السوط قائلة: "لقد حافظت على سلامة مدينتك في غيبتك وحملت السوط بأمانة نيابة عنك، والآن أعيده إليك لأنه ملكك، ولا حاجة بي الآن أن أتظاهر بالوقار"

ثم دعت وقارها جانباً وألقت بذراعيها حول عنقي وتعلقت بي، وصحبتني في محفتي إلى القصر، وأصرت أن تسمع كل شيء عن المعركة في أثناء الطريق، وسألتني عن دقائق الموقعة وتنهدت لأنها لم تر حربتي تردى "زرناك" قتيلاً. وسألتني عن موعد الوليمة وقالت إنها ستصحو طول الليل، ولن يأمرها أحد بالذهاب إلى فراشها لأني وعدتها بذلك. فأخبرتها أننا سننتظر عودة "نياح" الذي نتوقع وصوله بعد يومين.

وقالت تشيكا: "في غيبتك ترسمت خطاك، وكان إذا جادلني أحد أريته السوط وقلت له إنك قد وضعت السوط في يدي، ولذلك وجب عليهم طاعتي، وكنت أدعو الآلهة كل صباح من كل قلبي أن ترعاك وأن تعيدك إلينا منتصرة وكنت أدعوها أربع مرات وخمسا وست مرات حتى لا تنسى، هل تعتقدين أني إذا أكثرت الدعاء أكثر من ذلك لما أصابك جرح؟ وهل آلمك السهم الذي أصابك كثيراً".

فقلت لها "إنها لم تؤلمني أكثر من جرح يصيب ركبتك حين تسقطين في أثناء القيام بلعبة مثيرة، فإذا كنت لم تسألي الآلهة في دعائك بمثل هذه الحرارة فقد تكون إصابة السهم أكثر خطورة".

واستمرت في حديثها قائلة "فكرت بادئ الأمر أن ألبس ملابس الملكة وأن أضع الدهنج في عيني وجفوني ولكني لما فكرت أنك الملكة رأيت أن أكون "أميراً" ورفضت أن ألبس أو يلبسني أحد حتى أحضروا لي ملابس أمير، وأمرتهم أن يدعوني "دن"، وصحبت "ناتي" معي في جميع جولاتي" وتدربت على استخدام القوس وقذفت الرمح حتى قال "بناتر" عني إني أداني صبياً يكبرني ضعف عمري في مهارته، والفرسة البيضاء ولدت مهرا ووعدني "نياح" أن يعطيه لي، وسيكون له مرعى خاصاً به وأشجار ومأوى يظله من الشمس له سقف من أفرع الشجر... وفي أثناء تجوالي خارج القصر يا أماه رأيت فتاة صغيرة قد سقطت على الأرض ومزقت ثوبها وكانت لا تملك سواه، ولما كنت أميرا كرهت ملابس الفتيات وهبتها اثنتي عشر قميصاً، هل هذا يضايقك يا أماه؟.. ولكن ذلك لم يرق لـ

"نكزا" ولكني لم أعرها اهتماماً ما دمت أحمل السوط، ولما أذيعت أخبار انتصارك من المعبد خرجت إلى السوق وأمرت التجار أن يعطوا كل ما في حوانيتهم للناس دون مقابل وأن يحضروا إلى القصر لأعطيهم ضعف ثمنها. وأخبرت "رع – حتب" بأن ينفذ ذلك، ولكنه دهش لذلك فقلت له إنه أمر ملكي فقام بتنفيذه وبذلك عم السرور الجميع، هل تعدينني أن تطلبي من "نياح" أن يدعوني "دن" ولا يناديني باسم "تشيكا" بعد ذلك؟".

ولما وصلت القصر وجدت الأعلام ترفرف فوق الجدران وعلى أبوابه فإذا هبت رياح الجنوب تحرك طياتها البراقة وهي مثبتة فوق ساريات القصر، وكانت هذه الساريات مثبتة في فجوات طويلة كأنها صف من الحراب.

وقال "زرتر" إن علي أن ألازم حجرتي ثلاثة أيام للراحة لأن السهم قد أحدث تمزقاً عميقاً في عضلة ذراعي، وإن لم ألزم الراحة فسيترك الجرح أثراً، وكان حسناً أن أخلع لباس المحارب وأن أرقد في ماء ساخن نثر فيه زهر البرتقال ويدلك جسمي بزيوت شافية وأشعر بالتعب يترك عظامي، وكان غطاء فراشي ليناً رطباً ولكني كنت متعبة لدرجة تعذر معها النوم، فأرسلت في طلب "مآتا" فدلكت بأصابعها القوية الرقيقة عضلات رأسي ورقبتي حتى هدأ جسدي تحت يديها وتمكن هذا الجسد من أن يطرح روحي.

الفصل السادس

عودة نياح

ولما وصل "نياح" في الصباح المبكر من اليوم التالي أسرع مباشرة إلى حجرتي، وكان جبينه مقطباً من كثرة ما حمله من فكر ورأيت أنه منهك القوى من سفره السريع، وقبل أن أحدثه عما حدث أمرت له بحساء ونبيذ وحملته على أن يأكل.

وقال: "خرجت لصيد الفهود على مسيرة يومين شمال غربي "ناكش" وعندئذ ظهرت لي في منامي وقلت "عد حثيثاً نزلا في النهر فإن "كام" في خطر ثم وضعت إبهامك على جبيني وقلت "لا تنس" ولما صحوت سرت في اتجاه الشمال الشرقي ووصلت النهر صباح اليوم التالي، واستقلت قارباً سريعاً يدفعه ثلاثون مجدافا، وكان يملك هذا القارب أحد النبلاء. وسافرت نزلا في النهر ليلا ونهاراً وكان المجدفون يتبادلون العمل، وعلمت أن مستشف الحامية لا بد وأن تكون قد وصلته أخبار عن الخطر الذي يتهددنا وأن قائد القواد لا بد وأنه قد تحرك شمالاً لذلك لم يكن هناك حاجة إلى أن أرسل رسولا إلى "ناكش" ليحذرهم، وفي منتصف ليل اليوم الثالث وصلت "نخت – أن" حيث علمت أن الزوميين هم الذين هددونا، وأنك ستنازلينهم في الفجر عند مدرج الغلال. لن أسافر مرة أخرى دون

أن يصحبني "مستشف" لأني لم أعلم شيئاً عن نصرنا إلا بعد أن ظهرت لي "أبيدوا" ورأيت الأعلام خفاقة عليها وخرج الوزير لملاقاتي وأخبرني أن الزوميين قد هلكوا وأن حامية الجنوب قد عادت من "نخت – أن".

ولما وصلت إلى مدرج الغلال رأيت أجسامهم ما زالت تحترق وخيول "زرناك" ترعى في السهل وهنا ضاق صبري بأذرعة المجدفين فأخذت عجلة الملك وأسرعت بجيادي ووصلت المدينة الملكية في ثلاثين ساعة ولم أتوقف إلا حين كان يجب أن تستريح الخيل.

وبعد ذلك أخبرته عن تاريخ تلك الأيام الأربعة التي كانت "كام" في ميزان "تحوتي"، ولما أخبرته أن والدي عاد ليقودنا قال "نياح" إني ظننت أن جيشنا سيحارب دون قيادة، ولكن الآن أعرف أن "أتت" ترك ولدين... فرعونين يمكن أن تقود عرباتهما جيشين من الحراب... ليس هناك رجل مثلي قد سعد بزوجته وأخته، وأخيه، وفرعون وكاهن "أنوبيس".

الفصل السابع

"بلشزار داك"

وبعد يومين وصلتني أخبار بأن "بلشزار داك" لم يعثر عليه بين القتلى الزوميين، فأرسلت جنوداً يبحثون عنه إلى أن وجدوه بعد مسير ثلاثة أيام في الصحراء المرتفعة في اتجاه البحر مختبئاً في خيمة أحد رعاة الماشية بعد أن قتله، وأحضروه إلى المدينة الملكية.

وفي اليوم التالي اجتمع ألف من الناس في قاعة الاستقبال ليسمعوني أصدر حكم فرعون على أحد أتباع "ست" فلما أحضروه أمامي رأيت أنه ليس بشخص خطر من أتباع الظلمة لأنه لا يتمتع بذلك الدرع الذي يتحدون به هجمات النور لأن عينيه كانت تطبق عليهما جفون ثقيلة كجفون التمساح وكانت كليلة من فرط الخوف والهلع.

ونطقت بالحكم عليه: يا "بلشزار داك" يا بوق آلهة زوما استمع إلى صوتي.. إذا كنت كاهناً ذا قوة، ولو أن قوتك هذه تستخدمها في سبيل "ست" لتحديت إرادتك بإرادتي، فإن تغلبت علي أعدتك إلى بلادك دون أن يمسك أذى، ولو كنت كاهناً حقاً لكرمناك رغم العداوة التي بين بلدينا، ولرجعت إلى بلدك آمناً مطمئناً، ولو رأيت أنك رجل قوي تستحق كراهيتي لأصدرت حكمي عليك لجرأتك على أن تقود قومك لتمزيق بلدي.

ولكنك لا تملك سوى قدر ضئيل من العلم حتى عن الشر، وجعلت من نفسك آلة في يد أمير صغير من عالم الظلمة.

وإني لا أتنبأ أو أحكم عليك، بل أبلغك بمقتضيات الشرع، وأبلغك فقط بما ستجنيه نتيجة ما بذرت من شر، وإذا أضفت حكمي عليك إلى ما جلبته على نفسك أكون كمن وضعت شوكة في قدم رجل أصابه سيف يتلوى في صدره.

قد سمحت لجسدك أن يكون في خدمة روح غيرك، ولو كان لديك جزء من مائة مما تدعي من علم لعرفت أنه ما من شخص صالح يمكنه أن يستخدم جسد آخر لمصلحته هو؛ فإذا وضع رجل يده في قدر به قار يغلي فستشل هذه اليد ولن تكون رهن إرادته بعد ذلك، وإن إرادة ذلك الرجل الذي يسمح لنفسه أن يكون رهن إرادة غيره ستضعف ولا يحيا إلا بعد أن يولد أبله معتوهاً، وعندما تولد مرة أخرى سترى في منامك جسدك الذي ستحبس فيه حين تعود إليه، وستعرف أنه متى صحوت سترى ذلك الجسد الذي يسيل اللعاب من فمه والمخاط من أنفه يزحف على الأرض ويصرخ من الرعب فزعاً من الأشكال المرعبة التي تحيط به.

لقد كنت كاهناً بالاسم فقط على عدد كبير من الناس، وكان عليك أن تكون مبعث النور في دنيا الشفق الذي يعيشون فيه، ولكنك كنت ظلمة فوق ظلماتهم، ولهذا سيجري عليك ما قاسته الناس بسببك.

قد وثق فيك جيش مكون من آلاف مؤلفة من الرجال، ووضعوا في يدك مقودهم إلى النصر، ولكن نظراً لأنك كاهن مزيف أمرهم لسانك بما فيه حتفهم، وبعد وفاتك ستعود إلى تلك اللحظة التي قدت فيها جيشك من الممر بين الصخور ولم تر قطيعاً من الثيران للتضحية بل رأيت عجلات فرعون الحربية ولما رأيتها عرفت أنك خنت عشيرتك، وعندما تتردى في لحظة خيانتك، سيقف الزمن بالنسبة لك، ولو أنه يبدو أن لا نهاية له، سيقف بين وفاتك وأنت مجنون وبين خلقك مرة أخرى طفلاً أبله.

ومنذ ستة أيام خلت رحل جسد ملكك في رحلته الأخيرة إلى بلادك، وغداً سيصاحبك جنودي كما لو كنت كاهناً حقاً إلى المواقع الأمامية للزوميين لأنك إذا كنت كاهن صدق فسيحتاج إليك قومك للأخذ بيدهم في محنتهم، وستسبقك أخبار ما وقع لجيشهم نتيجة أن استمعوا لصوتك وستجد على أيديهم استقبالاً أنت جدير به فإن في بلدنا "كام" لا نعذب أسرى الحرب.

وعندما تخلق مرة ثانية في "زوما" ستسمع قومك يسردون وهم حول نيرانهم قصة إذلال حكيمهم الناعم.. "بلشزار داك".

الفصل الثامن

تأمين الأرضين

عاودت "زوما" تحدي قوة "أتت" مرتين وردت خاسرة في المرتين عن أرض "كام"؛ ولذلك عقدنا اجتماعاً ضمني و"نياح" وقواد القواد والوزراء لـ (من – أتت – أس) ووزراء "أبيدوا" و"أس – أن" و"نخت – أن" لنقرر كيف يمكن أن نؤمن حدودنا حتى يعيش أطفالنا في سلام.

ومن الهين أن نصل إلى قرار إذا كان الأمر يقتصر على حياة فرد، ولكن إذا كانت حياة آلاف مؤلفة من الناس عرضة للتغيير والتبديل كانت وطأة المسئولية ثقيلة على كاهل الإنسان المسئول عنهم ومع أن كل ما نقوم به يؤثر في مستقبلنا القريب إلا أن بعض الأعمال تأخذ وقتاً طويلا حتى يبدو أثرها، فقبل أن نتسلق جبلاً شامخاً يحسن بنا ألا نفكر فقط في الهوات السحيقة التي علينا أن نقفز فوقها بل علينا أن نفكر كذلك في المناظر التي قد نشاهدها إذا وصلنا قمته.

ويمكن لـ "نياح" أن يهاجم أهل "زوما" على رأس جيش قوامه مائتا ألف من الرجال وينزل بهم العذاب بسوط جبار كي يخلد في ذاكراتهم وذاكرة أطفالهم لأجيال عديدة ألا يجرءوا مرة أخرى على الهجوم علينا. ولكن ماذا يجدي إذا حققت جيوشنا النصر وتوجت هذه الانتصارات

بانتصارات أخرى وضمت بلادهم إلى بلادنا، فستزداد حدودنا ثلاثة أمثال مقدارها الآن وإذا أصبحنا فرعون "زوما" كما نحن فرعون "كام" فهل سيسعد شعبنا إذا لبسنا تاجاً ثلاثيا. ماذا ينقص شعبنا في القطرين؟ لدينا من الغلال ما يحول بين الإنسان والجوع وكل إنسان له حديقته وتمدنا حقول الكرم بالنبيذ الذي نحتاج إليه، وحقول الكتان كأنها بحيرات زرقاء بين الغلال ولا يوجد بيننا منسج عاطل.

ماذا يمكن أن تمدنا به "زوما"؟.. نعم إن حقول غلالها كالمحيطات وأرضنا بالنسبة لها كالبحار، ولكن إذا امتلكناها كانت أرضنا دون زرع أو حرث ولن يجد شعبنا حاجة إلى العمل لإعداد خبزه ويسبب ذلك بطالتهم وسيشعر أهل "كام" بالتبرم وعدم القناعة وبعد أن كان لا ينخرط في سلك الجندية سوى من تدرب عليها طويلاً ووجد نفسه صالحاً لها سيتبدل الحال إذا امتدت حدودنا فسينضم الفلاحون وأهل الحرف والكتبة والفنانون إلى صفوف المحاربين حتى يمكن أن ندافع عن هذه الحدود، ولن يلذ لهؤلاء دوي صيحة المعركة لأنه لا يبتهج للسيف ويجد لذة في النضال به إلا من مارسه طول حياته وأعد له. وإذا سرق إنسان عنقود عنب من كرمتك فإنك حسب شريعتنا شريعة الميزان يمكنك أن تأخذ عنقوداً من كرمته في مقابله وبذلك يعيد إلى الميزان تعادله ولكن عناقيد العنب متشابهة، قد يحمل العنقود الذي سرق منك تسعين حبة والعنقود الذي ستأخذه مائة حبة فإن أخذته فقد وضعت نفسك موضع المدين للص آخر فالرجل العاقل الكيس الذي أغار على كرمته لص لا يسمح لنفسه أن يصبح لصا كي يصحح الخطيئة التي وقع فيها هذا اللص، لأنه يعرف أن هناك سبلا

أخرى يمكن أن تتعادل بها كفتا الميزان، وذلك بأن يصبح اللص رجلاً شريفاً فيسدد الدين الذي جلبه على نفسه في الماضي، والأبله هو الذي يرى بيته قد أغار عليه اللصوص فلا يقيم له سياجاً أو حراساً. فالطريق الذي تسلكه "زوما" للإغارة على أرض "كام" هو تلك الأرض الضيقة الواقعة بين البحرين، لذلك أمرنا أن تبنى على مسافة سير خمسة أيام من حدودنا الشمالية سلسلة من الحصون للحاميات بين كل واحدة وأخرى مسير يومين، وأن نزيد من أسطولنا في البحر الضيق حتى نحمي شواطئنا الشرقية، وكان أسطول "ميناوس" سيدا في البحر الشمالي فانضم إليه أسطولنا ليشترك في حراسته وتأمينه واعترفت بلاد "بنت" بسيادتنا، وتحمينا "ناكش" من أرض الذهب وعندما يتم بناء هذه البوابة العظيمة في جهة الشمال الشرقي ستعيش بلادنا في أمان سنين طويلة.

وإذا ذهبنا إلى أرض "زوما" كغزاة فاتحين فسيكرهنا أهلها وسيكرهون آلهتنا ولو أننا منحناهم عدالتنا وشريعتنا فسيروا فيها السوط لا الصولجان، ولكن قد يأتي الزمن الذي يسمع أهل زوما أصواتنا مع الرياح الجنوبية الغربية، وعندئذ سيقتلون كهنتهم المزيفين ويخلعون ملوكهم الطغاة لأنهم سيعلمون أن الناس في أرضنا يعيشون راضين، وعندما يعلمون يرغبون من تلقاء أنفسهم في أن نكون حكامهم، فإذا أتى ذلك اليوم فنكون قد أحرزنا نصراً مبيناً لم ننله بالسيف في أيدينا بل بسيف إرادتنا.

الجزء الثامن

١– وقت تألق والدتي

٢– أبناء فرعون

٣– دن، حورم – كا

٤– موت "نياح"

٥– أواخر أيامي

٦– قلب كام

٧– مقبرة "ميري – نيت"

٨– العودة من المنفى

الفصل الأول

تألق والدتي

لما توفيت والدتي دعوت الآلهة ألا أظلل صفو تألقها بأحزاني، فقد تركت هذا العام في سكون وهدوء كما ينساب القارب الشراعي نزلاً في النهر تدفعه ريح الأصيل العليل، وكأنما كانت تعيش في بيت أغلقت نوافذه ففتحت باباً يصل بها إلى حديقة وارفة الأغصان حيث تتفتح الأحلام وتزدهر في أروع بهجتها لأنها خرجت إلى النور ورأت والدي في انتظارها، ولحق جسدها جسد والدي حيث أودعا مقبرة واحدة في "أبيدوا"، وحسب رغبتها وضع بجانبها الصندوق الخشبي الملون الذي سبق أن صنعه لها "نياح" من زمن بعيد وفيه وضعت جميع الهدايا التي قدمناها لها ولوالدي ونحن أطفال: فكان فيه قطع من العاج كتبت عليها اسمها في بداية تعلمي الكتابة وقطع من الحجر الجيري التي سبق لنياح أن تمرن على الحفر فيها، ومجموعة من قطع اللعب من العاج كان قد بدأ في صنعه لها ولم ينته منها بعد، وفي تابوتها رقدت وفي معصمها سوار سبق أن قدمناها لها وأنا في التاسعة من عمري، ووضعت معها أشياء كبيرة كانت مولعة بها: فوضع معها تمثال صغير لـ "شامبا" لبؤة والدي وبعض الآنية الخزفية الملونة التي أحضرناها معنا منميناوس بعد أن قضينا مدة مع "كيوداس".

ولما فتحت مقبرة "أتت" العظيم رأيت الزهور التي وضعتها وأنا فتاة صغيرة وقد أصبحت كظلال سمراء ولكنها ما زالت تحتفظ بشكل أوراقها. وقبل أن تدفن والدتي بجوار والدي ملئت حجرة المقبرة بباقات الزهور النضرة كأنها أعدت لعرس وهكذا رقد كل منهما بجوار الآخر كما تلاقت روحاهما في فرحة اللقاء.

الفصل الثاني

أبناء فرعون

ومع أني تمكنت من مقابلة والدتي عن طريق روحي، إلا أني شعرت بالوحدة في هذه الدنيا وشعرت بالحاجة إلى نصحها وإدراكها، وكثيراً ما أخبرتها عن متاعبي، فكان يزيل نور حكمتها ظلال شكوكي حتى عرفت كنه قلبي وتبينت السبيل واضحاً أمامي.

ولما كانت "دن" طفلة ظننت أني سأجد معها عندما تكبر نفس الانسجام الذي وجدته مع والدتي، ولكن رغم أننا متحابان وأفكارنا متحدة في الهدف والمقصد، إلا أن أفكار كل منا كانت تسير في طريق متباين عن طريق الأخرى؛ فكان من دأبي أن أتبين علل الأمور، ورأيت طوال حياتي أحلاماً وعرفت تفسيرها، ولم يهدأ لي بال إلا بعد أن عرفت كيف أراها، لأنه كان من طبعي أن أعرف القوانين ولا أكتفي بمعرفة كيف نطبقها، فإذا رأيت شجرة جميلة وقت الأصيل فلا أراها بقلبي وعاطفتي بل أراها بعقلي وإدراكي، وأدرك لماذا أراها جميلة وأي لمسة في صورتها يضيفه على جمالها إذا أدركها عقلي، ولكن بالنسبة لـ "دن" فإن الشيء يبدو جميلاً أو قبيحاً والعمل طيباً أو سوءا لا عن طريق عقلها ولكن عن طريق شعور قلبها، واعتادت أحياناً أن تضحك مني وتقول إذا حاولنا أن نفسر

العلة في جمال انبعاج جرة عن الأخرى فإن مثلنا كمثل من يقطع الزهرة ليعرف سر أريجها.

ورأيت أن أجعلها تعيش مدة في معبد "أتت" كما فعلت ولكنها كانت تضيق ذرعا بكل الأمور الكهنوتية، وأدركت أنه من العبث أن أفرض إرادتي عليها وإلا كنت كمن أراد أن يروض فهداً متوحشاً بحبسه داخل القضبان، ولكنها رغم ذلك كان لها حكمة لا تدري من أين وهبتها تساعدها على أن تزن قلوب الناس دون علم سابق بكفتي الميزان.

وعندما بلغت الثانية عشرة من عمرها كانت كثيراً ما تجلس بجانبي في قاعة الحكم، وقبل أن أصدر حكمي كانت تشير إلي بإشارة خاصة تخبرني عن رأيها فيمن أمامنا إذا كان بريئاً أم مذنباً، وكنت أزن قلوب الناس حسب ما يبدو أمامي من حقائق في هذه الدنيا وبحكمة الروح، ولكن كثيراً ما وجدت أنها وصلت إلى الحقيقة قبل أن أصل إليها أنا وظننت بادئ الأمر أنها يجب أن تكون من أصحاب الجلاء البصري أو الاستشفاف ولكن لم يكن ذلك بصحيح إذ قالت إنها تعرف أشياء ولكنها لا تدري لماذا هي تعرفها.. ولا يهمها ذلك. ومع أنها لا تود أن تتدرب يوماً على الكهنوتية إلا أني كنت متأكدة من أن أحكامها بمرور الزمن ستجعلها جديرة بكفتي الميزان اللتين ستجلس تحتهما عندما تصبح فرعونا وتقضي بين الناس. وكانت "دن" تصحب "نياح" دائماً كلما ذهب في رحلته السنوية يتفقد الحاميات، واعتاد أن يصطحبها كذلك كلما خرج إلى الصيد في الجنوب وكان يقول عنها إنها أحسن من يصيب الأسود بالحراب

وأحسن من يصيب الهدف بالسهام مع أنها كانت ابنة "ديو" إلا أني أعتقد أنها "ابن" لنياح أكثر ما تكون ابنتي.

وكان لنياح أربع بنات من زوجاته الأخريات وكان ابنه الوحيد "سشت" في الثانية من عمره عندما أصبحت فرعونا. وعاش هذا الصبي مع أمه في جناح الحريم إلى أن بلغ السابعة من عمره، ولما ماتت أمه شارك "دن" الحجرات الخاصة بأبناء فرعون التي شغلناها في صغرنا، وكان يشبه والده تماماً كما تشبه الشجرة ظلها، وأعتقد أنه ما كان يعبد الآلهة بل كان يصلي لصورة والده التي حملها في قلبه وكان يمكنه أن يجد السعادة في حياته ككاهن طبيب أو عالم ولكن لما كان أبوه محارباً فقد رغب أن يترسم خطاه، وكان يقضي وقتاً طويلاً في غرفة السجلات ويصعد إلى رف عال لينزل من فوقه ورقة بردي لم تفض أختامها بعد وينشرها أمامه ويقرأ ما فيها بشغف ولهفة كما تتلهف الأطفال إلى سماع قصاص يروي قصة تشوقهم، وكان يميل إلى أن يقرأ حكام "مينيس" وأحكام جده وقوائم الوسائل التي كان يصرف لها الخراج بمقتضاها في السنوات المختلفة، كما يقرأ مشروعاً لبناء طريق أو شبكة من الترع المائية وهي مشروعات ألفها الناس في "كام" من مدة طويلة وكان يقرؤها كما لو كنت مستحدثة وكأنها وضعت لساعتها.

وكان "نياح" رقيقاً مع ولده، فكان يصحبه كلما خرج لصيد الطيور وكان يتمتع بمهارة فائقة في استعمال القوس والسهام وقد رأيته مرة يتدرب على إصابة هدف من غاب نبات بردي كان يتمايل مع الريح فاخترقه

بثلاثة سهام قبل أن يراني وأنا أرمقه، وعندئذ تحققت أنه حين أخطأ أوزة عراقية لم يكن ذلك لأنه لم يتمكن من إصابتها بل لأنه كره أن يقضي على جمالها وحياتها، فأخبرته أن يدلي لنياح بأنه لا يحب قتل الطيور ولكنه أخذ مني ميثاقاً أن أحفظ هذا السر بيني وبينه، ووفيت بوعدي لأني أدركت أنه يتألم إن عرف أحد عنه ضعفاً أكثر من تألمه من أن يسخر منه أحد لعدم مهارته، وأخبرته أن هناك سبلاً كثيرة تؤدي إلى حرية النفس والفكر، وأن من ينل هذه الحرية عن طريق الكتابة يتمتع بنفس الشجاعة التي يتمتع بها المقاتل في ساحة الوغى، ولكني لم أتمكن من أن أجعله يتبين أن ما به ما هو إلا عطف ورحمة وليس بضعف أو خور.

وكان مستقبله يفسد عليه حاضره لأنه كان بعيد النظر لدرجة أنه يرى النتائج التي تنجم عن كل عمل يقوم به، فإذا استدارت مركبة "دن" بسرعة تكاد تنقلب بسببها فإنها لا تبالي حتى ولو مالت أكثر من ذلك، ولكن بالنسبة لـ "سشت" الذي كان يرقبها فإن الخطر التي تتعرض له يبدو واضحاً له كما لو كان قد قدر له أن يقع فعلاً، ولذلك يشعر بقشعريرة ترتعد لها عظامه إذا صور الخطر الذي قد تتعرض له صورة واضحة جلية ولا يعني ذلك أن به جبناً أو خوراً بل كان على النقيض من ذلك كانت تشع الشجاعة منه.. شجاعة حقة لا تتراجع ولا تهن إذا واجه خطراً بدا له سافراً.

وقد وهب قلبه لـ "دن" منذ طفولتها، وكان أملنا أنا ونياح أن يتزوجا ويتوليا حكم البلاد من بعدنا معاً إذ كانت "دن" وارثة العرش وإن لم تتزوج

من "سشت" فستنفرد بالحكم ولن يكون هو فرعونا، أما إذا لم يكن لي أطفال كان "لنياح" الحق في أن يعلن أي ابن من أبنائه من زوجاته وريثاً للعرش، وإذا لم ينجب أولاداً فله بعد مشاورة الكهنة أصحاب الجلاء البصري أن يعلن أحداً تتوفر فيه التجارب كي يكون ابناً لحوروس يتولى حكم البلاد.

ولما بلغت "دن" الرابعة عشرة من عمرها حان الوقت لإعلان خطبتها على "سشت" حتى يعرف الناس جميعاً أنهما حاكماهما عندما يتخلى نياح وأنا عن السوط والصولجان، وكانت "دن" بالنسبة لـ "سشت" كالشمس وقت الظهيرة فإذا كانت معه فكل شيء منير، أما إذا بعدت عنه أظلمت السماء وخبت نجومها. أما هي فقد أحبته كأخ، ولم يمكنه أن يثير فيها تلك الأحاسيس التي يعرفها المحبون، وعن طريق حبه لها تبين ما تحمله له في قلبها وتبين كذلك أنه إن اتخذها زوجة له فلن تشعر هي بالسعادة التامة التي يمكن لرجل غيره أن يهبها إياها، رجل لا تشعر نحوه بحب الأخوة فقط بل بحب الزوجة للزوج... فالزواج من "دن" كان معناه له أنه فاز بزوجة هي حياته وسبيله إلى تاج فرعون، ولكن حبه لها كان أكبر من العاطفة وأكبر من ذلك إذ أحبها حباً تعدى حدود العزة والكبرياء، ومع أنه يتوق إلى أن يكون فرعونا إلا أن الصولجان الذي سيحمله سبق أن حمله والده "نياح" وأن التاج الذي سيلبسه لبسه "نياح" من قبل. إلا أنه كان يعلم أن والده سوف لا يوافق على رفضه التاج إذا علم أنه يتنازل عن تولي العرش لأنه يحب المرأة التي ستشاركه الحكم والعرش. وبدلاً من التصريح بما في قلبه طلب من والده أن يعفيه من تولي

العرش لأنه لا يجد في نفسه الجرأة على أن يتقدم صفوف الجيش في عربة فرعون الحربية في ساحة القتال وكان "نياح" يحبه فأنصت إليه والحزن يملأ قلبه لأن ابنه لن يخلفه على العرش ولكنه كان يعلم أن ابنه قد مرت عليه سنون حصل فيها على روح متواضع لا يكتسبها إلا قليل من الناس وهم في نهاية المطاف في هذا الكون، وكان يدرك كذلك أن ابنه بحكمته فاق إدراك العلماء وأنه أعرف بدخيلة نفسه ورغبات قلبه وأنه لما عرف أنه لا يصلح لقيادة الجند رفض خوذة الحرب الخاصة بفرعون فرفض السوط ولهذا عينه "نياح" وزيراً على "نخت – أن" فساس "أرض اللوتس" سياسة يحدوها العطف والحنان.

الفصل الثالث

"دن"، "حورم – كا"

قد أضفت السنون الجمال والقوة على "دن" فكان لشعرها لمعان النحاس الأحمر الجديد، وكان جسدها ممشوقاً كجسد الصبي الصغير واعتادت أن تخرج في رحلات إلى بلاد بعيدة بحثاً وراء الحيوانات والطيور الغريبة وتعود بها إلى بلاد "كام" كما اعتاد والدي أن يخرج في رحلات بحثاً وراء النباتات والأشجار الغريبة، وكانت ابنتي موضع فخر للمدرب على العربات الحربية ومصدر خوفه في وقت واحد، فإذا خشي عليها من تعرضها للخطر سخرت منه حتى كان يشعر بضآلته أمامها، وكانت الناس في طول البلاد وعرضها تحبها فسواء اجتمعت مع عالم مسن أو شاب من النبلاء أو صبي من حرس كلاب الصيد كانت تشعر كلاً منهم أنها لا تختلف عنه في شيء، ويشعر كأنه الوحيد الذي اختصته بصحبتها، ومع أنها كانت سريعة الغضب إلا أن شفقتها وكرم سجيتها كانا يعوضان هذا العيب.

وكان من بين رفقائها المقربين لها "حورم – كا" ابن وزير "أس – أن" وكان قائداً في الحرس الملكي ويعيش من ريع أرضه التي تقع بالقرب من المدينة الملكية. وكان هذا الفتى قوي القلب والجسم وبشرته سمراء محمرة

من الشمس وراحتا يديه هما راحتا المحارب العريضة وحاجباه في مستوى واحد كأجنحة الصقر أما فمه فلا تغرب عنه الابتسامة المشرقة.

ورغم أن كثيرين من الشبان أحبوها إلا أنها لما بلغت التاسعة عشرة من عمرها لم تكن قد اختارت لنفسها زوجاً من بينهم.

وذات يوم وصلتنا أخبار أن أسداً كبر سنه ولم يقو على صيد الوعول لجأ إلى خطف طفل من إحدى القرى التي تبعد مسير يومين جنوب المدينة الملكية. وخرجت "دن" مع "نياح" في صيد هذا الأسد، وعادت، ولكنها عادت محمولة في محفة أنزل عليها ستر وقد كسرت عجلات عربتها وهي تسابق الآخرين وراء الأسد ووقعت على الأرض وركلها في رأسها أحد الجياد التي كانت وراءها في رأسها.

ومكثت أربعة أيام في غيبوبة بين الحياة والموت وكانت ضربات قلبها الضعيفة تدل على أن ذلك الحبل الفضي الذي يربطها بالحياة لم ينفصم بعد. وكان تعلقها بالحياة ضعيفاً حتى بدت روحها كطير ترفرف جناحاه قبل طيره الأخير وكانت تبعث بأنفاسها وهي في سبات عميق ولم يتمكن مستشف ولا شاف أن يوقظها من هذا الهدوء الغريب.

وكان جسدها وأنا أراقبه بجوارها كتمثال لا حراك فيه وعندئذ سمعت شخصاً يدخل الردهة المجاورة وسمعت صوت "حورم – كا" يلتمس رؤية ابنتي وحالت الخدم بينه وبين ذلك إلا أنه دفعهم جانباً وانحسروا عنه كما ينحني نبات الغاب أمام ريح عاصف، وصلصلت حلقات الستائر وهو

يزيحها بقوة، وكانت الحجرة مظلمة اللهم إلا من ضوء خافت منبعث من مصباح من المرمر وكان لا يدري أني بالحجرة... وجثا بجانب "دن" وأخذ يدها في يده وناداها بتلك الأسماء الرقيقة التي يرددها المحبون ووصلت كلماته حيث كانت روحها فاستجابت له وعادت إلى جسدها ففتحت عينيها لحظة وابتسمت له وتمتمت باسمه في رضا كما يفعل الطفل الحالم. وفي اليوم الثالث من الشهر الثاني من موسم الحصاد في السنة الواحدة والعشرين من حكمي ارتبطت "دن" و"حورم – كا" برباط الزواج أمام الآلهة ولما لم يكن "حورم – كا" من أصل ملكي لم ينصب فرعونا، ولكنه كان الزوج الملكي عندما تعتلي "دن" العرش – وأعلن "نياح" أنه ولي عهدها إذا ماتت دون وريث فرغم أنه لا يحمل دم "مينيس" في عروقه إلا أن تقاليدنا كانت تعيش في قلبه.

وأصبح الوزير الملكي لأن "رع – حتب" قد تقدمت به السنون إذ بلغ السادسة والسبعين وناء تحت مسئوليات عمله – أما في الجيش فكان يلي "نياح" في رتبته وكان يتمتع بكل مزايا وحقوق ابن فرعون دون أن يكون له اللقب، وكان هذا الفتى صنواً لابنتي كبرجين – في صرح معبد – متوازيين ومتعادلين ككفتي الميزان.

والآن وقد هدأ بالها بعد أن ارتبطت بحبيب قلبها برباط الزواج لم تعد تتبرم بطرق الحكمة وأخذت تستمع لصوت ذكرياتها التي نشأت منها خبرتها بالناس ومنحها "ني – سي – رع" الكثير من نصحه وإرشاده ووجدت في صوت الكهنة نفس المتعة التي كانت تجدها في خفة العجلات

الحربية وسرعتها، وسافرت مع – "حورم – كا" في أرجاء "كام" وتحدثا مع الوزراء واختلطا بالناس في الأسواق، وتحدثا إلى الكهنة ومستشاري المعبد ومع عاصري الخمر والنساء اللاتي يجنين المحصول وذلك كي يعلم الناس أنه حين ينتقل الصولجان والسوط إلى يديهما أنهما نفس الصولجان والسوط اللذين أحملهما أنا ونياح وأن حياتهم لن تفسد بعد مماتنا.

وبعد عامين من زواجهما رزقا بولد وطلبت مني "دن" أن أختار له اسماً؛ فأطلقت على حفيدي "سشت – كا" كاسم "سشت" الذي كان ابن قلبي وروحي ولو أنه كان ابن "نياح" في الجسد.

الفصل الرابع

موت نياح

لما بلغت السادسة والأربعين من عمري لم تكن شمس نهاري مشرقة وأخفت الأحزان نجوم الليل عن بصري. وذلك لأن نياح لقى منيته وهو في رحلته في أقصى جنوب "كام" إذ مات بحمى أصابته من المستنقعات هناك. وأخبرني في حلم أن جسمه مريض في مكان يبعد عن المدينة الملكية على مسيرة سبعة وعشرين يوماً، وأخبرني كذلك أني لا يمكنني أن ألحق به في الدنيا إذ سيصبح جسده بعد يومين بيتاً خاوياً لا روح فيه.

إن الموت بعيداً عن هذا العالم بهجة ومسرة ولكنه في عيون الناس يخفي الجمال وتفقد الزهور أريجها وتبدو الطيور المغردة صماء للناس، وبينما كان لكل فرد من أفراد الشعب أن يفصح عن حزنه لموت "نياح" كان محرماً علي أن أسري عن نفسي بأن أسكب الدمع حاراً عليه، وكان علي أن أحبس الدموع في مقلتي تحرقها إذ كان علي أن أتحدث للناس عن تفاهة الموت وأخبرهم أن عليهم أن يبتهجوا لأن فرعونهم قد صار في عجلة مع جيش حوروس الذهبي وعلي أن أخبرهم أنه سبقهم وهو في انتظارهم كي يحييهم عندما يموتون ويلاقونه.

وكان "نياح" راعيهم والآخذ بيدهم إن وقع عليهم الظلم فأحبوه كما أحبوا آلهتهم لأن فرعون بالنسبة لهم هو رمز للمثل الأعلى الذي يصبون إليه، أما بالنسبة لي فكان "نياح" رفيق صباي الذي لهوت معه في صغري وموطن أسراري الذي أودعتها قلبي وكنت أمامه أفصح عما في نفسي دون تحفظ وكان قلبي يتفتح له دون حائل.

والآن أصبحت مرارة الوحدة شديدة الوطأة علي.

الفصل الخامس

غروب حياتي

مكثت في المدينة الملكية عاماً بعد موت (نياح) وحكمت وابنتي (القطرين) وكنت أشعر بمعزة نحو حفيدي، وكنت أقص عليه تلك القصص التي تعوَّد (نياح) أن يقصها علي؛ فسردت عليه قصة السمكة الحمراء وقصة الوعل الذي تحدى الريح الشمالي في سباقه نحو الأفق، وعن القرد الذي رغب في أن يكون إنساناً وعن السلحفاة التي كان يملؤها الغرور والصلف... وقد أعدت أيام شبابي معه وعشت فيها مرة أخرى وأخذت أفكر كيف أخبره عن أساطير الآلهة وعن أقوياء القلوب الذين سبق أن عاشوا في هذه الدنيا في السنين الخالية.

وما زالت روحي تشرف على بلادي وترقب أحوالها ورأيت أرضها تمتد كما لو كنت أحلق فوقها كما يفعل الصقر، وكنت أرى الأرض حيث لا ينساب الماء خالصاً في القنوات، أراها صحراء جرداء لا نبت فيها ولو أن الناس يرون زرعها رطباً يانعاً، وإذا كان قوم سوء يجندون الشر للناس رأيته وكأنه سحابة من الذباب. وحيث يسئ الناس معاملة خدمهم أو دوابهم أرى الدم يلطخ عتب أبوابهم، وإذا أراد قوم سوء بزملائهم سوءًا

ودبروا هلاكهم كنت أرى حول بيوتهم هياكل الموتى تنبت في أراضيهم بدلاً من الأشجار الوارفة لأنهم كانوا يسلكون مسلكاً يحفه الموت والدمار.

ولما رأيت هذه الأمور التي تتنافى وصالح البلاد كنت أحيط (دن) علماً بها ولأنها وإن كانت ما زالت في بداية حكمها ولم تتفتح مع تجارب الحكم بعد إلا أنها كانت "حاكم – معت". وليس هناك من خطأ في أرض كام لا يحيط به علم فرعون وإذا كان هناك امرؤ سوء، ماكر ذو خداع ودهاء أجلس في الفصل في أمره كنت في أثناء نومه في الليلة السابقة على حضوره أمامي أصغي إلى قوله الذي يردده لنفسه بغية خداعي، وإذا مثل بين يدي كنت آمره أن يصغى إلي لأني سأسرد عليه كلامه. وعندئذ كان ينتابه خوف عظيم لأنه يدرك أني سمعت ما يخفيه قلبه كما لو كان سرده في صوت جلي في ليل ساكن ثم أصدر عليه حكمي بعد ذلك.

ورأيت على مر الزمن أن "دن" تترسم خطاي في حياتي واطمأن قلبي إلى أن السوط والصولجان في يديها سيكونان في أمان وأنها ستحسن إدارة دفة أمور بلادنا ولذلك عندما بلغت السابعة والأربعين من عمري ذهبت لأعيش مع "سشت" كي أقضي بقية عمري في "نخت آن" وكان قصر الجنوب القديم ينعكس في برك اللوتس التي يطل عليها وكان يقع على الضفة الشرقية للنهر وكانت تطل نوافذ حجرتي على الشمس الغاربة.

ومع أن "سشت" كان وزيراً على أهل الجنوب إلا أن الناس كانوا يسألونه الرأي في كل ما يعترضهم من متاعب كما لو كان أحد مستشاري

المعبد. وكان يسير بين صغار الفلاحين وإذا أخبره رجل أن خسه في الحديقة أخذ يذبل شعر هذا الرجل البسيط وهو يتحدث معه أن الاثنين صاحبا كرمة كبيرة، وكان نساجو الكتان يقولون عنه إنه يدرك ما يحدثه إصبع خشن من عيب في تركيب الخيوط الدقيقة على النول، وكانت الجنود تحبه لأن حديثه لهم كان يبعث المرح فيهم، وقد أطلق عليه الناس "نخت – آن" أي "صاحب القلب الكبير" لأنهم سعدوا وازدهرت حياتهم في شمس حنانه ورحمته.

وكم تحدثنا معاً عن أمور تبعد عن هذا العالم، وارتدنا المرتفعات البلورية حيث الفكر الصافي، وتسلقنا بلا أقدام حتى وصلنا إلى القمم التي فيها يمكن أن نعبر بالكلام عن بعض صور الروح، وفي ملفات البردي القديمة التي سجلت أغاني المنشدين الذين طواهم النسيان كنا نسمع همسات المحبين الذين ماتت أجسادهم من زمن بعيد على حين ذكراهم ما زالت تسير في طرق تحفها الأشجار الظليلة.

وفي المساء كان يدعو رجال موسيقاه الذين ينتزعون من أوتارهم أنغام أفكاره.. يا لها من موسيقى فريدة في نوعها، موسيقى واضحة جلية النبرات كالظلال الواضحة المعالم على جدار، وكانت أنغامها في توافقها وتصويرها تصدر في مقاييس محددة دقيقة كالخطوط التي نقشت على الأعمدة لتقيس ارتفاع النهر. فكانت المزامير الفضية تتحرك بين الجنوك الخضراء كما ينساب الغدير في وديان التلال فيحييها بعد موتها فإذا هي مراع خضراء

نضرة. وقد شاركتني روح "نياح" في منامي في الليل كما كان ابنه إلى جانبي طوال النهار.

ولما عين "سشت" وزيراً للجنوب أمر ببناء معبد جديد في "نخت – آن" على الضفة الغربية في مواجهة القصر، ولما تم إعداده ليكون مكاناً للسلام قلت للناس المجتمعة فيه:

"استمعوا إلى صوتي.. لأن الآلهة جعلت لساني من فضة حتى يتردد صدى كلماتي في قلوبكم كما يردد الناقوس صدى ضربات المطرقة.

تذكروا دائماً أن ما بكم من سيئة فمن أنفسكم وهي صورة لما قدمت أيديكم تنعكس في مرآة صافية. ولا ينزل سوط العقاب على ظهوركم إلا إذا قامت أيديكم بعمل غير مشروع، ولن تتلوى بطونكم من الجوع، ولن يتحرق حلقومكم من العطش إلا إذا ذاق غيركم الجوع والعطش بسببكم، ولن تتخبطوا في رحلتكم في دياجير الظلمة إلا إذا أغمضتم عيونكم عن النور حين كان يشع عليكم، ولن تدمى أقدامكم بسبب الأحجار التي تعترض طريقكم إلا إذا لم تكترثوا بصوت من نصحكم أن تتخذوا لأنفسكم نعالاً من حكمتكم تسدد خطاكم، ولن تذرفوا الدمع هباء في وحدتكم الموحشة ما لم تخونوا صديقاً قد أخلص لكم، ولن تخشوا الموت وهو ينسج خيوطه في طريقكم إلا إذا أنكرتم جلال طلعته.

"فكروا في كل أمر تقومون بعمله واسألوا أنفسكم: هل إذا عمل هذا الأمر لي سأرتاح له وأسر منه وعندئذ ستسافرون حثيثاً في قارب الزمن وهو ينساب في نهر الخلود، ولن تلجوا سبل مجرى الدموع التي تصب في كهوف العالم السفلي".

الفصل السادس

قلب (كام)

تقع معابدنا على جانبي النهر شمالاً وجنوباً، وكان النهر أشبه بطريق تحفه المشاعل من الجانبين، وتسمع أصوات الكهنة في الهياكل وفي الأفنية تسمع همسات وقع أقدام "حملة النعال". أما كهنة أطفالنا فإنها لا تزال في أجسام هؤلاء الأطفال؛ ولذلك ففي اليوم السابع من الشهر السابع في كل سنة تجمع الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم ويؤخذون إلى المعابد حتى يبحث عن ذوي الجلاء البصري في رحلاتهم في الدنيا وما بعدها، فالأطفال الذين خفت أجسامهم ويمكن لروحهم طرحها ويصلحون لأن يسلكوا طريق الكاهن يعودون إلى المعبد لتدريبهم عندما يبلغون الثانية عشرة سنة، حتى يصبحوا بدورهم دم الحياة في قلب (كام). فإذا كان بينهم من يتذكر أحلامه بوضوح فإنهم يدربون على أن تكون لهم ريش أجنحة قوية حتى يصبحوا بذلك أصحاب الرؤية الحقة، وسيصبحون حتماً مكتشفي السبيل للإله ابن آوي، وعندما ينفتح أمامهم باب النوم ويصبح مبعثاً للنور فإنهم يرشدون غيرهم ويأخذون بيدهم في ظلمات هذا العالم كما هداهم "أنوبيس" إلى عبور الجسر العظيم.

أما أولئك الأطفال الذين إذا جلسوا بجانب النهر ونظروا إلى مائه فرأوا ألوانه أكثر وضوحاً من أحلامهم؛ فهؤلاء يدربون على طرح

أجسادهم ويهيمون بأرواحهم ذهاباً وجيئة فوق هذا العالم ويسردون في أثناء ذلك ما يرونه في تجولاتهم الروحية كما لو كانوا يرونها مصورة في إناء مصقول أو مرآة أو على السطوح الفضية لأهراماتهم وهؤلاء سيكونون "الرائين" الذين سيقومون على حراسة بلدنا كالطيور السريعة البعيدة النظر، وبذلك نعيش في حمايتهم ولا يعكر صفو طمأنينتنا شيء، ومن بين هؤلاء الأطفال من سيشب ليكونوا راءين للإلهة "معت" تتحدث ألسنتهم بما يرون وهم في رحلتهم إلى مواطن الروح.

أما الأطفال الذين تشع الحياة قوية تحت عيونهم فإنهم يدربون حتى يصبحوا "كهنة بتاح" ويمكنهم أن يبعثوا الحياة وينقلوها إلى غيرهم عن طريقهم، وكما أن الساقين يملأون جرارهم ليعيدوا النضارة إلى حدائقهم، كذلك يغترف هؤلاء الشافون من ماء نهر الحياة ويمنحونها للذين يتعطشون إليها وسيهبون الصحة لقومنا كما يهب ماء الفيضان الحياة للحقول، وبين هؤلاء من يتبعون قيادة "الصقر" فإذا حملوا سيف كاهن من كهنة "حوروس" قطعوا به أغلال أولئك الذين رسفوا في أغلال أعمق كهوف العالم السفلي، وسيضعون عقدة المشنقة حول رقاب الشر، وسيشنونها حرباً لا هوادة فيها ضد أعظم أعوان "ست" إله الشر وسيقهرون بقوتهم أية قوة تتحداهم بها عيون الشر والهدم.

أما الأطفال الذين يمكنهم أن يروا خلال جفونهم المغمضة فإنهم يدربون ليكونوا رائين ذوي جلاء بصري ولن يختاروا لذلك إلا إذا بلغوا مبلغ الرجال لأن ذلك يتطلب أشق أنواع التدريب بالمعبد، إذ يجب أن

يتوفر في هذا الشخص متانة الجسم حتى يكون كحصن يتحمل صقل الروح دون أن يصيبه أذى، لأن أثر أجسادهم لا يمكن أن تكون بالنسبة لهم كخيام رقيقة لأنهم يرون في صحوتهم أموراً لا يراها غيرهم من الناس إلا وهم نيام. ومع أن روحهم تعود إلى أجسامهم فإنها لا يمكنها أن تهرب من جموع الجماهير في العالم السفلي، وإذا قدر لهم أن يحملوا "ريشة" معت القرمزية فلن يكون بينهم وبين هذا العالم شيء فسينظرون إلى رجل مريض ويتبينون سبب علته، وينظرون إلى رجل ويرون روحه كما لو كان قد تدثر في لون من الألوان يتبينون حال قلبه ويرون ذكريات السوء الذي لطخ المكان الذي اقترفه فيه وسيرون الأثر الذي تركه إثم قديم أو أسى عفى عليه الزمن، سيرونه أوضح من آثار الدماء على أرض غرفة ارتكبت فيها الجريمة، وسيرون رجالاً يسيرون بلا أجساد في وضوح كما لو كانوا في أجسادهم، سواء أكانوا أحراراً في أرواحهم أم ما زالت أرواحهم معلقة بعالمنا نتيجة جهل أو نتيجة لعنة حلت بها، وسيتلون ما مر من أحداث لم تنقش على جدران أحجار بل أبقتها الذكريات حية لا تمحى تشهد بمهارة من أعطاها القدرة على الحديث وبذلك يشاركون "رائي معت" في قدرتهم هذه وسيناضلون بكل ما أوتوا من قوة ضد جيوش الظلام لأنهم سيكونون من محاربي الريشة القرمزية في هذه الدنيا وما بعدها ويقاتلون في سبيل نصرة الحق قتالاً رائعاً بعد أن تبينوه فآمنوا به.

وهذا العدد من المجنحين الذين دربوا إرادتهم بوسائل متعددة ينضمون إلى زملائهم الذين يقيمون بحرابهم درعاً يقينا من الموجات السوداء المدمرة التي قد تجتاحنا باسم الإله "ست" إله الشر.

الفصل السابع

مقبرة "ميرى – نيت"

في السنة التاسعة والعشرين من حكمي تم إعداد قبري لاستقبال جثماني عندما تصبح روحي في غير حاجة للعودة إليه؛ فسأرقد في "أبيدوا" في مدينة الموتى الأحياء بين أحبائي من عائلتي في الحديقة الأخيرة التي أنشأها "زا – أتت" وسيرقد حولي بعد مماتهم كل رفاقي في رحلتي في الدنيا وهم "ني – سي – رع" الذي علمني كيف أشكل نعالي الذهبية حتى يصبح الجسر الذي عبرته نحو الآلهة ممهداً ناعماً تحت قدمي والوزراء الذي أسدوا إلي الكثير من نصحهم، والقواد الذين كانوا سياطاً في يدي ألهب بها أعداء بلادي و"مآتا" التي ظللت طفولتي برعايتها، و"هاركا" الذي علمني كيف أسدد الحربة التي قضيت بها على "زرناك" وآخرون كثيرون ممن عملوا معي في إدارة دفة الحكم في القطرين.

قد جعلتني الآلهة وزيراً لهم ووضع بتاح حياة أبنائه في يدي، أشعر بأن سجل حياتي أشرف على نهايته، وفي داخلي يستقر كل ما مر بي منذ أن ولدت في المدينة الملكية: فأنا تلك الطفلة التي غنت لها أمها في الليل حتى نامت. أنا ابنة "أتت" الذي كانت صورته نبراساً لي وعلماً تنسمت خطاه.. أنا تلك الفتاة التي التحقت بالمعبد لتتعلم الحكمة والتي انتصرت وحققت جدارتها لتكون "مجنحة"، كذلك أنا تلك المرأة التي حزنت وبكت ما شاء

لها القدر أن تبكي إلى أن مسحت الأيام تلك الدموع وئيدا ببلسم الزمن ومروره.. أنا فرعون الذي حكم بالعدل بين الناس في القطرين.. أنا المحارب الذي تقدم صفوف المحاربين.

وسيكون في قبري جميع الأشياء التي تبين للأجيال القادمة حياة الناس الذين سكنوا أرض "كام" قبلهم فستكون معي الأشياء التي استخدمتها في دنياي: فسيكون معي نعالي وملابسي ولباس رأسي والصندوق الذي حفظت فيه قلاداتي، كما سيوضع في مقبرتي أثاث حجراتي والإناء الصغير الذي وضعت فيه زهوري مدة إقامتي بالمعبد.

هذه الأشياء سوف تبين ما أحاط بي في حياتي، ولكن ملابس الناس ومنازلهم التي عاشوا فيها وأدواتهم التي استعملوها كل هذه الأشياء لا تهم كثيراً ولا نسميه شيئاً له قيمة كبرى كأهمية عقائدهم وأفكارهم التي يجب أن تخلد مع الزمن، فإنها تبين مقدار ما أوتوا من علم ومعرفة ومقدار حظهم من النور. لذلك سيكون مع رفاتي ملفات أوراق البردي التي سجل عليها الكتاب مقدار الحكمة التي تعلمتها والصلوات التي رتلتها والقوانين التي اتبعتها وسيمهر ذلك بخاتمي، وستحفظ هذه اللفائف في تابوتي لأن جسمي حمل الحكمة في الأرض وستبقى عليها هذه السجلات من بعدي على الدوام، وستربط هذه اللفائف بخيوط المحارب القرمزية وتمهر بخاتمي تحت اسمي الكهنوتي "ميرى – نيت".

كما سيحفظ في قبري أسطورة الخليقة وقصة رحلة الإنسان؛ فعندما بدأ الإنسان رحلته تعلم كيف يكون قوياً كالجبال ورقيقاً كالنبات وحكيماً في طرق الحيوان. وإذا كان الشر في جانب والخير في الجانب الآخر فإنهما يبدوان له كتمثال واحد انعكس على مرآتين لأن نفسه في بدايتها كجرة خاوية وسيعرف على مر السنين أن الشر يخدعه بكلام معسول ولكنه يجلب له الآلام والحزن. وقد يحدث بعد ذلك أن يستمر أجيالاً طويلة لا يصغي لأية مشورة أو نصيحة، وبعد ذلك يطرق صوت الخير أذنيه في صوت هادئ رصين كالماء الصافي وفي رزانة ورسوخ كرسوخ تل من الصخر ويخبره بقرب نهاية رحلته، وينصت الإنسان الراحل لهذا الصوت فيستأنف المسير وقد عاد له انتعاشه، ولكنه ما زال يشعر بثقل الدنيا وهمومها عليه وكأنها على كتفيه ويسعى وراء الحكمة يتلمسها في بلاد متعددة ومن أفواه متعددة. فحيناً يسافر فوق صحراء صخرية تدمي قدميه وحيناً آخر يسير على ضفة نهر تحت أشجار وارفة وسواء أشقي في يومه أم سعد فإنه يأوي آخر النهار إلى مخدعه وينام ليلة ويصحو منتعشاً ليستقبل فجراً جديداً.

ويترك الآلهة ليستمر في رحلته، ويظن أن الشقة قد بعدت بينه وبينهم، ويظل الأمر كذلك أجيالاً طويلة لأنه يسير في دائرة لا آخر لها، وعلى مر الوقت يصبح تلميذاً لأحد من الاثني عشر تلميذا الذين هم تلاميذ أحد الاثني عشر تلميذا من تلاميذ الواحد الجلي مصدر النور. وبذلك يكون قد انضم إلى جماعة من الإخوة كل واحد منهم يمثل جزءًا من الآلهة كما تكون خيوط الريش جزءًا من "صقر حوروس" وعندما يحين ذلك الوقت يكون قد انتقل في رحلته إلى النصف الآخر من الدائرة ليعود

من حيث أتى، وعندما تتصل النهاية بالبداية تتم دائرته ويكون عندئذ أحد الذين يعيشون إخوة للآلهة الذين وهبوه الحياة.

وفي نفس ملف البردي سيسجل كيف يزن قضاة الموتى الاثنان والأربعون قلوب الناس بعد موتهم.

وعندما يصل الإنسان نهاية مطافه أو رحلته يجد نفسه على ضفة نهر ويرى أمامه قارباً هو قارب الزمن عليه أن يرحل فيه، وقبل أن تسمح له أخشاب ظهر القارب أن تطأها قدمه عليه أن يناديها باسمها وإلا لما حركت قاربه، كذلك يجب عليه أن يدعو مقدمة السفينة باسمها أيضاً وإلا لما قادت قاربه في النهر. وسيسافر في القارب في مياه مظلمة حتى يرى النهر وقد انحدر في الكهوف السحيقة في العالم السفلي وهنا تطبق عليه الشياطين في أشكال تبعث الفزع والرعب في نفسه، ولكنه إذا سار دون وجل انحسرت عنه وتلاشت في الظلام، وعندئذ يرسو به القارب على رصيف ميناء حيث يجد سبع درجات تؤدي به إلى باب كبير. وعليه أن يعرف أسماء المتاريس ومفاصل الباب وأسرار عوارضه التي صنع منها وعندما يناديها بأسمائها تلبي نداءه ويفتح الباب أمامه ومنه يلج إلى قاعة الاستقبال العظمى حيث يرى قضاة الموتى الاثنين والأربعين وهم جلوس على عروشهم، يراهم وكأنهم يحلقون فوقه لأنه في واد سحيق بين آلهة الجبال، ولن يتبين وجوههم لبعدها عن مدى بصره ولأن هناك من الغمام ما يحجبها عنه.

وكل من هؤلاء القضاة يوجه سؤالاً في دوره فإن عجز عن الإجابة الصادقة وحنث في يمينه حين يقول "أقسم بريشة الحق قد انتصرت عليك" فستنشق الأرض تحت قدميه ويهوي في الظلمات حتى يخرج من رحم أمه مرة أخرى، أما إذا خرج من هذا الامتحان ظافراً فستجد الفضائل سبيلها إليه، ويوفر ذلك الجهد الذي كان يقاوم به الرذائل فيزيد ذلك من قوة إيمانه وثبات قلبه، وفي جنبات القاعة الأربعة يجلس القضاة فوق عروشهم ويسأله الأول قائلاً "هل راعيت حق بدنك عليك كما راعاك الله في شبابك؟".

وسيقول الثاني: "هل عشت أجلك الذي حددته لك الآلهة كاملاً؟".

وسيقول الثالث: "هل أبقيت جسدك نظيفاً كملبس نظيف لم يدنسه مجرى القاذورات؟".

وسيقول الرابع: "هل انتصرت على شهوات جسدك؟".

وسيقول الخامس: "هل أنت برئ من الاطلاع على جسد أمك أو أختك أو ابنتك أو خالتك؟".

وسيقول السادس: "هل حافظت على حسن سمعتك؟".

وسيقول السابع: "هل هناك حيوان يقول إنك آذيته؟".

وسيقول الثامن: "هل امتدت يداك إلى سرقة ما ليس لك؟".

وسيقول التاسع: "هل أكلت من الطعام حتى قاست بطنك من آلام التخمة أو سكرت حتى ذهبت الخمر بعقلك وأصبحت إرادتك أسيرة الأهواء؟".

وسيقول العاشر: "هل قتلت نفساً بغير حق وفي عنف؟".

وسيقول الحادي عشر: "هل غضبت بحق وهل كان السوط في يدك كالسوط في يد فرعون؟".

وسيقول الثاني عشر: "هل نظرت إلى الأغنياء ومن وهبوا المهارة بعين الحسد والحقد؟".

وسيقول الثالث عشر: "هل سبق أن مزقت الغيرة قلبك بمخالبها؟".

وسيقول الرابع عشر: "هل تحدثت بسوء إلا عمن يستحق؟".

وسيقول الخامس عشر: "هل أهملت محراثك وأرضك وقت الزرع والبذر؟".

وسيقول السادس عشر: "هل شعرت برغبة جامحة في معرفة أمور وجب عليك ألا تسمعها أذناك أو تراها عيناك؟".

وسيقول السابع عشر: "هل رأيت خيالك وقد بدا كبيراً على الجدار فأخذك الغرور وظننت نفسك كبير قويا مثل الخيال؟".

وسيقول الثامن عشر: "هل حدت عن طريق الصواب والحق عندما وجدته محفوفاً بالمخاطر؟".

وسيقول التاسع عشر: "هل تعلقت بأمور الدنيا وقيدت نفسك بالعالم بسلاسل من ذهب؟".

وسيقول العشرون: "هل شغلت عيناك بأمور الدنيا حتى عميت عما سواها؟".

وسيقول الحادي والعشرون: "هل تعاملت في الأسواق بالعدل والقسطاس المبين؟".

وسيقول الثاني والعشرون: "هل اعترفت بالجميل لكل من صادقوك في رحلتك سواء أكان صديقاً أم شجرة رمان أنعشتك حين ظمئت؟".

وسيقول الثالث والعشرون: "هل تصدقت بالخبز على الفقراء وبثمار حقول كرمك على المنهكين؟".

وسيقول الرابع والعشرون: "هل عف لسانك عن قول الزور والبهتان؟".

وسيقول الخامس والعشرون: "هل أخذك الغرور بذكائك فعميت عليك حكمتك؟".

وسيقول السادس والعشرون: "هل كانت صداقتك كصخرة عتيدة في صحراء ذات كثبان رملية متنقلة؟".

وسيقول السابع والعشرون: "هل ربطتك أصفاد الكراهية بإنسان؟".

وسيقول الثامن والعشرون: "هل عرفت السحر الأسود أو دنست نفسك وهل أبقيت على جسدك مقرا لروحك دون سواها؟".

وسيقول التاسع والعشرون: "هل جلبت الرضا لقلب أمك والشرف لبيت أبيك؟".

وسيقول الثلاثون: "هل بجلت كل الكهنة الصادقين؟".

وسيقول الحادي والثلاثون: "هل تذكرت آلهتك في مراحل رحلتك وسألتهم الهداية والرشد؟".

وسيقول الثاني والثلاثون: "هل سددت أذنيك حتى لا تسمع صوت الحكمة الجهوري؟".

وسيقول الثالث والثلاثون: "هل رويت بحكمتك عطش المتعطشين إلى الصدق؟".

وسيقول الرابع والثلاثون: "هل استخدمت قوتك في سبيل النور فقط؟".

وسيقول الخامس والثلاثون: "هل كنت سيفاً مسلولاً في جيش الإله حوروس؟".

وسيقول السادس والثلاثون: "هل قدت إنساناً إلى طريق لا يؤدي به إلى الحرية؟".

وسيقول السابع والثلاثون:"هل صورتك التي انعكست في قلبك صورة مشرفة؟".

وسيقول الثامن والثلاثون: "هل عرفت كنه قلبك وكنت حسيب صدق على أعمالك؟".

وسيقول التاسع والثلاثون: "هل تبينت أن نهاية مرحلة من مراحل حياتك هي بداية لمرحلة أخرى؟"

وسيقول الأربعون: "هل عنيت بالنباتات التي كانت يوماً ما إخوتك فأطفأت ظمأها وسقيتها وتعهدتها حتى نبتت وربت؟".

وسيقول الحادي والأربعون: "هل عاملت دوابك كما وددت أن يعاملك من هو أعلى منك قدراً بالحكمة والشفقة والرحمة إذ كانوا إخوتك يوماً ما؟".

وسيقول الثاني والأربعون: "هل يمكنك أن تقرر في صدق وتقول لم يسبق لي أن أجبرت رجلاً أو دابة على العمل أكثر من طاقته وأدركت بأن

من في الأرض إخوة لك في رحلتك وأنك قد مددت لهم يد المساعدة في رحلتهم؟".

وبعد ذلك لن يسمع صوت الآلهة المدوي بل في هذا السكون يعلو صوته هو نفسه مجلجلاً ويقول قد انتصرت عليكم فليس على الأرض من تحمل وزراً أو قاسى أسى وحزناً من عمل قدمته يداي".

وعند ذلك يعم القاعة نور كنور الظهر منبعثاً من الشعلة الصافية الطاهرة كروحه شعلة لو اجتمعت رياح الدنيا واشتدت قوتها على أن تطفئ هذا النور لما أمكنها ذلك، وستبقى هذه الشعلة متوهجة في صفاء لا يعكر صفو نورها شيء ولن يرى هؤلاء الآلهة في أعلى عليين يحلقون فوقه لأنه أصبح في حجم أجسامهم وتصبح أوجههم صورة من وجهه وكأنه يرى نفسه في مرآة كلما نظر إليهم لأنه أصبح أخاً وزميلاً لهم شبيها بهم.

ثم يرى أمامه الكفتين العظيمتين لميزان (تحوتي) وفي إحداهما وضع قلبه بشكل وعاء يمثل حقيقة نفسه والكفة الأخرى عليها (ريشة معت) ويرى الاثنتين متعادلتين تماماً لأن الحق في جانب كل منهما.

وتنفرج الجدران أمامه وكأنها بوابات فيلجها سائراً نحو النور المنبعث من الحقول السماوية ويرى نبات القمح الذي بلغ سبعة أذرع طولا في انتظاره ليجمعه ويخزنه في الأهراء.

الفصل الثامن

العودة من المنفى

بعد أن أقمت أربع سنوات في "نخت – آن" اجتاح القطرين وباء شديد، ورغم أن المعالجين انتشروا بين الناس لعلاجهم إلا أن كثيراً من الناس لقوا منيتهم وخلصتهم من تلك الآلام التي عانوها. وقد فتحت أبواب القصر لكل من طلب العون، أما أنا فسرت بين الناس ومعي وصيفاتي وكنا نرعى المرضى، وانتقلت عدوى الطاعون إلي فأصبت واعتقد الجميع أني لا محالة هالكة وشعرت بالرضا لذلك لأني سئمت منفاي، إلا أني حين ظننت أن عند المنحنى القادم في طريقي سيبدو لي باب مأواي الأخير شعرت بتعلق جسدي وأصبح أقوى من روحي فأبقاني أسيرة له.

ولم يعد جسدي رهن طاعتي بل كان على النقيض من ذلك فقد أصبح هو المسيطر وأخذ يعذبني بآلامه، ولم تعد عظامي مستقرة تحت لحمي يغطيها بل أصبحت حادة وقابلة للكسر كأغصان الأشجار حين تجف وأصبحت بشرتي سمراء اللون وذابلة كأوراق الشجر التي عفى عليها الزمن فإذا سرت عبر الفناء تطلب مني ذلك كل ما أوتيت من جهد، وتطلب الأمر إرادة قوية حتى لا أتأوه من الآلام، ودعوت "بتاح" أن يلهمني القوة حتى أحمل ألمي في عزة وكرامة كما لو أصابتني حربة في ميدان القتال وفي مدى شهر قمري زحف علي الهرم وجلب معه القلق والشقاء.

وعشت عامين في جسد امرأة عجوز وكثيراً ما نظرت روحي إلى جسدي قبل أن تعود إليّ أي قبل أن أعود إلى هذا السجن؛ فكثيراً ما نظرت إلى هذا الجسد الواهن الذي علي أن أعود إليه.. وفي حرية روحي وأنا في صورة شبابي ألمس شعري الناعم اللامع ثم أفكر في لباس رأسي الذي يجب علي أن أضعه طوال اليوم لأخفي شيبي عن الناس.

قد يتسنى لي في منامي أن أعود مرة أخرى إلى عهد طفولتي مع "نياح" فنتسلق الجبال العالية، أو نتأرجح فوق البحيرات الخضراء في نور القمر، وبينما تسير قدماي بجانب برك اللوتس في القصر كنت أفكر في أحلامي وكنت أشعر وكأني طائر مغرد حبس في قفص وسمع صوت أجنحة زميله وهو يطير صوب السماء.

كثير من الناس بلغوا من العمر عتيا فأصبحت أجسامهم ثقيلة عليهم ومع ذلك يخشون الموت.

لماذا يخشاه هؤلاء الناس وفيه يتجدد شبابهم؟.. لماذا يخشونه وبه الخلاص من آلام الحياة؟.

سيأتي عاجلا ذلك اليوم حين تؤذن الرمال المتساقطة بنهاية أجلي القصير فيرقد جسدي ولا يحتاج إلى صحوة أو قيام وعندئذ تتهيأ لي حرية الشباب وحكمة الشيوخ.

وعندما بلغت الثالثة والخمسين من عمري رأيت أبواب مأواي مفتحة أمامي، فسرت مع أمي "ونياح" و"زا – أتت" و"بي – سي – رع" في حدائق الشمس الغاربة وعرفت أن الفرح والسلام شيء واحد وبعيداً تحتي رأي الدنيا وكأنها حجرة باردة فتحت أبوابها وأطلقت سراحي وسمعت بكاء خافتاً كبكاء الأطفال الخائفين وقد تركوا وحدهم، وكان ذلك حزن شعبي علي لأنهم علموا أني أقضي نحبي. ورغم أني أدركت أنه لا حاجة بي بعد اليوم أن أعود لهذا الجسد حيث لازمني فيه الأمل نزلت إلى الأعماق المظلمة وللمرة الأخيرة سمحت لجسدي أن يتحدث إلى شعبي الذي أحبه كي يشاركني سعادتي ولا يحزن لوفاتي.

ولما شعرت بجسدي مطبقاً علي طلبت القوة حتى تكون رسالتي الأخيرة لشعبي واضحة سلسة فصيحة فقلت لهم:

"قد رأيت جلال المساء وعظمته وهو يحجب السماء في ألوان الكون حين يسير إله الشمس العظيم "رع" في رحلته إلى ما وراء هذا العالم كي يجتمع بإخوته ويتحدث إليهم، إلا أني سأرى عظمته أكثر في جلال المغرب وأبهته.

قد سمعت آلافا مؤلفة من الطيور المغردة تنبعث منها نغمة الحياة الحلوة وسأسمع أغاني أجمل من هذه كلها حين أخرج قريبة إلى قلب الموسيقى ومنبعها سأسمع موسيقى أجمل من أنغاك الكنار والجنك.

لقد ركبت العجلات الحربية وتقدمت الصفوف الأمامية وأرسلت أعلام النصر ترفرف فوق الرياح، ووجدت الطمأنينة بين أعمدة المعبد وردهاته واستمعت إلى النصح الحكيم من كهنة صادقين، لقد حافظت على الزرع في بلادي وشاركت شعبي الهدوء والطمأنينة، إلا أني أدركت أن عظمة العالم الأرضي ما هي إلا ظل زائل في يوم قاتم فيه ضباب إذا قورنت بتلك اللحظة القادمة التي تنتظرني فأزيل تلك الحواجز المتبقية في بوابة الموت وأسير في حقول الغلال الشاسعة الدائمة الاخضرار والنضارة".

وبعد الانتهاء من كلامي هذا أصبحت كشعاع من الشمس مرق من سحابة وتركت وراءي عالم الظلم والعبرات والآلام وسرت مع رفاقي الأعزاء نحو النور.

الفهرس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن